

د. صبحي عبد المنعم محمد

العلاقات بين مصر والجزائر زمن الفاطميين والأيوبيين



د. صبحي عبد المنعم محمد

العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين



﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ
لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

[سورة البقرة : ٣٢]

(ب)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

فَاتِحَةُ كُلِّ خَيْرٍ

وَقَامِ كُلِّ نِعْمَةٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وسيد الخلق أجمعين ،
سيدنا محمد النبي الهادي الأمين ، وبعد

فالعلاقات بين مصر والحجاز موضوع تناولته الدراسات العديدة منذ أقدم العصور إلى
اليوم ، وتعددت فيه الرؤى السياسية ، نظراً للصلات الوطيدة بين البلدين والتي تضرب
بجذورها في أعماق التاريخ نتيجة القرب الجغرافي بينهما فقد كانت - وما زالت - أنظار
ساكني مصر تهفو دائماً تجاه الحرمين الشريفين وقلوبهم تمتلئ حباً لهما ، ورغبة في القرب منهما
حيث مهبط الوحي ، وموطن الرسالة والنبوة .

والفترة التي وقع اختياري عليها لتكون موضوع الدراسة تعد محوراً جديداً في العلاقة
بين مصر والحجاز ، فقد صارت القوى السياسية التي تظهر في مصر تسعى للإشراف على
الحجاز لتحظى برعاية المقدسات الإسلامية ، ولتستكمل ركناً من أركان سيادتها في العالم
الإسلامي ، ويتضح ذلك جلياً من خلال علاقات الفاطميين بالحجاز عقب قيام الخلافة الفاطمية
الشيعة في مصر ، وتطلعها إلى انتزاع السيادة على العالم الإسلامي من الخلافة العباسية
السنية .

ومن هنا بدأت العلاقة بين مصر والحجاز في العصر الفاطمي تأخذ بعداً سياسياً جديداً
في الفكر والتنظيم والمجهود .

وزاد في هذا البعد السياسي الجديد ظهور خطر القرامطة الذين اقتلعوا الحجر الأسود من

مكة المكرمة، وقتلوا الحجاج المسلمين، وصاروا مصدر تهديد لبلاد الحجاز فوجدت الدولة الفاطمية في القضاء على خطرهم وابعادهم عن الحجاز سبيلاً لمزيد من السيادة في العالم الإسلامي بحماية المقدسات الإسلامية التي عجزت الخلافة العباسية عن توفيرها هذا فضلاً عن تأمين كل من مصر والحجاز من الخطر القرمطي.

وقد استمرت العلاقة بين مصر والحجاز زمن الأيوبيين الذين خلفوا الفاطميين، لكنها لم تسر على نمط سياسي واحد، وإنما يمكن تقسيمها إلى مرحلتين زمنيتين مستقلتين.

- المرحلة الأولى : زمن صلاح الدين الأيوبي، وقد اهتم بالحجاز لسببين مهمين هما:

أولاً : قيام الحروب الصليبية، وامتداد الخطر الصليبي إلى الحجاز للنيل من المقدسات الإسلامية فيه، وهو أمر أدرك خطوته صلاح الدين فتصدى لمحاولات أرناط أمير الكرك للهجوم على المدينة المنورة، واستحق - بصدق - لقب خادم الحرمين الشريفين الذي أطلق لأول مرة على صلاح الدين .

ثانياً : استكمال توحيد الجبهة الإسلامية التي كان يقوم بها صلاح الدين ضد الصليبيين، لأن بلاد الحجاز بالإضافة إلى مركزها المقدس باعتبارها مقر الحرمين الشريفين تعد عنصراً هاماً من الناحية الحربية تكمل حلقات توحيد الجبهة الإسلامية.

ومن هنا كان اهتمام صلاح الدين بدعم العلاقة بين مصر والحجاز لحماية الأماكن المقدسة والقضاء على محاولات الصليبيين لعرقلة تكوين الجبهة الإسلامية أو النيل من قيام تلك الجبهة.

- المرحلة الثانية : زمن الأيوبيين بعد صلاح الدين، وبدأت هذه المرحلة بسيطرة الأيوبيين على الحجاز سيطرة مباشرة، وانتهت بالفتن والصراعات، وانتهيار النفوذ الأيوبي هناك.

وتحاول هذه الدراسة أن تبحث الأسباب والدوافع التي أدت إلى ذلك ونتائجها على العلاقات بين البلدين.

وبما يزيد الرغبة في دراسة هذا الموضوع أن العلاقات بين مصر والحجاز من الناحية

الحضارية لم تحظ بعناية المؤرخين واهتمامهم في تلك الفترة فالكثابات عنها قليلة، فضلاً عن تفرقها في أماكن شتى، وفي مصادر عديدة، وندرتها غالباً، وعدم وضوحها في بعض الأحيان فقد اهتم مؤرخو تلك الفترة بالحديث عن النواحي السياسية وأغفلوا ما عداها .

وتحاول هذه الدراسة أن تجمع شتات ما تفرق بين السطور عن النواحي الحضارية في العلاقات بين مصر والحجاز وأن تظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن مصر كانت هي الوجهة الحضارية للحجاز في العصرين الفاطمي والأيوبي وأن أهل الحجاز كانوا يعدون مصر المركز الكبير الذين يستطيعون الاعتماد عليه في كل حين، فكانوا يفدون عليها للتجارة والعلم والتحصيل، وفي حالات الكرب الشديدة كانوا يهرعون إلى مصر طلباً للمعون والمساعدة، ولم تتأخر مصر ولم تمن، بل أعطت الكثير للحجاز في شتى المجالات في عهد الفاطميين الشيعة والأيوبيين السنيين.

ومن ثم فإن البعد الزمني للرسالة يتناول العلاقة بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين باعتبار أن تلك العلاقة وحدة واحدة وإن تغيرت القوى السياسية في مصر ، كما أنه يلقي الضوء على ما كان لمصر من دور هام وكبير في التاريخ السياسي والتكوين البشري والاقتصادي والثقافي للحجاز .

لذا فإن تبعية الحجاز لمصر في عهد الفاطميين الشيعة ثم الأيوبيين السنيين من بعدهم حدث إسلامي يستدعي مزيداً من البحث والدراسة .

وقد قسمت هذه الدراسة تمهيداً ، وثلاثة أبواب بخلاف مقدمة وخاتمة ، تناولت المقدمة أهمية الموضوع ، وسبب اختياره ، والمنهج الذي اتبع في دراسته ، وأهم المصادر التي أفاد منها البحث .

وتناول التمهيد العلاقات بين مصر والحجاز قبيل الفاطميين وعني بإبراز أمرين :

الأول : البيئة الجغرافية للحجاز وأثر هذه البيئة على السكان ، وأهم المدن الحجازية التي كان لها ارتباط واضح بمصر في عهدي الفاطميين والأيوبيين .

الثاني : العلاقات بين مصر والحجاز قبيل الفاطميين ، وخلصت الدراسة من ذلك إلى أن الحجاز قد ارتبط بمصر منذ أقدم العصور نتيجة التقارب الجغرافي بينهما وأن العلاقات بين مصر والحجاز تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، كما أن الصلات بينهما بعد الفتح الإسلامي لم تنقطع أبداً حتى قيام الدولة الفاطمية .

أما الباب الأول : ، وعنوانه : « الدعوة الفاطمية في الحجاز بين القوة والضعف » فيتضمن ثلاثة فصول :

الفصل الأول : ، وعنوانه : « حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية » .

وينوه بالأحداث المتلاحقة على الحجاز منذ قيام الدولة الأموية ثم العباسية ، والمحاولات المتكررة لخلفاء الدولتين في القضاء على معارضيتهم بالحجاز ، وبخاصة العلويون ، وخلص إلى أن الحجاز قد ضعف في العصر العباسي الثاني نتيجة لضعف الدولة العباسية مما شجع القرامطة على غزو الحجاز دون أن تحرك الخلافة العباسية ساكناً ، وتبع ذلك قيام الأشراف العلويين في مكة والمدينة بخلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين .

الفصل الثاني : ، وعنوانه : « السيادة الفاطمية في الحجاز » .

ويعرض لمظاهر السيادة الفاطمية في الحجاز التي تتمثل في خضوع الحجاز للنفوذ الفاطمي المباشر ومحاولات بعض القوى الخارجية دفع الحجاز للتحرر من السيطرة الفاطمية ، ثم الجهود الفاطمية لإخضاع الحجاز لنفوذهم ، ونجاحهم في ذلك ، ويخلص هذا الفصل إلى أن أمراء مكة والمدينة من الأشراف العلويين لم يكن لديهم القوة التي تدفع عنهم الأخطار ؛ نظراً لضعف مواردهم البشرية والمادية ، لذلك رأوا أن من الخير لهم اكتساب صداقة الفاطميين والتقرب إليهم ما داموا يحافظون على حقوق الأشراف في الإمارة ، ويمدونهم بما يحتاجون إليه من الأموال والغلال ، بالإضافة إلى انتسابهم للبيت العلوي .

الفصل الثالث : ، وعنوانه : « ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز » .

ويدرس هذا الفصل قيام دولة الهواشم بمكة ، وعلاقات الهواشم بالفاطميين عقب الشدة

العظمى التي تعرضت لها مصر ، وأثر هذه الشدة في ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز وبالمقابل ازدياد النفوذ العباسي تدريجياً ، ثم التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية من أجل السيطرة على الحجاز ويخلص إلى أن ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز كان سببه انشغال الدولة بالفتن التي انتشرت في البلاد وزعزعت الأمن والاستقرار نتيجة الصراعات المستمرة بين رجال الدولة ، بالإضافة إلى بعض سنوات القحط التي مرت بها مصر ، وأن ولاية مكة والمدينة رغم إقامتهم الدعوة للعباسيين حرصوا على إظهار ودهم للخلفاء الفاطميين ، ويرجع ذلك إلى انتماء أمراء مكة والمدينة للبيت العلوي الذي ينتسب إليه الفاطميون أيضاً .

الباب الثاني : ، « الحجاز والدولة الأيوبية » .

وينقسم إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : ، وعنوانه : « الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين » .

ويعرض لسياسة صلاح الدين الأيوبي تجاه الحجاز التي كان يحكمها - آنذاك - أسرة الهواشم الحسينيين في مكة بالإضافة إلى بني مهنا من آل الحسين في المدينة المنورة ، وأنه لم يسع لإسقاطهما لأنه كان يعمل من أجل توحيد القوى الإسلامية لا تشتيتها ؛ بل اكتفى بعدة إجراءات تحقق الأمن والعدالة للسكان والحجاج القادمين إليها كالغاء المكوس والقضاء على الفتن والمنازعات، والعمل على راحة الحجاج، ويخلص هذا الفصل إلى أنه كان هناك نوع من تبادل النفوذ بين العباسيين وصلاح الدين في الحجاز وصل إلى حد عزل أمراء الأشراف ، وتعيينهم .

الفصل الثاني : ، وعنوانه : « مظاهر السيادة الأيوبية في الحجاز » .

ويعرض للأحداث التي أدت إلى سيطرة الأيوبيين على مكة مما جعلها تكاد تكون تابعة لمصر إدارياً فقد كان ولايتها يعينون ويعزلون من قبل السلطان الأيوبي الذي كان له نواب أيضاً في ينبع ويخضع له أمراء المدينة من الأشراف الحسينيين ، ويخلص هذا الفصل إلى أن الحجاز آنذاك صار خاضعاً تماماً للسيادة الأيوبية .

الفصل الثالث : ، وعنوانه : « القوى الخارجية المعادية للحجاز وموقف الأيوبيين منها » .

ويعرض هذا الفصل لدور الأيوبيين في حماية الأراضي المقدسة من العدوان الصليبي من

خلال التصدي لمحاولات أرناط أمير الكرك في الهجوم على المدينة المنورة ، ثم مرحلة الصراع على فرض النفوذ بالحجاز بين الأيوبيين وبنو رسول الذين اشتد عودهم ، وبدأوا يسعون للسيطرة على مكة فانتشرت الفتن والخلافات ، وتبادل الطرفان تولية نواب من قبلهم سرعان ما يسقطون عند أول هجوم عليهم من الطرف الآخر ، ويخلص إلى أن هذه الفترة كانت فترة عصبية للحجازيين عامة ، ولأهل مكة خاصة بسبب المعارك المتتالية ، وما يحدث فيها من إزهاق للأرواح وتدمير للممتلكات ، وارتفاع للأسعار ، وقد استمرت هذه الفترة حتى سقوط الدولة الأيوبية .

الباب الثالث : ، وعنوانه : « المجتمع الحجازي في عهد الفاطميين والأيوبيين » .

وينقسم إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : ، وعنوانه : « الناحية الاجتماعية » .

ويدرس العادات والتقاليد المتبادلة بين مصر والحجاز ، ويبرز التأثير والتأثر في هذه العادات في عهدي الفاطميين والأيوبيين ، ثم يبين هذا الفصل أن مصر حظيت بصنع كسوة الكعبة الشريفة منذ العهد الجاهلي ، وقبل الإسلام ، واستمرت مصر في تأدية رسالتها ومواصلة عملها بإرسال الكسوة بعد الإسلام ، ويوضح الفصل أن الكسوة استمرت تصل من مصر إلى الحجاز طوال عهدي الفاطميين والأيوبيين ، ويبين البحث أن المؤرخين أغفلوا الحديث عن كسوة الكعبة في عهد الأيوبيين نظراً لانشغالهم بالحديث عن الجهاد ضد الصليبيين هذا من ناحية ، ولأن الكسوة كانت ترسل باسم الخليفة العباسي الذي كان يدعى له على منابر مصر من ناحية أخرى .

الفصل الثاني : « الناحية الاقتصادية » .

وينوه هذا الفصل بما تمثله هذه الناحية من وضع مميز نظراً لما قام به حكام مصر في عهدي الفاطميين والأيوبيين من رعاية مالية واقتصادية لسكان الحجاز وأشرافه وتنقسم الناحية الاقتصادية إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : الزراعة :

ويبين البحث أن الزراعة كانت دائماً الدعامة الأساسية للاقتصاد المصري ، فمصر منذ فجر التاريخ تعتمد بصفة أساسية على الزراعة ، وما تنتجه من غلات ومحاصيل وخضروات ، وهي تختلف عن بلاد الحجاز التي تغلب عليها الجبال والصحاري مما جعلها تعتمد اعتماداً كاملاً على ما يأتيها من الغلال والحبوب المصرية ، وعندما تتعرض مصر للشدائد والقحط نتيجة انخفاض مياه النيل ، ويتعرض اقتصادها لأزمات شديدة يظهر تأثير ذلك واضحاً في الحجاز .

ثانياً : الصناعة :

ويوضح البحث أن التقدم الصناعي في مصر أثر تأثيراً واضحاً في التقدم الاقتصادي بها ، فقد استطاعت الدولة أن تصدر ما فاض عن احتياجاتها وتستورد ما لم تستطع إنتاجه مما أحدث رواجاً كبيراً في الاقتصاد ظهر أثره واضحاً على سكان مصر ، وعلى الحجاز الذي كان يعتمد على ما تنتجه مصر من الزيت والدقيق والشمع والطيب والمنسوجات وكثير من المواد الصناعية الأخرى .

ثالثاً : التجارة والتبادل التجاري بين مصر والحجاز :

ويبرز البحث الدور الكبير الذي لعبته العلاقات السياسية الطيبة بين مصر والحجاز في تنشيط حركة التجارة بينهما ، ويعرض هذا الفصل للمعونات الاقتصادية المصرية للحجاز حيث خصص حكام مصر في العصرين ثلاثة أبواب لدخل أمراء الحجاز هي المعونات المالية ، والمعونات التجارية ، والأوقاف ، كما يعرض للأزمات الاقتصادية وأثرها على العلاقات بين البلدين .

الفصل الثالث : « الناحية الفكرية » .

ويعرض هذا الفصل للمذاهب الفقهية في كل من مصر والحجاز ، ومدى التشابه والاختلاف بينهما ، ثم يدرس العلماء وانتقالهم بين البلدين للتحصيل العلمي والتدريس ، فقد شد الرجال إلى الحرمين كثير من طلاب العلم المصريين ، والعلماء ، فأقادوا واستفادوا ، وأثروا

وتأثروا ؛ بل إن بعض العلماء المصريين طاب لهم البقاء بجوار الحرمين الشريفين يدرّسون ويُدرّسون كما قدم علماء من بلاد الحجاز إلى مصر وطاب لهم البقاء فيها واتخذوا منها وطناً ثانياً فحدث تأثير وتأثر واضح بين البلدين ، ولقد اهتمت مصر في العصر الأيوبي بإنشاء بعض المدارس والأرطة بالحجاز لإثراء الحركة العلمية بها .

ثم كانت الخاتمة ، وفيها يسجل البحث أهم النتائج التي توصل إليها والقضايا التي اشتمل عليها .

ولما كانت الملاحق ذات أهمية كبرى في خدمة البحث فقد خصصت لها قسماً حوى كثيراً من الملاحق المتنوعة .

ولقد كان اعتماد البحث في هذه الدراسة على المصادر الأصلية ، واستخلص منها المادة العلمية التي تدخل في تكوين البحث بعد المقارنة بينها والأخذ من الأوثق منها .

والصادر التي أفاد منها هذا البحث كثيرة منها المخطوط ، ومنها المطبوع ، ولا يتسع المجال هنا لذكر أهمية كل منها .

ولكن ستذكر بعض المصادر التي لها أهمية خاصة .

فمن المصادر المخطوطة نجد مخطوطة « الأول في تاريخ ابن أبي الهيجاء » .

وابن أبي الهيجاء لم نعثر له على ترجمة في المصادر أو المراجع سوى أنه كان معاصراً للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وربما يكون من نسل الأمراء الأكراد من بني الهيجاء .

وهذا المخطوط مرتب على السنوات الهجرية فيبدأ بسيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم بمن بعده من الخلفاء ، ويلاحظ أن حديثه كان موجزاً وعاماً إلا فيما يختص بعصر صلاح الدين وحروبه مع الصليبيين فقد جاء حديثه مفصلاً وواضحاً .

وقد استفاد البحث من هذا المخطوط عند الحديث عن قيام الدولة الأيوبية بتأمين الحجاز وصد الصليبيين عنه .

ومن المصادر المخطوطة « إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن » لمحمد بن علي

ابن فضل الطبري ، وهذا المخطوط يتحدث عن تاريخ مكة في عهد أمراء بني الحسن بن علي ابن أبي طالب حتى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ، ويلاحظ أنه أسهب في ذكر محاسن هؤلاء الأمراء دون ذكر مساوئهم ، وتناول في حديثه الحياة السياسية في مكة وأهل ما عداها من النواحي الحضارية .

وقد استفاد هذا البحث من المخطوط عند الحديث عن استقلال بني الحسن بن علي بن أبي طالب بإمارة مكة عن العباسيين ، ويعتبر مخطوط « الأرج المسكي في التاريخ المكي » لمحيي الدين علي بن عبد القادر الطبري من المصادر التاريخية المهمة لموضوع البحث ، وإن كانت معلوماته الغزيرة تتناول النواحي السياسية لزمان البحث وتغفل كثيراً من النواحي الاجتماعية والعلمية والثقافية .

وتعتبر مؤلفات تقي الدين القاسي المكي من أهم المصادر المطبوعة لهذا البحث .

والقاسي هو : محمد بن أحمد بن علي القاسي المكي المالكي المذهب الملقب بتقي الدين ، ولد في مكة سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٧٧ م وعاش فيها ثم نقل إلى المدينة المنورة مع والدته وأخيه نجم الدين ، وقد تعلم القاسي على أيدي علماء أجلاء بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، وتولى عدة مناصب بمكة حتى صار شيخ الحرم الشريف ، وقد زار القاهرة زيارات عديدة ، والتقى بعلمائها عدة مرات ، وتوفي بمكة المكرمة في سنة ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م^(١) .

ومن أهم مؤلفاته التي استفاد البحث منها كتاباه : «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» و« شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » .

ويقع العقد الثمين في ثمانية أجزاء ، وقد ترجم فيه لولاية مكة وأعيانها وعلمائها وأدبائها منذ ظهور الإسلام إلى عصره ، وقد رتبته علي حروف المعجم ، وبدأه بالمحمدين والأحمدين وصدره بذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي مقدمة كتابه يقول القاسي : « ذكرت في هذا الكتاب تراجم الأعيان من أهل مكة وغيرهم ممن سكنها مدة سنين أو مات بها ، وتراجم ولاية

(١) القاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ١ ص ٣٣١ - ٣٦٣ .

مكة وقضاتها وخطباتها ، وأئمتها ومؤذنيها من أهلها وغيرهم ، وتراجم من وسع المسجد الحرام أو عمره أو عمر شيئاً منه أو من الأماكن الشريفة التي ينبغي زيارتها بمكة وحرمها كالمدارس والربط والسقايات والبرك والآبار والعيون والمطاهر ورتبت ما ظفرت به من التراجم على ترتيب حروف المعجم» (١).

وقد استفاد البحث استفادة طيبة من كتاب « العقد الثمين » عند دراسة النواحي العلمية والثقافية بالإضافة إلى النواحي السياسية والاجتماعية .

أما كتابه الثاني « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » فهو يتكون من جزأين وهو لا يقل أهمية عن كتاب العقد الثمين فهذا الكتاب يعتبر دائرة معارف شاملة لهذا البلد الحرام وما يتصل به من النواحي السياسية والعمرانية والدينية والثقافية والاجتماعية وفيه من هذه النواحي ما لا يوجد في كتاب آخر ، وقد رتبته الفاسي على أربعين باباً جمع فيها ما يتصل بتاريخ مكة منذ الجاهلية حتى عصره ، وذكر تاريخ المسجد الحرام وبنائه وعماراته في مختلف العصور متحدثاً عن الملامح الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للجزيرة العربية في شتى العصور مع تنويهه بفضل الكعبة والأعمال المتعلقة بها والمواضع المباركة في مكة وحرمها مع استقصاء كامل لتاريخ مكة منذ الجاهلية بالإضافة إلى حديثه عن المآثر التي أقيمت بمكة وحرمها كالمدارس والربط وغير ذلك مضيفاً إلى ذلك كله ما وصل إلى علمه من أخبار ولاية مكة في الإسلام على سبيل الإجمال جامعاً لأشتات من الفوائد والأحداث التاريخية ، وقد رتب الفاسي كتابه ترتيباً شيقاً ، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى استقصائه واستيعابه ، وجمع صاحبه لشتى الأخبار التي تتعلق بمكة .

وقد استفاد البحث من هذا الكتاب عند الحديث عن النواحي الاجتماعية والسياسية .

وقد اعتمد البحث أيضاً على كتاب « إتحاف الوري بأخبار أم القرى » لابن فهد ويقع في ثلاثة أجزاء ، أخرجته جامعة « أم القرى » بمكة المكرمة ، وحققه الأستاذ فهد محمد شلتوت .

التاريخ العام التي تميزت بعنايتها بأخبار الحجاز في شتى العصور .

ويعتبر كتاب « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » من المصادر التي استفاد منها البحث وقد رتب المؤرخ كتابه حسب السنين ، ويعتبر هذا الكتاب مصدراً من أهم المصادر بالنسبة للعلاقات بين مصر والحجاز فترة حكم الخلافة الفاطمية وعن التنافس بين العباسيين والفاطميين على حكم الحجاز ، وعن فترة علاقة أمراء الحجاز بالدولة الأيوبية .

كما استفاد البحث من كتب الرحلات التي لها دور واضح في معرفة الحياة الاجتماعية والعلمية لبلاد الحجاز وأهم هذه الكتب هي :

- سفر نامه : لناصر خسرو وهو من أقدم كتب الرحلات ، فقد ألفه ناصر خسرو (ولد سنة ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م) في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، وقد خلف هذا الرحالة وصفاً دقيقاً لرحلته يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولاً بأول ، وأنه كان يهتم بالاتصال بالشعوب التي يمر بها ويتفهم مصادر الحضارة التي يشاهدها وأبلغ مثال على ذلك وصفه مدينة القاهرة وحديثه عن حضارة مصر في عهد المستنصر ، وعنايته بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق ، وقد وضع ناصر خسرو في كتابه كل ما قدمه الخليفة الفاطمي لأمراء مكة والمدينة من أعطيات .

- رحلة ابن جبیر : وقد بدأ ابن جبیر رحلته إلى الأراضي الحجازية سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م فمر بمصر أولاً ، ونزل إلى الاسكندرية ، وأتيح له مشاهدة دخول الأسرى الصليبيين الذين وقعوا في يد المسلمين في الحملة الصليبية الفاشلة التي دبرها صاحب الكرك في البحر الأحمر للاستيلاء على المدن الإسلامية المقدسة ، ثم انتقل ابن جبیر إلى الحديث عن القاهرة ، وأشار إلى فضل السلطان صلاح الدين الأيوبي في محو المكوس التي كانت مفروضة على الحجاج في عصر الدولة الفاطمية ، والتي كانت تجبى من ثغر عيذاب على البحر الأحمر لحساب أمراء مكة ، وكان الحجاج يضطهدون ، ويعذبون في سبيل دفعها ، وأما الذين لا يدفعون الضريبة في عيذاب ، وتصل أسمائهم إلى جدة « غير معلم عليها علامة الأداء » فكانوا يلقون فيها أضعاف هذا التتكيل فأبطل صلاح الدين هذه المكوس ، وعوض أمراء مكة بما يرسله إليهم

من المال والطعام سنوياً ولما وصل ابن جبير إلى عيذاب نجده يصفها بأنها من أعظم الشغور شأناً لأن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها بالإضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة ؛ على أن الجزء الأساسي في رحلة ابن جبير هو وصف مكة والمسجد الحرام ، ومناسك الحج ، وزيارة المدينة فقد استغرق هذا كله أكثر من ثلث الكتاب ، ووفق فيه ابن جبير إلى تدوين كثير من نواحي الحياة السياسية والاجتماعية في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، والتي أفادت البحث كثيراً عند الحديث عن النواحي الحضارية .

- ومن المراجع الحديثة التي استفاد منها البحث :

- كتاب « تاريخ مكة المكرمة » لأحمد السباعي ، وقد تناول في هذا الكتاب النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية في مكة في عهدي الفاطميين والأيوبيين وأوضح الدور السياسي لولاة مكة منذ بداية عهد الأشراف وأشار إلى علاقتهم بكل من الخلافتين العباسية والفاطمية ثم علاقتهم بالأيوبيين .

- كتاب « النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب » للدكتور جمال سرور وقد تناول في هذا الكتاب الوسائل التي اتبعها الفاطميون لنشر سلطانهم ببلاد الحجاز ، وبين كيف ناهضوا نفوذ العباسيين في الأماكن المقدسة ، وأقاموا الدعوة لهم بهذه الأماكن :

- وكتاب « الرحلة الحجازية » لمؤلفه محمد لبيب البتانوني ، وقد قام المؤلف بهذه الرحلة سنة ١٣٢٧هـ حينما كان يؤدي فريضة الحج مع الخديوي عباس حلمي خديوي مصر في تلك الفترة ، وفي هذا الكتاب نجده يصف مكة ومشاعرها وتخطيطها وتاريخها وتاريخ حرمها ، والزيادة فيه مع تاريخ الحرم النبوي الشريف كما تكلم عن حكم الأشراف مع جدول بأسماء ولالة مكة منذ الفتح الإسلامي إلى زمن المؤلف .

- وكتاب العلاقات المصرية الحجازية في العصرين الفاطمي والأيوبي للدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوي وفيه يدرس مظاهر العلاقات في العصرين الفاطمي والأيوبي مبيناً منجزات كل من الدولتين في مجال هذه العلاقات وموقف الأيوبيين من بعض مظاهر العلاقات التي صنعها الفاطميون .

وابن فهد هو : نجم الدين عمر محمد بن محمد بن محمد بن فهد القرشي الهاشمي المكي ، ولد سنة ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م بمكة المكرمة ، وتوفي بها سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م ، وهو من بيت علم ، وقد رحل إلى كثير من بلدان العالم الإسلامي لطلب العلم والمعرفة ومنها مصر والشام ، وله مؤلفات عديدة منها : « إتحاف الوري بأخبار أم القرى » ثم « التبيين في تراجم الطبريين » و« الدر الكمين في الذيل على العقد الثمين » و« نور العيون مما تفرق من الفنون » وغيرها من مؤلفات أخرى اهتمت بتاريخ مكة (١) .

ويعتبر كتاب « إتحاف الوري » من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث فقد اعتمد المؤلف في كتابه على كل من سبقه من المؤرخين سواء في كتب السيرة النبوية أو كتب التاريخ العام ، وقد ذكر اسم كل من نقل عنه ، وتتبع الروايات وأسندها إلى أصحابها ورتبها ضمن السياق ، وهو يؤرخ للأحداث في سنة وقوعها متنقلاً من سنة إلى أخرى لا يخرج عن أحداث مكة إلا فيما له صلة بها مع الاهتمام ببيت الله الحرام ، وكل ما يحدث بشأنه منذ واقعة الفيل حتى سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م .

وهو يقدم صورة واضحة عن مكة المكرمة وأعمالها من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية والاقتصادية في فترة زمنية كبيرة من التاريخ وهو يعتبر من أكثر المصادر التي اشتملت على معلومات قيمة بالنسبة للحجاز في عهدي الفاطميين والأيوبيين ، ورغم أنه أتى بالأحداث عن طريق الحوليات إلا أنه عرضها عرضاً مباشراً دون تحليل أو تعليق ، وقد استفاد البحث من المعلومات القيمة التي عرضها عن تاريخ الحجاز في الفترة الزمنية للبحث .

كما اعتمد البحث على كتاب « غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام » لعز الدين عبد العزيز بن عمر بن فهد ، ولد بمكة المكرمة سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م وتوفي سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ، ومن مؤلفاته : « بلوغ القرى بذيّل إتحاف الوري » و« تاريخ مكة على السنين » ابتداءً بسنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م .

(١) ابن فهد : إتحاف الوري بأخبار أم القرى ج ١ ص ١٠ - ١٤ .

أما كتابه « غاية المرام » الذي اعتمد عليه البحث فهو يترجم لكثير ممن تولوا حكم مكة حتى نهاية عصره ، ويذكر الأحداث التي جرت في عصرهم ، وقد استفاد البحث منه في الحديث عن النواحي السياسية في العصرين الفاطمي والأيوبي .

أما كتاب « الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة » فيقع في ثلاثة أجزاء ومؤلفه هو : عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الجزيري ولد سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م وتوفي حوالي سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠ م .

وقد استفاد البحث منه في ذكر طرق الحج وخاصة الطريق المصري مع ذكر الحوادث التي حدثت في هذه الطرق ، وقد ذكر بعض أمراء الحج وأوضح شروط إمارة الحج وواجباتها .

أما بالنسبة لكتب التاريخ العام فقد استفاد البحث من كتاب « الكامل في التاريخ » لابن الأثير الجزيري المتوفي سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م وهو من كتب الحوليات التي تعرض للأحداث التاريخية عرضاً زمنياً مرتباً حسب السنين ، يهتم في هذا العرض بالنواحي السياسية ولقد أورد كثيراً من المعلومات التاريخية التي أفادت البحث وخاصة عن تاريخ مكة المكرمة في عهدي الفاطميين والأيوبيين .

ويعتبر كتاب ابن واصل (ت سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » من ضمن المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحث خاصة ، فقد أمدنا بمعلومات مفيدة عن بلاد الحجاز في العصر الأيوبي أثناء سرده لأخبار الدولة الأيوبية ، ويعتبر هذا الكتاب من الكتب التاريخية المفيدة لأن ابن واصل من المؤرخين الذين عاصروا الدولة الأيوبية .

وتأتي مؤلفات المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) ضمن المصادر التي اعتمد عليها البحث أيضاً ، ويعتبر كتابه « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » من أهم الكتب التي تحدثت عن بلاد الحجاز في العصر الفاطمي ، كما يعتبر كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » من الكتب التي أفادت البحث في الحديث عن تاريخ بلاد الحجاز في العصر الأيوبي .

ولقد استفاد البحث من كتاب « سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي » لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م) وهو من كتب

ولقد اعتمد البحث على كثير من كتابات المؤرخين من أمثال : الطبري (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) - ابن القلاسي (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) - ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ م) - القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) وغيرهم من جملة المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحث .

أما بقية المراجع فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

- القسم الأول :

يشمل المعاجم اللغوية ، ودوائر المعارف ، وكتب السير والتراجم وكتب التاريخ العام .

- القسم الثاني :

يشمل المراجع الحديثة التي تناولت الحديث عن الحجاز ومصر .

- القسم الثالث :

يشمل المقالات والرسائل العلمية المتعلقة بموضوع البحث ، وستأتي هذه المراجع مبينة في قائمة المراجع والمصادر في آخر البحث .

وإني لأرجو - من وراء هذا البحث - أن أكون قد وفقت إلى قريب من الصواب وأن لا يحرمننا الله - سبحانه وتعالى - جزاء هذا العمل في الدنيا والآخرة ، وأن يجازي من عاوننا فيه خير الجزاء ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

التمهيد

علاقة مصر بالحجاز قبيل الفاطميين



تمهيد

يتناول التمهيد عن العلاقات بين مصر والحجاز في عهد الفاطميين والأيوبيين أمرين هما:

أولاً : البيئة الجغرافية للحجاز وأثر هذه البيئة على السكان ، ثم أشهر المدن التابعة له ، والتي سيصبح لها دور بارز في العلاقات مع مصر .

ثانياً : العلاقات بين مصر والحجاز قبيل الفاطميين .

أولاً : البيئة الجغرافية للحجاز :

أ - تعريف الحجاز وتحديده :

لقد أسهب جغرافيو العرب في الحديث حول تعريف الحجاز وتحديده، فيقول الهمداني (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) : « إن جبل السُّرَّة ، وهو أعظم جبال العرب أقبل من قعدة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام فسقطته العرب حجازاً لأنه حجز بين الغور وهو نهابط وبين نجد وهو ظاهر» (١) .

ويتفق ابن الفقيه (ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م) مع الهمداني في أن « الحجاز سمي حجازاً لأنه يحجز بين تهامة ونجد » (٢) .

ويذكر أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) : « أن جزيرة العرب خمسة أقسام تهامة ونجد وحجاز وعروض ومن ، فأما تهامة فهي الناحية الجنوبية من الحجاز ، وأما نجد فهي الناحية التي بين الحجاز والعراق ، وأما الحجاز فهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام ، وقد سمي

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٥٨ .

(٢) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٣٦ .

حجازاً لأنه يحجز بين نجد وتهامة» (١) .

ونستنتج مما سبق أن الحجاز هو جبل السراة الذي يمتد من حدود اليمن إلى بادية الشام فيحجز بين تهامة ونجد ، وأن هذه التسمية الطبيعية قد استمدت جذورها التاريخية البعيدة حين اتضحت من البداية صورة هذا الحاجز الجبلي الممتد من اليمن إلى الشام فاصلاً بين مناطق متباينة طبيعياً وأحياناً إنتاجياً ، والذي كان يمثل عقبة وعائقاً أمام حركة التجارة في العصور القديمة والوسطى (٢) .

فالحجاز تسمية مستمدة من خاصيتها كعائق طبيعي أمام تحركات الرعاة القديمة من ناحية وأمام طريق مرور التجارة من ناحية أخرى .

والحجاز جزء من شبه الجزيرة العربية، فقد اتفق جغرافيو العرب على أن شبه الجزيرة العربية تنقسم إلى: « نجد، والحجاز، وتهامة ، والعروض ، واليمن » (٣) غير أنهم اختلفوا حول هذه الأقسام فظلت على عموميتها تتسع أحياناً وتضيق في أحيان أخرى ، وبغض النظر عن الاختلافات الواسعة الخاصة بتحديد شبه الجزيرة العربية وأقسامها ذاتها فإن تحديد « الحجاز » ذاته أيضاً تعرض لمثل ما تعرضت له من اختلافات (٤) ، إلا أنه يمكن القول بأن تعريف الهمداني للحجاز بجبل السراة الذي يمتد من حدود اليمن إلى بادية الشام (٥) هو تحديد مبكر يعتمد تماماً على طبيعة المكان وأهم مظاهره الجغرافية (٦) .

(١) أبو الفدا : كتاب تقويم البلدان ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه - ص ٣٩ .

(٣) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٧٨ ، ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع ص ٣٨٠ - ٣٨١ ، العوتبي : الأنساب ص ٧٦ ، الحميري : الروض المعطار ص ١٨٨ .

(٤) صالح العلي : المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز ص ١١٩ - مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١١ .

(٥) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٥٨ .

(٦) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص ٤٧ .

أما تحديد المقدسي (ت ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م) للحجاز فيعطينا فكرة كاملة عن المدن التي كانت تتبع الحجاز آنذاك فيما يمكن أن يطلق عليه التقسيم الإداري للحجاز فيقول : « فأما الحجاز فقصبته مكة ، ومن مدنها يثرب ، وينبع ، وقرح ، وخيبر ، والمروة ، والخوراء ، وجدة ، والطائف ، والجار ، والسقيا ، والعونيد ، والجحفة ، والقشيرة » (١) .

ومن التحديدات المعاصرة لبلاد الحجاز أنها تمتد على طول الحدود الغربية لشبه جزيرة العرب ، وحدودها تتأخم من الغرب معظم الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، وتتصل شمالاً بالشام وجنوباً باليمن فضلاً عن اتصالها بمصر من الشمال والغرب (٢) .

وهو تحديد يتميز بالدقة الكاملة وإن اعتمد على الكتابات العربية القديمة عن الحجاز .

ب- مظاهر السطح :

تعتبر سلسلة جبال السراة من أبرز ظاهرات السطح لبلاد الحجاز ، وقد نشأ عن التكوين الطبيعي لهذه السلسلة تقسيم الحجاز من الوجهة الطبيعية إلى المناطق الجغرافية الآتية :

أولاً : المنطقة الساحلية الغربية :

تمتد من أقصى الجنوب إلى منتهى خليج العقبة في الشمال ، وتسمى تهامة الحجاز (٣) وقد تضيق هذه المنطقة وتتسع في أماكن معروفة ، فيبلغ أقصى اتساع لها عند ميناء رابغ الواقع إلى الشمال من ميناء جدة ، وقد تضيق في أماكن أخرى عندما تلاصق سلسلة جبال الحجاز ساحل البحر الأحمر ، شمال ميناء ينبع (٤) ، وأكثر هذه المنطقة رملي شديد الحرارة ، قليل الإنبات وجميع المدن الساحلية مثل جدة ، وينبع ، والجار تقع في هذه المنطقة (٥) .

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٦٩ .

(٢) أيوب صبري : : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ١٦٩ .

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ١٨ .

(٤) محمود أبو العلا : شبه جزيرة العرب ج ١ ص ٣٧ .

(٥) فؤاد حمزة قلب : جزيرة العرب ص ١٨ .

ثانياً : منطقة الهضاب والنجود :

تمتد هذه المنطقة بموازاة المنطقة الساحلية ، وتتصل بها مباشرة وتتميز بالهضاب التي تتألف منها ، ويبلغ معظم ارتفاع هذه الهضاب ٦٥٠ متراً ، ولا يتجاوز عرض هذه المنطقة الأربعين ميلاً ، وقد يتسع الانفراج ويضيق بالنسبة إلى الأماكن القريبة منه ، وتقع مكة المكرمة في هذه المنطقة الجبلية الأصلية^(١) .

ثالثاً : المناطق الجبلية المرتفعة :

وتقع في القسم الشمالي من الحجاز ، ويقال عنها أرض مدين وحسمى نسبة إلى الجبال المسماة بهذا الاسم ، وهو ما يلي أيلة إلى الجنوب^(٢) ومناخ هذه المنطقة في شرقها معتدل لطيف ، وتكثر فيها الأشجار في سفوح الجبال ، وفي الأودية وفي السهول المختلفة فيها ، وتقع تيماء ، وخيبر ، والحناكية ، والطائف في هذه المنطقة^(٣) .

وتمثل الحرار البركانية أهم ظاهرات السطح بالحجاز وهي عبارة عن أراض بركانية يقال لها اللابة أو اللوبة ، وقد تكونت من قبل البراكين^(٤) وتتميز بأنها أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار^(٥) ، ومن هذه الحرار تسيل أودية الحجاز^(٦) صوب الشرق والغرب إلى نجد من ناحية وإلى تهامة فبحر القلزم (البحر الأحمر) من ناحية أخرى^(٧) .

(١) فؤاد حمزة قلب : جزيرة العرب ص ١٨ .

(٢) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص ٦ .

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ١٨ .

(٤) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص ٦ .

(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٥ .

(٧) أحمد الشريف : دور الحجاز ص ٦ .

وأهم هذه الحرار حرة « العويرض » الواقعة جهة الغرب من درب الحاج الممتد من « تبوك » إلى « العلا » ويبلغ طول هذه الحرة أكثر من مائة ميل بعرض يكاد يقرب من ذلك^(١) ويمتد وادي « الجزل » متاخماً للحافة الغربية للحرة ، كما ينحدر منها نحو السهل فالبحر مجموعة كبيرة من أهم وديان الحجاز الشمالية مثل وادي « دما » الذي ينتهي جنوبي « ضبا » ووادي « السر » الذي ينتهي قرب قرية « المويلح » الساحلية^(٢) .

وتعد حرة « خيبر » من أعظم الحرار وأوسعها مسافة بالرغم من أنها أقل ارتفاعاً وأقل تشققاً وانحداراً من حرة « العويرض » وتسمى بالحرة الصحراوية دلالة على طبيعة تكوين سطحها ، وهي تمتد من شرقي « خيبر » إلى الشرق والجنوب ، ويبلغ طولها مرحلتين من الشرق إلى الغرب ومرحلتين من الشمال إلى الجنوب^(٣) وينحدر منها وادي « إضم »^(٤) ويسمى اليوم وادي « الحمض » وهو من أعظم أودية الحجاز ، وهو يسيل من الجنوب الشرقي لهذه الحرة ، ويسير نحو الجنوب حتى يقارب المدينة المنورة حيث تتصل به أودية فرعية منها وادي « العقيق » ، ويتصل به كذلك « وادي القرى » ، وهو يستمد مياهه من السيول التي تنحدر إليه من العيون التي عند خيبر ، ثم يتجه غرباً حيث يصب في البحر الأحمر عند قرية « الوجه »^(٥) .

وحرة « رهط » من حرار الحجاز الكبيرة فهي تبدأ من شمال مكة وتمتد حتى تصل إلى المدينة المنورة التي تقع عند نهايتها الشمالية ، وهي تتخذ شكلاً أقرب للمستطيل مع امتداد أذرع منها نحو الغرب خاصة قد تصل إلى قرب خط الساحل متمشية مع مجاري الوديان

(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٥٨ .

(٢) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص ١١٧ .

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٥٩ .

(٤) الحميري : الروض المطار ص ٤٥ .

(٥) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص ٦ - ٧ .

الرئيسية المنحدرة من سلسلة جبال الحجاز نحو السهل الساحلي ، وتنتشر بها عشرات الأودية الصغيرة^(١) .

ج - المناخ :

يتأثر مناخ الحجاز بمجموعة من العوامل الطبيعية المحلية ، وتأتي تضاريس المنطقة في مقدمة هذه العوامل المؤثرة في مناخها ، حيث تتفاعل ظروف السطح بها مع مظاهر نمط مناخي عام متغير^(٢) ، فبينما تتسم المناطق الساحلية في الشرق والغرب بشدة الحرارة في الصيف مع ارتفاع نسبة الرطوبة ، نجد المناطق المرتفعة عن سطح البحر والتي تقع في سلسلة جبال الحجاز معتدلة المناخ ، على حين تشتد الحرارة نهاراً وتعتدل ليلاً في المنطقة الوسطى لتعرضها للرياح المصحوبة زمن الشتاء بالأمطار ، وأما في الحريف فتهب عليها الرياح الموسمية التي تؤدي إلى سقوط كمية محدودة من الأمطار^(٣) .

وعلى هذا نجد أن مناطق الحجاز تختلف من الناحية المناخية كما تختلف من الناحية الطبيعية ، فهناك مناطق جدياء شديدة الحرارة ، تحوطها الجبال مثل مكة ، ومناطق أخرى تجود فيها التربة ، وتنزل الأمطار فيها بغزارة ، مثل : الطائف ، والمدينة المنورة ، والوديان التي بين مكة وجدة^(٤) .

د - أهم المدن الحجازية :

لما كانت معظم أرض الحجاز صحراوية ، فإن الحياة البدوية كانت تطبع الحياة العامة بطابعها ، ولم تقم المدن والقرى إلا في الواحات الخصبة المنتشرة هنا وهناك في أماكن متفرقة أو في المحطات التجارية التي تقوم في منازل اتخذها رجال القوافل محطات لهم فنمت وقامت فيها

(١) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص ١١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ص ٨ .

المدن ، ولم تستطع مدن الحجاز وقراه أن تنفصل عن حياة البادية القائمة حولها ؛ بل تأثرت بها إلى حد كبير في حياتها ونظمها^(١) ، ويمكن القول : إن حواضر الحجاز ليست إلا مدناً صغيراً امتزجت فيها حياة البادية وحياة الحضر ، وأهم مدن الحجاز هي :

- مكة المكرمة :

تقع مكة في تهامة في الحجاز الجنوبي على بعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر^(٢) ، وهي عبارة عن قرية في واد ضيق غير ذي زرع تحيط به الجبال من شتى الجهات^(٣) ، ويروى أنها سميت بذلك لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم ، وقيل : لأنها تجذب الناس إليها من قولهم : امتك الفصيل ما في ضرع أمه إذا لم يبق فيه شيئاً ، وقيل : لقلة مساكنها^(٤) .

وتسمى بكة لقوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾^(٥) .

واختلف في معنى تسميتها بكة بالباء ، فقيل : لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا ألدوا فيها بظلم أي تدقها ، وقيل : لازدحام الناس بها لأن الأقدام تبك بعضها بعضاً أي تزدهم^(٦) .

وخلاصة القول أنها سميت مكة ، وبكة لأن الناس يأتون إليها بكثرة ويزدحمون فيها من أجل تأدية الفريضة .

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ص ٨ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ١٢٤ .

(٣) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ص ٤٠ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ١ ص ٤٨ .

(٥) سورة آل عمران آية (٩٦) .

(٦) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٦ - ١٧ .

وهي مدينة قديمة أزلية البناء^(١) ، وطولها من المعلاة إلى المسفلة^(٢) نحو ميلين من حد الجنوب إلى جهة الشمال ، ومن أسفل جبل أجياد إلى ظهر جبل قحيعان ميل واحد^(٣) ، والمدينة مبنية في وسط هذا الفضاء ، وحجارة بنيانها من جبالها ، وأسواقها قليلة ، وفي وسط مكة مسجدها الجامع المسمى بالمسجد الحرام ، والكعبة وسط الحرم^(٤) .

ومكة كلها مشهد كريم ، وكفاها شرفاً ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم ، وأنها حرم الله الآمن ، وهي منشأ النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي أثره الله بالتشريف والتكريم ، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم ، فهي مبدأ نزول الوحي والتنزيل ، وأول مهبط الروح الأمين جبريل - عليه السلام - وكانت مثابة أنبياء الله تعالى ورسله الأكرمين^(٥) .

وتقوم مكة على تجارة عريضة ساعدها على ذلك موقعها على مسافة أربعين ميلاً من ميناء جدة الواقعة على ساحل البحر الأحمر إذ كانت المراكب ما تكاد تنتهي من مصر واليمن إلى جدة حتى تسير منها المتاجر إلى مكة^(٦) .

كما تقع على طريق القوافل القادمة إليها من اليمن إلى الشام الذي جعل من مكة بالنسبة لتلك القوافل محطة تجارية لوجود الماء بها ، وللحصول على المؤن اللازمة لمتابعة الرحلة فضلاً عن تبادل البضائع من تجار مكة^(٧) .

ويذكر ابن جبير أن الطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة وأن

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) ما نزل عن المسجد الحرام يسميه أهل مكة المسفلة وما ارتفع عنه يسمى المعلاة (المقدسي: أحسن التقاسيم) ص ٧١

(٣) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض - القسم الأول ص ٢٨ .

(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٣٩ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ٩١ .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٧) علي السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية ص ٨٥ .

البضائع تجبى إليها من كل مكان ، وتتميز بوجود كافة أنواع السلع فيها وخاصة في موسم الحج^(١) .

- المدينة المنورة :

تقع إلى الشمال من مكة في مستوى من الأرض^(٢) ، وهي أقل من نصفها^(٣) ، ويحدها من الشمال جبل أحد^(٤) ، وتقوم في واحة ذات تربة خصبة ، ومياها غزيرة بين حرتين، حرة واقم في الشرق ، وحرة الوبرة في الغرب ، وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق والغرب فتحيط بالمدينة من جهاتها الجنوبية والشمالية والغربية حتى تتجمع في شمالها الغربي، وتسير في انحدارها مياه الأمطار التي تجعل من أرض المدينة جنة خضراء^(٥) ، وكان لذلك أثره في انتشار الزراعة بها حيث يحيط بأكثرها بساتين ونخيل ، والقرى المحيطة بها تتميز بكثرة مزارعها^(٦) التي تعتمد على مياه الآبار^(٧) .

وكانت المدينة قبل الإسلام تسمى « يثرب »^(٨) وقد ورد ذكرها في قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت طائفة من أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ﴾^(٩) .

وقد سميت طيبة وطابة^(١٠) ، وسماها الله - عز وجل - المدينة في قوله تعالى : ﴿ ومن

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٩٧ .

(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ص ٤٨

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٨٠ .

(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٤٣ .

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٨٠ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ق ١ ص ٢٨

(٨) الحميري : الروض المعطار ص ٤٠٦ .

(٩) سورة الأحزاب آية (١٣) .

(١٠) الحميري : الروض المعطار ص ٤٠١ .

حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ﴿ (١) .

وبالمدينة مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد بني على عهده ، ومسجد حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - ويقع في الناحية القبليّة من جبل أحد ، ويقع الفرقد شرقي المدينة^(٢) ، وهو مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم -^(٣) .

- الطائف :

مدينة صغيرة واقعة في سهل رملي ومحاطة بتلال منخفضة^(٤) ، وتقع على بعد اثني عشر فرسخاً شرقي مكة^(٥) على ارتفاع يقرب من ستة آلاف قدم من سطح البحر^(٦) .

وكان اسم الطائف « وج » نسبة إلى وج بن عبد الحّي من العمالقة^(٨) ، ثم سكنتها قبيلة ثقيف ، فبنوا عليها حائطاً مطوفاً بها فسموها الطائف^(٨) .

وتمتاز بخصوبة أرضها حتى يقال : إنها بقعة من الشام انتقلت إلى الحجاز^(٩) ، كما اشتهرت ببساتينها ، وحدائقها الجميلة ، ومياها العذبة ، وهوائها المعتدل ، وأكثر فواكه مكة من الطائف^(١٠) ، ولا يوجد في ديار الحجاز مكان أبرد من الطائف^(١١) .

(١) سورة التوبة آية (١٠١) .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ١٧٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٤ .

(٤) فائق الصواف : الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ص ٣٧ .

(٥) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٩٧ ، الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٤٤ .

(٦) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ١٢٤ .

(٧) الحميري : الروض المعطار ص ٣٧٩ .

(٨) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٢٢ .

(٩) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ص ٥١ .

(١٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٧٩ ، الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٤٤ .

(١١) الحميري : الروض المعطار ص ٣٧٩ .

ولقد استفاد أهل الطائف من الزراعة والتجارة فزادت ثرواتهم ، وثمرت وصارت بلدهم تفرح بمكة ، فيقال : المكين والقريتين ، وهذه التسمية وردت في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (١) .

وفي الطائف يزرع الكروم ، والنخيل والموز ، وسائر الفواكه (٢) ، وأكثرها ثمار الزيتون (٣) .

- جُذَّة :

تقع جُذَّة إلى الغرب من مكة المكرمة (٤) ، وبينهما أربعون ميلاً (٥) ، وهي ثغر مكة على البحر الأحمر تستقبل المراكب التجارية القادمة من اليمن ومصر ، وتعتبر قبلة الحجيج القادم من عيذاب إليها (٦) ، مما جعلها تحظى بالتجارة العظيمة والثراء العريض (٧) ، وهي محط السفن القادمة من الهند وعدن ، واليمن ، وعيذاب ، والقلم (٨) .

وقد وصفها الرحالة الفارسي ناصر خسرو أثناء زيارته للحجاز سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م بأنها مدينة كبيرة يحيط بها سور حصين ، وتقع شمال البحر الأحمر ، وفيها أسواق جميلة ، وقبلة مسجدها الجامع من ناحية المشرق ، ولها بوابتان إحداها شرقية تؤدي إلى مكة ، والثانية غربية تؤدي إلى البحر الأحمر ، ولا يوجد في جذة زروع ولا ثمار ، وكل ما يحتاجه أهلها

(١) سورة الزخرف آية (٣١) .

(٢) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٩٧ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ق ١ ص ٣٢ .

(٤) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ١٧١ .

(٥) الحميري : الروض المعطار ص ١٥٧ .

(٦) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ص ٥١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ق ١ ص ٣١ .

(٨) الحميري : الروض المعطار ص ١٥٧ .

يحضرونه من القرى .

وكان أمير جدة يتبع أمير مكة^(١) .

- الجار :

تعتبر الجار ميناء المدينة ، وهي أهلة عامرة ، وتقع على ساحل البحر مما يلي المدينة^(٢) وميناء الجار كان معروفاً قبل الإسلام ، إلا أنها في العصر الإسلامي اكتسبت أهمية كبيرة حينما أصبحت أشهر ميناء في الحجاز ، وتعهدا الخلفاء بالرعاية واهتموا بشأنها بعد فتح مصر فعندما فتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن يحمل الطعام منها إلى المدينة عبر ساحل الجار^(٣) ، ومن الجار إلى جدة نحو عشرة أيام في البر بطول الساحل وفيها ترسو المراكب التي تحمل الطعام من مصر^(٤) .

ولقد حازت الجار شهرة تاريخية كبيرة بحيث كان البحر الأحمر يعرف ببحر الجار^(٥) ، ولقد ضعف شأنها منذ القرن الرابع الهجري حيث اختل نظام الأمن في الجار فتسلطت الأعراب عليها بالنهب والسلب وقتل أهلها^(٦) .

واستمرت الجار على حالها من عدم الاستقرار تستقبل المراكب القادمة من مصر، حتى أخذ الحجاج من مصر والمغرب طريق عيذاب إلى ميناء جدة في أواخر القرن السادس الهجري، فضعف أمر الجار وبدأ ثغر ينبع في الازدهار بقدوم سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م حين جعله الأيوبيون الميناء الرئيسي للمدينة بعد جدة^(٧) .

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١٢٠ .

(٢) الحميري : الروض المعطار ص ١٥٣ .

(٣) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ٤٧ .

(٤) الحميري : الروض المعطار ص ١٥٣ .

(٥) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ٤٧ .

(٦) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٧) علي السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية ص ١٠٧ .

- ينبع :

يذكر الجغرافيون أن ينبع بلدتان إحداهما تسمى « ينبع البحر » والأخرى تسمى « ينبع النخل »^(١) ، فالأولى ينبع البحر تقع على شاطئ البحر الأحمر في الجانب الشرقي منه وتبعد عن المدينة المنورة مسافة مائتين وخمس وعشرين كيلو متراً من الجهة الغربية وهي ميناء جيد للمدينة المنورة^(٢) ، ولا يوجد بها مياه عذبة ، والسكان يشربون من مياه الأمطار ومن الآبار المحفورة عن طريق السيول^(٣) .

وقد أصبح ميناء ينبع البحر من الموانئ الحجازية الهامة منذ سنة ١٢٢١هـ / ١٢٢٤م حين جعله الأيوبيون ميناء للمدينة ، وأقاموا فيه قلعة قوية زودت بالجنود للحماية والحراسة بالإضافة إلى بعض الإصلاحات والإنشاءات التي جعلت من ينبع ثغراً هاماً من ثغور الحجاز ترسو به السفن القادمة من مصر^(٤) .

والبلدة الثانية ينبع النخل وتقع في الجهة الشرقية من ينبع البحر وهي عبارة عن عدة قرى صغيرة ، تحاط كل قرية من هذه القرى من جهاتها الأربع بالمياه الجارية ، وتقع ينبع النخل في طريق الحجاج القادمين من مصر^(٥) .

ويبدو من هذا العرض الجغرافي أن أكثر بلاد الحجاز عبارة عن جبال مكونة من الرمال والحجارة والوديان المنخفضة في بعض مناطقها والمحصورة بين الجبال ، وبعضها الآخر عبارة عن صحراء لا تهطل بها الأمطار في بعض المواسم .

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١١٠ .

(٢) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) علي السليمان : النشاط التجاري ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٥) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ١٩٥ .

ولذا فإن محصولاتها الداخلية ليست كافية ، وجبالها وصحاريها لا تنبت فيها الأعشاب بالقدر الكافي ، ولذلك فإنها غير قابلة لإنتاج المحاصيل الكافية لسد احتياجات ساكنيها .

وخلاصة القول أن صفات الحجاز الطبيعية التضاريسية منها والمناخية ، وموارده المائية ، وموقعه الجغرافي ، ما هي إلا عوامل أثرت إلى حد بعيد في ارتباط الحجاز بمصر منذ القدم حيث كان سكان الحجاز يحصلون على احتياجاتهم من القمح والحبوب وسائر الحاجيات الضرورية ، بل إنهم كانوا يهاجرون بكميات محدودة إلى مصر حين يتوقف هطول الأمطار ويسود الجفاف ، فيلقون كل رعاية وعناية من حكام مصر وأهلها^(١) ، ويتضح هذا من خلال حديثنا عن علاقات مصر بالحجاز قبيل الفاطميين .

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٢ .

ثانياً : علاقة مصر بالحجاز قبيل الفاطميين

ارتبطت مصر بالحجاز منذ أقدم العصور نتيجة القرب الجغرافي بينهما الذي ساعد على تنمية العلاقات وتواصلها واستمرارها ، إذ لو لم يكن البحر الأحمر لكانت بلاد الحجاز ومصر رقعة واحدة من الأرض .

ويمكن القول : إن العلاقات بينهما تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، فالسيدة هاجر أم إسماعيل - عليه السلام - كانت مصرية^(١) ، وإسماعيل هو جد العرب العدنانية ، وجد قريش ، فكان لمصر نسباً موصولاً بعرب الحجاز منذ القدم^(٢) .

ولقد عرفت مصر قبل الإسلام فرعي العرب الكبيرين ، عرفت عرب الجنوب القحطانية حين عبرت جماعات منهم البحر الأحمر ، واستقروا في الوادي ، واختلطوا بالسكان ، لأنهم - كأهل مصر - أهل استقرار ، وزرع ، وضريح ، كما عرفت مصر عرب الشمال العدنانية الذين كانوا يجوبون الصحاري الشرقية لأنهم أهل بدو ورحلة وخيام^(٣) .

وبعد الفتح الإسلامي لمصر بدأ الارتباط بينها وبين الحجاز يبرز ويتضح فقد تولت مصر مهمة تصنيع كسوة الكعبة وإرسالها إلى مكة منذ أيام عمر بن الخطاب^(٤) -رضي الله عنه- .

وحينما ساد الجفاف بلاد الحجاز سنة ٢١هـ / ٦٤١م وقحطت الأرض وأجدبت واشتدت الأحوال على المسلمين هناك كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى والي مصر عمرو بن العاص يذكر قحط الحجاز ويطلب منه ما يُقبض من الطعام في الخراج إلى المدينة المنورة فبادر عمرو بإعداد

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء ص ٢٢٠ .

(٢) حسين مؤنس : مصر ورسالتها الحضارية ص ١٠٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ١ ص ١٢٠ .

الطعام وإرساله إلى المدينة (١) .

وهكذا فرضت الظروف على مصر أن تكون صاحبة النصيب الأكبر في إمداد الحجاز بما يحتاجه منذ عصور الإسلام الأولى ، وتوثقت صلتها بالحجاز مقر الخلافة الإسلامية وشاركت بثقلها السياسي والاقتصادي مشاركة فعالة في الأحداث السياسية التي خاضتها الخلافة .

لذا لم تكن مصر بمعزل عما دار في المدينة المنورة عاصمة الخلافة من أحداث في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ؛ بل أسهمت فيها بدور كبير وملحوظ ، وقد ظهر دور مصر في الأحداث التي وقعت في العالم الإسلامي بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وفي الحركة التي قادها عبد الله بن الزبير من خلال مشاركتها للحجاز في تأييد حركة ابن الزبير والخروج على الأمويين .

وفي زمن الدولة العباسية جاء كثير من العلويين إلى مصر ، وأيد المصريون الحزب العلوي تأييداً كبيراً ، مما أدى إلى قيام كثير من الثورات العلوية على العباسيين بمصر بالإضافة إلى مساندة ومناصرة الثورات العلوية بالحجاز .

وفي عهد الطولونيين والإخشيديين لم تعد مصر مجرد ولاية تخضع خضوعاً مباشراً

(١) أبو الحسن البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ويروي كل من الطبري وابن عبد الحكم واليعقوبي وابن الأثير والقلقشندي رواية شبيهة بذلك مع اختلاف في تاريخ حدوثها فيرون أنه في سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م أصاب الناس بالمدينة قحط شديد ، وسمي هذا العام بعام الرمادة فأرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يشكو قحط الحجاز فكتب إليه عمرو بن العاص لأمدنك بعير طعام أوله عندي وآخره عندك وأرسل إليه العير فوسع بها على المسلمين ، والحقيقة أن تاريخ حدوث هذه القصة يوحى بالشك لأن عمراً اتجه لفتح مصر في أواخر سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م ، ولم تكن ظروف الحرب والقتال تسمح له بذلك وبالتالي فإن التاريخ الذي أورده البلاذري يعتبر واقعياً ومناسباً لهذا الحدث . (انظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ١٠٠ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٨ - ٢١٩ ، اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٤ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ج ١ ص ٩١ ، صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٨) .

لسلطة الدولة المركزية ، وإنما صارت مستقلة بأمورها الداخلية وأبقت على ذلك الخيط الذي يربطها بالخلافة كالسكة والخطبة والخراج .

وبدأ تطور هام في الدور الذي تقوم به مصر في الحياة الإسلامية ، فقد أكدت ذاتها ووضحت شخصيتها وبدأت بثقلها السياسي والاقتصادي تفرض نفوذها ، ففي عهد الطولونيين سوف نجد مصر تحاول فرض نفوذها على الحجاز ولم يحالفها التوفيق في ذلك ؛ لكنها نجحت في عهد الإخشيديين الذين فرضوا سيادتهم على الحجاز وصار يدعى لهم على منابرهم إلى قيام الدولة الفاطمية في مصر .

ومن ثانياً هذا التمهيد يمكن التحدث عن علاقات مصر بالحجاز قبيل الفاطميين من خلال ما يلي :

أولاً : دور مصر في أحداث الفتنة زمن عثمان بن عفان .

ثانياً : موقف مصر من حركة عبد الله بن الزبير .

ثالثاً : موقف مصر من الصراع العلوي العباسي .

رابعاً : ابن طولون والحجاز .

خامساً : الإخشيديون والحجاز .

* * *

أولاً : دور مصر في أحداث الفتنة زمن عثمان بن عفان

لعب أهل مصر دوراً كبيراً في المحنة التي صادفت عثمان بن عفان خليفة المسلمين ، والتي اشتهرت باسم « الفتنة » ، ويقصد المؤرخون بها انقسام وحدة المسلمين واختلاف آرائهم ، وهي الوحدة التي بناها الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، ثم دعمها من بعده الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب بحزمه وعدله (١) .

فقد تولى عثمان بن عفان الخلافة ، ويذكر المؤرخون أنه كان وصولاً للرحم ، محباً لأهله ، لين العريكة ، كثير الإحسان ، فأذن لكبار الصحابة بالتفرق في الأمصار الإسلامية ، واقتناء الضياع والعقارات فيها (٢) .

وصحب هذا اللون من الحياة ظهور طبقة من الولاة كان معظمهم من بني أمية أقارب عثمان لا هم لهم إلا الإثراء ودعم سلطاتهم ولو أدى الأمر إلى القسوة على الرعية (٣) ، فبلغت المعارضة السياسية لسياسة عثمان المالية ، وسياسته في محاباة أقاربه ، وتركه محاسبة ولاته حداً كبيراً .

(١) إبراهيم العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ص ١٥٢ .

(٢) عدد المسعودي أسماء الصحابة الذين اقتنوا الضياع والدور أيام عثمان ووصف ما يملكون فذكر أن الزبير بن العوام بنى داراً بالبصرة ، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فارس ، وألف عبد وأمة وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داراً بالكوفة وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك ، وشيد داره بالمدينة وبنائها بالآجر والجص والساج ، وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى داره ووسعها وكان مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم وزيد بن ثابت ترك عقب موته كثيراً من الذهب والفضة بالإضافة إلى الأموال والضياع التي قدرت بمائة ألف دينار ، وتوفي يعلي بن أمية وترك خمسمائة ألف دينار ، وديونا على الناس وعقارات (المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٢ - ٣٤٣) .

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٢ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٦ .

واستشعر ذلك عبد الله بن سبأ^(١) فراح يتنقل في الأمصار الإسلامية مندداً بتصرفات عثمان في تولية أقاربه ، وأخذ يشن هجومه على الطبقة الجديدة من الأغنياء ، ويغلو في تقديس شخصية علي بن أبي طالب^(٢) .

وقد طرد عبد الله بن سبأ من كل بلد حل به في البصرة والكوفة والشام ، فلما وصل مصر صادفت دعوته لخلع عثمان هوى في النفوس^(٣) ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن المسلمين في مصر كانوا ينقمون على عبد الله بن سعد^(٤) الذي عينه عثمان أميراً على مصر سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م^(٥) لأنه كان يكلفهم فوق ما يطيقون ، فاشتد عليهم في تحصيل الضرائب ، ففي حين اقتصرت جباية عمرو بن العاص للخراج طوال سني إمارته على ١٢ مليون دينار^(٦) رفع عبد الله بن سعد الجباية إلى ١٤ مليون دينار^(٧) ، بالإضافة إلى أنه كان يشتد على الرعية

(١) عبد الله بن سبأ : يهودي من صنعاء أظهر الإسلام على عهد عثمان ، وكان يعرف بابن السوداء وكان يكثر الطعن في عثمان ويدعو في السر لآل البيت ، ويذكر ابن خلدون أن هذا الرجل لم يحسن إسلامه فقد كان يقول : « إن محمداً يرجع كما يرجع عيسى وعنه أخذ ذلك أهل الرجعة ، وأن علي وصي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث لم يجز وصية وعثمان أخذ الأمر بغير حق » ويحرض الناس على ذلك ويثيرهم على الأمراء فاستمال بعضاً منهم وكاتب به بعضهم نقرأ في الأمصار الإسلامية (ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٥٨٧-٥٩١) .

(٢) المصدر السابق ص ٥٨٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٩١ .

(٤) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري كان أخا عثمان من الرضاع أسلم قديماً وخرج من المدينة إلى مكة فارتد عن الإسلام فلما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة أهدر دمه لكن عثمان ابن عفان استأمن له فأمنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسأل له المبايعة ثانياً فبايعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقال : « إن الإسلام يهدم ما قبله » فلما ولي عثمان الخلافة ولاءه على مصر ، (الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ١٦-١٧ ، ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ق ١ ص ١١٢)

(٥) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ١٧ .

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ق ١ ص ١١٢ .

(٧) المصدر السابق ص ١١٣ .

حتى شكوه إلى عثمان ، فكتب إليه عثمان ينذره ، ويأمره أن ينزع عما تكره الرعية فلم يحفل بذلك ، وإنما عاقب من شكوه وضرب منهم رجلاً حتى قتله^(١) .

وقد استطاع عبد الله بن سبأ أن ينقل السخط على الخليفة في مصر والبصرة والكوفة^(٢) إلى تخطيط منظم للإطاحة به ، وأسفر هذا التخطيط عن خروج سبعمئة رجل من مصر إلى المدينة ، فكان الثائرون الأولون على الخليفة من مصر ، إذ ذهبوا إلى المدينة واشتكوا إلى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما صنع بهم الوالي^(٣) ، فاتجه نفر من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب إلى عثمان واشتدوا عليه حتي يعزل عبد الله بن سعد فعزله ، وكتب بولاية مصر لمحمد بن أبي بكر^(٤) .

وخرج محمد بن أبي بكر وأصحابه ، حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاثة ليال من المدينة قبضوا على رجل كان يحمل خطاباً من الخليفة إلى واليه على مصر عبد الله بن سعد يأمره فيه بمعاينة الثائرين الذين خرجوا من مصر عند عودتهم^(٥) فاضطر الثائرون إلى العودة للمدينة وعرضوا الخطاب على الصحابة^(٦) فأسرع علي بن أبي طالب ونفر من الصحابة إلى عثمان وعرضوا عليه الخطاب فأنكر علمه به^(٧) .

وعلم الثائرون أن الخطاب بخط مروان بن الحكم ، فطلبوا من الخليفة أن يخرجهم لهم فرفض عثمان إخراجه خشية قتله ، فاتخذ الثائرون من رفضه ذريعة للهجوم على الخليفة

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٥٩١ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٥٨ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٦) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٧ - ٤٠ .

(٧) ابن العربي : العواصم من القواصم ص ١١٠ .

ومحاصرة داره^(١) وانضم إليهم بقية الوفود الثائرة الأخرى^(٢) واستمر حصاره لهم مدة أربعين يوماً ثم قام بعضهم بالانقضاء عليه وقتله سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م^(٣).

أخذت مصر تواصل دورها في الأحداث الداخلية التي وقعت داخل الدولة الإسلامية بعد مقتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وكانت الأطراف المتنازعة على السلطة في الدولة تمحصر أن تقف مصر إلى جانبها ، وكان أملها في تحقيق النصر يتأكد إذا استطاعت أن تعتمد على تأمين أهل مصر وولائهم لها .

وعلى هذا فكر معاوية بن أبي سفيان في الاستيلاء على مصر وضمها إلى جانبه، لأنه كان يعلم أن وقوف مصر إلى جانب علي بن أبي طالب يضعف من قوته ويزعزع من سلطته ، فاتجه إلى مصر سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ م لكن محمد بن أبي حذيفة^(٤) خرج إليه ومنعه من دخولها

(١) المسعودي : : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٢) حسن علي : دراسات في تاريخ مصر ص ٣٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٦٠ - ٦٨ .

(٤) هو محمد بن حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي ، ولد بالحبيشة وكفله عثمان بعد مقتل أبيه وبقي في كفالتة ونفقته عدة سنين وكان من أشد الناس تأليباً على عثمان ولقد انتهز خروج عبد الله بن سعد والي مصر لمقابلة الخليفة عثمان بن عفان فجمع حشداً من الجنود والساخطين على الخليفة ، وهاجم عقبة بن عامر الذي استخلفه عبد الله حين عودته وأخرجه من القسطنطين ودعا الناس إلى خلع عثمان من الخلافة ، ومنع عبد الله بن سعد من دخول مصر بعد عودته من المدينة ، وضيق على شيعة عثمان بمصر وعلى رأسهم معاوية بن حديج ، وخارجه بن حذافة ، وبشر بن أبي أرطاة ومسلمة بن مخلد الأنصاري فلما علموا بمقتل عثمان واشتراك طائفة من المصريين في مقتله ثاروا وعقدوا لمعاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان وتقاتلوا مع محمد بن أبي حذيفة وانتصروا عليه في عدة معارك مما شجع معاوية على القدوم إلى مصر ويذكر الكندي أن معاوية قال لابن أبي حذيفة اجعل بيننا وبينكم رهناً فلا يكون بيننا وبينكم حرب فرضي ابن أبي حذيفة وخرج في الرهن هو وجماعة من قتلة عثمان فاحتال عليهم معاوية وسجنهم وسار إلى دمشق فهربوا من السجن وتبعهم صاحب فلسطين حتى قتلهم (الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٢٢ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٥٢ ، الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ٤٥٤) .

فمكر به معاوية حتى أخرجه من مصر حيث قتل في ذي الحجة من نفس العام^(١) .

ولما بلغ علي بن أبي طالب ما حدث لمحمد بن أبي حذيفة أرسل قيس بن سعد^(٢) أميراً على مصر في مستهل ربيع الأول سنة ٣٧هـ / ٦٥٧م ؛ لكن معاوية بن أبي سفيان لم يكن ليترك قيس بن سعد يحوّل مصر إلى قاعدة قوية لمؤازرة علي ، فاستعمل دهاءه للإيقاع بين علي بن أبي طالب وقيس بن سعد ، فاصطنع خطابات بينه وبين قيس توهم أنه يتفاوض معه فانخدع علي بهذه الحيلة ، وظن أن قيساً يتعاون مع معاوية فعزله عن مصر بعد أربعة أشهر وخمسة أيام^(٣) وولى مكانه الأشتر مالك بن الحارث ، فلما وصل الأشتر إلى القلزم في رجب سنة ٣٧هـ / ٦٥٧م تمكن أحد أصحاب معاوية من قتله بعد أن وضع له سماً في العسل ، ومات وهو على أبواب مصر ولم يدخلها^(٤) فولى علي بعده محمد بن أبي بكر فخرج إلى مصر ، واستقر بها ، وأخذ يدعم مركزه فيها^(٥) .

ولقد شعر معاوية أن وقوف مصر إلى جانب علي بن أبي طالب لن ينقسم عراه إلا بالقوة العسكرية فأرسل إليها جيشاً بقيادة عمرو بن العاص الخبير بمصر وأبنائها استطاع هزيمة محمد ابن أبي بكر وقتله في سنة ٣٨هـ / ٦٥٨م^(٦) وصارت مصر تابعة لمعاوية وأنصاره .

(١) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٢٢ .

(٢) هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري أرسله علي إلى مصر ، وجمع له الصلاة والخراج فدخلها في مستهل ربيع الأول واستطاع بدعائه وحسن سياسته أن يستميل الشيعة العثمانية بمصر ، وبعث إليهم أعطياتهم ووفد عليه وفدهم فأكرمهم ، وأحسن إليهم ، وكان من ذوي الرأي والبأس واستطاع أن يأخذ البيعة لعلي بن أبي طالب في مصر ، واستقامت الأحوال في عهده مما جعل معاوية يلجأ إلى المكر والدهاء حتى ينزعه عن مصر (الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٢٣) .

(٣) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٥) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٢٨ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

وفي سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م تمكن عبد الرحمن بن ملجم الخارجي من قتل علي^(١) فبايع جند العراق ابنه الحسن الذي رأى أن من مصلحة المسلمين مبايعة معاوية وتسليم الأمر إليه منعاً للشقاق وتوحيداً لقوى الأمة ، فبايعه في ربيع الأول من سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م ليتولى معاوية بن أبي سفيان مقاليد الأمور في الدولة الإسلامية^(٢) وتقوم على يديه الدولة الأموية التي أصبحت مصر إقليماً من أقاليمها .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٥٥ .

(٢) محمد الخضري : الدولة الأموية ص ٤٢٥ .

ثانياً : موقف مصر من حركة عبد الله بن الزبير :

انتقلت الخلافة في عهد الأمويين من الحجاز إلى الشام ، مما أغضب الحجازيين الذين كانوا يرون عودة الخلافة إلى وضعها السابق في عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة بعد أن جعل معاوية الخلافة وراثية بتولية ابنه يزيد بن معاوية بعده ، ثم مقتل الحسين بن علي بيد قوات يزيد^(١) .

لذا فقد رفع أهل الحجاز راية العصيان على حكم الأمويين في عهد يزيد بن معاوية ، ولبوا نداء عبد الله بن الزبير الذي ثار على الأمويين ، مستغلاً حالة السخط التي شملت العالم الإسلامي عامة والحجاز خاصة لمقتل الحسين فدعا إلى خلع يزيد بن معاوية ، ومبايعته بالخلافة^(٢) .

ولقد شاركت مصر أهل الحجاز في شق عصا الطاعة على الأمويين ، إذ لاقت دعوة عبد الله بن الزبير قبولاً منهم فأرسلوا وفوداً إلى مكة لمبايعته وطلبوا منه أن يبعث إليهم بأمير يقومون معه ويؤازرونه ، فأرسل إليهم عبد الرحمن بن عتبة بن حنظل الفهري والياً عليهم من قبله سنة ٦٤ هـ / ٦٨٤ م^(٣) .

ويذكر الكندي أن عبد الرحمن بن عتبة قدم على رأس جماعة من الخوارج الذين ساندوا عبد الله بن الزبير فوثبوا على سعيد بن يزيد بن علقمة الوالي الأموي وعزلوه^(٤) ونزل عبد الرحمن بن عتبة بدار الإمارة في القسطنطينية^(٥) .

وتوطدت الصلات بين مصر والحجاز في عهد ابن الزبير ، وقامت مصر بدور كبير في

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٥٣ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢١٢ .

(٣) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٣٩ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

مساندة الحجاز اقتصادياً عقب خروجه على الخلافة التي كانت تمده بما يحتاجه نظراً لضعف موارده ، وشحنت الغلال من مصر إلى الحجاز عبر قناة القلزم^(١) .

وحين احترقت الكعبة وهدمها ابن الزبير أعاد بناءها وكساها القباطي البيض ، وهي ثياب كانت تصنع في مصر آنذاك^(٢) .

لكن الأمور لم تدم على هذا الحال ، فحينما تولى الخلافة مروان بن الحكم أدرك أن استقرار الأمر لبني أمية لن يتم إلا باستعادة مصر مرة أخرى ، فسار إليها ودخلها سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤م بعد هزيمة عبد الرحمن بن عتبة عامل ابن الزبير عليها^(٣) ، وولى ابنه عبد العزيز بن مروان على صلاة مصر وخارجها ، وأمه بموسى بن نصير بمثابة وزير له^(٤) .

وعادت مصر للأمويين مرة أخرى بعد أن انفصلت عنهم فترة لم تزيد عن تسعة أشهر انضمت خلالها لابن الزبير ، ويسقط مصر في يد بني أمية حُرِم الحجاز من الغلال التي كانت مصر ترسلها إليه ، فتعسر وضع الحجاز الاقتصادي ، وتأثر موقف ابن الزبير بذلك^(٥) .

ولم يتخذ الأمويون من مصر قاعدة للتضييق على ابن الزبير اقتصادياً فحسب ؛ بل شاركت مصر في الناحية العسكرية حين وجه عبد العزيز بن مروان سنة ٧٢ هـ حملة بحرية من قبله على ساحل الحجاز للمشاركة في القضاء على ابن الزبير^(٦) ، وبعد القضاء عليه سنة ٧٣ هـ / ٦٩٢م عاد الحجاز إلى سيطرة الأمويين ، وصار ملجأ لبعض المضطهدين من العلويين^(٧) حتى قيام الدولة العباسية التي أخذت تطارد العلويين هي الأخرى .

(١) سيديو : تاريخ العرب العام ص ١٤٧ .

(٢) الحميري : الروض المعطار ص ٩٤ ، القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٣) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٤١ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٣ .

(٥) سيديو : تاريخ العرب العام ص ١٤٧ .

(٦) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣٠٢ .

(٧) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص ٤٥٠ .

ثالثاً : موقف مصر من الصراع العلوي العباسي :

وقف العلويون مدة طويلة على رأس الزعامة من بني هاشم ، وحاولوا أن ينالوا الخلافة قبل العباسيين ، فقاموا بثورات عديدة في وجه بني أمية مطالبين بالخلافة ، وسقط منهم كثير من الضحايا (١) .

وقد استغل العباسيون الاضطهاد الأموي للعلويين كي يضمنوا نجاح دعوتهم فجعلوا شعار الدعوة لهم هو « الرضا من آل محمد » حتى يجذبوا عطف الجماهير نحو حركتهم وحتى يضمنوا تأييد العلويين لهم ، فلما ظفر العباسيون بالخلافة أدرك العلويون أنهم خدعوا من العباسيين الذين استأثروا بالخلافة دونهم فنبذوهم العداء ، وشهدت كل من مصر والحجاز ثورات من العلويين على العباسيين (٢) .

ففي مصر لقيت الدعوة للعلويين قبولاً ، إذ حينما قام علي بن محمد النفس الزكية بالدعوة لأبيه ، بايعه كثير من المصريين مؤيدين لدعوته ، ويذكر الكندي أن الوالي العباسي لمصر حميد بن قحطبة أخفى أمره عن الخليفة المنصور ، ولم يهتم بالقبض عليه ، مما جعل المنصور يسخط على هذا الوالي ويعزله لتعاطفه مع العلويين ، ويولي يزيد بن حاتم المهلبى مكانه ، وقد تمكن يزيد من القضاء على دعوة علي بن محمد الذي فر بعد هزيمته في المعركة وأخفاه المصريون عن أعين العباسيين حتى مات ودفن بمصر (٣) .

وقد ظهر تعاطف المصريين بوضوح نحو العلويين ، وتمثل في ترحيب المصريين بكل علوي يقدم إليهم ، وإن كان خارجاً على الخلافة العباسية ، إذ حينما فر إدريس بن عبد الله بن الحسن أخو النفس الزكية ، وأخوه يحيى بن عبد الله من الحجاز بعد هزيمة الحسين بن علي بن الحسن في موقعة « فنج » وجدا ترحيباً من المصريين الذين كتموا أخبارهما عن العباسيين ،

(١) محمد الحصري : الدولة العباسية ص ٤٩٧ .

(٢) انظر الفصل الأول - حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية .

(٣) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٩١ - ٩٤ .

وحين علم علي بن سليمان الوالي العباسي لمصر بمكان إدريس بن عبد الله ذهب إليه سراً ،
وتقابل معه ، وأخفى أمره عن الخليفة^(١) كما أن «واضحاً» مولى بني العباس والمتولي بريد
مصر سهل له الخروج منها مع معرفته به^(٢) ، ولما علم الخليفة هارون الرشيد بذلك عزل الوالي
عن مصر^(٣) .

وقد اتجه إدريس إلى بلاد المغرب الأقصى ، واستطاع أن يكون أول دولة للعلويين هناك
سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وهي دولة الأدارسة^(٤) .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري توالى ثورات العلويين على العباسيين بمصر
ففي سنة ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م وفي ولاية يزيد بن عبد الله خرج محمد بن علي بن الحسين الذي
يعرف بأبي حدرى ، ويوقع له ، لكن يزيد بن عبد الله خرج إليه وقبض عليه وعلى أنصاره بعد
أن أقر عليهم ثم أخرجه يزيد ومن معه من آل أبي طالب إلى العراق منقياً من مصر^(٥) .

ولم يكتف العلويون في مصر بالثورة على العباسيين ، بل إنهم كانوا يرحبون بكل ثورة
ضد الخلافة العباسية وينضمون إليها ، ففي سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م خرج جابر بن الوليد المدلجي
على العباسيين بمدينة الإسكندرية واستطاع السيطرة على معظم بلدان الوجه البحري ، وكان
يسانده ابن الأرقط العلوي^(٦) الذي ضم إليه كثيراً من الأعراب ووجوه أصحابه ، ولم يستطع
والي مصر يزيد بن عبد الله أن يوقف هذه الثورة مما اضطر الخليفة العباسي أن يرسل إليه المدد
بقيادة مزاحم بن خاقان فتمكن من القبض على عبد الله بن أحمد بن الأرقط العلوي وأمر

(١) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ١٠٦ .

(٢) محمد الخضري : الدولة العباسية ص ٤٩٩ .

(٣) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ١٠٦ .

(٤) محمد الخضري : الدولة العباسية ص ١٠٤ .

(٥) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ١٥٩ .

(٦) هو عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب
ويقال له ابن الأرقط العلوي (المصدر السابق ص ١٦١) .

بإخراجه مع أنصاره إلى العراق^(١) .

وتتابعت ثورات العلويين على العباسيين في مصر ، ففي سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م خرج أحد العلويين بمصر ويقال له « بُغا الأكبر »^(٢) وأعلن ثورته على العباسيين في ولاية أزجور التركي ، وذهب إلى الصعيد واستقر به ، لكن أزجور والي مصر العباسي هزمه وقضى على حركة تمرده^(٣) .

وفي ولاية أحمد بن طولون خرج علوي آخر يقال له « بُغا الأصغر »^(٤) بموضع يسمى الكنائس فيما بين الاسكندرية وبرقة ، وسار في جمع معه إلى الصعيد ٢٥٥هـ / ٩٦٩م فلقبهم جيش ابن طولون فهزمهم ، وقتل بُغا وأتى برأسه إلى الفسطاط^(٥) ثم خرج ابن الصوفي العلوي^(٦) سنة ٢٥٦هـ / ٩٧٠م بصعيد مصر وقوي أمره وتغلبت قواته على جيش ابن طولون، وأسر قائده ابن ازداذ حيث قتل وصلب ، ثم تحرك الثائرون إلى أسوان فتقابلوا مرة أخرى مع الجيش الطولوني فهزمهم وقضى عليهم ، وفر ابن الصوفي إلى عيذاب متجهاً إلى مكة حيث أقام بها إلى أن قبض عليه وأرسل إلى مصر ، فسجنه أحمد بن طولون فترة ثم أطلق سراحه ، فخرج إلى المدينة المنورة ومات بها^(٧) .

والمتتبع لتلك الأحداث يجد أن العلويين في مصر وجدوا مؤازرة ومساندة من أهلها في

(١) المصدر السابق ص ١٦٢ .

(٢) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طباطبا إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (المصدر السابق ص ١٦٥) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) هو أحمد بن محمد بن عبد الله طباطبا (الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ١٦٧) .

(٥) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣١٩ .

(٦) هو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٢٢٦) .

(٧) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ١٦٨ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٢٢٧ ، ٢٤٣ .

ثوراتهم على العباسيين ؛ بل إن بعض ولاية مصر من قبل العباسيين كانوا يكتمون أخبارهم عن دار الخلافة متعاطفين معهم ، ويبدو أن هذا الارتباط ناتج عن حب المصريين لآل البيت وبخاصة العلويون الذين قهروا من العباسيين ، وقد أدرك الخلفاء العباسيون ذلك مما جعل الخليفة المتوكل العباسي يأمر والي مصر بإخراج آل أبي طالب من مصر^(١) ، فخرجت مجموعة منهم في سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م فقدموا العراق ثم أمروا بالخروج إلى المدينة^(٢) .

(١) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣١٢ .

(٢) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ١٥٥ .

رابعاً : ابن طولون والحجاز :

ظلت مصر ولاية تتبع الدولة العباسية حتى سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م حيث استقل بحكمها أحمد بن طولون وأقام بها دولة تنسب إلى أبيه^(١) ، وقد نشأ أحمد بن طولون نشأة طيبة أشار إليها كل من أرخ له ، وكان لهذه النشأة الطيبة أثر كبير في اهتمامه بأمور الحجاز لأن أي إنسان مؤمن يهفو دائماً بنظره تجاه الحرمين الشريفين ويمتلئ قلبه حباً لهما ورغبة في القرب منهما ؛ حيث مهبط الوحي وموطن الرسالة والنبوة .

ولقد كان ابن طولون يقوم بواجبه في مساعدة مجاوري الحرمين الشريفين فيذكر ابن إياس أنه كان يرسل إليهم كسوة الشتاء والصيف^(٢) .

إلا أننا لم نر في أي مصدر من المصادر التاريخية المتاحة أن ابن طولون قد وُلي على الحجاز بجانب مصر والشام لكن المؤرخ المكي تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م) يرى أن ابن طولون كان والياً على مكة من قبل الخليفة العباسي المعتمد^(٣) ، ويستدل لرأيه بما ذكره ابن جرير الطبري في أخبار سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٣م في تاريخه عن المعركة التي نشبت بين المصريين والعباسيين في مكة وهزم فيها جيش ابن طولون^(٤) وقد تابع الفاسي في ذلك كثير من المؤرخين الحجازيين الذين جاءوا من بعده واعتمدوا على روايته مثل عمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)^(٥) وعبد العزيز بن عمر بن فهد (ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م)^(٦) والجزيري (ت ٩٧٧هـ / ١٥٧٠م)^(٧) وابن ظهيرة (ت ٩٨٦هـ / ١٥٧٩م)^(٨) .

(١) حسن علي : دراسات في تاريخ مصر الإسلامية ص ٥٣ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ق ١ ص ١٦٨ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ٢ ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٦٥٢ - ٦٥٣ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الوري بأخبار أم القرى ج ٢ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج ١ ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٧) الجزيري : الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ج ١ ص ٤٤٩ - ٥٥٠ .

(٨) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف في فضل مكة وبناء البيت الشريف ص ٣٠٢ .

والحقيقة أن ابن طولون لم يتول مكة من قبل الخليفة العباسي المعتمد ، لأننا لم نر في أي مصدر من المصادر الأخرى ما يثبت ذلك ؛ كما أن استنتاج الفاسي لا ينهض دليلاً على تولية العباسيين له على مكة .

ويمكن القول : إن ابن طولون بعد استقلاله بمصر وتمكنه منها فكر في بسط سلطانه على الحجاز ، لكنه فشل في تحقيق هدفه بعد محاولتين كانت الأولى منهما سنة ٢٦٧هـ / ٨٨١م حينما حاول أنصاره الدعوة له بموسم الحج في هذا العام ، فتصدى لهم أنصار عمرو بن الليث الصقاري^(١) ، وبين الطبري أن كل فريق منهم نازع صاحبه في وضع علمه على يمين المنبر في مسجد إبراهيم خليل الرحمن ، وادعى كل منهما أن الخلافة لصاحبه ، وانتصر أصحاب عمرو بن الليث ودعوا لصاحبهم في هذا الموسم^(٢) .

ويرجع السبب في انتصار أصحاب عمرو بن الليث إلى أنه كان يتمتع بتأييد أبي أحمد الموفق أخو الخليفة العباسي^(٣) في الوقت الذي كان ابن طولون فيه على خلاف مع الموفق حين بعث ابن طولون بإعانة مالية للخلافة مساعدة منه في القضاء على ثورة الزنج ، فاتهم الموفق أحمد بن طولون بالتقصير في إرسال المال الكافي وبعث إليه خطاباً مليئاً بالتهديد والوعيد فرد عليه أحمد بن طولون رداً قاسياً وأعلن استقلاله بالبلاد^(٤) .

وكانت المحاولة الثانية لابن طولون نحو الحجاز في سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٣م وقد تحدث عنها ابن جرير الطبري ونقل عنه تقي الدين الفاسي ، فذكر أن ابن طولون قد أرسل جيشاً

(١) عمرو بن الليث الصقاري تولى أمر الدولة الصفارية عقب وفاة أخيه يعقوب بن الليث مؤسس الدولة ، وأقره أبو أحمد الموفق أخو الخليفة العباسي المعتمد على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان وكرمان والشرطة ببغداد وخلع عليه وبذلك قبض عمرو على ما كان بيد أخيه (انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٠ . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٧٣) .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٥٩٩ - ٦٠٠ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ٢ ص ١٨٩ .

(٤) البلوي : سيرة أحمد بن طولون ص ٨٥ .

من مصر إلى مكة قوامه أربعمئة وسبعين فارساً وألفي راجل بقيادة محمد بن السراج وقد استطاع هذا الجيش دخول مكة في بداية الأمر بعد أن فر من أمامهم هارون بن محمد عامل الخلافة على مكة .

وبين الطبري أن جيش ابن طولون قام بتوزيع الأموال على أهل مكة وعلى الجزارين والحناطين ورؤساء المهن المختلفة لاستمالتهم ؛ إلا أن الإمدادات جاءت من العراق لوالي مكة الذي عاد مرة أخرى ونازل قوات ابن طولون وهزمهم وغنم أموالهم وقرئ كتاب في المسجد بلعن ابن طولون^(١).

ويبدو أن هذه المحاولة كانت نتيجة الخلاف الذي نشأ بين ابن طولون والموفق فأعد ابن طولون عدته للسيطرة على مكة مستغلاً هذا الخلاف ، لكن الموفق لم يكن يسمح له بالاستيلاء على الحجاز الذي تستمد منه الخلافة شرعيتها الدينية أمام المسلمين ، فأرسل قواته بقيادة جعفر بن الباغمردى لمساعدة والي مكة في طرد جيش ابن طولون عنها^(٢) وخرجت قوات ابن طولون بعد هذه المحاولة ولم يفكر الطولونيون مرة أخرى في السيطرة على الحجاز .

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٦٥٢ - ٦٥٣ .

(٢) المصدر السابق .

خامساً : الإخشيديون والمجاز :

في أواخر عهد الطولونيين انتشرت الفوضى في مصر واشتد التنافس عليها بين الطامعين في السلطان، وانتهى الأمر بأن أعدت الخلافة العباسية جيشاً للاستيلاء على مصر وإعادة الخلافة، وزالت الدولة الطولونية^(١) بعد أن حكمت مصر مدة ثمانية وثلاثين عاماً .

وقد ظل النفوذ العباسي غير مستقر بعد زوال الطولونيين مما شجع أحد قادة الأتراك في الجيش العباسي في مصر، وهو محمد بن طغج إلى الانفرد بالسلطة دون القادة والولاة المتنازعين عليها، ومما ساعده على ذلك ما قدمه من خدمات في الدفاع عن مصر ضد الهجمات الفاطمية^(٢).

وصار محمد بن طغج الحاكم المطلق في البلاد سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م وأطلق عليه الخليفة الراضي لقب الإخشيد أي « ملك الملوك »^(٣) وصار مؤسس دولة انتسبت إلى اللقب الذي منحه إياه الخليفة العباسي وعرفت باسم الدولة الإخشيدية^(٤).

وبعد سنتين من قيام الدولة الإخشيدية ضم الإخشيد إليه الشام ليعيد القوة إلى الشرق العربي، وليستطيع الوقوف في وجه الروم البيزنطيين، وخشي أباطرة الروم قوة الدولة الجديدة وراسلوا الإخشيد كسباً للسلام والمودة^(٥).

وفي سنة ٣٣١هـ / ٩٤٣م أسندت ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الإخشيد والي مصر من قبل الخليفة العباسي الراضي^(٦)، واستمر ذلك إلى عهد الخليفة العباسي المتقي الذي

(١) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ١٩١ .

(٢) إبراهيم العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ص ٢٥٧ .

(٣) المقرئ : المقفي الكبير ص ٢٥٧ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) إبراهيم العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ص ٢٥٨ .

(٦) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٣ .

كان على صلة حسنة وطيبة بالإخشيد وقد حرص أن يقوي جانبه مادياً وأدبياً ليلجأ إليه عند الحاجة تخلصاً من سلطة الأتراك عليه فأقره على الحجاز بالإضافة مصر والشام ، كما جعل هذه الولاية له ولأولاده من بعده لمدة ثلاثين عاماً^(١) ، وصار يدعى له مع الخليفة العباسي بمكة والمدينة بالإضافة إلى مصر والشام^(٢) .

ولم تذكر المصادر التاريخية المتاحة من كان يتولى أمر مكة من قبل الإخشيد في تلك الفترة ، وإن كان المؤرخ المكي تقى الدين الفاسي يرى أن تولية الصلاة بالحرمين للإمامين عبد السميع وعبد العزيز ابني عمر بن الحسن بن عبد العزيز^(٣) مكان أبيهما يدل على ولاية الإخشيد للحرمين ، فتقليدهم للصلاة فيها يقتضي أنهما في ولاية الإخشيد^(٤) .

ويبدو أن تقليد الإخشيد لولاية مكة كان تقليداً شكلياً ، لأنه لا يوجد في ضوء المصادر المتاحة أن الإخشيد قد تدخل في شئون مكة الداخلية ، أو عين نائباً عنه في الحجاز ؛ بل إنه كان يكتفى بالدعاء له على منابرها وكان يعتز بذلك ويشير إليه في مراسلاته ، كما جاء في رسالته إلى امبراطور الروم التي يقول فيها : « هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة والدلالات الظاهرة ، فإننا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها وعظيم قدرها وما حوت من الفضل توفي كل مملكة لأنها محج آدم ومحج إبراهيم وإرثه ، ومهاجره ، ومحج سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام ، ومنها مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المقدسة

(١) المقرئزي : المقفي الكبير ص ١٣٤ ، أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٥ ص ٩٨ .

(٢) الفاسي : : العقد الثمين ج ٢ ص ٣٠ - ٣١ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٢ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٧١ .

(٣) هو عمر بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي كان يتولى الصلاة بالحرم الشريف وفي أيام الحج ، وقد حج بالناس من سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م إلى سنة ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م ثم تولى القضاء بمكة ومصر سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م وظل ينظر في الأحكام إلى النصف من ذي الحجة سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥١ م (المسعودي : مروج الذهب ج ٤ ص ٤٠٨ ، الكندي : تاريخ ولاة مصر ص ٣٧١ - ٣٧٢) .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٣ .

بتريته، وأنها مهبط الوحي، وبيضة هذا الدين المستقيم الذي امتد ظله على البر والبحر»^(١).

وبعد وفاة محمد بن طغج الإخشيد بدمشق سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م^(٢) تولى الحكم من بعده ابنه أبو القاسم أنوجور^(٣)، وفي هذا العام استولى البويهيون على بغداد وأصبحوا أصحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلي في العراق، وأصبح اسم معز الدولة البويهي يذكر في الخطابة بعد ذكر الخليفة العباسي^(٤).

ولقد حاول البويهيون القضاء على نفوذ الإخشيد بالحجاز مما أدى إلى نشوب كثير من الخلافات بين أنصار الفريقين العراقي، والمصري، فقد تمسك المصريون بعقد المتقي للإخشيد ولولده من بعده^(٥) وأصر العراقيون على الدعوة لمعز الدولة البويهي ولأخيه ركن الدولة ولولده عز الدولة بعد الخليفة العباسي المطيع^(٦) مما أدى إلى حدوث اشتباك بين الفريقين في موسم الحج سنة ٣٤١هـ / ٩٥٣م^(٧) وكان على رأس الفريق المصري عمر بن الحسن بن عبد العزيز المتولي للصلاة بالحرم الشريف، وأحمد بن عمر بن يحيى العلوي أمير الحاج العراقي، وانتصر أصحاب معز الدولة وأقاموا الخطبة بمكة للخليفة العباسي، ولبنى بويه من بعده^(٨).

ثم حدث اشتباك آخر سنة ٣٤٢هـ / ٩٥٤م بين أنصار الإخشيد والحاج العراقي لم يتمكن فيه أنصار الإخشيد من الدعوة لصاحبهم، وتمكن أنصار معز الدولة من الدعوة له^(٩) إلا أنه

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ١٣ - ١٤ .

(٢) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٢٢٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢١ .

(٤) محمد الحضري : تاريخ الدولة العباسية ص ٣٨٠ .

(٥) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٢ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٢٥ .

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ١٨٥ .

(٩) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٣٩٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٢٧ .

في سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٥م حدث قتال بين الفريقين أسفر عن الدعوة للبويعيين ثم لأبي القاسم أنوجور الإخشيدي^(١) وتمكن الإخشيدون من الدعوة لصاحبهم هذه المرة .

وفي سنة ٣٤٨هـ / ٩٥٩م استطاع أمير الحاج العراقي الدعوة للخليفة العباسي ثم لبني بويه بعد خداعه لأمير الحاج المصري باتفاق على أفراد الخليفة بالخطبة دون سواه^(٢) لكن الإخشيديين سرعان ما استعادوا نفوذهم الاسمي مرة أخرى على الحجاز ، بعد أن ولي الخليفة العباسي المطيع لله كافر الإخشيدي على مصر والشام والحجاز ، وأصبح يدعى له على منابر^(٣)ها .

ويبدو أن كافر الإخشيدي لم يترك نائباً عنه بمكة ، وإنما اكتفى بالدعوة له على منابر^(٤)ها في مواسم الحج شأنه في ذلك شأن بقية أسرة الإخشيد .

ولما تولى الإخشيدون أمر الحجاز دخلت المدينة ضمن نفوذهم الاسمي فأبقوا للعباسيين سيادتهم عليها والمتمثلة في الدعوة لهم على منابر^(٤)ها .

ويتضح مما سبق أن الدولة العباسية حين ضعفت في العصر العباسي الثاني كان الحجاز بالنسبة لهم بلداً بعيداً ثقیل التكاليف ، وإصلاح أحواله يتطلب مالا ، ورعاية الحجاج تتطلب رعاية ونفقة؛ لذا بدا لهم أن الحل المناسب للحجاز هو أن تتولى مصر أموره ، وتتكفل برعاية الحجاج المسلمين وأهل الحجاز ، فعهدوا بإدارة أموره إلى محمد بن طفج الإخشيد الذي أقام دولته الإخشيدية بمصر، وصار الرجل القوي الذي يعتمد عليه، وخطب له على منابر مكة والمدينة مع الخليفة العباسي .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوری ج ٢ ص ٣٩٩ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠٠ ..

(٣) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٢٢٣ ، المقرئی : الخطط ج ١ ص ٣٣٠ .

(٤) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢ .

ومنذ تلك الفترة بدأ ارتباط مصر بالحجاز قوياً وهو ارتباط استمر لفترة طويلة ، فقد أصبحت مصر تعتبر نفسها مسئولة عن الحرمين الشريفين ، وكان صاحب مصر مكلفاً بأن يعني بأمر الحاج ويقوم على المسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، ومزارات المسلمين .



الباب الأول

الدعوة الفاطمية في الحجاز
بين القوة والضعف



الباب الأول

الدعوة الفاطمية في الحجاز

بين القوة والضعف

مدخل :

كان الفاطميون يفكرون في بسط سلطانهم على بلاد الحجاز ؛ لأنهم كانوا يعرفون أن من يسيطر على الحرمين الشريفين يتمتع بالزعامة الروحية في العالم الإسلامي ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى قد يكون الحجاز مجالاً أرحب لنشر دعوتهم حيث يغص بالكثير من أبناء العالم الإسلامي في مواسم الحج .

وبالإضافة إلى هذا فإن الفاطميين كانوا يسعون للسيطرة على الحجاز لأنه من الناحية الدفاعية أو الهجومية على مصر يعد منطقة حيوية؛ إذ إن كل سياسة دفاعية أو هجومية للدول القائمة في مصر تتخذ مجالها في شمال البحر الأحمر وجنوب الشام .

لذا فقد سعى الفاطميون إلى مد نفوذهم المباشر إلى الحجاز، وظلت البلاد المقدسة تحت سيطرتهم إلى أن ضعفت الدولة الفاطمية فعاد النفوذ العباسي مرة أخرى إلى الحجاز.

والحديث في هذا الباب يتضمن ثلاثة فصول .

الفصل الأول :

حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية : وينوه بالأحداث المتلاحقة على الحجاز منذ قيام الدولة الأموية ثم العباسية ، والمحاولات المتكررة لخلفاء الدولتين في القضاء على معارضيتهم بالحجاز وبخاصة العلويون ، ثم ضعف الحجاز في العصر العباسي الثاني وغزو القرامطة له دون أن يحرك العباسيون ساكناً نظراً لضعفهم . وتبع ذلك استقلال الأشراف العلويين بمكة والمدينة وخلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين .

الفصل الثاني :

السيادة الفاطمية في الحجاز ، ويعرض لمظاهر السيادة الفاطمية في الحجاز التي تتمثل في خضوع الحجاز للنفوذ الفاطمي المباشر ، ومحاولات الحجاز للتحرر من هذا النفوذ ، ثم جهود الفاطميين لإخضاعهم لنفوذهم ، ونجاحهم في إعادة الحجاز مرة أخرى لسلطانهم .

الفصل الثالث :

ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز ، ويعرض لمظاهر ضعف النفوذ الفاطمي على الحجاز في العصر الفاطمي الثاني وأسباب هذا الضعف ونتائجه .



الفصل الأول

حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية

الفصل الأول

حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية

مدخل :

استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل العرب في الحجاز ؛ بل في الجزيرة العربية كلها تنفض عنها رجس الجاهلية وأوزارها ، فكون منها مجتمعاً إسلامياً موحداً تميز برسوخ العقيدة والاستشهاد في سبيلها ، وقد كون لهم - عليه الصلاة والسلام - دولة إسلامية ثابتة الدعائم والأركان ، وجعل حاضرتها « المدينة المنورة » التي ظلت حاضرة الدولة الإسلامية طوال عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة : أبو بكر وعمر وعثمان ، وبداية عهد علي رضي الله عنهم .

وفي عهد الخلفاء الراشدين ، كان أساس اختيار الخليفة هو الشورى فالخلافة لا تتعين لها أسرة معينة وإنما تنعقد عن طريق اختيار أهل الحل والعقد ، وعلى هذا جرى الأمر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

أما الأمويون فقد انتهجوا في طريقة حكمهم منهجاً سياسياً يخالف المنهج السياسي الذي اتبعه الخلفاء الراشدون ، وهو الخروج بالدولة من نظام الشورى إلى نظام الوراثة مما أدى إلى قيام كثير من المعارضين لهذا المنهج السياسي ، وبخاصة الحجاز الذي اشتدت به الثورات على الأمويين ، وتضافر آل البيت من العلويين والعباسيين للقضاء على الأمويين ، فلما ظفر العباسيون بالخلافة أدرك العلويون أنهم خدعوا من العباسيين الذين استأثروا بالخلافة دونهم فقاموا بعدة ثورات في الحجاز وأمصار إسلامية أخرى ، واستطاع العباسيون القضاء على هذه الثورات ، ثم عملوا على إضعاف شأن الحجاز حتى لا تقوم به حركات أخرى مناوئة لهم ، فصار الحجاز لا يستطيع صد المغيرين عليه إلا بمساندة خارجية ، مما جعل العلويين ينشطون مرة

أخرى في منتصف القرن الرابع الهجري للخروج على العباسيين والاستقلال بالحجاز .

وعلى ضوء هذه الصورة للحجاز ينصب الحديث في هذا الفصل ليشمل خمسة مباحث
جديرة بالبحث والدراسة هي :

أولاً : جهود الأمويين لإخضاع الحجاز .

ثانياً : ضعف الحجاز وعجزه عن صد المغيرين .

ثالثاً : الحجاز في ظل النفوذ العباسي .

رابعاً : غزو القرامطة للحجاز .

خامساً : استقلال الأشراف العلويين بمكة والمدينة .

أولاً : جهود الأمويين لإخضاع الحجاز :

استولى البيت الأموي على خلافة المسلمين بالقوة والغلبة ، لا عن رضا ومشورة ؛ لأن معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا أنصاره ومؤيديه على من خالفه من أهل الحجاز حتى تمّ له الأمر ، ورضي الناس عنه ، والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته^(١) .

لذا كان من الطبيعي أن ينقل الأمويون عاصمة الخلافة إلى دمشق ليكونوا وسط أنصارهم ومؤيديهم ، وأصبح الحجاز ولاية تابعة للدولة الأموية ، يضم مكة والمدينة والطائف ، ويقيم الأمير بالمدينة^(٢) وكان ذلك بالنسبة للحجاز حداً فاصلاً بين عهدين ، عهد كان للحجاز فيه النفوذ السياسي على سائر الأمصار باعتباره دار الهجرة ، ومقر الخلافة الراشدة ، وعهد فقد الحجاز فيه سلطانه السياسي ، وأثر ذلك تأثيراً بالغاً على اقتصادياته منذ أن تحولت موارد

(١) محمد الحصري : الدولة الأموية ص ٥٧٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٦٠ .

الفتوح وعائدات الخراج والجزية إلى دمشق ؛ مما جعل أهله ينقمون على الأمويين وينتظروا الفرصة المناسبة للثورة عليهم .

ولعل معاوية بن أبي سفيان كان يقدر ذلك ويخشاه ، فجعل ولاية الحجاز لأفراد بيته من بني أمية ؛ ليكون أهل الحجاز تحت أنظارهم ، فاستعمل من أبناء عمومته مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ، فكان يولى أحدهما إذا عزل الآخر (١) .

ويبدو أن معاوية كان يخشى أهله ويخاف أن يقع تحت رحمتهم وسلطانهم ، كما فعل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فعمد إلى هذا الأسلوب ، ولم يكتف بهذا بل كان يوق بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتحدوا في وجهه (٢) لكنه قبل وفاته عاد وقسم الحجاز إلى ولايتين فجعل على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص (٣) .

وحاول معاوية أن يعرض أهل الحجاز ما فقدوه من السلطة حين أبعدهم عن الحكم فأغرقهم بالأموال والعطايا لتأليف القلوب ، وشغلهم عن التفكير في القضايا السياسية والمطالبة بالخلافة (٤) وأكثر من الهدايا والهبات لكبار المهاجرين والأنصار (٥) .

ويبدو أن معاوية استطاع بعطاياه السخية أن يكتسب خصومه السابقين من الهاشميين فهدأت الأمور في الحجاز إلى أن فكر معاوية في تحويل نظام الخلافة من الشورى إلى الوراثة

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣١٥ ، ٣٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ، ص ٣٣٨ .

(٤) من ذلك ما تم الاتفاق عليه بين معاوية والحسن بن علي بن أبي طالب على أن يعطيه ما في بيت المال بالكوفة ومقداره خمسة آلاف واتفاقه مع عبد الله بن عباس على أن يتنازل له عما كان في عهده من أموال البصرة حتى يكسب وده (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ، ص ٢٧٢ ، ابن خلدون : العبد ج ٢ ، ص ٦٤٨) .

(٥) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ٩٢ .

باختيار ابنه يزيد ولياً للعهد ، مما جعل الدولة الأموية تتعرض لثورة كثيرة من المعارضين لهذا المبدأ ، فأهل الحجاز لم يألفوا نظام وراثته الحكم الذي ساد بلاد الفرس والروم والذي تأثر به معاوية أثناء حكمه لبلاد الشام ، كما أن الحجاز مهد التقاليد الإسلامية والعربية العريقة التي ترفض هذا المبدأ^(١) .

وكان على رأس المعارضين كبار أبناء الصحابة وهم الحسين بن علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر^(٢) وكانت معارضتهم شديدة فلم يستطع معاوية برغم ما جهد أن ينال اعترافهم باستخلاف يزيد من بعده .

وقد اضطر معاوية إلى مواجهة هذه المعارضة بخطوة سياسية بارعة انتزع بها البيعة من أهل الحجاز فاتجه بنفسه إلى هناك في ألف فارس من أتباعه ، فلما اقترب من المدينة قابل كبار أبناء الصحابة مهدداً متوعداً بقتلهم إن لم يبايعوا ، ثم تركهم ومكث بالمدينة فترة لعلمهم يعودون إليه^(٣) فلما عادوا إليه أصرروا على الرفض ، فهددهم بالسيف والضرب والسجن ، ثم خرج إلى أهل الحجاز وأوهمهم أن كبار أبناء الصحابة بايعوا مع أنهم عارضوه^(٤) .

وكان معاوية يظن أنه بهذه السياسة التي اتبعها وبهذه البيعة التي أخذها لابنه يزيد في حياته قديسر الأمور وهيئها له ، فقد ذكر ابن الأثير أنه لما مرض معاوية مرضه الأخير الذي مات فيه دعا ابنه يزيد وقال له : « يا بني إني قد كفيتك الشدة والترحال ووطئت لك الأمور ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد »^(٥) .

لكن الأمور لم تجري حسبما أراد ، إذ عقب وفاته مباشرة بدأ الاضطراب واشتعلت الثورات على يزيد منذ تولى الخلافة ، وكان الدافع الرئيسي لهذه الثورات - غالباً - هو تقرير

(١) جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص ٩٨ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٣٠٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٥٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٥٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٦٨ .

بحيث فقدت المدينة نفوذها السياسي، وكثيراً من مواردها الاقتصادية .

وقد بدأت الثورة على يزيد عقب توليه الخلافة حينما طلب من عامله على المدينة المنورة إلزام الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير إلزاماً شديداً بالبيعة ، إلا أن الحسين وابن الزبير لما دعيا إلى البيعة ليزيد رفضا وخرجا من ليلتهما إلى مكة تخلصاً من أمير المدينة المكلف بأخذ البيعة منهما ليزيد^(١) .

وفي الوقت الذي كانت الأمور في الحجاز تجري على هذا النحو كان الشيعة في الكوفة يتخذون موقفاً مماثلاً حين بلغهم موت معاوية واستخلاف يزيد ، وأن الحسين قد امتنع عن البيعة واستقر بمكة ، فتدارسوا الأمر ، ورأوا أنها فرصة للتخلص من حكم الأمويين ، وإعادة الدولة كسابق عهدها أيام علي بن أبي طالب ، فأرسلوا إلى الحسين بن علي يطلبونه^(٢) ويحرضونه على المطالبة بالخلافة ، لأنه أحق بها من يزيد بن معاوية ، فدعا الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل وطلب منه المسير نحو الكوفة ليتبين الأمر ، ويمهد له سبيل العمل هناك قبل مغادرته مكة ، وإن رأى الناس مجتهدين على بيعته عجل إليه بذلك^(٣) .

سار مسلم إلى الكوفة وأقبلت عليه الشيعة فاغتر بلقائهم الحماسي وأرسل إلى الحسين يستعجل قدومه^(٤) ، ومن ناحية أخرى أحست السلطات الأموية بما يحدث في الكوفة فبادرت بإرسال عبيد الله بن زياد والياً عليها ، ليضبط الأمور بها على النهج الذي اتبعه والده من قبل أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، واستطاع الوالي الجديد السيطرة على الأمور وانتصر على الشيعة وقتل قاداتهم ، ومن بينهم مسلم بن عقيل^(٥) .

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٣٣٨ ، ٣٤١ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٤ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٧ .

(٣) محمد الحصري : الدولة الأموية ص ٤٥٤ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٢٨ .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٣٩٥ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٦٨ .

وكان الحسين قد تأهب للمسير فنصحته كبار الصحابة وغيرهم بالابتعاد عن العراق وعدم الاطمئنان لشييعته فلم يستجب لهم^(١) ، وخرج في جماعة من شييعته تبلغ ثمانين رجلاً ومعه نساؤه وأطفاله قاصداً الكوفة ، فلما بلغه ما حدث لم يتراجع^(٢) ، وواصل المسير حيث التقى بالقوات الأموية في معركة غير متكافئة سقط فيها قتيلاً عند كربلاء بالقرب من الكوفة في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ / العاشر من أكتوبر سنة ٦٨٠ م^(٣) .

قضى الأمويون على الحسين لكنهم لم يقضوا على ثورته من أجل المبدأ والحق ، إذ لم تلبث الأمة أن وجدت من أبنائها من يثور من أجلها ويغضب لحقها^(٤) بعد أن ظن يزيد أنه تخلص من منافسيه بقتل معظمهم في كربلاء ، فقد كان هناك عبد الله بن الزبير الذي لم يقبل هو الآخر مبايعة يزيد ، وذهب إلى مكة وأظهر أنه عائد بالبيت^(٥) ، فلما بلغه مقتل الحسين سيطر على مكة وأخذ البيعة من أصحابه ، ولم يستطع عمرو بن سعيد عامل يزيد على مكة والمدينة أن يفعل شيئاً ضده^(٦) فعزله يزيد وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان^(٧) الذي اشتد على ابن الزبير مما جعله يلجأ إلى المكر والدهاء : لسياسي للتخلص منه فكتب إلى يزيد ابن معاوية « إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق لا يتجه لأمر رشد ولا يرعوي لعظة الحكيم ، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق ، لين الكتف رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها وأن يجتمع ما تفرق فانظر في ذلك فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله »^(٨) .

-
- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٩٩ .
 (٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٣٨٩ .
 (٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧ ، المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٧١ ، ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠٠ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٣٢ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٢٩ .
 (٤) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص ١٢ .
 (٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٨٠ .
 (٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٧٨ .
 (٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٤٦ .
 (٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٧٩ .

واستجاب يزيد لكتاب ابن الزبير وأرسل إلى الوليد فعزله وبعث مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، وكان فتى حدثاً لم تصقله التجارب ولا خبرة له بعمله^(١) ، فكان سبباً في خروج أهل المدينة من المهاجرين والأنصار على يزيد .

ففي مستهل عمله أرسل وفداً من أشرف أهل المدينة إلى دمشق ليرى الخليفة مدى طاعتهم له ، فلما ذهبوا إليه أكرم يزيد وفادتهم وأغدق عليهم الأموال والهبات متبعاً نهج والده وظن بذلك أنه يستميل قلوبهم وقلوب أهل المدينة^(٢) لكن أعضاء هذا الوفد ما لبثوا بعد عودتهم إلى المدينة أن أذاعوا بين الناس ما شاهدوه في حاضرة الدولة من معيشة لا تتفق مع الدين وتقاليد الخلفاء الراشدين^(٣) ، وقالوا : قدمنا من عند رجل ليس عنده دين ، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ، وتضرب عنده القيان ، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه ، فثار أهل المدينة حينما سمعوا ذلك وخلعوا من فورهم طاعة يزيد^(٤) .

ولم يكتف أهل المدينة بخلع طاعة يزيد ؛ بل اجتمعوا وحاصروا بني أمية في دار مروان ابن الحكم بالمدينة ، فاستغاث بنو أمية بيزيد^(٥) فأعد جيشاً ضخماً من جند الشام وأسند قيادته إلى مسلم بن عقبة المري ، وكان شيخاً كبيراً مريضاً لكنه كان يمتاز بالكفاءة والشدة^(٦) ، فلما علم أهل المدينة بمقدم الجيش أخرجوا بني أمية بعد أن أخذوا المواثيق والعهود منهم بأن يسيروا إلى الشام ولا يساعدوا أحداً عليهم^(٧) .

ويذكر الطبري : أن مسلم بن عقبة سار لقتال أهل المدينة فتقابل مع بني أمية المطرودين ،

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٤٩ .

(٣) جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص ١٠٦ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ج ٣ ص ٤٥٠ .

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٨٢ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٥ .

(٧) المصدر السابق ص ٤٥٦ .

وطلب إليهم أن يشيروا عليه بما يجب أن يفعله فأرشده عبد الملك بن مروان إلى كيفية الدخول إلى المدينة فزحف إليها مسلم متبعاً الخطة التي أشار بها عبد الملك^(١) فوصل إلى « الحرة » وهي الأرض الصخرية البركانية الواقعة شمالى شرق المدينة^(٢) ، فخرج إليه أهلها بقيادة عبد الله بن حنظلة الغسيل^(٣) والتحموا مع جند الخليفة في معركة شديدة انتهت بهزيمة أهل المدينة، وقتل عدد كبير من بني هاشم ، وسائر قريش والأنصار^(٤) ، ويقدر عدد القتلى بسبعمائة من المهاجرين والأنصار وعشرة آلاف من الموالي وغيرهم^(٥) .

ومما لا شك فيه أن هذه الواقعة قد أضعفت من قوة المدينة ومقوماتها الذاتية بسبب كثرة من قتل فيها .

ولقد أباح مسلم المدينة لجنده ثلاثة أيام بعد هزيمة أهلها في هذه المعركة التي أطلق عليها المؤرخون « وقعة الحرة »^(٦) .

وفي اليوم التالي دعا مسلم الناس للبيعة ، وبالف في امتهانهم بأن طلب منهم المبايعة على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية ، ومن أبى قتله بالسيف^(٧) ، وبعد أن انتهى من أخذ المبايعة ليزيد سار بمن معه من الجند متوجهاً إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير لكن المنية وافته قبل أن يصل إلى مكة ، فاستخلف على الجند الحصين بن غير السكوني ، فمضى الحصين بالجيش الأموي إلى مكة وحاصرها واشتد على الثائرين ، ورمى الحرم بالمجنيق والنفط حيث

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٨٦ .

(٢) كارل برركلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٢٩ ، جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية ص ١٠٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٧٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ حاشية ص ٤٦٢ .

(٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٩٤ - ٤٩٥ ، ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٤٥٥ - ٤٦١ .

ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠١ .

(٧) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٧٩ .

كان ابن الزبير متحصناً به^(١) .

وبعد أن حاصر الحصين مكة طوال شهرين بلغه نعي الخليفة يزيد ، فأوقف القتال وتفاوض مع ابن الزبير على البيعة له بالخلافة شرط أن يهدر الدماء التي كانت بين جند الشام وأهل الحرم وأن يخرج إلى الشام لبياعه هناك ، لكن ابن الزبير رفض الخروج من الحجاز^(٢) لأنه أدرك أن الدافع وراء هذه البيعة هو الإحساس القبلي لا الرغبة في العودة إلى إنصاف الأمة بتقديم خير رجالها إلى منصب القيادة عن طريق الإيمان الحق بحقها في الاختيار والعدول عن نظام الوراثة^(٣) .

ولما رفض ابن الزبير الخروج من الحجاز رفع الحصين الحصار وعاد بجنده إلى الشام^(٤) ، وأذعنت جزيرة العرب كلها لابن الزبير^(٥) ، وانتشرت دعوته في بعض أمصار العراق والشام ومصر^(٦) ، لكن الأمور لم تدم على هذه الحال ، فحينما تولى الخلافة مروان بن الحكم دخل مصر سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤م وأعادها إلى حوزة الخلافة^(٧) وبعد وفاته سار ابنه عبد الملك بن مروان على نهجه فتمكن من إعادة العراق للأمويين في سنة ٧١ هـ / ٦٩١م^(٨) .

ولم يبق أمام عبد الملك إلا عبد الله بن الزبير الذي كان يسيطر على الحجاز كله من مقره في مكة، فوجه إليه الحجاج بن يوسف الثقفي ، فاتخذ من مسقط رأسه الطائف قاعدة لعملياته الحربية ، وتقدم من هناك إلى مكة فحاصرها كما فعل الحصين بن غير من قبل وقذف

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٩٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٠٢ .

(٣) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص ١٦٦ .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٠٢ .

(٥) شيديو : تاريخ العرب العام ص ١٤٧ .

(٦) جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص ١١٠ .

(٧) الكندي : تاريخ ولاية مصر ص ٤١ .

(٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ١٦٧ ، المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١١٧ .

الكعبة بالمنجنيق^(١) وظل يضيق الخناق عليه حتى تفرق عنه جل أنصاره ، لكن ابن الزبير ظل يقاتلهم ولم يستسلم حتى قتل في سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م^(٢) وبمقتل ابن الزبير تم للأمويين إخضاع الحجاز لسيادتهم ، وانتهى الدور الأساسي في مشاركة الحجاز في حياة العالم الإسلامي من الناحية السياسية مشاركة ذات أثر فعال ولم يعد سكان الحجاز يهتمون بأمور السياسة فانصرف بعضهم لدراسة الحديث والفقه^(٣) بينما انصرف البعض الآخر إلى الترف واللهو وسماع الغناء والموسيقى^(٤) وفقد الحجاز قدراته الحربية وصار ضعيفاً لا يستطيع الدفاع عن نفسه إلا بمساعدة رجال الخلافة .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٢٢ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٢ .

(٣) كانت مكة والمدينة مركزين من أهم مراكز الحياة العلمية في صدر الإسلام ، فكان يقصدهما طلاب الحديث والفقه للدراسة ، وقد نشأت مدرسة مكة عقب فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمكة وتركه عبد الله بن معاذ يفقه أهلها ويقرئهم القرآن ، وكذلك درس بمكة عبد الله بن عباس في أخريات أيامه ، فكان يجلس في البيت الحرام يعلم التفسير والحديث والفقه ، وإلى عبد الله بن عباس وأصحابه يرجع الفضل بما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية ، وأشهر من تخرج في هذه المدرسة من التابعين : مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح وطاوس بن كيسان واستمرت هذه المدرسة قائمة تتلقى فيها العلم طبقة عن طبقة . أما مدرسة المدينة فكانت أكثر علماً وأوفر شهرة ، وقد درس فيها زيد بن ثابت الأنصاري وعبد الله بن عمر ، وعلى أمثال هؤلاء تخرج كثير من العلماء التابعين ، من أشهرهم : سعيد ابن المسيب وعروة بن الزبير ، وعن هذه الطبقة أخذ ابن شهاب الزهري القرشي (عمر كحالة : مقدمات ومباحث ص ١٣٧-١٣٨) .

(٤) بجانب الحياة الدينية الجليلة التي كانت تسود الحجاز كانت هناك حياة أخرى كلها لهو ومرح وطرب يرجع للأمويين الفضل فيها لصرف أهل الحجاز وأشرافها عن السياسة ، ففي عهد معاوية كان ولاته على المدينة يعقدون مجالس للغناء يحضرها الأمير وكان ابنه يزيد صاحب طرب وترف ومنادمة على الشراب ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاحى وأظهر الناس شرب الشراب . ففي عام ١٦٩هـ / ٧٨٥م قبض عمر بن عبد العزيز على أحد العلويين مع آخرين على شراب فأمر بضربهم جميعاً (المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٧٧ - آدم منز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٧٧ - عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي ص ٣٠) .

ثانياً : ضعف الحجاز وعجزه عن صد المهجرين :

اشتد الأمويون على أهل الحجاز وقتلوا الكثير منهم حتى ضعفت قوتهم الذاتية فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ضد المغيرين الذين هجموا عليهم في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين .

فقد هاجم الخوارج الإباضية^(١) الحجاز بقيادة أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي^(٢) الذي قدم سنة ١٢٩هـ / ٧٤٦م على رأس جيش يتألف من نحو سبعمائة رجل من الخوارج يرفعون الأعلام والعمائم السود على رؤوس الرماح ففزع الناس منهم^(٣) وكان العامل الأموي على الحجاز عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك^(٤) فأرسل إلى أبي حمزة الخارجي وفداً من كبار أبناء الصحابة يضم عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر^(٥) وطلبوا منه عقد الهدنة بينهم وبينه

(١) الخوارج الإباضية هم أتباع عبد الله بن إباح ، وقد خرجوا زمن مروان بن محمد ، ومن مذهبهم أن مخالفتهم كفار نعمة فقط وعلى هذا يجوز التعامل معهم وموارثتهم إلا أنهم ، استحلوا من أموال الخيل والسلاح أما الذهب والفضة فإنهم يردونها على أصحابها عند الغنيمة (عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ٦١-٦٣ ، الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٣٤) .

(٢) أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي أحد الخوارج الإباضية الذين كانوا يأتون إلى مكة في مواسم الحج لنشر مبادئهم وإثارة الناس منتهزين قرصة تجمع المسلمين في الموسم وقد تقابل أبو حمزة مع عبد الله بن يحيى وهو رجل من حضرموت كان ثائراً على حكام بني أمية فأعجب بحديث أبي حمزة واصطحبه معه إلى حضرموت حيث استطاع عبد الله بن يحيى السيطرة على حضرموت وبايعه الخوارج خليفة لهم ، ولقب نفسه بطالب الحق وخطب بأمير المؤمنين ثم قرر غزو الحجاز لما له من قيمة دينية في نظر المسلمين جميعاً تضافى على صاحبه الشرعية باعتباره صاحب الحرمين الشريفين فأرسل عبد الله بن يحيى أبا حمزة على رأس حملة عسكرية لغزو الحجاز (المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٥٧ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢٣ ، ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢١٠) .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣٩ .

(٤) كانت ولاية الحجاز آنذاك تشمل مكة والمدينة والطائف (المصدر السابق ص ٤١) .

(٥) المصدر السابق ص ٣٩ .

حتى ينتهي موسم الحج فوافق أبو حمزة على ذلك^(١) .

وبعد انتهاء الموسم لم يستطع الوالي الأموي على الحجاز مقاومة أبا حمزة ، فترك مكة إلى المدينة فاستولى أبو حمزة على مكة بغير قتال^(٢) ، ثم سعى للاستيلاء على المدينة ، فجهز عامل الحجاز جيشاً بقيادة عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان فيه عدد كبير من رجال قريش^(٣) ، فلما كانوا بالعقيق أتتهم رسل أبي حمزة يطلبون أن يخلوا بينهم وبين الأمويين ويقولون لهم : إننا والله ما لنا بقتالكم حاجة ، دعونا نمضي إلى عدونا ، فأبى أهل المدينة الاستجابة لهم ، وساروا حتى نزلوا قديداً فالتقوا مع قوات أبي حمزة فدارت الدائرة على أهل المدينة وقتل من رجالها نحو سبعمائة معظمهم من قريش^(٤) وفروا من الحجاز إلى الشام^(٥) .

وقد وصف ابن الأثير جيش أهل المدينة عقب هذه المعركة بأنهم : كانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب^(٦) ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى مكر ودهاء الأمويين الذين أغدقوا الثروات الطائلة على كبار رجال مكة والمدينة حين أبعدوهم عن الحكم ، فجرهم هذا إلى حياة البطالة والترف ، حتى أصبحت المدينة مقراً للطبقة المترفة ، ومنجهاً لكل من يريد حياة الدعة والنعيم^(٧) ، ففقد أهلها ميقاتهم الحربية وغرق شبابها في اللهو والترف ، وقد ذكر المسعودي أن الغناء ظهر بمكة والمدينة أيام الأمويين ، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب^(٨)

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢١٠ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٤٩ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢١٠ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٤٩ .

(٧) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص ٤٥٢ .

(٨) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٧٧ .

وانصرفوا إلى اللهو والمجون فكان الحجاز موطن الغناء وموطن الموسيقى وموطن اللهو والغزل^(١) بالإضافة إلى الثورات التي أفنت خيرة شباب الحجاز .

ونتيجة لهذا لم يعد بأهل الحجاز قدرة على الصمود والتصدي للأعداء فلقوا قوة صغيرة كقوة أبي حمزة فلم يستطيعوا التغلب عليها .

واستقر أبو حمزة في المدينة لمدة ثلاثة أشهر^(٢) حتى أرسل الخليفة الأموي مروان ابن محمد جيشاً كبيراً من أربعة آلاف فارس^(٣) التقوا بجيش الخوارج في وادي القرى فهزم الخوارج وقتل عدد كبير منهم^(٤) ، وفر أبو حمزة إلى مكة في بقية من جنده حيث لحقهم الجند الأموي فكانت بينهم وقعة أخرى قتل فيها أبو حمزة ومن معه^(٥) ، وسار جيش الأمويين نحو اليمن فاستولى على صنعاء وحضرموت وقتل عبد الله بن يحيى « طالب الحق »^(٦) .

ومما سبق نلاحظ أن الأمويين قد استطاعوا إضعاف الحجاز والقضاء على فاعليته من الناحية العسكرية فصار إقليماً ضعيفاً من أقاليم الدولة لا يستطيع الدفاع عن نفسه إلا بقوة خارجية بعد أن كان حاضرة المسلمين ومركز الخلافة في صدر الإسلام ، ومركز انطلاق المجاهدين لتحرير الشعوب من عبودية الأصنام والأوثان ولنشر دين الله . وظل الحجاز على ضعفه منذ العصر الأموي وحتى قيام الدولة العباسية .

(١) عزيز فهمي : المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي ص ٩٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٥١ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢١١ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٥١ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٥٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٥١ .

ثالثاً : الحجاز في ظل النفوذ العباسي :

تضافر آل البيت من العلويين والعباسيين للقضاء على الأمويين ، فلما ظفر العباسيون بالخلافة أدرك العلويون أنهم خدعوا من العباسيين الذين استأثروا بالخلافة دونهم ، فقاموا بعدة ثورات في الحجاز ، وتتبع العباسيون المعارضين من العلويين واضطهدوهم بصورة أشد وأقسى مما كانت عليه في العصر الأموي ، وأصبح الحجاز ملاذاً للثائرين من العلويين ، وأظهر مثال لذلك ثورة محمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية وكان قد امتنع عن بيعته أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور^(١) .

ويعلل كثير من المؤرخين سبب امتناعه عن البيعة بأن بني هاشم جميعاً بايعوه بالإمامة حين اشتدت الأمور على مروان بن محمد واجتمع بنو هاشم للتشاور بالأمر ، بعد أن تذكروا ما هم عليه من الاضطهاد وما آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وكان أبو العباس السفاح والمنصور وكثير من العباسيين ضمن المبايعين في الاجتماع ، فلما نقض العباسيون هذا الاتفاق ونقلوا الحكم إليهم امتنع محمد عن مبايعة السفاح ، كما تخلف هو وأخوه إبراهيم عن البيعة للمنصور^(٢) .

وخشي المنصور عاقبة هذا الموقف فعمل جاهداً على تغييره ، وحرص على الظفر بمحمد وإبراهيم لما في أعناق بني هاشم من البيعة لمحمد ، ويبدو أنه أراد التخلص منهما كما التخلص من منافسيه عبد الله بن علي ، وأبي مسلم الخراساني من قبل ، لذا اتخذ محمد وأخوه ملجأ لهما اختفيا فيه عن أعين المنصور ورجاله ، وأخذ المنصور يجد في طلبهما ، ويعمل الحيل في سبيل الظفر بهما^(٣) .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢٣٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٣٧ ، ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٤١ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢٣٦ .

ولما أعجزه القبض عليهما عزل زياد بن عبد الله عامله على المدينة ، وعين مكانه محمد ابن خالد القسري ، وأمده بالأموال الكثيرة كي يتمكن من القبض عليهما ، لكنه لم يقف لهما على أي أثر ، فعزله المنصور واتهمه بالتهاون والتفريط^(١) .

وفي سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م أرسل رياح بن عثمان بن حيان المري - ابن عم مسلم بن عقبة المري قائد «الحرّة» في عهد يزيد بن معاوية - والياً على المدينة فأخذ يجد ويسعى من أجل القبض عليهما ، لكنه لم يستطع فلجأ إلى سجن العلويين من أبناء الحسن^(٢) وتقييدهم بالسلاسل في أعناقهم وأرجلهم ، فلما حضر المنصور للحج في ذلك العام أحضرهم وسألهم عن محمد وإبراهيم فلم يعطوه جواباً يشفي غليله ، فأمر بإرسالهم إلى العراق مقيدين بالأغلال حيث حبسوا في قصر ابن هبيرة شرقي الكوفة^(٣) .

لم ير محمد بن عبد الله بداً من الظهور بعد أن علم بما حل بأهله من العسف والإرهاق^(٤) فقرر أن يضع حداً لهذا بإعلان ثورته في سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م ، فخرج في مائتين وخمسين رجلاً من أنصاره^(٥) وتبعه أعيان المدينة ، وعزل واليها من قبل المنصور ، وعين والياً آخر مكانه ، وكسر أبواب السجون ، وأطلق المسجونين بها^(٦) ، ودعا إلى نفسه ، وتلقب بأمير المؤمنين ، واعترف الناس في مكة والمدينة بإمامته^(٧) ، وذهب أخوه إبراهيم إلى البصرة لكي يكون مؤازراً له هناك ، وتقوية لحركته التي ظهرت بالحجاز ، فاستولى على دار الإمارة بالبصرة ، وهزم قوات الخليفة المنصور ، وانضوى كثير من الناس تحت لوائه ، واجتمع له كثير

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٦ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٤٨ .

(٦) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٤٣ .

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٤٩ .

من الفقهاء وأهل العلم^(١) ، وامتد بذلك نفوذ محمد بن عبد الله إلى البصرة .

أعد المنصور جيشاً قوياً بقيادة عيسى بن موسى ابن أخيه والتقى هذا الجيش بأنصار محمد بن عبد الله ، ولم يقو محمد بن موسى معه على الصمود لقوات المنصور فقتل وهزم أصحابه يوم ١٤ رمضان ١٤٥ هـ / ٧ ديسمبر ٧٦٢ م^(٢) .

ولم يكن لحركة محمد بن عبد الله من رد فعل في المدينة سوى ثورة السودان على جند الوالي الجديد عبد الله بن ربيع الحارثي واستيلائهم على بعض أمتعة كانت موجهة للمنصور ، ولكن الأمر انتهى بخلودهم إلى السكينة ، ورد ما انتهبوا^(٣) .

وكما فشلت حركة محمد في الحجاز فشلت حركة إبراهيم في العراق ، لأنه بعد قضاء عيسى بن موسى على ثورة محمد النفس الزكية سرعان ما أنفذه أبو جعفر لمحاربة أخيه إبراهيم ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين في باخري بين الكوفة وواسط^(٤) حيث هزمت قوات إبراهيم وقتل في ١٤ ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ / ١٤ فبراير ٧٦٣ م^(٥) ، وبذلك اندحرت هذه الحركة العلوية وخلص الأمر للعباسيين .

ظل الحجاز بعد ذلك ساكناً تحت الحكم العباسي ، وركن العلويون إلى الهدوء بعد مقتل النفس الزكية محمد بن عبد الله ، فلم تظهر في الحجاز حركة مناوئة للعباسيين ، وتولى المهدي الخلافة فبدأ حكمه بالعفو السياسي العام وأطلق من كان في سجون المنصور إلا من كان عنده تبعة من دم أو مال ، أو يسعى في الأرض فساداً^(٦) ورد على أولاد جعفر الصادق أموال بني

(١) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٦١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٣٥ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢٤٦ ، ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٤٤ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢٥٩ .

الحسن التي صودرت بالمدينة أيام ثورة محمد بن عبد الله^(١) ، ونقل خمسمائة من الأنصار إلى العراق جعلهم في حرسه ، وأقطع لهم وأجرى عليهم الأرزاق^(٢) .

واهتم المهدي بالحرمين اهتماماً خاصاً فأمر ببناء المحطات للقوافل على طول الطريق إلى مكة وأمر ببناء المصانع (الصهاريج) لحزن المياه ، وحفر الآبار فيها ، وجعل عليها موظفاً خاصاً هو صاحب المصانع^(٣) ، ولتسهيل الاتصال بين أطراف الحجاز أمر بإقامة البريد بين مكة والمدينة ، ولم يكن هناك بريد قبل ذلك ، وكذلك إقامة البريد بينهما وبين اليمن بالبغال والإبل^(٤) وعلى عهده جددت كسوة الكعبة ، كما أن المسجدين الحرمين بمكة والمدينة كانا محل رعايته فجدهما وزاد فيهما^(٥) .

فلما توفي المهدي سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م خلفه ابنه موسى الهادي ، وفي عهده أساء والي المدينة معاملة العلويين وبخاصة الحسن بن محمد النفس الزكية ، واتهمهم بشرب النبيذ ، وقبض عليهم ، وشهر بهم بين أهل المدينة ، ووضعهم تحت المراقبة ، وصار يبعث في طلبهم كل يوم ، فثار الحسين بن علي بن الحسن على عامل المدينة ، واعترض على التشهير بأهل بيته وأعلن خروجه على الخليفة الهادي^(٦) ودخل هو وأتباعه الحرم النبوي بالمدينة فاجتمع إليه كثير من أهلها وبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- للمرتضى من آل محمد ، وأوقع أصحاب الحسين الهزيمة بالعباسيين في المدينة ، ثم وضعوا أيديهم على ما في بيت المال من الأموال^(٧) .

(١) سعد زغلول عبد الحميد : التاريخ العباسي والأندلسي ص ٨٧ مكتبة كريدية - إخوان بيروت ١٩٧٦م.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢٣٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٥٣ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢٦٣ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٧٠ .

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢٦٦ .

وبعد أن قضوا بالمدينة أحد عشر يوماً قرروا الخروج إلى مكة فلقبهم جيش العباسيين بفخ ، وهو واد في طريق مكة يبعد عنها ستة أميال^(١) ودارت معركة بين الفريقين تقرر فيها مصير العلويين حيث قتل الحسين بن علي بن الحسن وقتل معه بعض أهل بيته^(٢) .

وكانت موقعة فخ بعيدة الأثر فقد أعقبتها ثورتان علويتان ببلاد الديلم وفي شمال أفريقيا وقد انتهت الأخيرة بقيام دولة الأدارسة^(٣) .

وهكذا نجح العلويين ثائرين ساخطين على العباسيين ما وجدوا إلى ذلك من سبيل ، والعباسيون يوالونهم بالحرب والتنكيل والتشريد .

وقد أصبحت المدينة المنورة مأوى تراجعت إليه العناصر العلوية ، وقد ساعد على ذلك قرار هارون الرشيد إخراجهم من بغداد إليها بعد سنتين من خلافته في آخر سنة ١٧١هـ / ٧٨٧م^(٤) ولم تقم بالحجاز - آنذاك - ثورات على الرشيد ، إلا أنهم في عهد المأمون قاموا بعدة ثورات عليه ففي جمادى الآخرة سنة ١٩٩هـ / ٨١٤م خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا ، وصار يدعو إلى الرضا من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وعاونه في نشر دعوته قائد جنده أبو السرايا السري بن منصور الشيباني الذي استولى على الكوفة من واليها العباسي^(٥) .

(١) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٥٤ .

(٢) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٣) نجا من معركة فخ علويان أخوان هما يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، فذهب يحيى إلى بلاد الديلم ، حيث جمع الانتصار حوله وخرج على العباسيين أيام هارون الرشيد ، فأرسل الرشيد إليه جيشاً في خمسين ألفاً بقيادة الفضل بن يحيى البرمكي الذي استطاع مصالحة يحيى والحصول على أمان له من الرشيد . أما إدريس فقد فر إلى مصر هارباً ثم خرج منها إلى شمال إفريقية ، وفي المغرب الأقصى التف حوله أهلها من البربر ، وأعلن خروجه على الرشيد سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م ، فاستطاع الرشيد أن يدس عليه بعض أعوانه فقتلوه بالسسم سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣م لكن أتباعه انتظروا أمة له كانت حاملاً حتى وضعت ولداً حمل اسم أبيه ، فبايعه أهل المغرب الأقصى بالخلافة وقامت بذلك دولة الأدارسة (انظر ابن خلدون العبر ج ٣ ص ٢٧٤ ، ج ٤ ص ١٧ - ١٨) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٨٢ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٠٤ .

وبعد وفاة محمد بن إبراهيم ولي أبو السرايا خلفاً له غلاماً من العلويين يدعى محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي وضرب الدراهم باسمه في الكوفة^(١) وأرسل الحسين بن الحسن الأقطس^(٢) عاملاً من قبله على مكة ، فقام بالاستيلاء على ودائع بني العباس هناك ، وأخذ أموال الناس ثم عمد إلى خزانة الكعبة فأخذ جميع ما فيها من الأموال وقسمها على أصحابه^(٣) ، واستقر بمكة إلى أن بلغه مقتل أبي السرايا سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ، فذهب هو وأصحابه إلى محمد الديباج^(٤) بن جعفر الصادق وسأله المبايعة له بالخلافة ولم يزالوا به حتى وافقهم^(٥) ودعا لنفسه بمكة وتسمى بأمر المؤمنين ، فأرسل له المأمون عسكرياً تمت له الغلبة على محمد وظفر المأمون به وعفا عنه ، وقد مات بجرجان ودفن بها^(٦) .

ويبدو أن عودة العلويين للثورة في عهد المأمون ترجع إلى الخلاف الذي وقع بينه وبين أخيه الأمين على الخلافة ، فظن العلويون أن الفرصة سانحة للانتفاض على العباسيين لكن المأمون تصدى لهم وقضى على حركاتهم ، ومع ذلك فقد كانت سياسته معهم تنطوي على التسامح والود ، ولم ينس ذلك حتى وفاته فأوصى أخاه المعتصم بهم قائلاً له : « هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي - صلوات الله عليه - فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم وأقبل من محسنهم ولا تغفل عن صلاتهم في كل سنة عند محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى »^(٧) .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٤١٨ .

(٢) هو الحسن بن الحسن بن علي الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بالأقطس (العصامي المكي : سبط النجوم العوالي ج ٤ ص ١٨٨) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) هو محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين وكان يسمى بالديباج والديباجة لحسنه وبهاته (ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٤٢٢ - ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٠٥ - المسعودي : مروج الذهب ج ٤ ص ٢٧) .

(٥) العصامي المكي : سبط النجوم العوالي ج ٤ ص ١٨٩ .

(٦) المسعودي : مروج الذهب ج ٤ ص ٢٦ - ٢٧ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٤٢٢ .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٨ .

ويتضح مما سبق أن العلويين بالحجاز لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ أنهم أحق بالخلافة من أبناء عموماتهم العباسيين ، فكانوا يثرون في وجه الدولة الحاكمة كلما سنحت لهم الفرص وتهيات لهم الأسباب ، وظل ذلك حالهم طوال العصر العباسي الأول .

ولم يهدأ العلويون في العصر العباسي الثاني ؛ بل واصلوا نضالهم ضد العباسيين وانتهزوا فرصة ضعفهم واضطراب الأمر في بلادهم من جراء استئثار الأتراك بالسلطان والنفوذ ، فقام أحد العلويين ويدعى إسماعيل بن يوسف^(١) بالهجوم على مكة في سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م فهرب منها عامل المستعين جعفر بن الفضل المعروف بشاشات^(٢) فتمكن إسماعيل من دخول مكة وهزيمة الجند العباسي بها ، وقتل الكثير منهم^(٣) ، وسلب دار الوالي العباسي ، وعمد إلى الكعبة الشريفة فأخذ كسوتها وما وجد في خزانتها من الأموال^(٤) ، ونهب مكة وأخذ من أسلحتها نحو مائتي ألف دينار بعد أن قتل كثيراً منهم^(٥) وبعد أن استقر بمكة مدة خمسين يوماً غادرها إلى المدينة المنورة^(٦) فهرب منه عاملها العباسي ودخل إسماعيل المدينة فظلم أهلها وخرّب دورهم^(٧) .

ولعل إسماعيل علم بخروج أهل مكة عليه نظراً لسوء معاملته لهم فعاد إليها وحاصرها واشتد على أهلها فكادوا يموتون جوعاً وعطشاً ، ولقي أهل مكة منه كل شدة وبلاء ، ثم تركها بعد سبعة وخمسين يوماً^(٨) وسار إلى جدة فنهبها وأخذ أموال التجار وأصحاب

(١) هو إسماعيل بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ١٩٠ - عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٣٢٩) .

(٢) هو جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (العصامي : سمط النجوم ج ٤ ص ١٩٠) .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٣٤٦ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٨١ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٦) تقي الدين القاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣١٢ .

(٧) عمر بن فهد : إتحاف الوري بأخبار أم القرى ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٨١ .

المراكب^(١) ثم اتجه إلى عرفة حيث تقابل مع جند العباسيين الذين أرسلهم الخليفة بقيادة عيسى بن محمد المخزومي فانتصر عليهم إسماعيل وقتل عدداً كبيراً منهم ، ومن الحجاج حوالي ألف مائة نفس^(٢) مما اضطر الحجاج إلى الهرب من عرفة ولم يقف بها أحد ليلاً ولا نهراً سوى إسماعيل وجنده^(٣) ، الذين عادوا بعد ذلك إلى جدة فعاثوا فيها فساداً بالقتل والنهب^(٤) .

وقد غضب أهل الحجاز من إسماعيل بن يوسف العلوي لما قام به من قتل الأبرياء ونهب الأموال ، وانتهاك حرمة الشهر الحرام فلم ينضم إليه أحد منهم سوى أعراب الحجاز من أهل البادية القاسية قلوبهم ، وقد أطلق عليه لقب «السفاك» لكثرة ما أراق من الدماء^(٥) .

وتوفي إسماعيل بن يوسف العلوي مريضاً بالجدري في سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م^(٦) وخلفه أخوه محمد بن يوسف^(٧) ، بيد أنه لم يجد مناصرة من أهل الحجاز فتركها ورحل وعادت مكة والمدينة إلى النفوذ العباسي من جديد^(٨) . إلى أن تولى الخلافة المقتدر العباسي^(٩) ، وساءت الأحوال في عهده بسبب إسرافه وعزله الوزراء والقبض عليهم وتدخل النساء في أمور الدولة وانصرافه إلى اللهو^(١٠) .

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج ١ ص ٤٣٥ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الوري بأخبار أم القرى ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٣٤٧ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٧ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ٣ ص ٣١٣ .

(٧) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج ١ ص ٤٣٦ .

(٨) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ١٩١ .

(٩) هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد بويه له بالخلافة في سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٧م وعمره ثلاثة عشرة سنة وقد

قتل المقتدر سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢م (ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٢٨ ، ٢٣٣) .

(١٠) يروي ابن الطقطقي : « أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخطيط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول ببلذته ، فخربت الدنيا في أيامه وملت بيوت الأموال واختلفت الكلمة » انظر : الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٣٠ .

مما أدى إلى ضعف الدولة وانتشار الفتن ، بها واستغل ذلك أحد العلويين الطامحين إلى النفوذ والسلطان ويدعى محمد بن سليمان^(١) وكان يلقب بالزيدى^(٢) ، لا اعتناقه مذهب الزيدية^(٣) فبادر في سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م بالهجوم على مكة والتغلب عليها مستغلاً فرصة انشغال الدولة العباسية بإخماد الفتن والثورات وضعف الوالي العباسي ، وخلع طاعة العباسيين وعمل على الاستقلال بإمارة مكة ، وقال في خطبة له بموسم الحج : « الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه وأبرز زهر الإسلام من أكمامه ، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا ببني أعمامه - صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وكف عنهم ببركته - أيدي المعتدين ، وجعلها كلعمة باقية في عقبه إلى يوم الدين »^(٤) وقد حاول أن يبين في هذه الخطبة أحقية العلويين بالحكم من العباسيين .

ومما لا شك فيه أن محمد بن سليمان قد قوى نفوذه في مكة مما جعل العباسيين يتقربون إليه بالأموال فيروي ابن فهد : أن علي بن موسى بن الجراح وزير المقتدر العباسي كان يرسل إلى الخجاز كل عام ثلاثمائة ألف دينار توزع على مجاوري الحرمين وعلى أرباب الوظائف بمكة والمدينة^(٥) ويذكر ابن الطقطقي : أن العباسيين أنشأوا ديواناً سمي « ديوان البر » جعل حاصله لإصلاح الشغور وللحرمين الشريفين^(٦) .

(١) هو محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب / الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٢٤ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ ، العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ١٩٢ .

(٣) الفرقة الزيدية : هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وقد ساق أصحاب هذا المذهب الإمامة في أولاد فاطمة - رضي الله عنها - ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم : إلا أنهم أجازوا الإمامة ووجوب الطاعة لكل فاطمي عالم شجاع خرج يطلبها سواء من أولاد الحسين أو من أولاد الحسن - رضي الله عنهما - وقد مالت الزيدية إلى الاعتدال حتى صار أتباعها أقرب إلى أهل السنة (الشهر ستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥ ، عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ١٨ - ١٩) .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٣٦٢ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ - القلقشندي : مآثر الانافة

في معالم الخلافة ج ١ ص ٢٨٠ ، محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٤٦٢ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الوري بأخبار أم القرى ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٦) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٣٦ .

إلا أن هذه الدولة الناشئة التي أقامها محمد بن سليمان بمكة لم تكن من القوة بحيث تستطيع فرض حمايتها على الحجاج أو الدفاع عن نفسها ضد المغيرين والمتسلطين ، فقد هدها القرامطة من بلاد البحرين ، وسرعان ما سقطت سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م بعد استيلائهم على مكة بقيادة أبي طاهر القرمطي^(١) .

ويجدر بالذكر أننا لم نجد في المصادر والمراجع الكثيرة^(٢) التي تحدثت عن استقلال محمد بن سليمان أية إشارة إلى خطوات تنظيم الدولة في عهده ، وكيف استقر حكمه في مكة؟ وما الإصلاحات أو الأعمال التي قام بها في الحجاز بعد استقلاله عن الخلافة العباسية ؟ سوى قيام الدولة وسقوطها على يد القرامطة .

رابعاً : غزو القرامطة للحجاز :

استغل القرامطة^(٣) ضعف العباسيين في العصر العباسي الثاني ، ووجهوا نشاطهم الهدام إلى مهاجمة قوافل الحجاج الذاهبة إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة ، وأنزلوا بالحجاج الأمنيين شتى ألوان القتل والنهب والسلب المخيف ، فقد ذكر المؤرخ المكي ابن فهد : أن أبا طاهر

(١) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٠ .

(٢) القاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٢٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٣٦٢ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ ، القلقشندي : مآثر الأتانة ج ١ ص ٢٨٠ ، محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٤٦٢ - جمال سرور : سياسة الفاطميين ص ٢٠ .

(٣) القرامطة : فرقة من فرق الاسماعيلية تنسب إلى أول دعائها حمدان بن قرمط ، وكان هذا الرجل أكاراً بسيطاً بعثه أحد كبار الدعوة الاسماعيلية ليدعو نيابة عنه في بلده فبني مركزاً لدعوته قرب الكوفة سماه «دار الهجرة» واتخذ مكاناً للدعوة حيث دخل كثير من الناس في دعوته وبعد وفاته ذهب جماعة من أصحابه إلى البحرين على الساحل الشرقي لبلاد العرب فاستطاعوا نشر دعوتهم هناك ، وتمكن زعيمهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي من إقامة دولة للقرامطة جعل عاصمتها مدينة الاحساء ، وشملت هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ، وفي عهد ابنه أبي طاهر سليمان الذي تولى زعامة القرامطة سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م ألقى القرامطة الرعب في جزيرة العرب كلها . (انظر : عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ١٦٩ ، ١٧٤ ، ابن الجوزي : القرامطة ص ٤٤ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٣٦٣ - ٣٦٦ ، المقرئ : المقفي الكبير ص ٢٥٥ - ٢٦٥ ، اتعاظ الخنفا ج ١ ص ١٦٠ ، ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٤٣٧) .

القرمطي اعترض ركب الحاج العراقي عند عودته من مكة سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م فأوقع بهم وقتل منهم ألفي رجل ، ونهب القافلة وأخذ إبل الحاج جميعها وما أراد من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان ، وعاد إلى بلاده وترك من سلم من الحجاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً^(١) ، ولم يكتف بذلك بل كرر هذا العمل في العام التالي واعترض ركب الحاج العراقي وكان في حراستهم ألف فارس أرسلهم الخليفة العباسي ، وقاتلهم القرامطة فانهزم الجند العراقي ، ولم يترك القرامطة الحاج إلا بعد دفع إتاوة فرضت عليهم لدخول مكة^(٢) .

ويبدو أن تكرار الهجوم القرمطي على الحاج العراقي خاصة كان المقصود به إظهار ضعف الخلافة العباسية وعجزها عن حماية أرواح رعاياها من المسلمين وتأمين طريقهم إلى الحجاز .

وكان استيلاء أبي طاهر القرمطي على مكة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م أخطر نشاط للقرامطة حيث قتلوا الحجاج يوم التروية^(٣) ، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة الذي يستعد فيه الحجاج للخروج في اليوم التالي لوقفه عرفات ، لذا لم يكن أحد من الحجاج يتوقع غير الهدوء والسكينة في هذا اليوم الجليل ، لكن عصابات القرامطة لم ترع حرمة هذا اليوم وقتلوا في المسجد الحرام نحو ألف وسبعمائة ، وقيل : ثلاثة عشر ألفاً من الرجال والنساء وهم متعلقون بأستار الكعبة ثم خلعوا باب الكعبة والحجر الأسود ، وذهبوا بهما إلى الأحساء^(٤) وتبعهم أمير مكة من بني سليمان وتشفع إليهم أن يردوا الحجر الأسود ليوضع في مكانه فرفضوا فقاتلهم حتى قتل معه الكثير من جنده^(٥) .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٥ .

(٣) المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٣٣٤ .

(٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ٧٤ .

(٥) محمد بن مالك : كتاب كشف أسرار الباطنية ص ٣٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ١٦١ ، ابن

خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٣٧٥ ، دحلان : خلاصة الكلام في

بيان أمراء البلد الحرام ص ١٤ ، آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٤٦ - ٤٧ .

ويعتبر هذا الاعتداء منتهى ما وصل إليه أبو طاهر من ظلم وجبروت .

ولقد أراد أبو طاهر القرمطى أن يضفي على نفسه وعلى أعماله صفة شرعية بالخطبة للخليفة الفاطمي ببلاد المغرب عبيد الله المهدي ، لكنه رفض منه ذلك وأنكر عليه عمله وكتب إليه يقول : « إن أعجب العجب إرسالك بكتبك إلينا ها هنا بما ارتكبت في بلد الله الأمين من انتهاك حرمة بيت الله الحرام الذي لم يزل محترماً في الجاهلية والإسلام ، وسفكت فيه دماء المسلمين وفتكت بالحجاج والمعتمرين وتعديت وتجرأت على بيت الله تعالى وقلعت الحجر الأسود الذي هو يمين الله في الأرض يصافح به عباده ، وحملته إلى منزلك ، ورجوت أن أشكرك على ذلك ، فلعنك الله ثم لعنك الله ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وقدم في يومه ما ينجو به في غده » (١) .

والحقيقة أن هجوم القرامطة الوحشى على بيت الله الحرام ، وقتلهم الحجاج من الرجال والنساء جعل الفاطميين يرفضون دعوتهم وينكرون عليهم ما قاموا به من سفك الدماء وخلع الحجر الأسود ونهب الكعبة والحجاج وذلك حرصاً على إرضاء الشعور الإسلامي الذي يرفض وينكر أي إساءة تنزل بالحرمين الشريفين ويثور على أي تجرؤ عليهما ، ولذا فقد سارعوا بإرسال الرسائل للقرامطة لإعادة الحجر الأسود إلى مكانه ، فكتب عبيد الله المهدي إلى زعيم القرامطة يقول : « قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة والحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة فأنا برىء منك في الدنيا والآخرة » (٢) وقد ساعد ذلك الموقف المتشدد للفاطميين على عودة

(١) ابن عبد القادر الطبري: الأرج المسكي في التاريخ المكي لوحة رقم ٤٥ ، ابن خلدون: العبرج ٤ ص ١٢٨ -

١٢٩ ، عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج ٢ ص ٣٧٤ - ٣٨٠ ، السنيوطي : تاريخ الخلفاء

ص ٣٨٣ - ٣٨٤ ، الجزيري: درر الفرائد ج ١ ص ٥٠٨ - ٥١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١

ص ١٦٠ - ١٦١ ، عبد الكريم القطبي : إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ص ٨٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٥٤ .

الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م^(١).

وعلى الرغم من ذلك فقد عاد نفوذ العباسيين تدريجياً إلى مكة إثر الاتفاق الذي تم بين أبي علي عمر بن يحيى العلوي^(٢) من العراق وبين أبي طاهر زعيم القرامطة وكان الاتفاق أن يخلي سبيل الحجاج على مكس^(٣) يأخذه ، ويعطيه على كل جمل خمسة دنانير وعن المحمل سبعة دنانير فأجابه إلى ذلك^(٤) ، وخرج من العراق سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٨م فرقتان إحداهما عن طريق الكوفة والأخرى عن طريق البصرة لتأدية الفريضة ، وهي أول سنة يأخذ فيها القرامطة المكس من الحجاج ولم يعهد ذلك من قبل في الإسلام^(٥) وإن كان هذا الأمر يبين مدى ضعف الخلافة العباسية التي رضيت دفع الإتاوة للقرامطة مقابل حماية أرواح رعاياها ومع ذلك فقد خطب للخليفة العباسي الراضي بن المقتدر في هذا العام^(٦).

ومنذ دخل القرامطة مكة فإنهم لم يقوموا بتولية وال من قبلهم لها^(٧) ، إذ لم تذكر المصادر التي تعرضت لهذه الفترة أي شيء عن ذلك ؛ ولعل السبب في هذا أنهم لم يكونوا ليستطيعوا نشر دعوتهم الهدامة في بلاد الحجاز مهد الإسلام وموطن الرسالة ، فاكتفوا ببسط نفوذهم على الحجاج وأخذ الإتاوات منهم ، وبالتالي لم يكن ليهتمهم إقامة نظام حكومي

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ٩٨ ، أليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما

يعتبر من حوادث الزمان ج ٢ ص ٢٧١ ، المسعودي : التنبيه والأشراف ص ٣٤٦ .

(٢) هو أبو علي عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان مقيماً

بالعراق ويتولى إمارة الحج العراقي من قبل الخليفة العباسي (عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٣٨٧

- ٣٨٨) .

(٣) المكس : الضريبة يأخذها المكّاس عن يدخل البلد من التجار (المقرئى: الخطط ج ١ ص ١٠٤ - المعجم

الوسيط ج ٢ ص ٨٨١) .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ١٨٩ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٩٢ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٩ .

(٧) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ص ٣٠ .

متكامل أو تنصيب الولاة على الحجاز يقدر اهتمامهم بالاغارة على الحجاج كقطاع الطرق ، وقد ثبت أنهم لم يكونوا يقيمون في مكة بصفة دائمة^(١) وإنما كانوا يأتون إليها في مواسم الحج للسلب والنهب والدعوة لأنفسهم على منابر الحرمين^(٢) وربما شجع هذا على عودة النفوذ العباسي كاملاً إلى مكة وخاصة بعد أن عقد العباسيون اتفاقاً معهم يدفعون بموجبه إتاوة لهم حماية لحجاجهم .

وبعد أن انشغل القرامطة عن مكة بالعمل على تحقيق أطماعهم في بلاد المشرق^(٣) . أسند العباسيون سنة ٣٣١هـ / ٩٤٣م ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الإخشيد^(٤) الرجل القوي الذي استطاع أن يكون دولة فتية في مصر وأن يصد الفاطميين عنها ، ويضم الشام إليه^(٥) ، وصار يدعى له على منابر الحرمين بعد الخليفة العباسي^(٦) ، فلما تولى البويهيون^(٧) الأمر في بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م وصاروا أصحاب النفوذ الفعلي في العراق أصبح اسم معز الدولة البويهي يذكر في الخطبة بعد الخليفة العباسي^(٨) .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري بأخبار أم القرى ج ٢ ص ٣٨٣ ، ص ٣٨٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٠ .

(٣) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٠ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المقرئ : المقفي الكبير ص ١٣٤ .

(٦) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ٢ ص ٣٠ - ٣١ ، شفاء الغوام ج ٢ ص ١٩٢ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج ١ ص ٤٧٧ .

(٧) البويهيون : أسرة نشأت في بلاد الديلم وقد استطاعوا الوصول إلى أعلى المراتب في بغداد حين تقدم أحمد بن بويه إلى بغداد ، فخرج الأتراك عنها ، واستقبله الخليفة العباسي المستكفي واحتفى به وخلع عليه ولقبه «معز الدولة» ولقب أخاه علياً «عماد الدولة» وأخاه الحسن «ركن الدولة» وأهري ضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير وبدخول أحمد بن بويه وتوليته إمرة الأمراء في بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م ابتداءً العصر البويهي الذي استمر حتى سنة ٤٤٧هـ / ١٠٤٥م (انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٨٧ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٥٦٣ ، ٦٠٠) .

(٨) محمد الخضري : تاريخ الدولة العباسية ص ٣٨٠ .

وحاول البويهيون القضاء على نفوذ الإخشيديين في بلاد الحجاز مما أدى إلى نشوب كثير من الخلافات بين أنصار الفريقين العراقي والمصري (١) .

وهكذا تضاعف شأن الحجاز فلم تعد له القدرة على الدفاع عن نفسه ضد المغيرين وخاصة بعد ضعف الدولة العباسية التي لم تتمكن من فرض حمايتها عليه آنذاك ، فصار مطمعاً لكل صاحب نفوذ حيث أن امتلاكه يعطي لصاحبه قوة أدبية باعتباره صاحب الحرمين الشريفين فانتشرت فيه الفتن والصراعات ومع ذلك لم تحرك الدولة العباسية ساكناً مما أدى إلى قيام العلويين بالاستقلال به عن العباسيين والدعوة لأنفسهم .

خامساً : استقلال الأشراف (٢) العلويين بمكة والمدينة :

قام العلويون في الحجاز بعدة ثورات ضد الخلافة العباسية منذ قيامها ، غير أن تلك الثورات كانت تفشل ويقضى على أصحابها ، فاستكان العلويون ، وظلوا مجرد رعايا يعيشون في كنف الدولة بالحجاز ، فلما انشغل الخلفاء العباسيون بالفتن والثورات التي أثارها الأتراك ضدهم ، وأهملوا شئون الولايات الإسلامية التي تتبعهم استقلت بعض هذه الولايات عن الخلافة فظهر الصفاريون بسجستان ، والسامانيون في بلاد ما وراء النهر والغزنويون في بلاد الهند ، والطولونيون والإخشيديون في مصر والشام (٣) ، وهاجم القرامطة الحجاز ، ولم

(١) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٢ .

(٢) يطلق الشريف في اللغة على الرجل الماجد الكريم أو من كان كريم الآباء ، ثم أطلق لقب الشريف على من كان من آل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن الناس من قصره على ذرية الحسن والحسين - رضي الله عنهما - ولعل الضعف الشديد الذي انتاب الدولة العباسية وظهور الدولة الفاطمية وقوتها هو الذي جرأ على إطلاق لقب الشريف على من كانوا ينتمون إلى نسل علي من السيدة فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحين قامت دولة الأشراف بالحجاز أصبح يطلق على الأسرة الحاكمة لقب « الأشراف » ، أما غيرهم من العلويين فكانوا يطلقون عليهم لقب « السادة » . (انظر : البلاذري : أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٠ ، آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢١١ ، البرادعي : الدرة السنية في أنساب الحسينية والحسينية ص ٤) .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٨٩ ، ج ٤ ص ٣٨٠ ، ٤٠٦ ، ٤٧٣ .

تستطع الخلافة لهم دفعاً وانتشرت الفتن ولم يعد الحجاج يأمنون على أنفسهم .

أدرك الأشراف العلويين بالحجاز أن الوقت مناسب للخروج عن طاعة العباسيين والاستقلال عنهم ، ففي منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) خرج أحد كبار الأشراف العلويين ويدعى جعفر بن محمد الحسني^(١) من المدينة - وكانت ملجأً للمضطهدين من العلويين في العصر العباسي - فاتجه إلى مكة وملكها وخلع طاعة الخليفة العباسي ودعا لنفسه ، وأقام إمارة مستقلة عن العباسيين^(٢) .

ولقد تضاربت الأقوال المختلفة للمؤرخين في تحديد تاريخ استقلال جعفر بن محمد الحسني بمكة، فابن حزم (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) يرى أنه استولى على مكة أيام الإخشيديين^(٣) ولم يحدد الفترة الزمنية التي استولى فيها على الحكم .

بينما يرى القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) أن جعفرأ ملك مكة سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م وخطب للمعز لدين الله الفاطمي على منابرها^(٤) ، إلا أن تقي الدين الفاسي المؤرخ المكي (ت ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م) يرى أن ولاية جعفر بن محمد الحسني لمكة كانت في زمن الإخشيديين

(١) هو جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد أورد هذا النسب كل من ابن حزم والفاسي وابن فهد لكن ابن خلدون يخالفهم فيذكر : أن جد جعفر هو محمد بن سليمان الذي دعا لنفسه بمكة سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ويرى أن محمد بن سليمان هذا من ولد الناهض بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وبناء على هذا النسب سمي ابن خلدون جعفر بن محمد وخلفائه بالسليمانيين وتابعه في ذلك القلقشندي وبالتالي فإن رأي ابن خلدون في نسب جعفر يخالف ما ذكره ابن حزم وهو أقدم من تعرض لهذا الموضوع لذلك نرجح رأي ابن حزم (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٧ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٣ ، العقد الثمين ج ٣ ص ٤٢٩ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٢١ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٠ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٩) .

(٢) عبد العزيز بن فهد غاية المرام ج ١ ص ٤٨١ .

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٧ .

(٤) القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ج ١ ص ٣٠٩ .

بعد موت كافور الإخشيدي وبخاصة أنه كان يدعى على منابر الحرمين الشريفين لكافور ويستبعد أن يلي جعفر مكة في عهد كافور ، ويرجح الفاسي أن تكون ولاية جعفر بن محمد الحسني لمكة سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م حين قام الفاطميون بفتح مصر (١) .

ويرى آخرون أن جعفرًا استقل بمكة في عهد الفاطميين الذين باركوا دعوته (٢) ونستنتج مما سبق أن ولاية جعفر بن محمد الحسني لمكة كانت سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م في أواخر العهد الإخشيدي عقب وفاة كافور واضطراب الأحوال في مصر بعد وفاته ، وضعف هيبة الدولة واستعداد الفاطميين للهجوم على مصر مما جعله يفكر في الاستقلال بمكة والدعوة لنفسه .

وقد نقل بعض الباحثين عن المقرئزي أنه : « لما تم لجوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨هـ بادر الحسن بن جعفر فاستولى على مكة ودعا للمعز » (٣) .

والحقيقة أن الحسن هو الأمير الثالث الذي تولى الحكم من أسرة بني جعفر الحسينيين وكان يلقب بأبي الفتوح ، أما أول من قام بالحكم في مكة فهو جعفر بن محمد الحسني (٤) كما أوضحنا من قبل ، وقد صوب المقرئزي كلامه في كتاب « المقفي الكبير » حين ترجم للحسن

(١) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ٢ ص ١٩٣ .

(٢) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ١٩٥ ، أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ٨٧ ، البتانوني الرحلة الحجازية ص ٧٣ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ١٩١ .

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٥٥ ، جمال سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ١٥ .

Zambaur: Manuel de genealogie et de chronologie pour L'Histoire de L' Islam p. 21.

نقلًا عن المقرئزي (اتعاظ الخنفا ج ١ ص ١٠١ ، الخطط ج ١ ص ٣٥٣) .

(٤) انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٧ ، الفاسي شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٣ ، العقد الثمين ج ٣ ص ٤٢٩ ، عمر بن فهد : تحاف الوري ج ٢ ص ٤٢١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٩ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٠ .

ابن جعفر فقال : « غلب أبوه جعفر بن محمد على مكة بالقوة في أيام الإخشيدية ، وقام من بعده ابنه عيسى واستمر إلى سنة ٣٨٤هـ ، فولى أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر » (١) .

ولعل المقرئ تدارك ما ذكره في كتابيه تعاض الحنفا والخطط عن الحسن بن جعفر ، فصول ذلك في كتابه المقفى الكبير ، عندما قام بعرض ترجمة وافية له استغرقت نحو ثلاث صفحات ، بينما تعرض لهذه الشخصية في كتابيه السابقين بصورة موجزة للغاية .

ولقد أقام جعفر الحسني الدعوة للمعز الفاطمي سنة ٣٥٨هـ قبل حضوره إلى مصر فأرسل جوهر الصقلي يخبره بإقامة الدعوة له بمكة فأنفذ المعز إليه كتاباً بتقليد جعفر إمارة مكة بعد أن وصلت إليه البشارة بإقامة الدعوة له وانقطاع دعوة العباسيين (٢) .

أما المدينة فيذكر ابن خلدون : أن العلويين المقيمين بها (٣) استغلوا ضعف الخلافة العباسية آنذاك فتولوا إمارتها ، وظلوا يخطبون للعباسيين ، وقد تداول الإمارة فيها بنو الحسين بن علي بن أبي طالب ، وبنو جعفر بن أبي طالب ، إلى أن استطاع بنو الحسين الانفراد بالسلطة وإجلاء بني جعفر حيث سكنوا بين مكة والمدينة ، وبقي بنو الحسين يحكمون

(١) المقرئ : المقفى الكبير ص ٤٣٠ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٢ ، الفاسي : شفاء القرام ج ٢ ص ١٩٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٠٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨١ ، دحلان : خلاصة الكلام ص ١٦ ، الجداول المرضية ورقة ١٤٠ ..

(٣) استقر العلويون في المدينة المنورة عقب اضطهاد العباسيين لهم وإخراجهم من بعض الأمصار الإسلامية ، ففي آخر سنة ١٧١هـ أخرجهم هارون الرشيد من بغداد إلى المدينة ، وفي سنة ٢٣٦هـ أخرج المتوكل العباسي العلويين من مصر إلى بغداد ثم المدينة المنورة التي صارت مأوى للمضطهدين من العلويين في العهد العباسي .

(ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢٨٢ ، المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣١٢) .

المدينة منفردين بها^(١) ولم تقم الخلافة العباسية بأية محاولة للوقوف في وجههم نظراً لضعفها^(٢).

ولم يذكر ابن خلدون تاريخ استقلال بني الحسين بالمدينة ، وبيدوا أن استقلالهم جاء بعد غزو القرامطة للحجاز بفترة ، حيث توقفت الخلافة العباسية عن إرسال الولاة إلى مكة والمدينة آنذاك ، كما لم يهتم القرامطة بتعيين ولاة من قبلهم لمكة أو المدينة ، وربما جاء استقلال بني الحسين بن علي بن أبي طالب قبل خروج جعفر بن محمد الحسني منها بما دفعه هو الآخر إلى التفكير في الاستقلال بمكة ، ولعل أشرف المدينة اتفقوا مع جعفر بن محمد الحسني في حالة استقلاله بمكة على خلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين الذين ينتسبون لفاطمة الزهراء - رضى الله عنها - وما يدل على ذلك أن أشرف المدينتين المقدستين قد أعلننا في آن واحد سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م خلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين ، وخطب بالحرمين للمعز لدين الله الفاطمي وبطلت الخطبة لبني العباس^(٣).



(١) استمر بنو الحسين بن علي بن أبي طالب يحكمون المدينة إلى أن قدم عليهم من مصر طاهر بن مسلم بن محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان سبب قدومه من مصر أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قد خطب من مسلم ابنته لابنه العزيز فرقض مسلم مما جعل المعز يسخط عليه ويسجنه ويصادر أمواله فهرب مسلم من سجنه حيث مات فلحق ابنه طاهر بالمدينة فقدمه بنو الحسين على أنفسهم وقتلوه إمارة المدينة سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م .

(انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٥٥ - ٥٦ ، ابن عنبه : عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص ٣٣٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٩ - ١٤٢) .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٩ - ١٤٢ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الوري بأخبار أم القرى ج ٢ ص ٤٠٦ .

الفصل الثاني

السيادة الفاطمية في الحجاز



الفصل الثاني

السياسة الفاطمية في الحجاز

مدخل :

بذل الفاطميون عدة محاولات للسيطرة على الحجاز أو الدعوة لهم فيه ، وتعود هذه المحاولات إلى أيام الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي (٢٩٧هـ - ٣٢٢هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤م) ، ففي سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨م حين هاجم الجيش الفاطمي مصر واستطاع دخول الإسكندرية^(١) كتب أبو القاسم - ولي عهد المهدي وقائد جيشه - إلى أهل مكة يدعُوهم إلى طاعته ويعدّهم بحسن السيرة فيهم^(٢) وكان يأمل من وراء ذلك تقوية مركزه في مصر وتعزيد موقفه أمام العباسيين ، إلا أن أهل مكة رفضوا دعوته آنذاك وأجابوه أن لهذا البيت رباً يحميه ، ولن تؤثر على سلطاننا غيره^(٣) .

ويظهر أن الحجازيين رفضوا دعوته لأن نشاط الدعاة الاسماعيلية كان ضعيفاً وفي مهده ، ولم يكن أهل الحجاز يعرفون شيئاً عن الدولة الفاطمية الناشئة لبعد المسافة بينهم وبين المغرب ، ولقد جاءت الفرصة الفاطمية لتعريف أنفسهم للحجازيين وأنهم حريصون على أمن الحرمين الشريفين وسلامة الحجاج ، حينما هاجم أبو طاهر القرمطي وجماعته مكة سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، وأراد أن يخطب لعبيد الله المهدي الذي رفض دعوته وكتب إليه كتاباً شديد اللهجة يلعنه فيه على ما فعل ، ويطلب منه إعادة الحجر الأسود إلى مكانه .

(١) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ١ ص ٧١ .

(٢) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص ٧٧ .

(٣) المصدر السابق .

واستمر الفاطميون بعد ذلك يتطلعون إلى الحجاز ويرقبون الأحداث الجارية فيه عن كثب حتى حدث خلاف بين الأشراف العلويين من بني الحسن بن علي بن أبي طالب وبين الأشراف الطالبين من بني جعفر بن أبي طالب^(١) وتقاتل الطرفان في سنة ٣٤٨هـ / ٩٥٨م فقتل من بني الحسن عدد أكثر مما قتل من بني جعفر^(٢).

وعلم المعز بذلك ، ولم يكن ليترك الفرصة تمر دون أن يحسن استغلالها ، فأسرع بإرسال الأموال ، والرجال سراً للحجاز للمصلح بين الطائفتين حتى تمكنوا من إصلاح ذات بينهم ، وكان فاضل القتلى لبني الحسن عند بني جعفر سبعين قتيلاً فعقد رسل المعز صلحاً في المسجد الحرام ، وتحملوا دياتهم من مال المعز . فصار ذلك جميلاً له عند بني الحسن^(٣).

ولاريب أن هذا العمل الذي قام به المعز قد أكسبه تأييداً كبيراً بين أشراف الحجاز فلما أعلن أشراف المدينتين خلع طاعة العباسيين سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م خطبوا للفاطميين ودعوا لهم على منابر الحرمين .

(١) كان لقب العلويين والطالبين يطلق على آل أبي طالب عامة ، وفي أواخر القرن الرابع الهجري صارت لهم نقابة خاصة بهم في بغداد تسمى « نقابة الأشراف الطالبين » وفي مصر أنشأ الفاطميون نقابة الطالبين للنظر في شئون العلويين ، وكان يتولى رئاستها أحد كبار شيوخهم يسهر على صحة الأنساب وإثباتها ورعاية مصالح العلويين ، وعرفت هذه النقابة فيما بعد باسم « نقابة الأشراف » أما في الحجاز فكان لفظ العلويين يطلق أحياناً على نسل أبناء علي بن أبي طالب ، ولفظ الطالبين على نسل إخوة علي بن أبي طالب مثل جعفر وعقيل وكثيراً ما كانت تحدث بينهم الخلافات الشديدة والمعارك الكثيرة (انظر : ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٤١) المسعودي : مروج الذهب ج ٤ ص ٣٠٧ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ١١١ ، المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٠١ ، ج ٢ ص ٨٦ حاشية ، الخطط ج ١ ص ٣٥٣ ، ٣٨٦ ، آدم متر : تاريخ الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢١٣) .

(٢) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٣٥٣ .

(٣) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٠١ ، الخطط ج ١ ص ٣٥٣ .

ومنذ تلك الآونة بدأت السيادة الفاطمية على البلاد المقدسة ، وهذا الفصل سيعرض لمظاهر السيادة الفاطمية في الحجاز ، والتي تتمثل في خضوع الحجاز للنفوذ الفاطمي المباشر ثم محاولاتهم للتحرر من هذا النفوذ ، وجهود الفاطميين لإخضاعهم ثم عودتهم مرة أخرى للسيادة الفاطمية .

النفوذ الفاطمي المباشر في الحجاز :

بدأ النفوذ الفاطمي في الحجاز عقب استقلال الأشراف العلويين في مكة والمدينة عن العباسيين ودعوتهم للفاطميين على منابر الحرمين في موسم سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م^(١) ولعل السبب الذي دعا أشراف مكة والمدينة إلى إعلان تبعيتهم يمثل هذه السرعة للفاطميين هو ضعف الحجاز لقلة موارده الاقتصادية والبشرية مما يجعله في حاجة إلى مساندة خارجية تسد النقص في موارد الاقتصادية وتدفع عنه القرامطة الذين كانوا يغيرون عليه ، والعباسيين الذين كانوا يطمعون في عودة نفوذهم إليه ، لذا وجدوا في الدولة الفاطمية الشيعية التي تنتسب لفاطمة الزهراء - رضي الله عنها - والتي فجحت في فتح مصر الغنية بثرواتها المادية والبشرية خير سند لهم يمكن الاعتماد عليه .

ويبدو أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله كان يدرك مدى ضعف الحجاز وفقر موارده ، إذ حين بلغه إقامة الدعوة له بمكة والمدينة أمر جواهر الصقلي أن ينفذ في ذي الحجة من نفس العام أحمال مال ومتاع إلى الحجاز فرحاً بهذه المناسبة^(٢) ، وأرسل قائداً من جهته تولى توزيع هذه الهدايا والأموال بالحرمين^(٣) .

(١) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٤ ، المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ١ ص ١٠١ ، الخطط ج ١ ص ٣٥٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٢ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٠٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨١ ، أحمد بن زنى دحلان : خلاصة الكلام ص ١٦ ، الجداول المرضية ورقة ١٤٠ ، أبوب صيري : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ٨٨ .

(٢) المقرئ : المقفي الكبير ص ٣٤٧ ، اتعاظ الخنفا ج ١ ص ١٢٢ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد المنظمة ج ٢ ص ١٥٢٦ .

إلا أن النفوذ الفاطمي في مكة تعرض لنكسة كبيرة ولما يمض عثيه سنة لأن العباسيين نجحوا في استعادة نفوذهم على مكة بالتعاون مع القرامطة الذين انقلبوا على الفاطميين^(١) فقد أشارت بعض المصادر إلى نجاح القرامطة في إقامة الخطبة بمكة في موسم سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م للخليفة العباسي المطيع والحسن بن أحمد الأعصم القرمطي^(٢) وحج بالمسلمين في هذا الموسم أمير الحاج العراقي آنذاك أبو الحسين أحمد بن موسى نقيب الطالبين ببغداد ليعلن عودة النفوذ العباسي إلى مكة ، وقام بتعليق الهدية التي أرسلها المطيع إلى الكعبة ؛ وكانت عبارة عن قناديل من الذهب والفضة^(٣) علقت لمدة خمسة أيام حتى رآها الناس ، ثم أدخلت البيت الحرام ، كما قام بنصب الأعلام التي حملها معه وعليها اسم الخليفة العباسي المطيع وكتب إلى

(١) كان الفاطميون يتدخلون في شئون القرامطة منذ أوائل القرن الرابع الهجري حتى أنهم شاركوا في تعيين أبي طاهر الجنابي على رأس القرامطة سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م ، فلما توفي أبو طاهر سنة ٣٣١هـ ٩٤٤م وجد الفريق المناهض للفاطميين السبيل ممهدة أمامه لتولي السلطة فتم تعيين أحمد بن أبي سعيد الجنابي خلفاً لأخيه وجعلوا سابور بن أبي طاهر ولياً للعهد وكان يميل للفاطميين ، وانقسم القرامطة بذلك إلى فريقين متنافسين فريق يميل إلى الفاطميين وعلى رأسهم أبناء أبي طاهر وفريق معاد للفاطميين ويتمثل في أخيه أحمد بن أبي سعيد ، وقد تمكن الفريق المناصر للفاطميين من القبض على أحمد بن أبي سعيد وسجنه سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م وولي سابور بن أبي طاهر الذي لم يمكث في الحكم طويلاً إذ تمكن أبو سعيد من الخروج من سجنه وقتل سابور ونفي أخوته وشيعته إلى جزيرة أوال ، وتوفي أبو سعيد سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م فتولى زعامة القرامطة من بعده أبنه أبو علي الحسن بن أحمد الملقب بالأعصم ويذكر ابن فهد أن الخليفة العباسي المطيع كان له دور في تولية الحسن لزعامة القرامطة مما جعل الحسن يتعامل معهم ضد الفاطميين الذين كانوا يعارضون زعامته ورفضوا بعد فتح دمشق أن يدفعوا الضريبة التي كان يدفعها لهم الحسن بن عبيد الله بن طغج منذ سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م (ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١١٦ ، المقرئ : المقفي الكبير ص ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٣٠٢ ، حسن إبراهيم : المعز لدين الله ص ١٠١) .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٧ ص ٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٢٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٦٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٣) كان من هذه القناديل واحد من الذهب وزنه ستمائة مثقال والباقي من الفضة (عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٠٧) .

الخليفة يخبره بتمام الحج في هذا العام ، وأنه لم يرد أحد من قبل المغربي - يقصد المعز لدين الله - وأن الخطبة أقيمت للمطيع لله وللقرامطة من بعده بمكة ، أما أشراف المدينة فقد انفردوا بالدعوة للمعز في هذا العام^(١) .

لكن المعز لدين الله الفاطمي لم يكن ليقبل عودة النفوذ العباسي مرة أخرى إلى الحجاز ، فبادر بإعداد جيش تحرك من المغرب إلى الحجاز لإقامة الخطبة له بمكة سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م^(٢) ، وانضم إلى هذا الجيش أشراف المدينة الحسينيين^(٣) وتقابلوا مع جعفر بن محمد الحسيني وأنصاره من أشراف مكة الحسينيين يسانداهم القرامطة ، واشتبك الطرفان في قتال تمكن فيه جعفر بن محمد وأتباعه من هزيمة الجيش الفاطمي وإقامة الدعوة للعباسيين والقرامطة^(٤) .

ولعل القرامطة أرادوا أن ينشغل الفاطميون بمصر عن الحجاز فقاموا بالهجوم على مصر يوم الجمعة أول ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ / الثاني والعشرين من ديسمبر سنة ٩٧١ م فتقابلوا مع جوهر الصقلي وقد استعد لحربهم على باب القاهرة ، فدار قتال شديد وقع فيه من الفريقين كثير من القتلى وانهزم القرامطة بقيادة الحسن بن أحمد القرمطي وعادوا إلى الأحساء^(٥) .

ومما لا شك فيه أن المعز لدين الله لم يكن ليهمل شأن الحجاز ، فلجأ إلى الحيلة للقضاء على النفوذ العباسي فقد ذكر ابن فهد أنه قام بتحريض الأعراب من قبائل بني هلال وغيرهم من البدو على الركب العراقي سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م فقاموا بسلبه ونهبه وقتل الكثير منهم ولم ينج إلا من مضى مع أمير الحاج العراقي الشريف أبو أحمد الموسوي نقيب الطالبين ببغداد حيث اتجهوا إلى المدينة ، ولم يدخل منهم أحد مكة ، وفي هذا العام أقيمت الدعوة بالحرمين للمعز

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٠٧ .

(٢) القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ج ١ ص ٣٠٩ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) القريري : المقفي الكبير ص ٢٦٤ .

لدين الله^(١) ويعد هذا العام هو بداية الدعوة الكاملة للفاطميين في الحجاز^(٢).

وقد سعد المعز بهذه المناسبة وأهدى الكعبة المشرفة شمسة^(٣) غالية الثمن ، وكان العباسيون يرسلونها من قبل ، وقد وصف المقرئ هذه الشمسة بأن سعتها اثني عشر شبراً في مثلها وأرضيتها من الديباج الأحمر ، ويحيط بها اثني عشر هلالاً ذهباً وفي كل هلال أترجة

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤١٠ .

(٢) اختلف المؤرخون في تاريخ الدعوة للفاطميين ، فابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) وابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) والياضي (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) وابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) يذكرون أنه قد ورد الخبر بوقوع الخطبة لأبي تميم معد الملقب بالمعز لدين الله بمكة والمدينة في موسم سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م وقطعت خطبة الطائع الخليفة العباسي . لكن المقرئ (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) يرى أن أول موسم دعي فيه للمعز بمكة والمدينة هو موسم سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٥ م فيقول : « في المحرم سنة ٣٦٥ هـ ورد سابق الحج فأخبر بإقامة الدعوة بمكة ومسجد إبراهيم يوم عرفة ومدينة الرسول ، وسائر أعمال مكة ويتمام الحج ، وكان هذا الموسم أول موسم دعي فيه للمعز بمكة ومدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسر المعز بذلك وتصدق شكراً لله » .

ومن ثم فإن رأي كل من ابن الجوزي وابن الأثير والياضي وابن كثير - وهم أسبق وأقدم من المقرئ جدير بالتأييد - وعلى هذا تكون الدعوة الكاملة للفاطميين في الحجاز قد بدأت في موسم سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م . (انظر : ابن الجوزي : المنتظم ج ٧ ص ٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧

ص ٣٤٩ ، الياضي : مرآة الجنان ج ٢ ص ٣٧٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١ ص ٢٧٧ ، المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٢٥) .

(٣) الشمسة : عبارة عن حلية ضخمة كانت ترسل إلى الكعبة في موسم الحج بصحبة قائد الحاج لتعلق في وجه الكعبة ثم تنزع يوم التروية وسميت بالشمسة لأن لها اثني عشر ذراعاً تشبه أشعة الشمس ، وعدد الأشعة يمثل عدد شهور السنة ؛ لأن موسم الحج يحل عند مضي اثني عشر شهراً والأهلة الموجودة في نهاية الأشعة تمثل الشهور القمرية والهجرية ، وقد سبق العباسيون في إرسالها ، وأول من أرسلها الخليفة المتوكل ، لكن المعز صنعها أكبر وأضخم حجماً وأعلى ثمناً وقيمة مما كان العباسيون يصنعونها وهي تختلف عن الشمسة (المظلة) التي كان القادة والأمراء يسيرون بها إلى الحرم .

(انظر : المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٤٠ حاشية) .

ذهب مشبك ، وفي داخل كل أترجة خمسون درة كبيض الحمام وفيها الباقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وكتبت في جوانبها آيات الحج بالزمرد الأخضر وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله ، وحشيت الشمسة بالمسك المسحوق^(١) .

وقد نصب المعز هذه الشمسة على إيوان قصره فرآها الناس وأعجبوا بها^(٢) ، ويبدو أنه أراد أن يبين للحجازيين والعباسيين مدى ثراء الدولة الفاطمية في وقت كان الحجاز يعاني فيه من الفقر والحاجة ، ولم يكن ينل من العباسيين إلا النذر اليسير .

ولا شك أنه نجح في ذلك فقد قدم وفد من أشرف الحجاز في العام التالي إلى مصر للقاء المعز حتى يحظوا بمنحه وعطاياه ؛ فيذكر ابن ميسر : أنه أعطاهم أربعمئة ألف درهم^(٣) .

وقد توطدت الصلات بين أشرف الحجاز والفاطميين في عهد المعز لدين الله وجرت بينهم المراسلات الودية ، فقد ذكر المقرئزي : أن جعفر بن محمد الحسني أمير مكة أرسل كتاباً إلى المعز لدين الله في سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م يطلب فيه الإحسان إلى أخته صفية بنت محمد الحسني برد ضياعها وأموالها إليها^(٤) ، وكانت مقيمة بمصر مع زوجها عبد الله بن عبيد الله الحسني^(٥) ، فتعاون زوجها مع القرامطة وخرج على الفاطميين في أول رجب سنة ٣٦٣هـ /

(١) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ١ ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٦ .

(٤) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ١ ص ٢٢٥ .

(٥) هو عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب من أشرف الحجاز ، وكان متعاوناً مع القرامطة في هجومهم على مصر فنزل في نواحي أسيوط وأخميم ، وحارب العمال واستخرج الأموال فثقل ذلك على المعز فأرسل إليه بعض جنده ففر إلى الحجاز ثم توجه إلى الأحساء واختلف مع القرامطة وانصرف عنهم إلى العراق فأرسلوا وراءه رجل يقال له ابن سنير سقاه لبناً وضع فيه السم بموضع يسمى الجعفرية على بعد ميلين من البصرة فمات بموضعه (المقرئزي : المقفي الكبير ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ - اتعاظ الخنفا ج ١ ص ١٥٠ ، ٢٠٤) .

مارس ٩٧٤م ، واختفت زوجته صفية عن أعين الفاطميين خشية انتقامهم وخاصة بعد أن صادروا أملاكها وأملاك زوجها .

وأحضر يعقوب بن كلس^(١) القاضي أبا طاهر الذهلي ، وشهوده وأشهدهم في كتاب عن المعز لدين الله أنه أمره برد ضياعها ورياعها إليها ، فظهرت وأمنت واستردت كل أموالها وضياعها^(٢) ، وعاشت في مصر هائلة سعيدة ، وقد تم ذلك بناء على الرسالة الودية التي أرسلها جعفر بن محمد الحسن بن للمعز ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى عمق وقوة العلاقات التي سادت بين الجانبين .

ونتيجة لهذا أرسل الشريف جعفر بن محمد الحسن بن أمير مكة كتاباً ثانياً إلى المعز يسأله أن يرد الأقباس^(٣) التي وقفت على ولد عمرو بن العاص بمصر إليهم ، وكان الفاطميون قد استولوا عليها^(٤) فأمر المعز بعودة أوقافهم إليهم^(٥) .

(١) هو أبو الفتوح يعقوب بن كلس صاحب الفاطميين منذ دخولهم إلى مصر وتولى الخراج ووجوه الأموال في عهد المعز وفي سنة ٣٦٥هـ تولى الوزارة وقد توفي سنة ٣٨٠هـ (ابن الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٩٢ - ٩٤) .

(٢) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣) الأقباس عبارة عن أرض زراعية يعطيها الخلفاء والملوك والولاة بمقتضى حجج شرعية وتفاسيط ديوانية إلى بعض الناس على سبيل الاحسان والانعام مع إعفائها من الضرائب (محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص ١٠٨ - ١٠٩) .

(٤) يروي المقرئ قصة هذه الأقباس فيقول : « كان المعز لما وقف على حبس عمرو بن العاص بمصر ، وأن محمد بن أبي بكر كان قبضه وضرب عليه صافية لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب - أهل الحق - وأن عمرو بن العاص ، إنما حبسه لما عاد إلى مصر في أيام معاوية أخرج ذلك من كتاب أبي عمر الكندي القاضي النعمان بن محمد فحمله إلى المعز فقال : « هذا مال لنا فليحمل إلينا مفرداً من مال الأقباس »

(المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٢٥) .

(٥) المصدر السابق .

ولا ريب أن سياسة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله كانت تميل للتقرب إلى أشرف الحجاز والاستجابة لمطالبهم المحدودة رغبة في كسب ودهم وتدعيماً للصلات الطيبة بينه وبينهم .

بيد أن السيادة الفاطمية على الحجاز قد تعرضت لاختبار عنيف عقب وفاة المعز لدين الله وتولي ابنه العزيز الخلافة سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م^(١) فقد قطع أشرف مكة والمدينة الخطبة له، وخطبوا للخليفة العباسي الطائع^(٢) .

وهنا نتساءل ما موقف الخليفة الفاطمي العزيز من ذلك ، وهو في بداية حكمه ؟

الحقيقة أن الخليفة العزيز بالله لم يكن يسمح بعودة النفوذ العباسي إلى الحجاز مرة أخرى فبادر باتخاذ موقف عاجل وعنيف تجاه الحجازيين فأرسل أميراً علوياً مع بعض الجند إلى الحجاز فأحكموا الحصار حول مكة والمدينة وضيقوا على أهلها فلقوا معاناة شديدة نتيجة منع الإمدادات عنهم وقلة الطعام وارتفاع الأسعار^(٣) .

ويذكر المؤرخون أن النفوذ الفاطمي عاد للحجاز مرة أخرى عقب هذا الحصار فقد رجع أشرف مكة والمدينة إلى دعوتهم وخطبوا للعزيز على منابرهم ، وكان أمير مكة عيسى ابن جعفر الحسني وأمير المدينة طاهر بن مسلم الحسيني^(٤) .

ومما تقدم نستنتج أن جعفر بن محمد الحسني أمير مكة في عهد المعز لدين الله قد توفي هو الآخر في نفس العام الذي توفي فيه المعز ، وتولى بعده ابنه عيسى بن جعفر الذي استهل

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٣٦٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٦٢ ، المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ١ ص ٢٣٨ ، العصامي المكي : سبط

النجوم ج ٤ ص ١٩٥ ، دحلان : خلاصة الكلام ص ١٦ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٥ ، ٦٦ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٦ ص ٤٥٨ ، عبد العزيز بن فهد : غاية

المرام ج ١ ص ٤٨٢ - ٤٨٣ .

حكمه برفض الدعوة للفاطميين متبعاً سياسة تخالف سياسة أبيه ، لكن العزيز اتخذ موقفاً متشدداً معه ومع بقية أشراف الحجاز ، فبادر بإرسال الجند وأجبرهم على الدعوة له ، ويمكن اعتبار هذا الموقف من العزيز بداية التدخل الفاطمي المباشر في الحجاز .

ولقد استمر العزيز في تنفيذ سياسته التي ترمي إلى استمرار الدعوة للفاطميين بالحجاز فيذكر المؤرخون أنه أرسل موكب الحج المصري في العام التالي سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٧م بصحبة بعض الجنود الذين أقاموا الدعوة له^(١) .

وفي سنة ٣٦٧هـ أرسل العزيز باديس بن زيري الصنهاجي - أخا يوسف بلكين خليفته على المغرب - لكي يكون أميراً على موسم الحج ، وليحج بالناس ، ويقيم له الخطبة بمكة فلما وصل إلى مكة أراد قطاع الطرق من الأعراب مفاوضته على ترك الحجاج دون أذى مقابل خمسين ألف درهم يدفعها لهم ، فرفض ولكن من القضاء عليهم وأنقذ الحجاج من سطوتهم^(٢) وأقام الدعوة للفاطميين هذا العام ، وأثبت الفاطميون أنهم لن يتخلوا عن سيطرتهم على الحجاز، إذ إن تلك السيطرة تجعلهم يظهرون أمام العالم الإسلامي أنهم حماة الأمانن القدسة ، ولن يسمحوا لأي سلطة من الداخل أو الخارج أن تنتقص من هذه الحماية .

وقد لجأ العباسيون بدورهم إلى استخدام القوة المسلحة لاستعادة نفوذهم في الحجاز ، فأرسل عضد الدولة البويهى^(٣) جيشاً إلى مكة أجبر أشرافها على إعلان تبعيتها للخلافة

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٨٧ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج ٢ ص ٤١٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٣٨٠ ، المقرئ : المقفى الكبير ص ٢٩٩ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٢٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج ٢ ص ٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) هو عضد الدولة فنا خسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه ولي سلطنة بلاد فارس بعد عمه عماد الدولة علي ، وقد آل ملك بني بويه إلى عضد الدولة سنة ٣٦٧هـ حين سار بجيوشه إلى بغداد وحارب ابن عمه بختيار وقتله وشارك الخليفة العباسي في الحكم وقد توفي سنة ٣٧٢هـ ببغداد (انظر الذهبي : العبر في خبر من غير ج ٢ ص ١٣٩ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٨٧ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٥٦٣ ، ٦٠٠ ، حسن محمود : العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٥١٥ ، ٥٢٢) .

العباسية في سنة ٣٦٨هـ^(١) ثم قام بإصلاح الطريق من العراق إلى مكة وأطلق الصلات للضعفاء والمجاورين بمكة والمدينة^(٢) .

غير أن تبعية الحجاز للعباسيين كانت موقوتة ، إذ لم يلبث الفاطميون أن استردوا سلطانهم عليها في العام التالي ؛ فقد ذكر ابن فهد في أحداث سنة ٣٦٩هـ / ٨٩٠م : أن الخطبة كانت بالحرمين لصاحب مصر^(٣) ، ولم تقم بعدها خطبة للعباسيين بعد أن عادت لخلفاء مصر^(٤) ولم تذكر المصادر التاريخية كيف عادت الخطبة للفاطميين بالحرمين ؟ وهل واجه الفاطميون المد العباسي البويهى بحركة مماثلة حتى تمكنوا من فرض سيادتهم على مكة ؟

ولعل العباسيين لم يستطيعوا استمالة أشرف الحجاز إلى جانبهم ، حيث كان الفاطميون يغدقون عليهم الأموال الكثيرة والهدايا الوفيرة مما جعلهم يخطبون للفاطميين في العام التالي ، وبذلك تمكن الفاطميون من فرض سيادتهم على مكة وأخذوا يرسلون الأموال والهدايا إلى أشرف الحجاز ، فقد ذكر المقرئزي : أن قافلة الحج خرجت من مصر في ذي القعدة إلى مكة وفيها صلات الأشرف بالإضافة إلى القمح والشعير والدقيق والزيت وسائر الحبوب ومحراب من الذهب للكعبة^(٥) وفي العام التالي أرسل العزيز كسوة الكعبة ومعها صلات الأشرف والطيب والشمع والزيت وبلغ مصروف ذلك مائة ألف دينار^(٦) .

ويتضح من ذلك أن العباسيين كانوا غير مؤهلين لمنافسة الفاطميين في هذا الميدان ، وبخاصة أن الفاطميين قد استغلوا ثروات مصر الكثيرة ومواردها الوفيرة في ذلك ، إذ ظل

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٣٨٧ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج ٢ ص ٤١٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٤١٦ .

(٥) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ١ ص ٢٤٦ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٥٢ .

العزیز طوال فترة حكمه يرسل الصلوات الضخمة والهدايا الثمينة إلى أميري مكة والمدينة وبقية الأشراف بالحجاز مقابل الدعاء له على منابر الحرمين الشريفين واستمرار تبعية الحجاز له ، فقد كان يعتقد مثل والده المعز - أن انضمام الحرمين الشريفين وتبعيتهما له شرط من شروط الخلافة ، ولأن نفوذ الخلافة لا تكتمل عناصره في نظر الكثيرين من أبناء العالم الإسلامي ما لم تؤيده خطبة الحرمين الشريفين ، وتنطق داعية باسمه ، هذا إلى جانب أن تأمين الحجاز تأمين لمصر .

ولقد اهتم العزیز بقافلة الحاج المصرية اهتماماً كبيراً وكان يقف بنفسه في وداع أصحابها والاطمئنان على ما تحمله إلى الحجاز من كسوة الكعبة والطيب والغلال وصلات الأشراف التي كانت ترسل كل عام^(١) مما يدل على مبلغ عنايته باستمرار الصلوات الوثيقة بين مصر والحجاز.

لم يقبل العباسيون أن تستمر العلاقات الطيبة بين الفاطميين وأشراف الحجاز فسعوا إلى إفساد هذه العلاقات ، فقد كان التنافس شديداً بينهم وبين الفاطميين على انتزاع زعامة العالم الإسلامي عن طريق كسب الدعوة لأنفسهم في الحرمين الشريفين فقد كان العباسيون يشعرون أنهم خلفاء الإسلام دون الفاطميين ، ومن حقهم الدعوة لهم بالحجاز والسيطرة عليه لذلك لجأ العباسيون إلى الحيلة لإعادة نفوذهم على مكة ، فنجد الخليفة العباسي القادر يحاول في مستهل عهده سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م استمالة الشريف أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني - شقيق أمير مكة عيسى بن جعفر الحسني وولي عهده وصاحب النفوذ القوي في الدولة - ، ورغبه في الطاعة والدعوة للعباسيين ، ووعده باتصال الإمارة في بنيهِ^(٢) ، إلا أن أبا الفتوح رفض هذه المحاولة ، ولم يذعن لها ؛ وسارع بإرسال كتب القادر إلى الخليفة الفاطمي العزیز يخبره بذلك ، فشكره العزیز على ولائه له ، وأرسل إليه الهدايا والخلع والأموال وكسوة الكعبة،

(١) المقرئى : اتعاظ الختفا ج ١ ص ٢٦٧ .

(٢) المقرئى كتاب المقفي الكبير ص ٤٣٠ .

فجمع أبو الفتوح الأشراف عند الكعبة وقسم فيهم الأموال والهدايا والخلع وألبس كسوة الفاطميين البيضاء للكعبة ، وكان العباسيون يرسلون كسوة سوداء تحمل شعارهم حينما كانت مكة تحت سيطرتهم ، ثم وقف وقال: « الحمد لله يا بني فاطمة الزهراء وأصحاب السنة الغراء على أن زين بيته بلبسة السرور بعد لبسة الحزن ، وجعل ملك الحرمين لبني بنت رسوله من بني الحسن وبني الحسين فأرضى الفريقين » (١) .

وكان من نتيجة ذلك أن توالى الحاج من مصر ، وانقطع ركب العراق في هذا العام خوفاً من انتقام الفاطميين (٢) ، وبالعزير في الإتفاق على قافلة الحاج المصرية ، وزاد في أعطيات الأشراف فقد ذكر ابن ميسر : أن العزير أنفق في العام التالي لهذا الحدث ثلاثمائة ألف دينار عيناً وورقاً على الكسوة والصلوات وغيرها من الهدايا (٣) .

كما ذكر المقرئ : أن العزير أرسل ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل بصحبة القافلة لأن أحد رجال الحجاز ، ويدعى القاسم بن علي الرسي خرج على أمير مكة عيسى بن جعفر الحسني يطلب الأمر لنفسه (٤) .

ويبدو أن الجند المصري تمكن من القضاء على ثورة القاسم بن علي ونجح في عقد الصلح بينه وبين أمير مكة عيسى بن جعفر الحسني الذي قدم إلى مصر في العام التالي سنة ٣٨٤هـ وورفته القاسم بن علي الرسي فأكرمهما العزير وأحسن إليهما (٥) .

وفي جمادى الآخرة من نفس العام عاد شريف مكة إلى الحجاز وبصحبه القاسم بن علي ،

(١) المقرئ كتاب المقفي الكبير ص ٤٣٠

(٢) عمر بن قهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٢١ ، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٣٠ ، العصامي : سبط النجوم ج ٤ ص ١٩٦ .

(٣) ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر ص ١٧١ .

(٤) المقرئ : اتعاظ الخفا ج ١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٨١ .

وقد أنعم عليهما العزيز بالجوائز والخلع^(١) وقد توفي عيسى بن جعفر الحسني في هذا العام ، وتولى حكم مكة بعده أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني^(٢) .

استهل أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني حكمه بالتمسك بالولاء للفاطمين والدعوة لهم^(٣) ، وقد قوي النفوذ الفاطمي بالحجاز في عهد العزيز الذي نجح في استمالة القرامطة من جديد إلى جانب الفاطميين وإثارة حفيظتهم على العباسيين^(٤) ومما يؤيد هذه الحقيقة ما ذكره ابن خلدون من أن القرامطة رجعوا إلى دعوة الفاطميين ومحاربة بني العباس^(٥) ، وما أخبرنا به المقرئ عن مقدم رسول القرامطة إلى مصر سنة ٣٨٢هـ يعلن دخولهم في طاعة العزيز^(٦) .

وكان من أثر هذه السياسة التي انتهجها الخليفة الفاطمي العزيز أن أوقف القرامطة غاراتهم على الحجاز ، واتجهوا نحو الممتلكات العباسية فأغاروا على البصرة ، وحالوا دون وصول الحبيج العراقي إلى الأراضي المقدسة في هذا العام^(٧) .

وقد ظل الأمل يراود العباسيين في عودة نفوذهم إلى الحجاز فأرسل الخليفة العباسي القادر إلى أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني أمير مكة يرغبه في الطاعة له^(٨) وأن يأذن لحاج العراق بتأدية الفريضة سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م^(٩) فرفض أبو الفتوح الدعوة للعباسيين وأكد

(١) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٨٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٠ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٤ ، العقد الثمين ج ٦ ص ٤٥٨ ،

عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٢٣ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٣ ، دحلان :

تاريخ الدول الإسلامية بالجدول المرضية ورقة ١٤٠ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٢٣ .

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ٢٥٦ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١١٧ .

(٦) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٧٤ .

(٧) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ٢٥٧ .

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٧٧ - عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٢٤ .

(٩) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٠ .

لهم أن الخطبة ستظل للحاكم^(١) بأمر الله صاحب مصر^(٢) ووافق على السماح للحاج العراقي بتأدية الفريضة فلم يكن ليمنع المسلمين من تأدية شعيرتهم الدينية ، فلما علم الحاكم بما حدث سر من موقف أبي الفتوح ، وقرر الانتقام من الخليفة العباسي فأرسل إلى مفرج بن دغفل بن الجراح أمير بني طئ بالرملة يأمره باعتراض الحاج العراقي حتى يثبت ضعف العباسيين عن حماية الحاج والسيطرة على الحرمين ، فتصدى ابن الجراح للحاج العراقي لولا وجود الشريف الرضي^(٣) وأخيه المرتضي اللذين استطاعا إقناع ابن الجراح أن يسمح لهم بتأدية الفريضة هذا العام على ألا يعود الركب العراقي بعد ذلك فخلى سبيلهم^(٤) .

وقد ظل أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسيني في بداية عهده مخلصاً في ولائه للفاطميين فحين أمره الحاكم بأمر الله أن يستولى على المدينة ويطرد صاحبها الحسن بن طاهر الحسيني^(٥) وأسرت له ما بلغه عنهم من الطعن في نسب الفاطميين ، بادر أبو الفتوح بالزحف إلى المدينة والاستيلاء عليها سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م^(٦) وجمع بين الحرمين الشريفين^(٧) .

(١) كان الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن العزيز قد تولى الحكم في مصر عقب وفاة والده العزيز في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٣٨٦هـ (المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٣) .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٢٤ .

(٣) هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الحسيني نقيب العلويين ببغداد ولد سنة ٣٥٩هـ وتوفي ببغداد سنة ٤٠٦هـ وقد قلد أخوه الشريف المرتضي أبا القاسم نقابة العلويين والحج والمظالم عقب موت أخيه .

(ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٩١ ، ٩٣ - ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٣ ص ١٨٢) .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٠ - العصامي المكي : سمط النجوم ج ٤ ص ١٩٦ .

(٥) هو الحسن بن طاهر بن مسلم بن عبيد الله بن طاهر تولى إمارة المدينة سنة ٣٨١هـ عقب وفاة والده طاهر بن مسلم (ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٠) .

(٦) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٣٢ .

(٧) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٤ ، العقد الثمين ج ٤ ص ٧٧ .

لكن بعض المؤرخين يرون سبباً آخر لسيطرة أبي الفتوح على المدينة فيذكرون أن الحاكم بأمر الله طلب من أبي الفتوح الاستيلاء على المدينة وإخراج صاحبها منها ، وأن ينقل الجسد النبوي الشريف إلى مصر فلما دخل أبو الفتوح المدينة أصابها إعصار شديد ففزع أبو الفتوح ورفض تنفيذ ما أمر به الحاكم وعاد إلى مكة ، وترك أشرف المدينة يعودون إليها^(١) .

والحقيقة أن هذه الرواية يتطرق إليها الشك ، لأن الحاكم بأمر الله لم يكن ليفعل ذلك حتى لا يثير عليه عامة المسلمين في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، ولو أنه أمر بذلك لاتخذ موقفاً عدائياً من أبي الفتوح لأنه لم يتفد أوامره ؛ لكن كل الدلائل والأحداث التاريخية تشير إلى أن العلاقات استمرت بين الحاكم وأبي الفتوح ودية ، ولم يوجد ما يعكرها ، ويؤكد هذا الرأي المؤرخ المكي تقي الدين الفاسي فيستنكر هذه الرواية ، ويقول : إنه يذكرها في كتابه لغرابتها^(٢) .

قوى خارجية تدفع الحجاز للتحرر من السيطرة الفاطمية :

استمر أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني في إخلاصه وولائه للحاكم بأمر الله إلى أن تعرضت علاقتهما للتصدع في مطلع القرن الخامس الهجري ، عندما نزع أبو الفتوح إلى الاستقلال عن الفاطميين والخروج على طاعتهم .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن سبب خروج أبي الفتوح عن طاعة الفاطميين وثورته عليهم هو الحاكم بأمر الله نفسه الذي أرسل إليه سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م سجلاً ينتقص فيه بعض الصحابة وأمره بقراءته على الناس مما دفع أبا الفتوح إلى الغضب والثورة على الحاكم^(٣) إلا أن الخلاف

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٠ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٢٦ - ٤٢٧ ، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٣٢ - ٥٣٣ ، المراغي : تحقيق النصرة ص ١٤٨ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٧٧ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٣١ ، المقرئ : المقفي الكبير ص ٤٣٠ ، القلقشندي : مآثر الانافة ج ١ ص ٣٢٦ .

الذي نشأ بين الحاكم وأبي الفتوح نتيجة لهذا لم يصل إلى حد القطيعة والخروج على الحاكم ، ففي العام التالي لهذا الحدث قام الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني بزيارة ودية إلى مصر سنة ٣٩٦هـ لتهنئة الحاكم بأمر الله لانتصاره على أبي ركة^(١) فخلع عليه الحاكم وأكرمه وأنزله بدار برجوان^(٢) واستمرت العلاقات الودية بينهما ، وفي العام التالي كسا الحاكم الكعبة القباطي البيض وأرسل أموالاً كثيرة للحرمين^(٣) .

وقد روى كل من ابن الأثير وابن تغري بردي أن الحاكم بأمر الله أرسل فتكين العضدي الداعي سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م إلى المدينة حيث توجد دار جعفر بن محمد الصادق^(٤) ولم تكن هذه الدار قد فتحت منذ موت صاحبها ، ففتحتها فتكين وأخذ ما فيها من مصحف وسيف وكساء وسرير وحريرة ، وعاد إلى مصر ومعه جماعة من شيوخ العلويين ، فلما وصلوا إلى الحاكم أطلق لهم نفقات قليلة ورد عليهم السرير وأخذ الباقي ، وقال : أنا أحق به فأنصرفوا غاضبين وداعين عليه^(٥) .

(١) أبو ركة هو الوليد بن هشام ينسب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بني أمية وكان يقال له : أبو ركة ، لركوة كان يحملها في أسفاره ، وقد قدم القيروان يعلم الصبيان بها القرآن الكريم ، ثم دخل الاسكندرية وقد دعا لنفسه فقام بأمره بنو قرة ، وقد أكثر الحاكم من القتل فيهم فبايعوه واستجابت له قبائل لواته ومزاته وزناته ، وأخذ برقة وهزم جيوش الحاكم غير مرة إلى أن هزم في ذي الحجة سنة ٣٩٦هـ وقتل فسيرت البشائر بقتله إلى كافة البلاد (المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٢٨٦ ، اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٦٠ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٣ ص ١٤٨ .

(٢) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٦٦ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٧ .

(٤) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية ، وكان من سادات آل البيت ولقب بالصادق لصدقه في مقالته ، وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل ، وقد ألف تلميذه أبو موسى جابر بن حيان كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة وقد توفي سنة ١٤٨هـ بالمدينة ودفن بالبقيع . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٧) .

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٥٩ .

ومما لا شك فيه أن هذا العمل قد أثار أشراف الحجاز ، ومعهم أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني ، لكن ثورتهم لم تصل إلى حد الخروج على الحاكم ، فقد اكتفوا بكظم غيظهم إلى أن قام بتحريضهم على الحاكم بنو الجراح في فلسطين ، والوزير أبو القاسم المغربي الذي قتل الحاكم أسرته ففر إلى الرملة واستجار بآل الجراح وحسن لهم خلع طاعة الحاكم^(١) ، ودعوة أبي الفتوح الحسني للثورة على الفاطميين وتنصيبه خليفة على المسلمين ، فمال آل الجراح لرأيه ، وطلبوا منه إقناع أبا الفتوح بالأمر^(٢) .

(١) كان آل الجراح من بني طئ في فلسطين قد حاولوا الاستقلال عن الفاطميين وتكوين دولة مستقلة لهم أواخر القرن الرابع الهجري فثار زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح بالرملة سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٦ م ، لكن الفاطميين كانوا لهم بالمرصاد ، فأرسلوا حملة عسكرية بقيادة جيش بن الصمصامة فسار إلى الرملة واستولى عليها وأخضع الثائرين هناك ، وطارد مفرج بن الجراح وقواته حتى هزمهم ، فطلبوا منه الأمان والصلح فعفا عنهم وأمنهم وعاد مفرج إلى الرملة موتوراً منتظراً الفرصة المناسبة للخروج على الفاطميين إلى أن جاءه أبو القاسم المغربي هارباً من الحاكم الذي قتل أخوي الوزير سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م وثلاثة من أهل بيته ، وقد استجار الوزير أبو القاسم بحسان بن مفرج بن الجراح الذي كان ينقم في نفسه على الفاطميين فأجاره ومنع الطلب عنه ، وفي ذلك يقول أبو القاسم من قصيدة له :

فإني أتيت ابن الكريم مفرج فأطلق من أسر الهموم عقالي

وقد حسن الوزير أبو القاسم لمفرج بن الجراح وقومه الثورة على الحاكم وخلع طاعته ، فاستجابوا له وبادروا بالثورة على الحاكم وقتلوا عامله على الرملة ، فسير الحاكم قوة عسكرية مع مملوك أبيه ياروخ لقتال بني الجراح ، فلقى حسان وأبوه مفرج واستطاعوا الانتصار عليه وقتله وملكوا الرملة ، وساءت الأمور بينهم وبين الحاكم فدفعهم الوزير أبو القاسم إلى تحريض أشراف مكة على الحاكم وخلع طاعته وحث أبي الفتوح الحسني أمير مكة على الدعوة لنفسه. (ابن طاغر الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ص ٤٨ ، المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٨٢ ، وحاشية ص ٨٧ ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة ص ٥٧ ، القاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٧٠ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٧٣ ، أحمد كامل : الحاكم بأمر الله ص ١٥٦) .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٣٧ .

خروج أبي الفتوح على الحاكم بأمر الله :

سافر أبو القاسم المغربي إلى مكة^(١) والتقى بأبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني^(٢) وأفسد نيته على الحاكم^(٣) وأطمعه في الرياسة والملك ، وحرضه على طلب الخلافة وهون الأمر عليه ، بميل آل الجراح له ورغبتهم في طاعته ، والدعوة له^(٤) .

فاستحسن أبو الفتوح رأي أبي القاسم إلا أنه رأى استشارة أصحابه قبل اتخاذ القرار الأخير ، فجمع بني الحسن وخاطبهم فيما أشار به أبو القاسم فوافقوه ، وبايعوه ، فصعد المنبر في مكة وخطب لنفسه وتلقب بـ « الراشد بالله »^(٥) وشرع يتلقى البيعة من الموالين له في مكة والمدينة ، ثم أقام الدعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٦) إلا أنه اشتكى لأبي القاسم قلة ما بيده من المال فأشار عليه الوزير أبو القاسم بأن يأخذ ما في خزانة الكعبة من الأموال وما عليها من أطواق الذهب والفضة ، فأخذها أبر الفتوح وضرب الدراهم والدنانير التي سميت بالفتحية نسبة إليه^(٧) . وأثناء ذلك مات أحد التجار بجدة^(٨) ويعرف بالمطوعي^(٩) وقد ترك أموالاً عظيمة وودائع ، وأوصى منها لأبي الفتوح ؛ ليصون بها بقية تركته وودائعه ، فاستولى أبو الفتوح عليها كلها^(١٠) وشرع يفرق الأموال على أنصاره وأرسل أبا القاسم إلى بطون سليم

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٣٧ .

(٢) ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٤٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٥ ، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٣٦ .

(٥) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٦) .

(٦) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ١٩٨ .

(٧) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٥ .

(٨) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي في التاريخ المكي لوحة (١٥٩) .

(٩) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٣٧ .

(١٠) القاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٧٥ .

وعوف بن عامر وغيرهم من بطون العرب يدعوهم إلى طاعته وأخذ البيعة عليهم بخلافته فاستجابوا لطاعته^(١) فلما استوثق الأمر له ببلاد الحجاز عين أبا القاسم وزيراً له^(٢) .

وسافر أبو القاسم المغربي من مكة إلى الرملة بعد أن تأكد من بيعة الحجازيين لأبي الفتوح فاجتمع بمفرج بن دغفل بن الجراح الطائي وبنيه حسان ومحمود وعلي ، وأخذ منهم البيعة لأبي الفتوح^(٣) وصعد إلى المنبر يوم الجمعة وخطب في الناس محرضاً على خلع طاعة الحاكم^(٤) .

ولما فرغ الوزير من أخذ البيعة على آل الجراح عاد إلى مكة ودعا أبا الفتوح إلى المسير معه إلى الرملة^(٥) .

وبعد استقرار الأمور لأبي الفتوح شد رحاله في قوة كبيرة من عسكره تجاه الشام^(٦) فقد روى المؤرخون أنه سافر من مكة سنة ٤٠٩ هـ / ١٠١١ م ، وهو أبو القاسم المغربي ونحو ألف فارس من الأشراف الذين كانوا يعاضدونه ويؤازرونه في موقفه من الحاكم ، ونحو ألف عبد أسود من رجاله^(٧) فلما قدم الرملة من أرض فلسطين حيث منازل بني الجراح خرج مفرج وبنوه حسان ومحمود وعلي إلى لقائه ، وقبلوا له الأرض وسلموا عليه بالخلافة ، وخاطبوه بإمرة

(١) المقرئزي : كتاب المقفي الكبير ص ٤٣١ .

(٢) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٠) ، ابن عنبه : عمدة الطالب ص ١٣٤ .

(٣) ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٤٩ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٣٨ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٣٨ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ١٩٨ .

(٧) المقرئزي : المقفي الكبير ص ٤٣١ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٠) ، ابن عنبه :

عمدة الطالب ص ١٣٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٣٨ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١

ص ٤٨٥ ، ويذكر ابن كثير أن أبا الفتوح ظهر في سنة ٣٨١ هـ ودعا لنفسه بالخلافة وتصدى له الحاكم

وهذا غير صحيح لأن معظم المؤرخين اتفقوا على خروجه سنة ٤٠١ هـ كما أن الحاكم تولى الخلافة في

رمضان سنة ٣٨٦ هـ (انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٠٩) .

المؤمنين وأنزلوه بدار الإمارة ، وقد أمر بالنداء في الناس بأمان الخائفين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١) وأقيمت الخطبة في منازل بني الجراح باسمه وفي بعض بلاد الشام حتى استفحل أمره^(٢) واشتدت الأمور على الحاكم وبخاصة أن الخليفة العباسي في بغداد أمر بكتابة محضر يتضمن الطعن في نسب الفاطميين وقعه كثير من العلماء والعلويين وأنكروا فيه نسب الفاطميين إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -^(٣) .

وليس من قبيل الصدفة أن يكتب العباسيون هذا المحضر للطعن في نسب الفاطميين في تلك الفترة التي خرج فيها أبو الفتوح على الحاكم ؛ بل لعلهم وجدوا أنها فرصة ملائمة للانقضاض على الفاطميين بضربة جديدة ينفض بها الشيعة الذين يدينون بالولاء للفاطميين عن الحاكم مما يضعف من هيبة الفاطميين ويقلل من نفوذهم .

- الحاكم بأمر الله يتصدى للخارجيين عليه :

كان الحاكم قد أرسل حملة عسكرية بقيادة مملوك أبيه ياروخ إلى الرملة بعد هرب الوزير أبي القاسم إليها ، فأغار حسان عليهم وقتلهم^(٤) بين رفح والداروم^(٥) ، وأسر ياروخ وحمله أسيراً ثم ذبحه بين يديه^(٦) .

فلما توافدت الأخبار إلى مصر بما حدث من آل الجراح والوزير المغربي مع أبي الفتوح ، اشتد خوف الفاطميين حتى قال أحد الدعاة الإسماعيليين : « وما بالحضرة أحد من العسكرية

(١) المقرئ : المقفي الكبير ص ٤٣١ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٤ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٥ .

(٢) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٤٧ ، ج ٨ ص ٧٣ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٤ .

(٥) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٢ حاشية ص ٨٧ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٤ .

ولا من الرعية إلا وهو يعتقد بأن حسن بن جعفر يجيء مع مفرج بن دغفل ويكبسون القاهرة»^(١)

لذا فقد بادر الحاكم بإرسال حملة عسكرية أخرى بقيادة علي بن جعفر بن فلاح فسار إلى الرملة في سنة ٤٠١ هـ / ١٠١١ م لكنه هزم هو الآخر من آل الجراح^(٢).

وعجز الحاكم عن إحراز أي تقدم من الناحية العسكرية فلجأ إلى عدة طرق في ثلاثة اتجاهات مختلفة تظهر متدبرته السياسية البارعة وبالتالي هيأت له النجاح والخروج من تلك المحنة منتصراً.

- الانجاء الأول في مصر :

يقول تقي الدين الفاسي : « في سنة ٤٠٢ هـ قتل الحاكم أحمد بن أبي العلاء مولى أبي الفتوح أمير مكة لأنه كان يستوشي أخباره وينقلها إلى موله ، وكان موله أقامه لذلك وأقر عليه عطار »^(٣).

ويبدو أن الرجل كان سفيراً لبلاده في مصر فلما ساءت العلاقات بين مصر والحجاز انحاز إلى جانب أبي الفتوح وعمل على نقل أخبار مصر إليه فأمر الحاكم بقتله .

وفي نفس العام أصدر الحاكم سجلاً يمنع الناس فيه من السفر إلى مكة في البر والبحر ويمنع حمل الأمتعة والأقوات إليها ، وقد ذكر المقرئ أن بعض الناس حاولوا الخروج لتأدية شعيرتهم الدينية فأعادهم رجال الحاكم من الطريق^(٤) كما أمر بقطع الميرة عن الحرمين^(٥).

(١) عبد الحميد الدجيلي : رسائل اسماعيلية قديمة نادرة ، مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ٣ ج ١ ص ٤٢١ سنة ١٩٥٤ م .

(٢) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٨٧ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٧٦ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٤١ .

(٤) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٩٠ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٩ .

وكانت هذه سياسته التي اتبعها في مصر والتي تتمثل في التضييق على أهل الحجاز ومحاصرتهم اقتصادياً كما فعل العزيز من قبل فيثورون على أبي الفتوح .

- الانجاز الثاني في الحجاز نفسه :

بعد أن ضيق الحاكم على أهل الحجاز ومنع عنهم الميرة وأوقف الأموال والصلوات التي كانت ترسل إليهم من مصر سنوياً مع ركب الحاج حتى أصبحوا في ضيق شديد قام بعزل أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني وتولية ابن عمه أبا الطيب الحسني على الحرمين مكانه^(١) وبعث إليه خمسين ألف دينار كمساعدة مالية له^(٢) كما أنفذ أموالاً كثيرة لشيخ بني الحسن بالحجاز^(٣) حتى يضمن ولائهم له والتخلي عن طاعة أبي الفتوح ، وقد تمكن الحاكم من استمالتهم إلى جانبه .

- الانجاز الثالث مع آل الجراح :

لما استمال الحاكم أشراف الحجاز اتجه إلى بني الجراح وأرسل إليهم ليستميلهم إلى جانبه^(٤) ، ويعددهم الأموال الكثيرة^(٥) ويهون على حسان بن المفرج قتل ياروخ^(٦) وطلب منهم أن يتخلوا عن مناصرة أبي الفتوح ، ويخلوا بينه وبين الحاكم^(٧) وترددت الرسل بينهما حتى تقرر أن يدفع الحاكم إلى حسان بن المفرج خمسين ألف دينار عيناً ، ولكل واحد من

(١) هو أبو الطيب بن عبد الرحمن بن قاسم بن أبي الفاتك بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٥) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٠٩ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٥ ، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٣٧ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٩ .

(٥) Gerald de Gaury : Rulers of Mecca. p. 60

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٥ .

(٧) دحلان : خلاصة الكلام ص ١٧ .

إخوته مثل ذلك ، سوى الهدايا والثياب ، وأرسل لهم الحاكم كل ما أرادوا فمالوا عن أبي الفتوح ، ودخلوا في طاعة الحاكم^(١) .

وبذلك استطاع الحاكم بمكره ودهائه استمالة آل الجراح أيضاً حتى تخلوا عن أبي الفتوح .

استسلام أبي الفتوح واعتذاره للحاكم :

أدرك أبو الفتوح أن الحاكم نجح في استمالة بني الجراح إلى جانبه^(٢) ، وعلم بما حدث في مكة فأسرع إلى الوزير أبي القاسم طالباً النصح والمشورة كي يعود إلى مكة قائلاً له : «أغويتني وأخرجتني إلى هؤلاء ينفقون سوقهم بي عند الحاكم ، ويبيعونني بيعاً بالدرهم ، فيجب عليك أن تخلصني كما أوقعتني ، وتسهل سبيلي بالعودة إلى الحجاز ، فإنني راض من الغنيمة بالإياب»^(٣) فطلب منه أبو القاسم أن يمهل حتى يفكر في طريقة لخلاصه ، فلما طال الأمر عليه ، ولم يجد منه حلاً لمشكلته ذهب إلى المفرج بن الجراح والد حسان وطلب منه أن يعيده إلى مكة^(٤) فاستجاب له مفرج وأرسل معه جماعة لم يزالوا معه حتى بلغ مكة^(٥) فتلقاه أصحابه^(٦) في شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ^(٧) وبعد أن استقر أبو الفتوح بين أهله في مكة كتب إلى الحاكم يعتذر له عما بدر منه^(٨) ويطلب الدخول في طاعته فقبل الحاكم عذره وعفا عنه^(٩) .

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) دحلان : خلاصة الكلام ص ١٧ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٤٠ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٦ .

(٧) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٥ ، المقرئ : اتعاظ الخنقا ج ٢ ص ٩٥ .

(٨) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٣٨ .

(٩) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٤٠ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٠) ،

ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة (١٦٠) .

والحقيقة أن الحاكم كان يعلم أن خروج أبي الفتوح تم بسبب تحريض آل الجراح والوزير أبي القاسم المغربي فلم يتخذ موقفاً تجاه أبي الفتوح وإنما شرع ينتقم من آل الجراح فأرسل قوة عسكرية بقيادة علي بن جعفر بن فلاح الذي قصد الرملة سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م وفاجأ آل الجراح فهزمهم واستولى على أموالهم وذخائرهم وحصونهم^(١) ، وفر أبو القاسم المغربي إلى الموصل^(٢) وهكذا استطاع الحاكم القضاء على الفتنة وأعاد الحجاز إلى السيادة الفاطمية مرة أخرى .

- عودة الحجاز للسيادة الفاطمية :

لم يحاول الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني بعد عودته إلى مكة الخروج على طاعة الفاطميين بل احتفظ بسيادتهم على هذا البلد المقدس واستمر يقيم الخطبة للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي^(٣) وضرب السكة باسمه^(٤) ثم قام بزيارة ودية إلى مصر كي يعيد ما انقطع من روابط الود والإخاء بينه وبين الحاكم ، وليؤكد له إخلاصه وولاءه الكامل ، وقد سعد الحاكم بهذه الزيارة فأنعم عليه وأمر له بالخلع والهدايا^(٥) وعاد أبو الفتوح إلى مكة ، وقد رضي الحاكم عنه وظل يدعو للفاطميين على منابر الحجاز ، فلما توفي الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م^(٦) استمر أبو الفتوح يخطب لمن جاء بعده ، فقد ذكر القلقشندي : أنه خطب للظاهر ابن الحاكم سنة ٤١٢ هـ بمكة^(٧) وهدأت الأحوال في الحجاز إلى أن وقعت فتنة كبيرة بمكة قتل فيها كثير من الحجاج المصريين .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٧٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٣١ .

(٣) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٧ .

(٤) المقرئ : كتاب المقفي الكبير ص ٤٣١ - اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٩٥ .

(٥) عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله - الخليفة المقتدى عليه - ص ١٥٣ - القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

(٦) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١١٥ .

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٩ .

وقد روى كثير من المؤرخين أحداث هذه الفتنة فقالوا : في سنة ٤١٣هـ^(١) يوم الجمعة ، يوم النفر الأول قبل عودة الحجاج من منى ، وبعد فراغ الإمام من الصلاة أقبل رجل من المصريين أحمر اللون أشقر الشعر تام الخلقة جسيماً طويلاً يمسك باحدى يديه سيفاً وبالأخرى دبوساً وقصد الحجر الأسود كأنه يستلمه فضرب وجه الحجر في وسطه ثلاث ضربات متوالية بالدبوس^(٢) وهو يقول : إلى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلي ، فليمنعني مانع مما أفعله اليوم^(٣) ، فاتقاه أكثر الحاضرين ، وتراجعوا عنه خوفاً ، فهجم عليه رجل ، وطعنه بخنجر فقتله ، وقطعه الناس وأحرقوه^(٤) ، وقتل ممن اتهم بمصاحبتهم جماعة وأحرقوا وثارَت الفتنة ، وكان القتلى أكثر من عشرين رجلاً ، وأقبل الناس في ذلك اليوم على المغاربة والمصريين بالقتل والنهب والسلب ، فأسرع أبو الفتوح أمير مكة وأطفا الفتنة المشتعلة ورد الناس عن المصريين ، ودافع عنهم وأمنهم^(٥) .

ومما لاشك فيه أن هذه الفتنة كانت نتيجة مؤامرة مدبرة للوقیعة بين المصريين والحجازيين فقد سارع الخليفة الظاهر باستنكار هذا الحادث و التبرؤ من مرتكبيه ، وبين أنه من أهل البصرة ، وليس من المصريين ، وذلك من خلال كتابه الذي نقله ابن تغري بردي عن هلال الصابي وجاء فيه «... رجل من أهل البصرة أهوج أثول ضال مضل سار مع الحجاج إلى مكة -حرسها الله- فرقاً من وقع الحسام وتستراً بالحج إلى بيت الله الحرام ، فلما وصل في البيت المفضل المعظم ، والمحل المقدس المكرم أعلن بالكفر وما كان يخفيه من المكر ، وحمله تسمم في عقله على قصد الحجر الأسود حتى قصده وضربه بدبوس ضربات متواليات ، أطار منه شظايا وصلت بعد ذلك ،

(١) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة (٤٥) ، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٤١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤١ ، عمر بن فهد : اتحاف الوری ج ٢ ص ٤٤٨ ، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٤١ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غایة المرام ج ١ ص ٤٩٣ .

(٥) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي : لوحة (٤٥) ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٨ .

ثم إن هذا الكافر عوجل بالقتل على أسوأ حاله ، وأضل أعماله ، وألحق بأمثاله من الكفرة الواردين موارد ضلاله ؛ ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، ولعمري إن هذه لمصيبة في الإسلام قاذحة ونكايّة فادحة فإننا لله وإنا إليه راجعون ، لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيماً ومقاماً جسيماً أذكر ما كان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجاج - لعنه الله - من إحراق البيت وهدمه ، وإزالة بنيانه وردمه ^(١) .

وقد ذكر ابن تغري بردي أن الكتاب كتب في سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ^(٢) ، ويبدو أن هذه الرسالة قد أرسلت نسخة منها مع أبي القاسم بن رزق البغدادي الذي أرسله الخليفة الظاهر إلى الحجاز في رجب من نفس العام ^(٣) لإصلاح الأمور وتهذبة النفوس ، ومما لا شك فيه أن هذه الزيارة قد أعطت نتائجها المرجوة ، إذ ورد في السادس عشر من صفر سنة ٤١٥ هـ الخبر من أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني أنه أقام الدعوة للظاهر بعرفات وغيرها ^(٤) .

ولولا هذه الرسالة التي نفت عن المصريين الاتهام بضرب الحجر الأسود لاستطاع الأشراف الغاضبون التأثير على أبي الفتوح كي يتخذ موقفاً عدائياً من مصر ؛ بل إن هذه الرسالة أطفأت النار المشتعلة في قلوب الحجازيين ، وأتت بنتائج طيبة فقد أكرم أهل الحجاز المصريين في الموسم التالي لعلمهم أنهم ظلموا في الموسم السابق ؛ لدرجة أن بعض المصريين الذين لم يذهبوا لتأدية فريضة الحج هذا العام خوفاً من الحجازيين ندموا ، ولاموا أنفسهم ، وقد روى المسيحي ذلك بقوله : « وفي مصر تواترت الأخبار بما صنعه حسن بن جعفر بمكة من إقامة الدعوة لأمر المؤمنين عليه السلام بعرفات ، وسائر المقامات الشريفة وتنكيسه رايات خراسان ومنعه لأهلها من الدعوة لصاحبها ، وأنه لم يشاهد حج أهني من هذه السنة ولا أكثر فائدة للتجار بها وندم من عاد من حجاج المصريين ، ومن لم يسر إلى مكة بحيث لا ينتفع

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٨ - ٢٥٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٨ .

(٣) المسيحي : أخبار مصر ص ٣٣ ، القريري : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ١٣٥ .

(٤) القريري : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ١٣٩ .

بتقدمه» (١).

ثم اضطربت الأحوال في مصر سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م (٢) في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر فارتفعت الأسعار واشتد الغلاء وبلغ بالناس الجهد (٣).

ويبدو أن آثار هذه الشدة قد امتدت إلى الحجاز فارتفعت فيه الأسعار وزاد الغلاء وتعذر الطعام (٤) وانشغلت مصر بمعالجة هذه الأزمة ولم ترسل إلى الحجاز المساعدات المالية التي كانت ترسلها كل عام ، كما توقف الحج في هذا العام نتيجة لهذه الشدة (٥) فاضطر أبو الفتوح الحسن ابن جعفر إلى إرسال وفد من أشرف الحجاز لطلب العون والمساعدة لكن الوفد لم يستطع مقابلة أحد سوى القائد معضاد (٦) الذي طلب منهم مقابلة الشيوخ الذين يجلسون بحضرة الخليفة لعرض الموضوع عليهم (٧) فلما لقوا الشيوخ لم يستمعوا لهم وأعادوهم إلى معضاد فأحس الوفد الحجازي عدم الاهتمام به وانشغال رجال الدولة عنه ، وصاروا كما قال المقرئ : « يدفعهم هذا إلى هذا » (٨) مما جعلهم ينادون في القصر : « يا قوم جئناكم وفارقنا أولادنا وأهلينا ، وقد

(١) المسبحي : أخبار مصر ص ٤٤ .

(٢) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) كان الخليفة الفاطمي الظاهر قد انهمك في اللهو والترف وحب الغناء وترك أمور الدولة لأربعة من الرجال هم الشريف الكبير العجمي ، والشيخ فحبيب الدولة الجرجرائي والشيخ العميد محسن بن دبوس والقائد معضاد فلم يهتموا بتوفير الغذاء للناس فارتفعت الأسعار ، واشتد الغلاء وطمع حسان بن الجراح في الإغارة على مصر فأرسل ألف فارس إلى القرما ففر الناس منها إلى تيس بالمراكب وأخذ الناس في التحفظ على أموالهم وفقد القمح والدقيق والخبز وارتفعت الأسعار وصرخ الناس في وجه الخليفة الظاهر الجوع يا أمير المؤمنين ، لم يصنع بنا هكذا أبوك أو جدك فإله الله في أمرنا (المقرئ : اتعاظ ج ٢ ص ١٦٤ - ١٦٦ ، الخطط ج ١ ص ٣٥٤) .

(٤) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص ١٨٧ .

(٥) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ١٦٥ .

(٦) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص ١٩٢ .

(٧) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ١٦٤ .

(٨) المصدر السابق .

هلكنا من الجوع فإن يكن ليس لكم بإقامة الدعوة بمكة والمدينة حاجة فاصرفونا فإننا قد بذل لنا الرغائب في إقامة الدعوة لغير إمامكم بالحجاز ، فلم نأخذها ، ولم نجب إليها ، ونريد إنساناً يكلمنا ونكلمه» (١) .

والحقيقة أن الوفد الحجازي أراد أن يؤكد للمصريين أنهم باقون على العهد وصدق الولاء للفاطميين على الرغم من حرص العباسيين على استمالتهم .

وبالرغم من تلك الشدة التي كانت مصر تعانيها فقد بعث إليهم جمال الدولة مظفر الصقلبي صاحب المظلة ألف دينار من ماله ، فقالوا له : لا نأخذ إلا ما يصلنا به أمير المؤمنين ، لكنهم عادوا وأخذوها منه ، وقد ذكر المقرئزي أنهم فرقوها على العبيد والضعفاء وكانوا خمسمائة نفس ، أخذ كل واحد منهم دينارين (٢) .

وفي نفس الوقت أراد الوفد الحجازي العودة إلى الحجاز فمنعوا وأشير عليهم بالبقاء في مصر إلى انتهاء موسم الحج (٣) وأمر الخليفة الظاهر بإعطائهم ألف دينار يصرفونها في أمورهم (٤) ، وأمرت أم الخليفة بمنحهم بعض الأموال من عندها (٥) .

ولعل الفاطميين أرادوا استبقاء الوفد الحجازي بمصر حتى تستكمل نفقاتهم ، إلا أنهم لم يستطيعوا إعطاءهم نفقاتهم كاملة مثل الأعوام السابقة ، فقد روي المسبحي أن الوفد الحسني اتجه من مصر إلى مكة بعد حصولهم على نصف المعونات المالية المقررة لهم من قبل الفاطميين إلا أبا الفتوح الحسن بن جعفر الحسني فقد أجلت مخصصاته المالية ووعد المستولون أنها سوف ترسل إليه بحراً فسار رجال الوفد الحجازي وهم ساخطون غير راضين (٦) .

(١) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص ١٩٢ .

(٢) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص ١٩٩ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١٦٦ .

(٦) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص ٢٠٧ .

ومع ذلك فقد استمر النقوذ الفاطمي في الحجاز قوياً لأن الحجازيين كانوا يعلمون أن كل ما حدث هو نتاج الشدة التي كان المصريون يعانون منها ، وحين انفجرت الأزمة لم يتأخر الفاطميون عن إعطاء الحجاز ما يحتاجه فقد تصدق الخليفة الظاهر على أهل الحجاز بأربعين ألف دينار سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م بعد أن شفى من مرضه ، فقد ذكر المقرئزي أنه في هذا العام « سقط الظاهر عن فرسه وأرجف بموته ثم عوفي فتصدق بمائة ألف دينار حمل منها إلى مكة والمدينة أربعون ألف دينار ، وإلى بلاد الشام عشرون ألف دينار ، وإلى بلاد المغرب عشرون ألف دينار ، وقرق بمصر عشرون ألف دينار » (١) .

ومن هنا نجد أن الحجازيين قد أخذوا من هذا المبلغ ضعف ما أخذته البلدان الأخرى بما فيها مصر .

وقد استمرت العلاقات بين أبي الفتوح الحسنى والفاطميين طيبة بعد وفاة الظاهر ، فقد خطب بمكة سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م لابنه المستنصر (٢) وظل أبو الفتوح على ولايته للفاطميين إلى أن توفي سنة ٤٣٠ هـ (٣) وخلفه ابنه شكر الملقب بتاج المعالي (٤) وكان في مثل بأس أبيه وشجاعته ، حارب بني الحسين أصحاب المدينة عندما أرادوا الخروج عن طاعته فانتصر

(١) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ١٧٥ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣١ ، العصامي المكي : سبط النجوم العوالي ج ٤ ص ١٩٨ .

(٣) في عهد أبي الفتوح كان يتولى إمارة المدينة المنورة الحسين بن طاهر الحسيني غير أن صهره وابن عم أبيه داود بن أحمد القاسم بن عبد الله بن طاهر لم يلبث أن غلبه على إمارتها واستقل بإمارة المدينة سنة ٣٩٧ هـ وظل يتولاها إلى أن توفي وخلفه على التوالي ولداه هاني ومهنا حتى سنة ٤٠٨ هـ ثم عبيد الله (مسن مهنا بن داود ، ثم أخوه الحسين بن مهنا بن داود ثم تولى بعد ابنه مهنا بن الحسين بن داود ، ثم ابنه الحسين بن مهنا بن الحسين ، ويذكر القلقشندي أنه في سنة ٤٢٨ هـ تولى إمارة المدينة المنورة هاشم بن الحسين بن داود من قبل الخليفة المستنصر الفاطمي وخطب له فيها (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٠) .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٣١ ، دحلان : خلاصة الكلام ص ١٧ .

عليهم^(١) وملك المدينة وجمع الحرمين الشريفين تحت إمارته مدة ثلاث وعشرين سنة^(٢) وظل على ولائه وصلاته الطيبة بالفاطميين طوال عهده .

وقد مرت الحجاز في أيام شكر بن أبي الفتوح الحسني بضائقة اقتصادية شديدة استمرت مدة عامين ابتداء من سنة ٤٣٩هـ - ٤٤٠هـ / ١٠٤٧ - ١٠٤٨م فلم يتوان الخليفة الفاطمي المستنصر عن مساعدتهم في هذه المحنة^(٣) لكنه منع المصريين من تأدية فريضة الحج في سنة ٤٣٩هـ خوفاً عليهم من السلب والنهب بإصدار المرسوم التالي : « يقول أمير المؤمنين إنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام فإن به قحطاً وضيقاً وقد هلك به خلق كثيرون ، وإنني أقول هذا شفقة بالمسلمين »^(٤) .

واشتد القحط والجذب بمكة وارتفعت الأسعار بها فهاجر المجاورون منها وكثير من أهلها واتجه بعضهم صوب مصر ، وقد أحصى الرحالة ناصر خسرو عددهم خمسة وثلاثين ألف إنسان كساهم الخليفة المستنصر ، وأجرى عليهم الرزق سنة كاملة ، وأغدق عليهم الصلات ، ثم أمر بترحيلهم إلى بلادهم معززين بكرمين^(٥) .

ويبين الرحالة ناصر خسرو أن القحط استمر بالحجاز إلى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م وأن الخليفة المستنصر الفاطمي منع الحجاج من السفر إلى مكة في هذا العام أيضاً خوفاً عليهم إذ أصدر في شهر رجب سجلاً يوضح أن في الحجاز قحطاً وليس من الخير أن يسافر الحجاج إلى مكة ، إلا أنه لم يقصر في إرسال ما كان يرسله كل سنة من الكسوة وأجور الخدم والحاشية وأمراء مكة والمدينة ، وصلة أمير مكة التي كانت ثلاثة آلاف دينار في الشهر ، بالإضافة إلى

(١) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص١٩٨ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٠٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣١ ، العصامي : سمط النجوم ج٤ ص١٩٨ .

(٣) ناصر خسرو : سفر نامه ص١١٠ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق ص١١٢ .

الخلع والخيول التي كانت ترسل إليه مرتين في السنة^(١) .

وقد ذهب ناصر خسرو مع الوفد المصري وقام بتأدية فريضة الحج^(٢) ثم عاد مرة أخرى بصحبة أمير مكة تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح الحسني الذي جاء إلى مصر في زيارة ودية^(٣) ، ويبدو أنه جاء لتقديم الشكر والولاء للخليفة الفاطمي على ما أرسله لبلاده ، وليس للحصول على الرسم المقرر له كما ذكر ناصر خسرو^(٤) ، إذ من المرجح أن صلته قد أعطاها له الوفد المصري كالعادة حين وصل إلى مكة .

استمر الأمير تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح الحسني مخلصاً في ولائه للفاطميين حتى توفي سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م^(٥) وكان الحاج العراقي قد منع في عهده عدة سنوات لسوء صلته بالعباسيين^(٦) .



(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص ١١٣ .

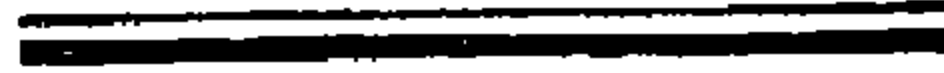
(٤) المصدر السابق .

(٥) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) .

(٦) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٠١ .

الفصل الثالث

ضعف النفوذ الفاطمي في الحجاز



الفصل الثالث

ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز

مدخل :

بدأ الضعف يتطرق إلى النفوذ الفاطمي في الحجاز منذ عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله إذ تعد فترة خلافته (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) حداً فاصلاً بين عهد الخلفاء الأقوياء وعهد الوزراء العظام ، ففي أثنائها نقلت السلطة الفاطمية نهائياً من أيدي الخلفاء إلى أيدي الوزراء وجاء ما يعرف في التاريخ الفاطمي بعصر الوزراء العظام .

فقد تولى المستنصر الخلافة ولم يستطع أن يستخلص صلاحياته من برائن الوزراء ورجال الإدارة والجيش الذي قوي نفوذ قاداته بفرقه المتعددة الأجناس والمشارب من المغاربة والأتراك والديلم والعرب والسودان ، ولم تلبث هذه العناصر أن ثارت على بعضها فحدثت الفتن والاضطرابات ، ثم نقص النيل عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م وهو بداية ما عرف بالشدة العظمى التي استمرت مدة سبع سنين نتيجة اضطراب أحوال البلاد فتفاقم الوضع وأهملت الزراعة ونقص الغذاء وارتفعت الأسعار وانتشرت المجاعة ، وتأثرت إمدادات الغلال التي كان الفاطميون يرسلونها إلى الحجاز كل عام وقل مقدارها مما ترتب عليه قطع الخطبة للفاطمين سنة ٤٥٨ هـ والدعوة للعباسيين الذين انتهزوا الفرصة فتقربوا لأشراف الحجاز وقدموا لهم الأموال الكثيرة.

ومما لا شك فيه أن عدم استقرار الأمور في مصر في العصر الفاطمي الثاني الذي تميز بازدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء شجع العباسيين في ذلك الوقت على نشر نفوذهم في كل من مكة والمدينة ، واشتد التنافس بينهم وبين الفاطميين على بسط سيادتهم على الأراضي المقدسة واستمر هذا الوضع حتى نهاية الدولة الفاطمية .

وهذا الفصل سوف يعرض لقيام دولة الهواشم بمكة ، وعلاقاتهم بالفاطمين عقب الشدة العظمى وأثر هذه الشدة في ضعف النفوذ الفاطمي وازدياد النفوذ العباسي ثم التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية من أجل السيطرة على الحجاز .

- قيام أسوة الهاشم بمكة :

لما توفي تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح الحسني آخر أمراء بني جعفر الحسينيين سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م^(١) ولم ينجب أولاداً يخلفونه في الحكم^(٢) إذ لم يكن له إلا بنتاً يقال لها تاج الملوك^(٣) أسرع عبد له يسمى طراد بن أحمد^(٤) فاستولى على الحكم خلفاً له وكان رجلاً شجاعاً مقداماً^(٥) .

ولعل من الغريب أن يتولى الحكم في مكة أحد العبيد رغم كثرة الأشراف فيها ، لكنهم في ذلك الوقت كانوا منقسمين على أنفسهم ومختلفين مع بعضهم بعضاً^(٦) مما يسر له أمر الاستيلاء على حكم مكة .

لم يدم حكم العبد طراد بن أحمد طويلاً ، إذ أسرع بنو أبي الطيب الحسينيين^(٧) فقبضوا على زمام الأمور في البلاد ، وولوا أحدهم وهو محمد بن أبي الطيب بن عبد الرحمن^(٨) لكنهم فشلوا في إدارة أمور البلاد إذ انتشر السلب والنهب وارتفعت الأسعار ، وساد الغلاء مما دفع أبو هاشم محمد بن جعفر الحسني زوج ابنة شكر بن أبي الفتوح آخر أمراء بني جعفر الحسينيين

(١) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) .

(٢) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٦ .

(٣) ابن عنبه : عمدة الطالب ص ١٣٥ .

(٤) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٣٢ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) ابن عنبه : عمدة الطالب ص ١٣٦ .

(٧) بنو أبي الطيب الحسينيين ينسبون إلى أبي الطيب بن عبد الرحمن بن قاسم بن أبي الفاتك بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وهو الذي تولى حكم مكة من قبل الحاكم بأمر الله عقب خروج أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني على الحاكم سنة ٤٠١ هـ (

الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٥) .

(٨) دحلان : خلاصة الكلام ص ١٧ - ١٨ .

إلى الخروج عليهم فاقتتلوا سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م فانتصر أبو هاشم الحسني عليهم ، وطردهم عن الحجاز فصاروا إلى اليمن^(١) وقد أخذوا ميزاب الكعبة وكسوتها^(٢) ونهبوا حلية البيت الحرام^(٣) واستقل الأمير محمد بن جعفر الحسني^(٤) بإمارة مكة وخطب للمستنصر الفاطمي^(٥) وإلى أبي هاشم تنسب أسرة الهواشم .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٢ .

(٢) عمر بن قهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٦٨ .

(٣) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢٦٩ وفي الحاشية أن صاحب مكة بعد سنتي ٤٥٣هـ ، ٤٦١هـ هو حمزة بن وحاش بن أبي الطيب داود وخلفه سنة ٤٦١هـ والياً إلى سنة ٤٨٧هـ أبو هاشم محمد بن جعفر نقلاً عن ابن الأثير: الكامل - ابن خلدون : العبر - زامباور : معجم الأنساب ، والتحقيق أن زامباور انفرد بذلك دون بقية المؤرخين ، أما ابن الأثير فبنتبع رواياته عن السنين من ٤٥٣هـ إلى ٤٦١هـ لم نجد ذكراً لحمزة بن وحاش ، أما ابن خلدون فيذكر أن أبا هاشم استقل بإمارة مكة عقب انتصاره على بني سليمان سنة ٤٥٤هـ وقد تابعه في ذلك كثير من المؤرخين (انظر : ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٢ ، زامباور : معجم الأنساب ص ٣١ ، القاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٦ ، العقد الثمين ج ١ ص ٤٤١ ، عمر بن قهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٦٩ ، ابن عنبه : عمدة الطالب ص ١٣٦ ، عبد العزيز بن قهد : غاية المرام ج ١ ص ٥١٠ - المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ٢ حاشية ٣٠٤) .

(٤) هو محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم بن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

(انظر : القاسي : العقد الثمين ج ١ ص ٤٣٩ - شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٦ ، ابن عنبه : عمدة الطالب ص ١٣٦ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) ، عمر بن قهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٦٨ ، دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجدول المرضية ورقة « ١٤٠ ») .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٢ .

النفوذ اليمني في عهد أبي هاشم :

لم يستطع أبو هاشم الحسني أن يفرض الأمن والنظام بمكة مما دعا الخليفة المستنصر أن يطلب من علي بن محمد الصليحي^(١) داعيته باليمن أن يذهب بجيشه إلى مكة ليساعد أميرها في ضبط الأمور بها ، فقد روى كثير من المؤرخين أن علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن قد زحف إلى مكة في السادس من ذي الحجة سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م وملكها وقام بأعمال طيبة فيها ، فأظهر العدل والإحسان ، وضرب على أيدي المفسدين فسعدت به قلوب الناس^(٢) ، وصار الحجاج يشعرون بالأمن والاطمئنان^(٣) فكان الناس يعتمرون ليلاً ونهاراً ، وأموالهم محفوظة ، ورجالهم محروسة ، وأخذ يجلب الأقوات والسلع إلى مكة فرخصت الأسعار وانتشرت له الألسنة بالشكر ، وكثرت له الأدعية^(٤) وكسا البيت ثياباً بيضاء من الديباج ورد إلى البيت من الحلي ما كان بنو أبي الطيب الحسنيون قد أخذوه عندما ملكوا مكة بعد شكر ابن أبي الفتوح الحسني وحملوه إلى اليمن فاشتراه منهم وأعادهم^(٥) ، ودخل البيت معه زوجته «الحرّة الكاملة» ، وكان يخطب لها على المنابر معه ، وقد أقام الدعوة للفاطميين بمكة فصار أشرف مكة يخطبون للمستنصر بها ومن بعده للصليحي ثم زوجته الحرّة فيقال : اللهم أدم أيام الحرّة الكاملة السيدة كافلة المؤمنين^(٦) .

(١) هو علي بن محمد الصليحي وكنيته أبو الحسن بن محمد ، وكان أبوه قاضياً في اليمن سني المذهب إلا أن علياً صاحب داعي اليمن عامر بن عبد الله الزواحي أحد دعاة الفاطميين ، ومال إلى مذهب التشيع حتى صار إماماً فيه فثار سنة ٤٢٩ هـ باليمن حتى ملكه كله سهله وجبله ووعره وبره وبحره ، وكانت قاعدة ملكة صنعاء واستمر على حكم اليمن إلى أن قتل سنة ٤٥٩ هـ في طريق مكة على يد سعيد الأحول بن نجاح (ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٧١ - ٧٣ ، المقرئ : الذهب المسبوك ص ٦٥ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٠٠ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٦ ص ٢٣٨) .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٦٨ .

(٣) المقرئ : الذهب المسبوك ص ٦٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٣٦٣ .

(٥) المقرئ : اتعاظ الخفا ج ٢ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٦) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٦٨ .

استمر الصليحي يقيم الأمور بمكة إلى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م^(١) ويبدو أن أشراف مكة خشوا أن يظل الصليحي مقيماً بها فيقضي على آمالهم في الاستقلال بالحكم الذي بذلوا في سبيله الكثير فنسوا خلافاتهم ، وتجمعوا مقترحين عليه أن يخرج من مكة ويختار من الأشراف من يراه أهلاً للحكم والسيطرة على الأمور بها^(٢) ولم يكن الصليحي ليختار غير محمد ابن جعفر الحسني الحاكم الفعلي لمكة والذي جاء لمناصرته فتركه نائباً عنه بها^(٣) وأمره على الجماعة وأصلح بين العشائر واستخدم له العساكر وأعطاه مالاً وخمسين فرساً وسلاحاً حتى يقوي من نفوذه بمكة ثم تركه وعاد إلى اليمن^(٤) .

وقد أرسل صاحب مكة رسالة إلى الخليفة الفاطمي المستنصر يبين فيها ما فعله معه الصليحي فأرسل المستنصر سجلاً إلى الصليحي يشكره فيها على معاونته لأمر مكة وفيه يقول : « ... وورد إلى حضرة أمير المؤمنين كتاب صاحب مكة - حرسها الله - يذكر أنك شددت معه حيازيم الجد ، بالتقوية من أمره والشدة ، وشهت في نصرته حساماً ماضي الحد حتى عاد جموح مراكب مراده ذلولاً ، وغرب من انتصر لعناده مغلولاً ، فاستقامت أحوال الحرم الشريف بمقارنته هجرتك لنصره ، وامتيار سحابه من بحرك ، وأفاض في ثناء جميل وشكر جزيل ، أعجب أمير المؤمنين بهما فاهتز طرباً لهما ، فلقد كان على قلبه لأجل الحرم الشريف من الفكر ، ما يوفي على الذكر ، ولقد فعلت فعل الموفقين في المقال والفعال ، وحللت بما أتيت عقدة الاشكال وتعين عليك أن تكون أنت وایاه يداً واحدة ببذل المجهود فيما يرد ذلك المقام الشريف بالأمن والعمارة إلى أحسن المعهود »^(٥) .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الصليحي اضطر للرجوع عن مكة لوباء أصاب جيشه فمات منهم سبعمائة رجل ، ولم يبق من أصحابه إلا نفر يسير ، ولأن الأشراف العلويين تجمعوا ضده

(١) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٠٩ .

(٣) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الوری ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٥) عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية سجل رقم (٣) ص ٣٧ .

فخشي الوقوف أمامهم فاضطر للرحيل^(١) .

والحقيقة أن الصليحي رحل عن مكة بعد أن تأكد من قوة أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني وضمن ولائه للمستنصر الفاطمي ، وبعد أن أمده بالعدد والعتاد اللازم^(٢) واستقر أبو هاشم الحسني في مكة وأقام الدعوة للفاطميين^(٣) تسانده الحامية الصليحية التي تركها له علي الصليحي .

الشدة العظمى في مصر وأثرها على النفوذ الفاطمي بالحجاز :

أصبحت مصر بمحنة شديدة في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م^(٤) حيث عم الرباء والقحط ، وانقطع فيضان النيل فأهملت الزراعة ، وتندر الطعام وانتشرت المجاعة تبعاً لذلك ، وامتدت تلك المحنة لمدة سبع سنين حتى قرنها المؤرخون بأيام القحط الذي استمر بمصر سبع سنوات متتالية زمن النبي يرسف عليه السلام^(٥) وقد اصطلح المؤرخون على تسميتها « الشدة العظمى »^(٦) .

وقد صاحبت هذه الشدة حالة من الفوضى الشاملة عمت البلاد بسبب اضطرابات الجند ومنازعاتهم ، فقد نشأت الخلافات بين الأتراك والعبيد ، وتمكن الأتراك من هزيمة العبيد واستفحل أمرهم ، وطالبوا بزيادة رواتبهم ، وألحوا في ذلك حتى خلت خزائن الدولة فأقضوا مضاجع الخليفة والوزراء وألجأوا الخليفة إلى بيع محتويات خزائنه لهم لأجل تسديد

(١) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٦ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٦٨ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) - أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠ .

(٤) المقرئزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٢٤ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٢١٦ .

(٦) المقرئزي : إغاثة الأمة حاشية ص ٢٧ .

رواتبهم^(١).

وشلت نزاعات الجند يد الحكومة ، وأخلت بالأمن فنشط الأشرار وقطاع الطرق فتفاقم البلاء بالناس وعجز الفلاحون عن زراعة الأرض فنقص الغذاء وانتشرت المجاعة^(٢).

ولقد أثرت الشدة العظمى تأثيراً عميقاً على السياسة الخارجية للدولة الفاطمية ، ولا شك أن طبيعة الروابط السياسية والاقتصادية مع الحجاز كانت وراء تأثر ولاء مكة والمدينة للفاطميين - الذي يتمثل في الخطبة للخليفة الفاطمي في الحرمين- بأحداث الشدة العظمى.

وبدأ الاضطراب يسود علاقة الأراضي المقدسة بالخلافة الفاطمية منذ انقطاع ما ترسله مصر من معونة وأغذية للحجاز مع بداية هذه الشدة سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م مما ترتب عليه قطع الخطبة للفاطميين بمكة سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م والدعوة للعباسيين الذين بذلوا لأبي هاشم الحسن الأموال الكثيرة^(٣) من أجل استعادة نفوذهم بالحجاز في الوقت الذي كانت فيه مصر تعاني من هذه الشدة .

ولما بلغ المستنصر ما فعله أبو هاشم محمد بن جعفر الحسن من إقامة الدعوة للعباسيين والخروج عن طاعة الفاطميين وطرد الحامية الصليحية إلى اليمن^(٤) ، أرسل إلى علي بن محمد الصليحي يأمره بالزحف على مكة لإقامة الدعوة لهم^(٥).

(١) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢٧٦ - ٢٨٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٢ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥١٢ ، العصامي : سمط النجوم ج ٤ ص ١٩٨ ، الفاسي : شفاء

الغرام ج ٢ ص ١٩٧ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٣) ، ابن عبد القادر الطبري :

الأرج المسكي لوحة (١٦٠) .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٣ .

وفي يوم الإثنين السادس عشر من ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ خرج الصليحي من اليمن لإخضاع شريف مكة الذي قطع الخطبة للفاطميين^(١) وسار من صنعاء إلى الحجاز بعد أن أناب عنه ابنه أحمد المكرم^(٢).

ولعله أراد إرهاب أبي هاشم الحسني فخرج في ألفي فارس ، يتقدم موكبه الخاص خمسمائة فارس مطهمة محلاة بالسروج المفضضة والمذهبة ، وخمسون هجيناً مزينة ، وكان في الموكب مائة وستون فارساً من آل الصليحي ، لكن هذا الموكب الكبير لم يستطع الوصول إلى الحجاز حيث قابلهم في الطريق سعيد الأحول بن نجاح^(٣) ومعه جمع كبير من أنصاره فقتل علي بن محمد الصليحي وهزم أنصاره ، واستولي على جميع ما في مخيمه من الأموال والذخائر^(٤).

بعد مقتل علي بن محمد الصليحي ، ونتيجة لوم الأشراف لصاحبهم محمد بن جعفر الحسني أعاد الخطبة للفاطميين واستمرت حتى سنة ٤٦٢هـ / ٦٩ - ١٠٧٠م^(٥).

وقد ذكر كثير من المؤرخين أن الخليفة العباسي القائم بأمر الله خاطب الأمير محمد ابن جعفر الحسني وعاتبه وبذل له الأموال فخطب له هذا العام بموسم الحج فقط ، وكتب إلى

(١) العقيلي : تاريخ المخلاف السليماني ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) وفي ذلك يقول شاعره عمرو بن يحيى الهيثمي من قصيدة طويلة :

ما لمن فارق الأحسبة عذر إن نهي دمة عن الفيض صبر

إن سيف الإمام كالبحر ذي الموج له في البلاد مد وجذر

ولئن ساءنا فراق على فلنا في أبنة إذا ما يسر

ذاك بحر سقى به مكة الله وهذا لو قد صنعاء بحر (المصدر السابق) .

(٣) كان سعيد الأحول بن نجاح يعيش مع والده في زيد حيث كان والده ملكاً على تهامة فهزمه علي الصليحي واستولى على عموم تهامة وزيد فأخذ سعيد يتحين الفرص حتى أخذ بثأره من الصليحي (المصدر السابق ص ١٥٤) .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٥) عمر بن فهد : إنحاف الوري ج ٢ ص ٤٧١ .

الخليفة الفاطمي المستنصر معتذراً^(١) .

ونلاحظ أنه باعتذاره أراد أن يبين للخليفة المستنصر أن دعوته للعباسيين إنما جاءت لضيق ذات اليد ، إذ لم يكن معه من الأموال ما يجعله يرفض الدعوة العباسية ، خاصة وأن الشدة العظمى في مصر كانت قد بلغت أقصاها في هذا العام^(٢) .

ويظهر أن الفاطميين قد قطعوا عن صاحب مكة بقية الإعانات التي كانوا يمدونه بها مضطرين بسبب الشدة التي حلت بالبلاد آنذاك فضاقت عليه الحال ، واحتاج إلى ما ينفقه فأخذ الذهب من أستار الكعبة وصفائح الباب والميزاب وضربه دراهم ودنانير ، وكذلك فعل صاحب المدينة بالقناديل التي في الحجرة النبوية الشريفة^(٣) .

وما كان المستنصر ليقصر في شيء فيما يتعلق بأشراف الحجاز لأهميته للفاطميين لكن الظروف المحيطة به في تلك الفترة جعلته عاجزاً عن الوفاء بمستلزمات قصره ، لذا فقد أرسل إلى المكرم الصليحي الذي تولى حكم اليمن عقب مقتل والده الصليحي يطلب منه إمداد أهل الحجاز بما يحتاجون لكنه تأخر عنهم فأرسل إليه مرة أخرى يقول له : « كان قد نفذ إليك من حضرة أمير المؤمنين سجل مفرد فيما يتعلق بالحرمين المحروسين ، وإعلامك أن الحوادث الشاغلة للصدور القاضية باختلاف كلمة الجمهور ، صدت عن سوق رسومها ورسوم أرباب الرسوم بها إليهم وأن تأخرها أضربهم وكبر عليهم ، ورسم أمير المؤمنين لك أن تلمظهم بنفقة من عندك يتمززون بها إلى حين وقوع الإمكان من حمل رسومهم إليهم ؛ ولقد جدد أمير المؤمنين الإذكار لك في سجله هذا بحمل عشرة آلاف دينار إليهم لتنفق على الحرمين المحروسين وأرباب الرسوم لكل على قدره وإشعارهم بكون ذلك محمولاً بأمر أمير المؤمنين »^(٤) .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٢ - ١٣٣ ، الجزيري : درر الفرائد ج ٢ ص ١٥٢٦ ، القلقشندي : صبح

الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠ ، العصامي : سبط النجوم ج ٤ ص ١٩٩ .

(٢) المقرئزي اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٣٠٣ .

(٣) ابن عبد القادر الطبري : الأراج المسكي لوحة (١٦٠) ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩ -

٢٠ ، العصامي المكي : سبط النجوم العوالي ج ٣ ص ٤٣٢ ، دحلان : خلاصة الكلام ص ١٩ .

(٤) عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية ص ٢٠٣ .

لكن المكرم الصليحي لم يستجب لما أمره به المستنصر لأنه كان مشغولاً بمطاردة قتلة والده علي الصليحي والتصدي لبعض القبائل اليمنية التي حاولت الخروج عليه^(١) .

وضاقت الأحوال في الحجاز نتيجة نقص الموارد وارتفاع الأسعار ، فاضطر الحجازيون إلى قطع الخطبة للمستنصر وقاموا بالدعوة للقائم بأمر الله العباسي وللسلطان السلجوقي ألب أرسلان^(٢) بعد أن أمدهم العباسيون بالأموال^(٣) .

ولاريب أن الفاطميين كانوا ينفقون أموالاً كثيرة في سبيل الدعوة لهم ببلاد الحجاز إذ يذكر المقرئزي أنهم كانوا ينفقون في كل عام على قافلة الحج مائة وعشرين ألف دينار منها عشرة آلاف للطيب والحلوى والشمع راتباً كل سنة ، وأربعون ألف نفقة الوفد المرافق للكسوة ، وستون ألف وأكثر تنفق على الجرايات والصدقات وأجرة الجمال والجند وأمير الموسم وخدم القافلة ، وحفر الآبار في طريق القافلة ونفقات العريان^(٤) .

(١) العقيلي : المخلاف السليماني ص ١٦٦ .

(٢) هو ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي خلف عمه طغر بك في تولي سلطنة السلاجقة سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٠ م الذين كانوا يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة ولم يكن للخلفاء العباسيين في عهدهم شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة وكان بداية أمر هؤلاء السلاجقة آخر سنة ٤٢٩ هـ وأصلهم من التركستان وكانوا يخدمون ملوك الترك ونشأ جدهم سلجوق الذي صار قائداً عظيماً لهم وقد سموا بالسلاجقة نسبة إليه وقد خرج بهم من بلاد الترك إلى بلاد المسلمين وأظهر الإسلام ليكون المسلمون عوناً له فلما مات سلجوق تولى أولاده الحكم من بعده ولقد ساعد السلاجقة العباسيين على التخلص من البويهيين الشيعة مما جعل السلاجقة بذلك حماة الخلافة العباسية (ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٩٤ - ابن الطقطقي : الفخري ص ٢٥٥ ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٤ ص ١٧ ، ٢٠ ، عبد المنعم حسنين : دولة السلاجقة ص ١٨) .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٤) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٣٠٣ .

ولقد زادت هذه النفقة في وزارة اليازوري^(١) حتى بلغت مائتي ألف دينار سنوياً^(٢) ولم تبلغ النفقة على موسم الحج مثل ذلك في أي دولة إسلامية أخرى^(٣) فلما ألت بمصر كارثة الشدة العظمى انقطعت هذه النفقات عن الحجاز فاشتدت الأمور عليهم مما يسر للعباسيين طريق العودة للحجاز .

عودة النفوذ العباسي للحجاز :

لما ساءت الأحوال في مصر نتيجة للشدة العظمى التي مرت بها ، والتي طال أمدها إلى سبع سنوات من القحط والجذب والغلاء ، كان طبيعياً أن تؤثر أحداث هذه الشدة على مجريات الحياة في المجتمع المصري ؛ بل وعلى الحياة داخل حدود الخلافة الفاطمية المترامية الأطراف ، ولم يرسل الفاطميون النفقات المخصصة سنوياً لبلاد الحجاز التي كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على ما يرسل إليها من مصر فانتهاز العباسيون الفرصة ، ووجدوا أن الأمور مهيئة لاستعادة نفوذهم مرة أخرى على الحرمين الشريفين ، فشرعوا يتقربون إلى أشرف الحجاز بالمساعدات المالية ؛ مما جعل الأمير محمد بن جعفر الحسني يخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله وللسلطان السلجوقي ألب أرسلان ، ثم أرسل رسولاً من عنده ، ومعه ولده إلى السلطان ألب أرسلان يخبره بإقامة الدعوة للعباسيين سنة ٤٦٢هـ / ٦٩ - ٧٠م^(٤) .

(١) هو أبو محمد الحسن اليازوري بن علي بن عبد الرحمن من أهل يازور وهي قرية من كورة الرملة وقد عهد إليه بالوزارة في السابع من المحرم سنة ٤٤٢هـ وسمح له بالبقاء في منصبه الأول وهو مدير خاصة أم الخليفة ، وكان يلقب بهذا اللقب المركب وهو الناصر لدين الله ، غياث المسلمين ، الوزير الأجل المكرم ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضي القضاة ، داعي الدعاة ، وظل في منصبه حتى قبض المستنصر عليه في أول المحرم سنة ٤٥٠هـ بتهمة مراسلته لطرغلبك السلجوقي ودعوته لغزو مصر فنفي إلى تنيس ثم قتل في نفس العام (حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٧٨) .

(٢) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٣٠٣ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٧٣ ، العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣٧ .

وقد روى كل من ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) وابن فهد (ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م) أن رسول أبي هاشم حينما وصل إلى السلطان أخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله ، وللسلطان بعده وأن خطبة الفاطميين قد أسقطت ، وأنهم أذنوا الأذان المعتاد ، وتركوا الأذان بحمي على خير العمل ، فأرسل له السلطان ثلاثين ألف دينار وخُلْعاً نفيسة ، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار ، وأخبره أن أمير المدينة سوف ينال عشرين ألف دينار ، وتجري له كل سنة خمسة آلاف إن أقام الخطبة للعباسيين هو الآخر (١) .

وبما سبق يتضح أن أمير مكة هو الذي انفرد بالدعوة للعباسيين أما صاحب المدينة فلم يدع لهم ، وأنهم حاولوا إغراءه واستمالته بالأموال عن طريق صاحب مكة كما جاء في روايتي ابن الأثير وابن فهد ، إلا أن المقرئزي وابن تغري بردي ذكرا رواية مخالفة لرواية ابن الأثير وصاحبه فقالا: إن أمير مكة والمدينة قد قاما بالدعوة للخليفة العباسي والسلطان ألب أرسلان، فأرسل ألب أرسلان لصاحب مكة ثلاثين ألف دينار ، ولصاحب المدينة عشرين ألفاً (٢) .

والحقيقة أن رواية ابن الأثير وصاحبه لا تحتل الشك ، والدليل على ذلك ما فعله صاحب مكة تجاه المدينة ، إذ إننا نجده في نفس العام يرسل جيشاً من الأتراك تمكن من دخول المدينة وهزيمة بني مهنا من أولاد الحسين - رضي الله عنه - وطردهم منها (٣) .

ولعل سبب هجوم صاحب مكة على المدينة هو رفض أصحابها الدعوة للعباسيين مما جعله يسيطر عليها ويضمها إليه ويجمع بين الحرمين الشريفين ، ويصبح أميراً للحجاز بلا منازع ؛ بل إن الجند الأتراك الذين هاجموا المدينة نرجح أن يكونوا من الجند العباسي وقد أرسلوا لمساعدته.

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٣٨٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٣٠٤ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٣ ، الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ٤٤٣ .

وفي عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م أرسل الخليفة العباسي القائم أبا الغنائم الزينبي نقيب الطالبين ببغداد أميراً على الركب العراقي في عسكر ضخّم لحماية الركب من غارات الأعراب ولتأمين أرواح الحجاج ، وأعطاه ثلاثين ألف دينار للأمير محمد بن جعفر الحسني ، وتوقيع بعشرة آلاف أخرى واجتمعوا بالموسم حيث خطب الأمير محمد بن جعفر للعباسيين وقال : « الحمد لله الذي هدانا أهل بيته إلى الرأي المصيب ، وعوض بنيه لبسة الشباب بعد لبسة المشيب ، وأمال قلوبنا إلى الطاعة ومتابعة إمام الجماعة »^(١) .

وبذلك أعاد الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر الحسني الخطبة للعباسيين بعد أن قطعت من الحجاز نحو مائة سنة^(٢) .

وقد نتسائل ما موقف الفاطميين من النفوذ العباسي الذي بدأ يتغلغل تدريجياً في الحجاز على يد أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني ؟

لقد كان الفاطميون في مرحلة بالغة السوء والقسوة من الشدة العظمى التي مرت بها مصر وشغلّتهم بأنفسهم عن الحجاز ، وقد روي ابن تغري بردي أن المستنصر حين بلغه ما حدث في مكة لم يلتفت إليه لشغله بنفسه ورعيته من شدة الغلاء^(٣) ، والأويثة والفتن التي انتشرت آنذاك^(٤) ولم يكن المستنصر في حالة تسمح له بالوقوف ضد الحجازيين أو العباسيين.

وقد صور المقرئزي الحالة التي كان عليها هذا الخليفة بقوله : « ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه وذهب وقاره ، وكانت نساء القصر تخرجن ناشرات شعورهن تصحن الجوع ، الجوع »^(٥).

(١) العصامي المكي : سبط النجوم العوالي ج ٤ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٧ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٠ .

(٤) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٣٠٣ .

(٥) المقرئزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٢٥ .

وإن كانت هذه الرواية تميل إلى المبالغة إلا أنها لا تنفي حقيقة الحال السيئة التي آل إليها أمر الفاطميين آنذاك .

ويري بعض الباحثين أن الفاطميين شجعوا أشراف بني أبي الطيب الحسينيين بمكة على الثورة ضد أبي هاشم محمد بن جعفر الحسيني، وخلعه من الإمارة، وطرده من مكة، ثم تولية حمزة بن وهاس بن أبي الطيب الحسيني الذي لم يلبث في إمرة مكة غير فترة قصيرة حيث عاد أبو هاشم وهزمه واستعاد الإمارة^(١) .

ومن الجدير بالذكر أن ثورة حمزة بن وهاس الحسيني لم تكن في سنتي ٤٦٢ هـ / ٦٩ - ١٠٧٠ م أو ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م بعد قطع صاحب مكة الخطبة للفاطميين ، وإنما كانت هذه الثورة بعد خروج علي الصليحي من مكة إلى اليمن سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م^(٢) .

(١) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٠٣ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٦ .

عمر بن فهد : إنحاف الوري ج ٢ ص ٤٦٩ .

ابن عنبه : عمدة الطالب ص ١٣٧ .

ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة ٤٥ .

العقيلي : المخلاف السليمان ج ١ ص ٣٨١ .

التنافس بين العباسيين والفاطميين للسيطرة على الحجاز :

بدأت الأمور في مصر تتحسن منذ سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م بعد أن أرسل الخليفة الفاطمي المستنصر إلى بدر الجمالي^(١) والي عكا يستدعيه للقدوم إلى مصر لمساعدته في ضبط الأمور بها وولاء الوزارة ، وتدبير شئون الدولة^(٢) فقام بدر الجمالي بدور كبير في القضاء على الفتن التي سادت البلاد ، وتمكن من خلالها أن يقضي على الأتراك^(٣) ، وأخذ المفسدين في شتى أنحاء البلاد ، فلم يبق على أحد منهم وطاردهم في كل مكان بمصر حتى قتلهم جميعاً^(٤) ، واسترد من القواد والأمرء بمصر جميع ما أخذوه أيام الفتنة أموالاً وأمتعة^(٥) فاطمأنت النفوس ، وساد الأمن والاستقرار ربوع البلاد^(٦) فخلع عليه المستنصر وزيد في ألقابه أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين^(٧) .

وقد أباح بدر الدين الجمالي الأرض للمزارعين ثلاث سنين لا يأخذ خراجها حتى تحسنت أحوال الفلاحين في أيامه وشادوا لزراعة الأرض ، كما عاد التجار إلى مصر مرة أخرى لممارسة أعمالهم بعد خروجهم منها أيام الشدة العظمى^(٨) فازدهرت الأحوال واستتب الأمن وعاد

(١) يرجع أصل بدر الجمالي إلى الأرمن وكان حاجباً لصاحب دمشق فلما مات قام بالأمور من بعده وتولى إمرة دمشق سنة ٤٥٥ هـ ، وانفصل عنها بعد عام ، ثم وليها والشام كله في سنة ٤٥٨ هـ إلى أن استدعاه المستنصر إلى الديار المصرية وولاه وزارة السيف والقلم وامتدت أيامه حتى توفي سنة ٤٨٧ هـ (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٤٩٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٨١ - ٨٢ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ٣ ص ٣٨٣) .

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٨١ .

(٣) Stanly Lane Poole : AHistory of Egypt in the Middle Ages PP 150 - 151. London 1901.

(٤) المقرئى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٣١٢ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٨٢ .

(٦) المقرئى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٣١١ .

(٧) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٨٢ .

(٨) المصدر السابق .

الرخاء، ومن ثم شعر الفاطميون أنه لابد من العمل على استعادة الخطبة لهم من العباسيين في مكة^(١) فأرسل المستنصر رسولين إلى أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني صاحب مكة قبها عليه خطبته للخليفة العباسي، والسلطان ألب أرسلان، وبذلا له المال ليقطع الخطبة لهما^(٢) وشعر العباسيون بما يدبره الفاطميون فأرسلوا بصحبة السلار الذي يصاحب الحاج العراقي أموالاً كثيرة وهدايا عظيمة قدمها إلى الأمير أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني^(٣)، ولم يكتف بذلك؛ بل أخذ يجمع له أموالاً أخرى ممن صاحبه من الحجاج، وقدمها له ولأصحابه^(٤) فأعرض أبو هاشم عن رسولي المستنصر وأبعدهما عنه^(٥) ونجح السلار في مهمته، وجعل صاحب مكة يدعو للعباسيين هذا العام^(٦).

وفي عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م توفي الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وتولى الخلافة المقتدي الذي انشغل بتهيئة الأمور لنفسه فلم يرسل الأموال والصلوات كالعادة إلى صاحب مكة^(٧) وكان المستنصر قد قوي أمره على يد بدر الجمالي، واستقرت له الأمور، وعاد الرخاء بعد الكرب الشديد فأرسل سفارة مثقلة بالهدايا والتحف العظيمة إلى صاحب مكة^(٨) ومعها رسالة يقول فيها: «إن أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان وقد ماتا»^(٩) فجمع أبو هاشم أصحابه واستشارهم فيما طلبه المستنصر فأشاروا عليه أن يقبل العرض الفاطمي وقالوا له: إنا سلمنا هذا الأمر لبني العباس لما عدنا المعونة من مصر، ولما رجعت المعونة فإنا

(١) أحمد السباعي: تاريخ مكة ج ١ ص ٢٠٤.

(٢) عمر بن فهد: اتحاف الوري ج ٢ ص ٤٧٥.

(٣) أحمد السباعي: تاريخ مكة ج ١ ص ٢٠٤.

(٤) عمر بن فهد: اتحاف الوري ج ٢ ص ٤٧٥.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٤٠٧، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٢٣.

(٨) أحمد السباعي: تاريخ مكة ج ١ ص ٢٠٤.

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٤٠٨، عمر بن فهد: اتحاف الوري ج ٢ ص ٤٧٧.

لا نبتغي بابن عمنا بديلاً^(١) فأجابهم الأمير على كره منه خاصة بعد أن اشتد الغلاء في الحجاز عقب انقطاع المعونات التي كان العباسيون يرسلونها ، فخطب للمستنصر بمكة وقطعت الخطبة للعباسيين^(٢) بعد أن استمرت مدة أربع سنين وخمسة أشهر^(٣) .

وقام محمد بن جعفر الحسني بتفريق الأموال التي أرسلها المستنصر على أصحابه ، وأعاد ألقاب الفاطميين التي خلعها من قبة المقام ومن حول الكعبة حين دعا للعباسيين^(٤) .

لم يستمر نجاح الفاطميين طويلاً إذ أرسل الخليفة العباسي المقتدي سلار الحاج العراقي في موسم سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م يحمل إلى أبي هاشم عروضاً جديدة منها أن يزوجه العباسيون من أخت جلال الدولة في العراق ، وأن يمنح عشرون ألف دينار كتعويض عما فات في السنوات السابقة حتى يعيد الخطبة لهم مرة أخرى^(٥) .

طمع أبو هاشم في العرض العباسي ، لكنه رأى أن يرسل رجلين من أصحابه لاستطلاع الأمور بمصر ، فإن كانت الأحوال مستقرة أبقى على علاقته معهم ورفض هذا العرض ، لكن الأمور كانت في مصر غير مستقرة نتيجة لما حدث في الشام ، فقد حاصر أطرش بن أرتق المعروف بالإقسيس دمشق وقاتل جنود المستنصر وانتصر عليهم بعد فرار واليها حيدرة بن ميرزا الكتامي ، ولما دخل أطرش دمشق دعا للمقتدي العباسي ، وأبطل الخطبة للمستنصر^(٦) كما

(١) عمر بن فهد : اتحاف الوري ج ٢ ص ٤٧٧ .

(٢) اليافعي : مرآة الجنان ج ٣ ص ٩٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٤٠٨ .

(٤) ابن عنبه : عمدة الطالب ص ١٣٧ .

(٥) عمر بن فهد : اتحاف الوري ج ٩ ص ٤٧٨ .

(٦) المطهر بن زكي : انقضاء الخلفاء ج ٢ ص ٣١٥ .

أبطل الأذان بحي على خير العمل^(١) .

فلما عاد صاحباً أمير مكة من مصر أخبراه بسوء الأحوال نتيجة لما حدث في الشام فقبل العرض العباسي ودعا لهم^(٢) لكن العباسيين أعطوا الأموال لأبي هاشم ولم يزوجه من أخت جلال الدولة ، مما دعاه إلى ترك الدعوة لهم سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٨ م والدعوة للفاطميين فلما أرسل العباسيون في شهر رمضان من هذا العام منبراً كبيراً إلى مكة قد نقش عليه بالذهب « لا إله إلا الله محمد رسول الله - الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين » كسر هذا المنبر وأحرق^(٣) بعد أن قامت الفتنة بين العسكر العراقي والعسكر المصري الذين تمسكوا بالدعوة لصاحبهم^(٤) وتمت الدعوة للفاطميين هذا العام^(٥) ، لكن أبا هاشم محمد بن جعفر أمير مكة لم يلبث أن أعاد الخطبة للعباسيين في عام ٤٧٢ هـ / ١٠٨٠ م^(٦) ليقطعها مرة أخرى ويدعو للفاطميين ، ثم أعادها سنة ٤٧٩ هـ^(٧) للعباسيين حيث قطعت خطبة الفاطميين من مكة والمدينة^(٨) .

ونلاحظ من خلال ذلك أن الفاطميين والعباسيين ظلوا يتناوبون استرضاء أبي هاشم محمد ابن جعفر الحسني أمير مكة بالهدايا والأموال عدة سنوات^(٩) فكان يدعو للعباسيين تارة ، وللفاطميين تارة أخرى ، ويبدو أنهم وجدوا أن أفضل طريقة لنيل غرضهم هي بذل الأموال

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٢٤ .

(٢) عمر بن فهد : اتحاف الوري ج ٢ ص ٤٧٨ .

(٣) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٣١٩ ، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٥٢ .

(٤) العصامي المكي : سبط النجوم العوالي ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٥٠ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥ .

(٨) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٩) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٠٤ .

وإرسال الصلات، وقد استفاد أمير مكة كثيراً من هذا التنافس فجمع أموالاً كثيرة نظير إقامته الخطبة على منابر البلاد لمن يدفع أكثر، ولم يبق بأي إصلاحات في بلاده، إذ لم يوجد في أي مصدر من المصادر التاريخية المتاحة أنه قام بعمل يذكر لمصلحة وطنه، وإفان كان كل همه أن يجمع الأموال من الفاطميين أو العباسيين.

ولعل العباسيين أدركوا ذلك فأرسل السلطان ملكشاه السلجوقي^(١) - وكان مسيطراً على الأمور ببغداد - قائداً تركياً إلى مكة سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م على رأس قوة كبيرة من الجند وطلبوا من أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني أن يعيد الأموال التي أخذها^(٢) فقاتلهم أبو هاشم قتالاً شديداً، ولما يئس تركهم وفر هارباً إلى بغداد مستغيثاً منهم^(٣).

وربما أراد بفراره إلى بغداد أن يسترضي العباسيين حتى يكفوا عنه^(٤)، ولعلهم استجابوا له إذ ما لبث أن عاد إلى مكة، وظل في أخريات أيامه يدعو للعباسيين والسلاجقة^(٥) إلى أن توفي السلطان ملكشاه السلجوقي سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م فانقطعت الخطبة بمكة للعباسيين، وظل الحاج من العراق، ولما توفي المستنصر وبويع ابنه المستعلي

(١) السلطان ملكشاه السلجوقي هو أبو الفتح جلال الدولة بن السلطان ألب أرسلان محمد بن داود السلجوقي التركي، لما قتل والده جلس على العرش بوصية منه وكتب إلى الخليفة في بغداد ليصدر له التفويض بالسلطنة وليأمر بذكر اسمه في الخطبة فأجيب إلى ما طلب وقد استولى على بلاد ما وراء النهر والجزيرة وخراسان وسيطر على العراق وقد توفي سنة ٤٨٥هـ بعد أن اتسع ملكه اتساعاً عظيماً ودعى له على منابر البلاد الممتدة من حدود الصين شرقاً إلى أقصى بلاد الشام غرباً ومن البلاد الإسلامية في الشمال إلى جنوبي بلاد اليمن وأدى له أباطرة الروم الجزية.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٤٨١ - ٤٨٤، الذهبي: العبر ج ٢ ص ٣٥٠، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٢٥.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٤٧٥.

(٥) أحمد السباعي: تاريخ مكة ج ١ ص ٢٠٤.

(٥) المصدر السابق.

خطب له بمكة^(١) حتى وفاة محمد بن جعفر.

بعد وفاة محمد بن جعفر الحسيني سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م خلفه ابنه قاسم بن محمد الحسيني في إمرة مكة^(٢) وظل أمر مكة في عهده عرضة للفتن كما حدث في عهد أبيه نتيجة تنافس العباسيين والفاطميين على إقامة الخطبة لكل منهما ، لذا نجده أول عهده يقيم الخطبة للفاطميين ثم يقطعها في نفس العام ، ويدعو للعباسيين ثم يعيدها مرة أخرى للفاطميين^(٣).

ولا شك أن العباسيين قد استاءوا من التردد والتلون في سياسة هذا الأمير الذي بدأ ينهج نهج أبيه ، فلبجأوا إلى القوة العسكرية لإقامة دعوتهم ، فأرسلوا الأمير أصيهيد بن ساوتكين أحد القادة العباسيين إلى مكة في أربعمئة فارس من التركمانية للقضاء على صاحبها ، وقد تمكن القائد العباسي من دخول مكة عنوة بعد الانتصار على أهلها ، وفر الأشراف من أمامه^(٤) ، وفر صاحب مكة قاسم بن محمد الحسيني حيث تمكن من إعادة تجميع قواته ، وانضم إليه بعض الأعراب فأعد العدة للملاقاة أصيهيد فالتقيا بعسفان^(٥) فهزم أصيهيد، وفر للشام ومنها إلى بغداد ، وعاد قاسم إلى مكة فدخلها في شوال من سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م^(٦) لكنه لم يكد يستقر بمكة حتى تعرض لمحاولة أخرى للإطاحة به نظن أن للعباسيين يداً فيها بعد أن فشلت محاولتهم العسكرية ، فقد ظهر رجل علوي في مكة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فكثير أشياعه وأنصاره ، ولما قوي أمره نازع الأمير قاسم على الإمارة ، لكن الأمير قاسم تمكن منه وظفربه ، ثم نفاه عن الحجاز إلى البحرين^(٧) وكان هذا العلوي من فقهاء المدرسة النظامية

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠.

(٢) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ١٠.

الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٨).

(٣) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٠٦.

(٤) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٣.

(٥) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٧.

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٤٩٩ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٧.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٠.

وقد لجأ العباسيون إلى إرهاب أمير مكة ، وإظهار قوتهم فأرسلوا أمير الجيوش المستظهري^(٢) في موسم سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م لتأدية فريضة الحج فدخل مكة بقواته وعلى رأسه الأعلام ، والسيوف في ركابه ، وكما يقول سبط بن الجوزي إنهم قصدوا بذلك إذلال أمير مكة وعبيده لأنهم كانوا عصاة على بني العباس لا يرون إمامتهم ، ولا يخطبون لهم ، ويخطبون لغيرهم فقصدهم بذلك الطاعة والإذعان وإرهاب الخاص والعام^(٣) .

والحقيقة أن سطوة العباسيين قد اشتدت على الحجاز نتيجة ضعف الدولة الفاطمية آنذاك؛ بل إن الحجازيين أنفسهم استغلوا هذا الضعف فقام أمير مكة بتعمير عدة مراكب حربية وشحنها بمقاتليه حيث أغارت على عيذاب^(٤) سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م وقامت بنهب مراكب التجار المصريين الراسية هناك ، وقتلوا عدداً منهم^(٥) وفر الباقيون إلى مصر فاتصلوا بالوزير

(١) المدرسة النظامية ببغداد أنشأها الوزير نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٦هـ وقد عمل مع السلطانين ألب أرسلان وولده ملكشاه السلجوقيين، وقد درس فيها أعيان العلماء والأئمة من رجال المذهب الشافعي (الفاسي : العقد الثمين ج ٧ حاشية ص ٢٠) .

(٢) هو يمن بن عبد الله الخادم الحبشي أبو الخير الجيوشي المستظهري، كان سفيراً بين يدي الخليفة والسلطان وقد بعث أميراً للحاج العراقي سنة ٥١٠هـ (سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورقة ٤٣) .

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورقة ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) تقع عيذاب على الساحل المواجه لميناء جدة ، وكانت هي نقطة الاتصال بين تجارة البحر الأحمر وتجارة نهر النيل فكانت ترد إليها البضائع من الحبشة واليمن بطريق البحر ثم تحمل على الإبل في الصحراء مسيرة عشرين يوماً إلى أسوان أو قوص ومن هناك تنقل إلى القاهرة في النيل وقد أصبحت عيذاب في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) من أعظم الموانئ في العالم آنذاك بسبب الأعداد الكبيرة من المراكب التي كانت ترسو به وخاصة من الهند ، فضلاً عن أنها كانت الميناء الذي تنتهي إليه قوافل الحجاج الذين يعبرون البحر إلى جدة ، وكانت عيذاب مركز تجمع لهم ولتجار الشرق القادمين إليها بسلع من الحبشة واليمن (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ ، ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٢٠ ، الحميري : الروض العطار ص ٤٢٤ ، آدم متز : تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٩ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٢٩ ، الجزيري : درر الفوائد ج ١ ص ٥٥٨ .

الأفضل بن بدر الجمالي ، وشكوا إليه أمرهم وما حدث لهم ، فغضب غضباً شديداً ، وقال : صاحب مكة يأخذ تجاراً من بلادي ، أنا أسير إليه بنفسي بأسطول أوله عذاب وآخره جده ثم قرر أن يكاتب أشراف مكة ويخبرهم بما فعله الأمير^(١) ويلومهم على ما فعله صاحبهم كما ضمن كتبه التهديد والوعيد^(٢) وأمر بمنع المصريين من تأدية فريضة الحج هذا العام ، وقرر قطع المعونات والمؤن التي كانت ترسل لمساعدة أهل الحجاز^(٣) وأمر بإعداد المراكب الحربية كي يسير لتأديب أمير مكة لما فعله بالتجار المصريين^(٤) .

لما وصلت رسالة الأفضل إلى أشراف مكة ضاقوا بذلك ذرعاً ولاموا صاحبهم^(٥) على ما فعل واشتدت الأمور عليهم نتيجة قطع المعونات والمؤن ووقف قافلة الحاج المصرية ، وعلموا بالحملة التي يعدها الوزير الفاطمي للهجوم عليهم فأرسلوا رسولاً إلى مصر لاستطلاع الأمور ومحاولة إصلاح ذات البين^(٦) .

حضر الرسول إلى مصر فلم يهتم به أحد من المصريين ، وأهمل شأنه ، ولم تجر عليه ضيافة ، وقيل له : ما يقرأ لك كتاب ، ولا يسمع منك كلام قبل إعادة المأخوذ من التجار إليهم ، فتعهد الرسول بإعادة الأموال والبضائع التي أخذت من التجار كما أنه رأى الاستعدادات العسكرية التي تعد للهجوم على الحجاز^(٧) فأسرع بالعودة إلى بلاده ، وقد اشتد به الهلع ليخبرهم بما سمع ورأى ثم عاد بعد فترة زمنية قصيرة ، ومعه كل ما أخذ من البضائع والأموال فحملت إلى جامع عمرو بن العاص سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م^(٨) حيث حضر التجار فأخذوا

(١) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٣ ص ٥٨ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥١٧ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٥٨ .

(٤) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٣ ص ٥٨ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥١٧ .

(٦) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٣ ص ٥٨ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٢٩ .

بضائعهم وأموالهم ، أما من قتل منهم فقد رد ماله إلى ورثته^(١) وأكرم الفاطميون الرسول وأحسنوا إليه^(٢) وعاد إلى بلاده بعد أن ساهم في إطفاء نار الحرب التي كادت تشتعل بين مصر والحجاز .

عادت العلاقات الودية بين مصر وأشرف مكة عقب هذا الحادث ففي سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢م وصل الرسول الذي ساهم في إنهاء الخلاف ومعه كتاب من أمير مكة الشريف قاسم بن أبي هاشم يهنئ فيه الوزير الفاطمي المأمون^(٣) الذي تولى الوزارة بعد مقتل الأفضل بن بدر الجمالي ، وقد عاد هذا الرسول إلى مكة بعد أن أطلق له الفاطميون ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعين أردباً من الغلال برسم مكة مع الثياب والخلع والمال والبخور^(٤) .

وظلت علاقات الأمير قاسم الحسن بن الفاطميين بعد ذلك طيبة إلى أن توفي سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م^(٥) وخلفه ابنه فليته وكان يقال له أبو فليته^(٦) ولقد استهل هذا الأمير حكمه بالدعوة للعباسيين^(٧) وأسقط المكوس التي قررها آباؤه على الحجاج وأحسن إلى الناس في مكة وسار فيهم أفضل سيرة حتى لهجت الألسنة في الحجاز بالثناء عليه^(٨) ، إلا أنه لم يكن ذا صلة

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥١٧ .

(٢) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ٣ ص ٥٩ .

(٣) هو أبو عبد الله بن البطائحي فوض إليه الخليفة الفاطمي الأمر شئون الوزارة بعد مقتل الأفضل بن بدر الجمالي ، ثم خلع عليه بعد سنتين من ولايته للوزارة ولقبه بالمأمون ، لكنه اتفق وأخو الأمر على قتل أخيه ، ليكون خليفة بعده فعلم الأمر بذلك عن طريق بعض أعوانه فقبض عليه وصلبه بعد ثلاث سنين من توليه الوزارة (انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٣٤ ، الذهبي : العبر في خبر من غير ج ٢ ص ٤١٢ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩٠ - ٩١) .

(٤) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ٣ ص ٨٠ .

(٥) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٧ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧١ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٧ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥١٧ .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧١ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٨ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٨) .

طيبة بالفاطميين ، ولا ندري سبباً لذلك إلا أن يكون العباسيون قد استمالوه لجانبهم بكثرة النفقات المالية والهدايا التي فاقت ما كان يعطيه له الفاطميون ، ففي عهده كان أمير الحاج العراقي «نظر الخادم» يحضر له الأموال والخلع في كل موسم^(١) فلما توفي سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م^(٢) كانت الخطبة للعباسيين ، وعندما ولى ابنه هاشم بن فليته الحسني إمارة مكة بعده ، أبطل الخطبة للعباسيين ، وأقامها للخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله^(٣) .

ونتيجة لما كان يسود مصر آنذاك من ضعف وفساد وخلاقات^(٤) قطع هاشم الخطبة للفاطميين وأعادها للعباسيين واستمرت الخطبة لهم حتى توفي سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م^(٥) .

تولى الأمير قاسم بن هاشم الحسني إمارة مكة بعد وفاة أبيه^(٦) فبازر بإصلاح العلاقات مع الفاطميين ، وكلف الشاعر عمارة اليميني أن يذهب برسالة إلى مصر سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م^(٧) في عهد الخليفة الفاطمي الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك^(٨) .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٤ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٢٠ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٤ .

(٤) عقب وفاة الخليفة الفاطمي الأمر سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م قبض على زمام السلطة بعض رجال الجيش ووقع اختيارهم على الأمير أبي الميمون عبد المجيد ابن عم الأمر ليتولى أمور الخلافة ، ولقب الحافظ لدين الله ، لكنه لم تتح له الفرصة للاحتفاظ بسلطته في الدولة بسبب ثورة الجند عليه وتوليتهم لأبي علي بن الأفضل الوزارة فمنع ابن الأفضل الحافظ من التصرف في شئون الدولة وضيق عليه لكن ابن الأفضل لم يستمر في الحكم طويلاً حيث قتل سنة ٥٢٦هـ بعد أن ظل مستأثراً بالسلطة دون الحافظ الذي أخرجه الجند وأعيد إلى الحكم ولياً للعهد وكفياً لولد الأمر الذي لم يعرف مقره فأخذ الحافظ يبحث عنه حتى اهتدى إليه وقتله بعد شهرين من عودته ولياً للعهد وأعلن نفسه خليفة (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٢٥٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩١ - ٩٢ ، المقرئ : اتعاظ الخفا ج ٣ ص ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٦) .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٦١ .

(٦) المصدر السابق ص ٣٢ .

(٧) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٧ .

(٨) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورقة (١٨٩) .

قدم عمارة اليمني إلى مصر في شهر ربيع الأول من نفس العام في مهمة سياسية تقتضي إصلاح ذات البين ، وقد مهد لمهمته بمدح الفاطميين في قصيدة ألقاها عند استقبالهم له في قاعة الذهب بقصر الفائز (١) .

وقد أعجب الحاضرون به وأفيضت عليه الخلع والأموال (٢) ، وكتب الوزير الصالح إلى ناصر الدولة والى قوص أن يعطيه مائة أردب من القمح تحمل من مال الديوان إلى مكة (٣) وعند سفره ودع الخليفة الفاطمي ووزيره الصالح بقصيدة يشكر فيها الفاطميين على حسن استقبالهم له (٤) .

وبدأت العلاقات بين قاسم بن هاشم الحسنى أمير مكة والفاطميين تتحسن ، لكن

(١) ألقى عمارة القصيدة في مدح الفاطميين بحضور الخليفة والوزراء والأمراء وجاء فيها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم	حمداً يقوم بما أولت من النعم
لا أجد الحق ، عندي للركاب يد	تمنت اللجم فيها رؤية الخطم
قرين بعد فرار العزم من نظري	حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم	وقدأ إلى كعبة المعروف والنعم
فهل دري البيت أني بعد فرقتة	ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سراقها	بين النقيضين من عفو ومن نسقم
ولإمامة أنسوار مقسدة	تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم

(المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٢٤ - ٢٢٥) .

(٢) أفيضت الأموال على عمارة اليمني بمصر فمنحه الوزير الصالح خمسمائة دينار وأخرجت له ابنة الخافظ الفاطمي خمسمائة دينار أخرى وأطلقت له الرسوم من دار الضيافة ولما عزم على الرجوع رسم أن يكون تسفيره خمسمائة دينار كما كانت وفادته، ودفع له الصالح مائة دينار (المصدر السابق ص ٢٢٦) .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٨ .

(٤) وجاء في هذه القصيدة :

من لي بأن ترد الحجاز وغيرها	أخبار طيب موارد ومصادري
زارت بسي الآمال أكرم ساحة	فوق الثرى فغدوت أكرم زائر
ووفدت ألتمس الكرامة والغنى	فرجعت من كل بحظ وافر

(المصدر السابق) .

العباسيين كانوا يقفون كحجر عثرة أمام تطور هذه العلاقات خاصة أن نفوذهم أصبح قوياً في الحجاز فشرعوا يرسلون الأموال والهدايا للحجازيين ، ففي سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م جدد الوزير جمال الدين المعروف بالجواد وزير صاحب الموصل باباً للكعبة الشريفة وحلاه حلية حسنة بالفضة وطلاه بالذهب ، وكتب عليه اسم الخليفة المقتفي لأمر الله ، وأمر الخليفة الأمير قاسم الحسيني صاحب مكة أن يركب هذا الباب للكعبة المعظمة ، وأن يأخذ حلية الباب القديم لنفسه ، وأن يسير إليه خشب الباب القديم مجرداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته^(١) كما أمر العباسيون الوزير جمال الدين بتجديد بقية أبواب الحرم^(٢) .

ولما قدم عمارة اليمني من مصر أمره الأمير قاسم بن هاشم الحسيني أن يبيع له الفضة التي أخذها من باب الكعبة عند تجار اليمن ، وكان وزن هذه الفضة خمسة عشر ألف درهم ، فتوجه عمارة إلى زبيد وعدن سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م فباع الفضة ، وعاد إلى مكة ليدفع للأمير قاسم ماله ، وأدى فريضة الحج في هذا الموسم ، ثم أراد العودة إلى اليمن^(٣) ، لكن الأمير قاسم طلب منه أن يعود إلى مصر في سفارة أخرى لاسترضاء الفاطميين الذين غضبوا عليه لاعتداء جنده على حاج مصر والشام وسلبهم أموالهم^(٤) .

ذهب عمارة إلى مصر لكن الصالح طلائع بن رزيك أصدر أمراً إلى والي قوص أن يحتجزه عنده ويمنعه من القدوم إلى القاهرة أو العودة إلى مكة حتى يرد أمير مكة ما أخذ جنده من أموال المصريين والشاميين^(٥) .

(١) القاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٣ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥١ .

(٣) القاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٣ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥١٧ .

(٥) القاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٤ .

ويبدو أن الأمير قاسم بن هاشم الحسني صاحب مكة أعاد الأموال إلى صاحبها مما جعل الخليفة الفاطمي يستقبل عمارة اليميني ويكرم وفادته ، وأمر الأمير محمد بن شمس الخلافة أن يدفع للأمير قاسم بن هاشم خمسة عشر ألف دينار رسم إطلاق الحاج^(١) .

ويلاحظ أن هاتين السفارتين اللتين أرسلهما أمير مكة إلى الخليفة الفاطمي الفائز ووزيره طلائع بن رزيك ، إن دلت على حرص هذا الأمير على العلاقات الودية مع الفاطميين ، إلا أنهما لم يؤديا إلى إحلال النفوذ الفاطمي محل النفوذ العباسي فقد ظلت الخطبة تقام في الحرمين الشريفين للخليفة العباسي المستنجد بالله العباسي^(٢) .

وهكذا نجح العباسيون في بسط نفوذهم داخل الحجاز بعد منافسة شديدة مع الفاطميين تمخضت عنها عدة محاولات لبسط النفوذ فمرة يتم بالتهديد العسكري لإرهاب أشرف الحجاز ومرة بالبذل والعطاء لهم وكسبهم عن طريق هذا العطاء .

ولقد أدت ظروف الشدة العظمى وما تلاها من ضعف سلطة الخلفاء وازدياد نفوذ الوزراء في العصر الفاطمي الثاني إلى ترجيح كفة العباسيين في بعض السنين ، وعلى الرغم من أن ولاية مكة والمدينة أقاموا في فترات مختلفة الدعوة للعباسيين إلا أنهم حرصوا على إظهار ودهم للخلفاء الفاطميين ومما لا شك فيه أن انتحاء أمراء مكة والمدينة إلى البيت العلوي كان له أثر كبير في حرص هؤلاء الأمراء على التقرب إلى الخلفاء الفاطميين ، الذين ينتسبون إلى فاطمة الزهراء - رضي الله عنها -

نهاية النفوذ الفاطمي في الحجاز :

رأى العباسيون أن الأمير قاسم بن هاشم الحسني أمير مكة يحرص على التودد والتقرب إلى الخلفاء الفاطميين فخشوا أن يعود النفوذ الفاطمي إلى سابق عهده في الحجاز فقرروا

(١) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ٣ ص ٢٥٣ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري

ج ٢ ص ٥١٧ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٢٤ .

(٢) جمال سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ٢٦ .

القضاء على الأمير قاسم وعزله ، فسار أمير الحاج العراقي أرغش التركي إلى مكة في موسم سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م بصحبة زين الدين بن بكتكين صاحب جيش الموصل ، ومعه طائفة من الجند العباسي ، فقام أمير الحاج العراقي بعزل الأمير قاسم بن هاشم الحسنى بحجة مصادرتة أموال المجاورين بمكة^(١) وولى مكانه عمه عيسى بن فليته الحسنى^(٢) فظل مقيماً بمكة إلى شهر رمضان من العام نفسه ، حتى قدم قاسم ومعه جموع كثيرة من الأعراب أطعمهم بالمال الذي سيوزعه عليهم حين تفتح مكة فدخلها قاسم ، وأقام بها ، لكنه لم يستطع أن يفى بوعده للأعراب ، ولم يعطهم المال فغضبوا منه ، وازداد غضبهم عليه بعد أن قتل قائداً بارزاً من جنده فأرسلوا إلى عمه عيسى يطلبون قدومه إليهم ، فأتى عيسى مسرعاً فهرب قاسم منه ، وصعد إلى جبل أبي قبيس فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه فعظم على عيسى قتله فأخذه وغسله ودفنه بالمعلي عند أبيه^(٣) .

واستقر عيسى بن فليته في حكم مكة بعد وفاة الأمير قاسم سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م^(٤) وظل يدعو للعباسيين على منابر البلاد ، وكانت الدولة الفاطمية في أواخر أيامها قد شغلت بالفتن التي انتشرت في البلاد وزعزعت الأمن والاستقرار نتيجة الصراعات المستمرة بين رجال الدولة فلم تعد تهتم بعودة الخطبة لها في الحجاز .

وقد استمر عيسى بن فليته الحسنى في الحكم إلى سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية .



(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٥ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٢٣ ، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٣) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٤٥٣ ، أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٣٩ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٥ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٦ ص ٤٦٥ .

الباب الثانى

الدّجّاز والدّولة الأيوبيّة



الحجاز والدولة الأيوبية

مدخل :

منذ تولي صلاح الدين الأيوبي الأمور في مصر ، وهو يعمل من أجل تأمين البلاد وبناء الجبهة الإسلامية الموحدة كمرحلة أولى تتلوها مرحلة التصدي للصليبيين ، فاتجه نحو النوبة وفتحها بعد أن تأكد خطرها على استقرار مصر وأمنها من ناحية الجنوب ، كما قام بالاستيلاء على قلعة أيلة سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م وتقع على شاطئ البحر الأحمر (القلزم) في أول الشام وكانت تسيطر على طريق مصر البري إلى الحجاز كمحطة للقوافل ؛ بل تُعد مفتاح البحر الأحمر لطريق حجاج مصر خاصة والمسلمين عامة .

ولم يكتف صلاح الدين بذلك ؛ بل أرسل أخاه توران شاه في حملة عسكرية إلى اليمن رغبة في أن يملك طرف البحر الأحمر من الجنوب كما ملك ثغر أيلة على رأسه من الشمال ليمنع أي خطر يهدد البلاد المقدسة هذا ، بالإضافة إلى الأهمية التجارية للبحر الأحمر التي لم تكن تخفى على صلاح الدين بعد أن أصبحت عدن مركزاً هاماً من مراكز التجارة في البحر الأحمر .

ومر توران شاه بمكة في طريقه إلى اليمن فدخلها دون قتال ، ورحب به أمير مكة وأعلن دخوله في طاعة نور الدين محمود وتعهد بالخطبة له بعد الخليفة العباسي ، وعقب وفاة نور الدين محمود عمل صلاح الدين على حماية الحجاز وتأمينه ضد الصليبيين ، وتبادل النفوذ مع العباسيين في مكة وأواخر أسرة الهواشم التي نكبت بالخلافات المتعددة بين أفرادها من أجل الحكم .

وازداد النفوذ الأيوبي في الحجاز قوة بعد وفاة صلاح الدين وصار ولاية مكة يعينون ويعزلون من قبل السلطان الأيوبي ، كما خضع له أشرف المدينة من الحسينيين وما لبث أن ضعف هذا النفوذ عقب الصراع الذي نشأ بين بني رسول حكام اليمن وبين الأيوبيين .

والحديث في هذا الباب يشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين .

الفصل الثاني : مظاهر السيادة الأيوبية بالحجاز .

الفصل الثالث : القوي الخارجية المعادية للحجاز وموقف الأيوبيين منها .

الفصل الأول

الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين

الفصل الأول

الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين

مدخل :

كان الحجاز في عهد صلاح الدين الأيوبي تحكمه أسرة الهواشم في مكة بالإضافة إلى بني مهنا من آل الحسين حكام المدينة ، وكانوا يخطبون للعباسيين على منابرهم أواخر العصر الفاطمي ؛ بل إن أبا هاشم محمد بن جعفر الحسني مؤسس أسرة الهواشم هو أول من أعاد الخطبة للعباسيين بعد انقطاعها نحو مائة سنة بالحجاز .

لذا لم يرسل صلاح الدين حملة عسكرية للقضاء على أشراف الحجاز الذين يعتنقون المذهب الشيعي هناك ؛ بل اكتفى بإجراءات تحقق الأمن والعدالة للسكان والحجاج القادمين كإلغاء المكوس والقضاء على الفتن والمنازعات ، والعمل على راحة الحجاج .

ولقد تبادل الأيوبيون والعباسيون النفوذ في الحجاز ، فأخذوا يعزلون ويعينون الأمراء من قبلهم ، واستمرت هذه السياسة طوال أسرة الهواشم في مكة ، فلما تولى قتادة بن إدريس الحسني إمارة مكة حرص على إثبات شخصيته المستقلة ، وتصدى لمحاولات قتله ، وعزله ، وفرض ذاته على كل من العباسيين والأيوبيين ، مما أدى إلى دخوله في صراعات مع كليهما ، وخرج سالماً ، وأكد بذلك قدرته على تخطي الصعاب ، وإظهار شخصيته القوية ، وإن استمر يدعو للعباسيين والأيوبيين .

وعلى ضوء هذه الصورة عن الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين ينصب الحديث في هذا الفصل ليشمل مرحلتين جديرتين بالبحث والدراسة :

الأولى : مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين (٥٦٩ - ٥٩٧ هـ / ١١٧٣ -

١٢٠٠ م .

والثانية : مرحلة إثبات الذات (زمن قتادة بن إدريس الحسني (٥٩٧ - ٦١١ هـ /

١٢٠٠ - ١٢١٤ م) .

أولاً : مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين (٥٦٩ - ٥٩٧ هـ - ١١٧٣ - ١٢٠٠ م) .

حكمت أسرة الهواشم الحسينيين مكة منذ سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٤ (١) ، وهم أول من أعاد الخطبة للعباسيين بمكة والمدينة بعد أن انقطعت نحو مائة سنة (٢) .

ومن أفراد هذه الأسرة الأمير عيسى بن فليته الحسني الذي كان يحكم مكة أثناء قدوم توران شاه بن أيوب على رأس حملته العسكرية إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م وكان قد مرّ في طريقه بمكة المكرمة فدخلها وطاف حول الكعبة وأدى الصلاة ، فلما علم أمير مكة عيسى ابن فليته الحسني بقدومه خشي على نفسه منه ، وصعد على جبل أبي قبيس على مقربة من المسجد الحرام وتحصن بقلعة سبق أن شيدها هناك (٣) .

ولعله ظن أن الأيوبيين السنيين الذين أسقطوا دولة الفاطميين الشيعية جاءوا لإسقاطه ، وبخاصة أنه كان يعتنق المذهب الشيعي (٤) .

وقد ذكر ابن الجوزي أن توران شاه طمأن الأمير عيسى الحسني وهدأ من روعه بعد أن نزل إليه الأمير معتذراً وهو يقول : « خفت منك ، والآن فأنا تحت طاعتك » فأقره توران شاه على مكة وأعمالها ، وخلع عليه وعلى أصحابه ، وطيب قلوبهم ، ثم سار إلى اليمن (٥) .

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٢) أمر أبو هاشم محمد بن جعفر الحسني مؤسس أسرة الهواشم بقطع الخطبة للفاطميين والدعوة للعباسيين في مكة سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ - ٧٠ م ثم زحف إلى المدينة بجيش من الأتراك واستولى عليها وأخرج منها بني الحسين وجمع بين إمارة الحرمين ، ودانت بلاد الحجاز كلها للخلافة العباسية ، وقد حدث تنافس بين العباسيين والفاطميين في عهد هذه الأسرة إلا أنه انتهى بسيطرة العباسيين على الحجاز أواخر عهد الفاطميين (انظر ص (١١٩) من هذا البحث .

(٣) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورقة ١٨٨ .

(٤) كان أشراف مكة يعتنقون المذهب الزيدي (ابن جبیر : الرحلة ص ٧٨) .

(٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورقة ١٨٨ .

ويبدو أن عيسى الحسيني أرسل إلى بني عمه الحسينيين في المدينة^(١) لكي يقيموا الخطبة لنور الدين محمود هناك، فقد ذكر الفاسي أنه منذ ذلك الوقت أخذت منابر الحرمين في مكة والمدينة تخطب للخليفة العباسي المستضيء وللسلطان نور الدين محمود^(٢) الذي اتسع ملكه فشمل الموصل والجزيرة وديار بكر ودمشق وحلب ومصر واليمن والحجاز^(٣).

ولما توفي نور الدين محمود ، وآلت الأمور إلى صلاح الدين الأيوبي قام الأمير عيسى ابن فليته الحسيني بالخطبة للخليفة العباسي ، ولصلاح الدين من بعده^(٤) وبدأت بذلك مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين والتي سنعرض لها فيما يلي :

النفوذ العباسي في الحجاز

أ - خلع الأمير داود بن عيسى الحسيني من إمارة مكة :

استمر عيسى بن فليته الحسيني يخطب للأيوبيين والعباسيين حتى توفي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م^(٥) وولي إمرة مكة ابنه داود بن عيسى الحسيني ، وكان أبوه قد عهد له بها فأحسن السيرة وعدل في الرعية^(٦) لكن أخاه مكثراً طمع في الإمارة فجمع أنصاره وثار عليه ، وخلعه

(١) عادت أسرة بني مهنا الحسينيين إلى حكم المدينة في عهد الخليفة العباسي المستضيء (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) فقد ولي المدينة المنورة لقاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن أبي أحمد القاسم بن أبي عبد الله بن أبي القاسم طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر حجة الله بن أبي جعفر بن عبد الله بن الحسين الأصغر بن زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وقد استمر يحكم المدينة لمدة خمس وعشرين سنة (انظر الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣١ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٤٥) .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ١٨٨ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٣) الحريري : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على بلاد المسلمين ص ٣٠ .

(٤) العصامي المكي : سطر النجوم العوالي ج ٤ ص ٢٠٤ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧١ .

(٥) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ص ٣٠٨ .

(٦) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٣٤ - ٥٣٥ .

منها في ليلة النصف من رجب سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م^(١) .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن خلع داود بن عيسى الحسيني من الإمارة تم بمساعدة ومؤازرة الخليفة العباسي^(٢) ولعل الخليفة العباسي خشي من نفوذ الأمير داود بعد أن أحسن السيرة وعدل في الرعية فقام بتحريض أخيه على خلعه حتى لا يصبح في مكة أمير قوي محبوب من الرعية فيفكر في الاستقلال عن العباسيين .

ب- تولية الأمير مكث بن عيسى الحسيني الإمارة :

تولى مكث بن عيسى الحسيني الإمارة بمساعدة العباسيين بعد فرار أخيه داود إلى وادي نخلة بالقرب من مكة^(٣) لكن داود لم يلبث أن عاد إلى مكة في شعبان من نفس العام بعد أن تم الصلح بينه وبين أخيه مكث على يد شمس الدولة توران شاه بن أيوب أثناء قدومه من اليمن في طريقه إلى بلاد الشام^(٤) ، ولم يتدخل توران شاه بصورة مباشرة أو غير مباشرة في أمورها الداخلية فقد كانت سياسة الأيوبيين تدعو إلى توحيد القوى الإسلامية والقضاء على الفتن والمنازعات، وبالتالي ظل مكث أميراً على مكة بعد خلع أخيه .

ولقد أخذ مكث يعمل على تثبيت مركزه وتقوية إمارته ليتحاشى استبداد بغداد به كما حدث مع أخيه بالأمس ، فلجأ إلى شراء الأسلحة ، وتجنيد بعض الرجال وتجديد القلعة التي بناها والده لتكون له حصناً إذا فكر أمير الحاج العراقي في مناوشته أو عزله ، وإن ظل مع ذلك يخطب للعباسيين والأيوبيين^(٥) .

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ص ٣٠٨ .

(٢) أحمد بن زيني دحلان : خلاصة الكلام ص ٢١ ، تاريخ الدول الإسلامية بالجدول المرضية ص ١٤١ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٥٤ .

(٤) عمر بن قهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٦ - ٥٣٧ .

(٥) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٢٢ .

ج - أمير الحاج العراقي يعزل الأمير مكثو عن الإمارة :

لما علم الخليفة العباسي بتحسينات مكثو غضب عليه^(١) وأمر أمير الحاج العراقي طاشتكين^(٢) أن يعزله عن الإمارة^(٣) بعد أن أمده بعسكر كثير وعدد من المنجنقات والنفاطين^(٤).

وكان الخليفة العباسي حريصاً على إضعاف أشرف مكة حتى لا يعودوا للاستقلال مرة أخرى عن العباسيين ، لذا سعى إلى عزل هذا الأمير .

لما علم الأمير مكثو بقدوم أمير الحاج العراقي لقتاله وعزله ، جمع عدداً من الأشراف والأعراب واستعد للنزال^(٥) ودار قتال شديد بين الطرفين بالأبطح بالقرب من مكة^(٦) وقتل كثير من الفريقين^(٧) ولما أيقن مكثو بن عيسى الحسيني ضعفه وعجزه عن التغلب على أمير الحاج العراقي وجنوده ، لجأ إلى حصنه بجبل أبي قبيس بعد أن نهب الحجاج وأخذ أموالهم^(٨) وتحصن به فحاصره طاشتكين ، مما اضطر مكثراً إلى الهروب وترك الحصن^(٩).

استولى أمير الحاج العراقي على الحصن الذي كان مكثو يحتمي به وأمر بهدمه ، ثم اتجه

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٢٧٦ .

(٢) هو الأمير طاشتكين بن عبد الله المقتفوي ، مجير الدين أمير الحاج العراقي حج بالناس ستاً وعشرين حجة ثم ولاء الخليفة العباسي على جميع خوزستان وقد توفي سنة ٦٠٢ هـ (ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٢١ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٢٧٥ ، وج ٥ ص ٥٦ - ٥٨) .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٧٧ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) العصامي المكي : سطر النجوم العوالي ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٧) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي في التاريخ المكي لوحة (٤٦) .

(٨) المصدر السابق .

(٩) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٤٠ .

بقواته إلى مكة فنهبوا كثيراً من الدور وسلبوا أموال التجار المقيمين بها ، وأشعلوا النيران في دور كثيرة (١) .

د - أمير المدينة يتولى مقاليد الأمور بمكة :

بعد فرار مكث بن عيسى الحسني وهزيمته ، ولى أمير الحاج العراقي مقاليد الأمور بمكة إلى أمير المدينة (٢) قاسم بن مهنا الحسيني ، وكان بصحبته أثناء هجومهم على الأمير مكث (٣) .

وقد استمر بمكة لمدة ثلاثة أيام ثم رأى نفسه عاجزاً عن إدارة الأمور والقيام بأعباء مكة ، وأنه لن يستطيع القيام بمنصبه بعد رحيل أمير الحاج العراقي (٤) خوفاً من قتال صاحب مكة مكث بن عيسى الحسني (٥) وطلب إعفائه من الإمارة لأن أنصاره وأتباعه في المدينة ، ولا

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) سبق القول أن بني الحسين أقاموا إمارة لهم بالمدينة المنورة ، ولم يكن لهذه الإمارة دور يذكر في السياسة الخارجية للحجاز ، وإنما صارت مقاليد الأمور بيد أشرف مكة من بني الحسن ، ويبدو أنهم كانوا من القوة إلى حد تدخلهم في إمارة المدينة المنورة وعزل بني الحسين منها مرات عديدة نتيجة خروجهم عن طاعتهم كما حدث في عهد الشريف أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م وفي عهد ابنه تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح الحسني الذي ملك المدينة لمدة ثلاث عشرين سنة، واستطاع الشريف أبو هاشم محمد بن جعفر الحسني مؤسس أسرة الهواشم الاستيلاء على المدينة وطرده بني الحسين منها سنة ٤٦٢ هـ / ٦٩ - ١٠٧٠ م وصار أميراً للحرمين وظلت المدينة تتبع الهواشم إلى أن قرر الخليفة العباسي المستنصر إعادة أشرف بني الحسين إلى المدينة أواخر عهد الهواشم وولى عليهم قاسم بن مهنا الحسيني ، ويبدو أنه كان ينتقم على الهواشم ما فعلوه بأسرته فاشترك مع العباسيين في حملتهم على مكة (انظر (ص ١١٨) من هذا البحث) .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٥٥ .

(٤) دحلان : خلاصة الكلام ص ٢١ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٥٥ .

يوجد في مكة من يدفع عنه هجوم مكثر وأنصاره من الأشراف الحسينيين ، وقال لأمير الحاج العراقي إنني لا أتمجسّر أن أقيم بمكة بعد خروج الحاج^(١) فقرر أمير الحاج أن يعيد داود بن عيسى الحسيني مرة أخرى للإمارة بعد خلع أخيه مكثر واشترط على داود إلغاء المكوس عن الحجاج ، وأخذ عليه العهود والمواثيق بذلك^(٢) .

ويلاحظ مما سبق التدخل الفعلي للعباسيين في شئون الحجاز الداخلية وازدياد نفوذهم إلى حد عزل أمراء الأشراف وتعيينهم ، ولم يتدخل صلاح الدين الأيوبي الذي يخطب للخليفة العباسي على منابر بلاده في الخلافات التي نشأت بين أشراف الحجاز والعباسيين حتى لا يغضب الخليفة العباسي .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٣٥ .

النفوذ الأيوبي في الحجاز

١- إلغاء المكوس المفروضة على الحجاج :

احتدم النزاع مرة أخرى بين الأخوين داود ومكثر عقب رحيل أمير الحاج العراقي فعزل مكثر أخاه داود ، وتولى الإمارة سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م^(١) لكنه نقض العهود والمواثيق التي قطعها أخوه على نفسه للعباسيين بإسقاط المكوس فأعادها على الحجاج مرة أخرى ، وقد كان أشرف الحجاز يعتبرون المكوس موارد مالية خاصة بهم ولا غنى عنها لأنها تعد مورد الإمارة الرئيسي ، فتدخل صلاح الدين في هذا الأمر بصورة طيبة مكنته من إلغاء هذه المكوس في نفس العام^(٢) .

فقد روي المؤرخون أن أحد رجال صلاح الدين الأيوبي ويسمى الشيخ علوان الأسدي الحلبي ذهب إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، فلما وصل إلى جدة طوّل بالرسوم المفروضة فأبى أن يدفعها لهم وأراد العودة من حيث أتى ، فخشي الحجازيون عاقبة الأمر فبعثوا به إلى الأمير مكثر الحسني الذي اعتذر له ، وبين حاجة الحجاز إلى فرض مثل هذه الرسوم لضيق موارده ، فلما اقتنع الشيخ برأيه كتب إلى صلاح الدين الأيوبي بما حدث فقرر صلاح الدين إلغاء هذه المكوس ، وعوض أمير مكة عنها ألفي دينار ، وألفى إردب من القمح سوى اقطاعات بصعيد مصر واليمن^(٣) يبلغ مقدار إنتاجها ثمانية آلاف إردب قمح تحمل إلى ساحل جدة كل عام^(٤) وقرر صلاح الدين أيضاً إرسال الغلال إلى المجاورين والفقراء بمكة والمدينة^(٥) .

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٥٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٣٦ .

(٢) الصباغ : تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام لوحة (٢٣٤) ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٤ ، الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ١٨٩ ، ج ٧ ص ٢٧٧ ، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٧٢ .

(٤) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢٣٤) ، الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٥) الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص ١٥٣ - ١٥٤ .

وقد وصف ابن جبير إلغاء صلاح الدين هذا المكس بقوله : « فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ، ودفع عنه عوضاً ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها ، وتكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة عمرهما الله فعوض عن ذلك أجمل عوض وسهل السبيل للحجاج »^(١) ، وكان الرسم المفروض على كل حاج سبعة دنانير مصرية ونصف دينار^(٢) .

وقد أرسل الأمير مكثراً رسالة يشكر فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي على وصول الغلال والأموال إلى الحجاز فأجابده السلطان بأنه سيضاعف هذه الأحمال كل عام على أن يعم خيرها كل أبناء الحجاز ، وهو ما تبينه الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل على لسان السلطان للرد على الأمير مكثراً وجاء فيها :

« وصل كتابك أيها الشريف معرباً عن المشايعة الشائعة أبنائها ، والمخالصة الخالصة أسرارها ، واقتضى ما يعرضه أن خرج الأمر بأن يضاعف المحمول في كل عام ، ولا يخص به خاص دون عام ، وأمرنا أن توفر السفن وتوفر الدواب ليحج للحرم الشريف بين البر والبحر وبين حمل البطن والظهر فتظل السنة ودوداً ولوداً »^(٣) .

إلا أن الأمير مكثراً أخذ يشتد على الحجاج ، ويقسو عليهم ، وبخاصة عند تأخر إمدادات الغلال والأموال عن الوصول إليه^(٤) فلما علم صلاح الدين بذلك كتب إليه كتاباً ينهاه فيه عن الجور والظلم ، ويتهدده ويتوعده ، وقد جاء فيه « اعلم أيها الشريف أنه ما أزال نعمة عن أماكنها وأبرز الهمم عن مكانتها وأثار سهم النوائب عن كنائنها كالظلم الذي لا يعفو الله عن فاعله ، والجور الذي لا يفرق بين قائله وقابله ، فإما رهبت ذلك الحرم الشريف وأجللت ذلك المقام المنيف ، وإلا قوبنا العزائم ، وأطلقنا الشكائم ، وكان الجواب ما تراه لا ما تقرأه »^(٥) .

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٣١ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٩ - ٥٤٠ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ١١٠ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ٥٤ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٢٧٨ .

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن صلاح الدين الأيوبي كان مهتماً بأمر الحرمين الشريفين ورعاية أهلها ، وحماية الحجاج مما استدعى أن يطلق عليه لقب « خادم الحرمين الشريفين »^(١) .

ب- حملة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب واثارها :

أثناء حكم مكث بن عيسى في مكة أرسل صلاح الدين الأيوبي أخاه سيف الإسلام طغتكين في ألف فارس وخمسمائة راجل إلى اليمن^(٢) .

ويذكر ابن الأثير سبب هذه الحملة بأن عز الدين عثمان الزنجبيلي والي عدن كتب إلى صلاح الدين يخبره بتردي الأحوال في اليمن ، وانتشار الفتن هناك^(٣) عقب وفاة توران شاه بالاسكندرية سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م^(٤) إذ أظهر نوابه العصيان وحاولوا الاستقلال بما تحت أيديهم من البلاد ، وضرب كل منهم سكة لنفسه ، ومنع أهل بلده التعامل بغيرها^(٥) وتنازعت نفسه الاستحواذ على ما يمتلكه غيره من جهات^(٦) فاضطربت أحوال اليمن ، واضطر صلاح الدين إلى إرسال مملوكه خطيباً لإصلاح الأمور بها ، لكنه لم يلبث أن توفى فعادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل^(٧) فأرسل صلاح الدين آنذاك أخاه سيف الإسلام طغتكين لتولي اليمن ، وضبط الأمور بها وإعادة سلطة الأيوبيين عليها^(٨) .

(١) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ٢٦٨ نقلاً عن Repertoire ج ٩ رقم ٣٤٤٧ ، عبد المنعم

ماجد : الناصر صلاح الدين ص ١٥٣ ، ريتشارد مورتييل : مكة في العصر المملوكي ص ٣٢ .

(٢) ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٦٢) ، العقيلي : المخلاف السليماني ج ١ ص ١٧٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١١١ .

(٤) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ٧٠ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٧ .

(٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ١٠١ .

(٧) المصدر السابق : ص ١٠٢ .

(٨) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ .

وفي طريقه إلى اليمن مر طغتكين ببلاد الحجاز ودخلها في رمضان سنة ٥٧٩هـ^(١) ونزل في ينبع ، واتجه منها إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتواترت الأنباء على مكة بقدومه فظن الأمير مكثراً أن صلاح الدين أرسله لتأديبه ففزع وفكر في الفرار ، وعقد العزم على ذلك ، فقام بالطواف حول الكعبة طواف الوداع استعداداً للرحيل^(٢) .

لكنه تردد في الرحيل عن مكة فقرر أن يستسلم لطغتكين كما روي ابن جبير^(٣) فانتظر لقاءه ، وذهب يطوف حول الكعبة طواف التسليم وأثناء طوافه وصلت مقدمة قوات طغتكين وعسكره إلى الحرم المكي حين كان مكثراً يطوف فزاحمته القوات في الطواف ، وبينما الناس ينظرون إليهم إذ أقبل الأمير سيف الإسلام طغتكين في موكب كبير ، وقد وصف ابن جبير قدومه بأنه دخل من باب بني شيبه ، ولعان السيوف أمامه يكاد يحول بين الأبصار وبينه ، والقاضي عن يمينه وزعيم الشيبين عن يساره ، والمسجد قد امتلأ بالنظارة والوافدين ، والأصوات قد علت له بالدعاء ولأخيه صلاح الدين حتى صكت الأسماع^(٤) والمؤذن يرفع صوته بالدعاء له ، والثناء عليه ، ثم بدأ الأمير في مراسم العمرة بالطواف حول البيت ثم الصلاة خلف المقام ، وسعى بين الصفا والمروة^(٥) وأثناء ذلك كان الأمير مكثراً قد فرغ من الطواف وبادر إلى منزله خائفاً^(٦) .

ولعل طغتكين أدرك ذلك لأنه لم يجده في استقباله لدى دخوله مكة ، فأرسل إليه ، وطمأنه ، وهدأ روعه ، وأقره على إمارة مكة وخلع عليه خلعة حسنة ، وخلعتين من الديبق المرقوم البديع الصنع باسم الخليفة^(٧) .

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ١٣٣ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص ١٢٤ .

(٥) المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) ابن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٤٦ .

وقد ذكر ابن جبير أنه شاهدهما بنفسه أثناء وجوده بمكة فقال : « طلع علينا الأمير وغازيته^(١) الأقربون حوله ، وهو راقل في حلة ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها ، وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابي اللون وقد علا كورها^(٢) على رأسه كأنها سحابة مركومة ، وهي مصفحة بالذهب ، وتحت الحلة خلعتان من الدبقي المرسوم البديع الصنعة خلعا عليه الأمير سيف الإسلام فوصل بها فرحان جذلان والطبول والدياباب تشيعه عن أمر سيف الإسلام إشادة بتكرمه ، وإعلاماً بمأثرة منزلته فطاف بالبيت المكرم شكراً لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير بعد أن كان أوجس في نفسه خيفة منه »^(٣) .

وقد صلى الأمير سيف الإسلام طغتكين مع الأمير مكثر في القبة العباسية ثم خرج في طريقه إلى اليمن^(٤) حيث استطاع أن يصلح الأمور به وأن يعيده إلى سلطة الأيوبيين^(٥) بعد أن ملكه كله طوعاً وكرهاً^(٦) ، واستولى على الحصون التي فتحها من قبل أخوه توران شاه ، وزاد عليها^(٧) ، ودخل في طاعته أهل صنعاء وصعدة والجوف^(٨) وسور زبيد ، وغيرها من حصون اليمن الأخرى ، ووحدهم تحت لوائه بعد أن كان يسودهم التفكك والانقسام^(٩) .

ولم تستقر الأمور في مكة عقب رحيل طغتكين عنها ، إذ عاد الصراع مرة أخرى بين الأخوين داود ومكثر ، وهزم مكثر وتولى داود الأمور بمكة ، وقام عبيده بنهب الحجاج وضربهم مما أدى إلى عودة سيف الإسلام طغتكين إلى مكة مرة أخرى في سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م

(١) غاشيته : زواره وأصداؤه (المعجم الوسيط ج ٢ ص ٦٥٣) .

(٢) كورها : الدور منها ، وكور الشيء : لفه على جهة الاستدارة (المعجم الوسيط ج ٢ ص ٨٠٤) .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٦ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ .

(٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ١٣٣ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) يحيى بن الحسين : غاية الأمان ج ١ ص ٣٣٥ .

(٩) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ١٣٣ .

لتأديب الأمير داود^(١) الذي فر حين علم بمقدم سيف الإسلام طفتكين^(٢) ولجأ إلى قلعته بجبل أبي قبيس يحمي بها^(٣) فدخل سيف الإسلام مكة^(٤) دون قتال ، واستولى عليها ، وخطب بها لأخيه صلاح الدين الأيوبي^(٥) وضرب الدراهم والدنانير باسم صلاح الدين^(٦) وقتل جماعة من العبيد يتبعون أمير مكة كانوا يؤذون أهلها والحجاج ، وأمر بقية العبيد أن يكفوا أذاهم عن المسلمين^(٧) ومنع الزيدية من الأذان في الحرم بحي على خير العمل^(٨) .

ج - أمير الحاج المصري يعزل أمير مكة :

بعد أن نشر سيف الإسلام طفتكين الأمن والهدوء في ربوع مكة عاد إلى اليمن في نفس العام^(٩) وعاد داود بن عيسى الحسني إلى تولى الأمور بمكة ، وفي سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م قام بالاستيلاء على أموال الكعبة ، وانتزع طوقاً من الفضة كان على دائرة الحجر الأسود يلم شعثه منذ ضربه أحد القرامطة بالدبوس^(١٠) .

فلما أخبر الحجاج السلطان صلاح الدين الأيوبي بما فعله داود بن عيسى الحسني ، أمر صلاح الدين أمير الحاج المصري أن يعزل داود عن إمارة مكة ويولي أخاه مكثراً بدلاً منه^(١١) .

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٩ .

(٢) العصامي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٨ ، ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٧٤) .

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورقة (٢٤٨) .

(٥) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٧٤ .

(٦) الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٤) .

(٧) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٥٣ ، ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٧٤) .

(٨) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٤٨ .

(٩) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ١٣٣ .

(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٤٦ .

(١١) القرمانلي : أخبار الدول ص ٢٢٥ .

وذهب داود إلى وادي نخلة هرباً من مكة عندما علم بمقدم الركب المصري وبقي هناك حتى وفاته سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م^(١).

- سقوط أسرة الهواشم في مكة :

انفرد مكث بن عيسى الحسني بحكم مكة عقب وفاة أخيه^(٢) ، وكان آخر حكام الهواشم لأن الحكم انتقل بعد ذلك إلى فرع حسني آخر هم بنو قتادة الذين عزلوا مكثاً عن إمارة مكة سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠١م^(٣).

وبذلك سقطت إمارة الهواشم في مكة نتيجة الصراع المستمر حول وراثة الإمارة الذي ظهر أول مرة سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م بين قاسم بن هاشم بن فليته الحسني ، وبين عمه عيسى بن فليته الحسني^(٤) وقد أدى ذلك النزاع إلى انتشار الفساد في مكة ، وظهور بعض العناصر التي استغلت هذه الأحداث في نهب الحجاج والتجار مما أدى إلى تدخل الأيوبيين والعباسيين في شئون مكة الداخلية فلبجأوا إلى عزل شريف ، وإقامة آخر مكانه .

وقد بين المؤرخون أسباب زوال أسرة الهواشم بانهمك أمرائها في اللهو وتبسطهم في الظلم ، وإعراضهم عن صونها ممن يريدونها بسوء اغتراراً منهم بما هم فيه من العز والعسف^(٥).

وبسقوط أسرة الهواشم انتهت مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين على مكة .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٦٠ .

(٣) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) .

(٤) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٧ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٠ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٦٦ ، عبد العزيز بن فهد :

غاية المرام ج ١ ص ٥٥١ .

ثانياً : مرحلة إثبات الذات (زمن قتادة بن إدريس الحسني ٥٩٧هـ - ٦١١هـ / ١٢٠٠م - ١٢١٤م) :

في هذه المرحلة أثبت أشراف الحجاز ذاتهم ، وتولى قتادة بن إدريس الحسني الحكم في مكة ولم يستطع العباسيون أو الأيوبيون أن يفرضوا نفوذهم في عهده ، وصار مستقلاً بكل أموره ، بل أثبت أنه ند لكل من الخليفة العباسي والسلطان الأيوبي وستعرض لهذه المرحلة فيما يلي :

- قتادة بن إدريس الحسني يخرج عن طاعة الهواشم الحسنيين ويستولى على ينبع :

كان قتادة بن إدريس الحسني^(١) ، قد انتهت إليه الرئاسة في قومه من الأشراف في منطقة العلقمية بوادي ينبع أواخر عهد الهواشم الحسنيين بمكة فوحد صفوفهم ، وأركبهم الخيل ، واستكثر من الجند والماليك^(٢) الأتراك^(٣) وبدأ العمل على توسيع رقعة إمارته فضم وادي الصفراء إليه بعد أن أخرج منه بني يحيى من الأشراف الحسنيين ، ثم حارب جماعة أخرى من أشراف بني الحسن ، كانوا يقطنون منطقة ينبع مثل بني حراب وبني أحمد بن إبراهيم ، واستطاع هزيمتهم وإخضاعهم له ، وبذا تمت له السيطرة على منطقة ينبع كلها^(٤) بعد أن كانت تلك المناطق تخضع لسيادة أشراف الهواشم الحسنيين^(٥) فلم يتحركوا للدفاع عنها أو

(١) هو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (انظر: الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٩ ، الصباغ : تحصيل المرام لوحة ٢١٩ ، ابن عنبه : عمدة الطالب ص ١٤١ ، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٧٧ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٩) .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) .

(٤) الفاسي : : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٠ .

(٥) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) .

استعادتها، مما جعل قتادة يفكر في الاستيلاء على مكة وإخراج الهواشم منها لأنه كان يعلم مدى ما تعانيه مكة من القلاقل، والفوضى في أواخر أسرة الهواشم فقد ضعف أفرادها، وتنازعوا الإمارة وصاروا لا يهتمون إلا بأنفسهم فأهملوا أمر مكة وأعمالها حتى استشرى الفساد، وانتشرت الفتن، ونشط قطاع الطرق، ولم يسلم الحجاج منهم إلا بعد دفع الإتاوة^(١) بل إن أشرف مكة أنفسهم كانوا أحياناً ما يعتدون على التجار، ويسلبون بضائعهم، فقد ذهب أحد التجار إلى الأمير قتادة بن إدريس الحسني في ينبع يشكو الأمير مكثراً بن عيسى الحسني أمير مكة لأنه سلبه أمواله وممتلكاته فطمأنه قتادة وقال له: «إذا كان الموسم القادم فأتني بمكة تجد متاعك والنصفة»^(٢) ومعنى ذلك أنه عقد العزم على دخول مكة قبل موسم الحج إذ يذكر ابن فضل الطبري أنه جمع أتباعه، وأنصاره وقال لهم: «خطر ببالي أخذ مكة فإن ولاتها جاروا، وقد ظلموا، فأجابوه جميعاً بالسمع والطاعة»^(٣).

- استيلاء قتادة على مكة المكرمة :

لما وجد قتادة من أتباعه استعداداً للزحف على مكة قام بتجهيزهم بكل ما يحتاجونه من السلاح والمؤن^(٤) وقبل أن ينطلقوا للمسير أخذ يستطلع أحوال الأشراف في مكة فعلم أن بعض قادة مكث بن عيسى الحسني في حالة تذر و غضب من سوء معاملته لهم هو وأفراد حاشيته مما غير خواطرهم عليه^(٥) فأسرع قتادة إلى الاتصال بهؤلاء القادة وعمل على استمالتهم إلى جانبه وسألهم مساعدته في الاستيلاء على مكة^(٦).

(١) الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٤) ، رضي الدين : تنزيذ العقود السنية : لوحة رقم (٧) .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) المصدران السابقان .

(٤) دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجدول المرضية ص ١٤٣ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٦٧ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٠ .

ويبدو أن هؤلاء القادة أبدوا موافقتهم على مساعدته مما يسر لجنوده أمر الاستيلاء على مكة دون مقاومة فقد ذكر المؤرخ المكي الفاسي أن أهل مكة فوجئوا بقوات قتادة وقد دخلت مكة وقادتهم على ما هم فيه من الانهماك في اللهو والترف فلم يستطيعوا المقاومة^(١).

ومما يسر لجنود قتادة الاستيلاء على مكة أيضاً وجود الشريف مكث في وادي التنعيم يوم الهجوم على البلد الحرام ، فأهل مكة يخرجون إلى وادي التنعيم للعمرة في السابع والعشرين من رجب كل عام إحياء للسنة التي سار عليها عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه- ويقضون عدة ليال في هذا الوادي يتجولون^(٢).

وقد وصف ابن جبير خروج أهل مكة لهذه العمرة التي يسمونها عمرة الأكمة بأنهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد عائشة -رضي الله عنها-^(٣) والأصل في هذه العمرة الأكمية عندهم أن عبد الله بن الزبير لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشياً حافياً معتمراً وأهل مكة معه فانتهى إلى تلك الأكمة فأحرم منها في السابع والعشرين من رجب فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة فيخرج أشراف مكة وأهلها ، «ويقيمون أياماً يُطعمون ويُطعمون ويتنعمون وينعمون شكراً لله»^(٤).

لذا دخلت قوات قتادة مكة المكرمة من جهة المرتفعات أثناء وجود الشريف مكث في التنعيم ، وأعلنت سقوط مكث وتنصيب قتادة أميراً على مكة^(٥) ففر مكث إلى وادي نخلة حيث توفي هناك سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م^(٦).

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٠ .

(٢) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ٩٣ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ١١٤ .

(٤) المصدر السابق ص ١١٥ .

(٥) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ٩٣ .

(٦) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ٢٠٨ .

وبعد وفاته جمع ابنه محمد بن مكثر بعض أعوانه وأنصاره واتجه إلى مكة في محاولة لاسترداد ملك آبائه ، لكن حنظلة بن قتادة ألحق به الهزيمة وقضى على أنصاره^(١) وقد ذكر المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) أن قتادة بن إدريس الحسني أرسل ابنه حنظلة فحارب الهواشم ، وهزمهم ، وملك مكة ، ثم قدم قتادة بعد استقرار أمورها لابنه سنة ٦٠٠ هـ^(٢) .

وقد روى الفاسي (ت ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م) هذه الرواية فقال : « قيل إنه لم يأت إليها في ابتداء ملكه لها ، وإنما أرسل ابنه حنظلة فملكها »^(٣) وقد ذكر بعض المؤرخين الآخرين أن قتادة هجم على مكة ، وملكها بنفسه ، وأخرج منها مكثراً^(٤) ولعل قتادة بقي في ينبع لكي يواصل إرسال المدد من الجند لابنه حتى إذا استقرت له الأمور في مكة ، جاء إليها مصطحباً أفراد أسرته وحاشيته .

بعد استيلاء قتادة على مكة عمل على تنظيم ملكه فأنشأ الوزارة وعين ابن الريحاني المكي وزيراً له^(٥) ثم خطب للخليفة العباسي الناصر ليضمن مساندته له^(٦) وليضفى على

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٠ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٦٢ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٠ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ . ، القرمانى : أخبار الدول ص ٢٢٥ .

، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٩ . ، دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجدول المرضية ص ١٤١ .

، الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) . ، ابن عتبه : عمدة الطالب ص ١٣٨ .

Hogarth (D. G). A History of Arabia pp82 (Clarendon press- oxford, 1922)

(٥) هو سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن عبد السلام بن راشد التميمي الدارمي يكنى أبا الربيع ابن أبي محمد ، ويلقب نجم الدين ويعرف بابن الريحاني ، ولد بمكة سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م ، وقد سمع بمكة من عمه أبي الحسن علي بن الحسن الريحاني بقراءة علي بن المفضل المقدسي ، ثم قدم مصر واستوطنها وسمع بها وقد أسرف في الحرب التي قامت بين قتادة وصاحب المدينة وأطلق سراحه ، وقد توفي بالقاهرة سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ودفن بسفح المقطم (الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٦٠٧ - ٦١٠) .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ .

حكمه صفة الشرعية فأنته الخلع والأموال من بغداد اعترافاً به وتأيداً له^(١) ثم خطب للملك العادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر^(٢) .

- الصراع بين قتادة وأشراف المدينة :

لما أحكم قتادة سيطرته على ينبع ومكة شرع يفكر في بسط نفوذه على المدينة المنورة لكي يضمن ولاء أصحابها له ففي سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م زحف قتادة على رأس جيش كبير من مكة إلى المدينة^(٣) للاستيلاء عليها ، فتجهز صاحبها سالم بن قاسم الحسيني وخرج للقائه بذي الحليفة بالقرب من المدينة^(٤) ودار قتال شديد بينهما فانهزم سالم ولجأ إلى المدينة فحاصره قتادة بها أياماً إلا أن سالماً كان ذا مكر ودهاء فلجأ إلى الحيلة ، واستمال بعض أصحاب قتادة وأغراهم بالأموال حتى يتركوا صاحبهم ويعودوا إلى مكة ، وعندما تأكد من نجاح خطته خرج على قتادة وهو مغتر بقوته ، ومتهاون به واشتد القتال بينهما فانهزم قتادة وأسر من أصحابه عدد كبير من بينهم ابن الريحاني المكي وزير قتادة^(٥) فعاد قتادة إلى مكة ، لكن شريف المدينة سالم بن قاسم الحسيني تبعه ولحق به وحاصره في مكة كحصاره له في المدينة فلجأ قتادة إلى بعض أتباع سالم واستمالهم إليه فخالقوا صاحبهم ، وانقلبوا عليه ، فاضطر سالم إلى العودة للمدينة مكتفياً بما حل بقتادة وقواته^(٦) .

ولا شك أنه قد حدث صلح بينهما وتبادل للأسرى ، إذ يخبرنا ابن فهد أن أصحاب المدينة

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٥٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٢٩ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٢ .

(٣) ابن الساعي الخازن : الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ص ١٥٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٩٨ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٢ ، رضي الدين : تنزيه العقود السنية لوحة (٨) ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٣ .

(٦) العصامي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ٢١٠ .

أطلقوا وزير قتادة من الأسر فلما عاد إليه سأله قتادة : ماذا فعل سالم بكم؟ فأخبره الوزير بحسن معاملتهم له ولأصحابه (١) .

- استيلاء قتادة على الطائف :

بعد فشل قتادة في الاستيلاء على المدينة سعى للسيطرة على الطائف وإخضاعها لسلطانه فجهز جيشاً سنة ٦١٣هـ / ١٢١٧م لقتال بني ثقيف بالطائف (٢) حيث التقى بهم وقاتله مشايخ ثقيف قتالاً عنيفاً تمكن في نهايته من الانتصار عليهم (٣) .

ولما دخل قتادة الطائف هرب زعمائها وتحصنوا في حصونهم فأرسل قتادة إليهم يستدعيهم للحضور إليه ، ويؤمنهم ، ويتوعددهم بالقتل إن لم يحضروا ، فاجتمع مشايخ ثقيف وتشاوروا فيما بينهم ، ومال أكثرهم إلى الاستسلام لقتادة خشية أن يقتحم عليهم حصونهم ، ويقتلهم ، فلما ذهبوا إليه نقض عهده لهم وأمر بقتلهم جميعاً ، واستخلف على الطائف نواباً من قبله ، وأمدهم بعدد من العبيد الأشداء يشدون من أزهرهم (٤) ويحفظون لهم الأمن (٥) .

وهنا يرد تساؤل : لم هاجم قتادة الطائف واستولى عليها ؟

الحقيقة أن قتادة أراد أن يكون إمارة قوية في الحجاز لا تخضع لقوى خارجية فاستولى على ينبع وما حولها ثم اتجه إلى مكة حاضرة الحجاز آنذاك واستطاع إخضاعها لسلطانه ، وحارب أشراف المدينة حتى يضمن ولاءهم له ، ثم اتجه إلى الطائف المدينة الغنية بمواردها

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٣ ، الجزيري : دور الفرائد ج ١ ص ٥٧٩ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٥ .

(٣) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٢٨ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٦ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٢٢ .

لاشتهارها بالزراعة^(١) ، وقرر الاستيلاء عليها ، لينهل من مواردها فتزداد قوته المادية والعسكرية .

ولقد عاد قتادة إلى مكة بعد أن أطاعته القبائل في الطائف ومن حولها ، وبعد عودته قرر بعض رجال ثقيف استخدام الحيلة للتخلص من أتباعه ، وقتلهم^(٢) فقررُوا أن يرسلوا إليهم للحضور والتشاور في أمر كتاب ورد عليهم من الشريف قتادة على أن يخبئ كل منهم سيفه في المكان المعد للاجتماع ، فإذا حضروا قاموا بقتلهم ، وقد نفذت الخطة طبقاً لما أرادوا فقد حضر نواب قتادة بغير سلاح غير مباين بأهل الطائف لما أوقعوا في قلوبهم ونفوسهم من الرعب ، فلما اجتمع الفريقان واطمأن المجلس بهم أخرج كل فرد من أهل الطائف سيفه ووثب على جلسه من أصحاب قتادة ، وقتله^(٣) ولم يسلم من أصحاب قتادة إلا شخصاً واحداً استطاع الفرار وذهب إلى مكة فأخبر قتادة بما حدث^(٤) .

وما لا شك فيه أن قتادة استطاع السيطرة على الطائف مرة أخرى ، إذ يذكر كثير من المؤرخين أن ولايته قد اتسعت من حدود اليمن إلى كافة الأراضي الحجازية^(٥) .

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٦ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٢٣ .

(٤) الفاسي العقد الثمين ج ٧ ص ٤٦ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٤٢٦ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٩ ، ابن خلدون :

العبر ج ٤ ص ١٣٥ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٢ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٩ ،

القرماني : أخبار الدول ص ٢٢٥ ، الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) ، دحلان : خلاصة الكلام

ص ٢٣ ، تاريخ الدول الإسلامية بالجدول المرضية ص ١٤٣ ، فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣١٥ .

- العلاقات بين قتادة والعباسيين :

حينما تولى قتادة الأمور في مكة المكرمة خطب للخليفة العباسي على منابر مكة ليضفي على حكمه الصفة الشرعية ، إلا أنه بعد ذلك بدأ يظهر كراهيته للعباسيين فقد ذكر المؤرخون أن أذاه اشتد على الحجاج العراقيين^(١) وكان يسر لخاصته أنه أحق بالخلافة من الناصر العباسي^(٢) فهل كان يسعى فعلاً للخلافة ؟ لا نظن ذلك . فإنه كان يعلم حدود قوته وقدراته ، وإنما دعاه إلى هذا القول رفضه تدخل الخليفة العباسي في شئون بلاده ، وكان يرى نفسه نداً له ، لذا سوف نجد أنه تصدى لكل المحاولات التي بذلها الخليفة العباسي لقتله أو عزله ونجح في ذلك .

وهنا يرد تساؤل : متى بدأ الخلاف بين قتادة والخليفة العباسي ؟

الحقيقة أن قتادة شرع في تقوية نفسه وتأمين بلده عقب تسلمه لإمارة مكة فأكثرت في جنده المماليك الأتراك لأول مرة في الحجاز ، وقام بتحسين مكة ، وبناء سور حولها وبسط نفوذه على معظم أرجاء الحجاز^(٣) ، مما أغضب الخليفة العباسي الذي كان حريصاً على إضعاف أمراء الإشراف حتى لا يستقلوا عن الخلافة مرة أخرى ، وقد رأينا كيف أمر الخليفة قائد الحاج العراقي بعزل الأمير مكث بن عيسى الحسني من أمراء الهواشم عندما بدأ يحصن مكة ويجمع الجنود^(٤) .

وقد لجأ الخليفة العباسي في بداية الأمر إلى الحيلة للتخلص من قتادة فأرسل أحد دعاة الباطنية لقتله ، لكن القاتل أخطأ في تأدية مهمته ، ففي يوم عيد الأضحى وعقب رمي الجمرات قام هذا الباطني بقتل ابن عم قتادة ويدعى الشريف أبا هارون عزيز - ظناً منه أنه

(١) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٢٦ ، العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ٢١٤ .

(٤) انظر ص ١٢٣ من البحث (مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين) .

قتادة- وكان أشبه الناس به^(١) فلما علم قتادة بذلك غضب غضباً شديداً وجمع الأشراف والعبيد وأهل مكة^(٢) وصعدوا على الجبلين بمنى وهللوا وكبروا وأخذوا يضربون الناس بالمقاليع والنشاب^(٣) فقتل كثير من الفريقين ، وقتل الباطني القاتل ، ونهب عدد كبير من الحاج العراقي بمنى ومكة^(٤) وانهاه قتادة عليهم ضرباً وتقتيلاً ، وهو يقول : « ما فعل هذا إلا الخليفة »^(٥) وما كان المقصود إلا أنا ، والله ما أبقيت من حاج العراق أحداً^(٦) .

وانهزم أمير الحاج العراقي الذي كان دائماً ما يفرض سطوته وسيطرته على أصحاب مكة، وفر نواب الخليفة والمجاورون من مكة خوفاً من قتادة^(٧) الذي اشتد عليهم وطلب منهم مائة ألف دينار تعريضاً عما حدث حتى يكف عنهم فجمع له أمير الحاج العراقي ثلاثين ألف دينار وأعطاهما له^(٨) فأذن للناس بالدخول إلى مكة^(٩) .

وفي العام التالي أرسل الخليفة العباسي الناصر إلى قتادة مع الركب العراقي الأموال

(١) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٧٥ ، العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ٢١٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٣٥٦ .

(٣) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ٢١١ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ١١ - ١٢ .

(٥) المصدر السابق ص ١٣ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٨ .

(٧) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٨ .

(٩) المصدر السابق ص ٤٩ ، وقد ذكر ابن الجوزي أن ربيعة خاتون بنت أيوب أخت صلاح الدين الأيوبي

كانت معهم في الحج واستغاث بها أمير الحاج العراقي فأرسلت إلى قتادة تقول ما ذنب الناس قد قتلت القاتل ، وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين ، وتحملت الدماء في الشهر الحرام ، فكف عن الناس وطلب مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألف دينار من أمير الحاج العراقي فأخذهم وهو يهدد ويتوعد

العراقيين (انظر : ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورقة ٣٦٣ - ٣٦٤) .

والخلع وكسوة الكعبة ، ولم يعاتبه على ما فعل مع الحجاج العراقيين في العام السابق^(١) ونصحه أمير الحاج العراقي أن يعتذر للخليفة العباسي عما حدث وأن يعلن الولاء والطاعة له^(٢) فبعث الشريف قتادة ولده راجحاً وجماعة من أصحابه إلى بغداد للاعتذار إلى الخليفة عما جرى للحاج العراقي فقبل الخليفة أعذارهم^(٣) .

وعاد قتادة بعد هذا الحادث يدعوا للخليفة العباسي على منابر الحجاز، لكن الخليفة العباسي لم يكن ليقبل ما فعل قتادة ؛ بل تظاهر بقبول اعتذاره حتى تسنح له الفرصة فينتقم منه جزاء ما فعل ، وأعمل الحيلة مرة أخرى لنيل مأربه فقد ذكر ابن فهد أن الخليفة العباسي أرسل إليه يستدعيه لزيارته ويقول له « انت ابن العم والصاحب ، وقد بلغني شهامتك وحفظك للحجاج ، وشرف نفسك ، وعزتك ، وعفتك ونزاهتك ، وقد أعجبت أن أراك وأن أشاهدك ، وأحسن إليك »^(٤) .

لكن قتادة فهم ما يقصده الخليفة ، ويسعى إليه ، فرفض الذهاب إلى بغداد ، واجتمع بيني عمه من الأشراف ، وأخبرهم أن ذلك استدراج لهم وله وكتب إليه يرفض دعوته^(٥) .

(١) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٥١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٥٧ ، المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٧٦ .

(٤) عمر بن قهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ١٧ ، رضي الدين : تنضيد العقود السنية لوحة (٩) .

(٥) عبد العزيز بن قهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٦٤ ويذكر أن قتادة صدر كتابه بأبيات الشعر الآتية :

بلادي وإن هانت علي عزيزة	ولو أنني أعري بها وأجوع
ولي كف ضرغام أصول ببطشها	وأشري بها بين الوري وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها	وفي بطنها للمجدين ربيع
أجعلها تحت الثرى ثم أبتغي	خلاصاً لها إنني إذا لرقبيع
وما أنا إلا المسك في كل بلدة	يضوع وأما عندكم فأضيع

فلما بلغ الكتاب الخليفة غضب غضباً شديداً وأرسل إلى قتادة كتاباً يتهدده فيه ويقول : « أما بعد فإذا نزع الشتاء جلبابه ، ولبس الربيع أثوابه قابلناكم بجنود لا قبل لكم بها ، ولنخرجنكم منها أذلة ، وأنتم صاغرون »^(١) فلما قرأ قتادة الكتاب تجهز واستعد للقاء الجند العباسي وأرسل إلى بني عمه الحسينيين أشرف المدينة يطلب منهم العون والنجدة^(٢) فأتته النجدة من المدينة وانضموا إلى قواته والتقوا جميعاً مع قوات الناصر العباسي حين جاءت واستطاع قتادة دحرهم والانتصار عليهم^(٣) .

ويذكر المؤرخون أن الخليفة العباسي ولي مملوكه آقباش بن عبد الله الناصري إمرة مكة أثناء النزاع مع قتادة حتى يضعف من أمره ، لكنه لم يستطع دخول مكة ومباشرة إمرتها^(٤) .

وانتهى النزاع بين قتادة والخليفة الناصر عندما أرسل قتادة يطلب الصلح معه^(٥) فقبل الخليفة العباسي الصلح وبخاصة أنه لم يستطع أن يضعف من سلطان ونفوذ قتادة في الحجاز ؛ بل زادت هيئته ومكانته هناك حتى وصفه كثير من المؤرخين بقولهم : « كان شيخاً مهيباً طوالاً ، وما كان يلتفت إلى أحد من خلق الله ، ولا وطئ بساطاً لخليفة ولا غيره ، وكان يحمل

(١) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٢) يذكر المؤرخون أنه طلب العون من أشرف المدينة وصدر كتابه لهم بالشعر أيضاً فقال :

بني عمنا من آل موسى وجعفر وآل حسين كيف صبركم عنا

بني عمنا إنا كأفنان دوحة فلا تتركونا يتخذنا الفنا فنا

إذا ما أخ خلى أخاه لأكل بدأ بأخيه الأكل ثم بدا ثنى

وبين لهم في هذه الأبيات أن العباسيين إذا تخلصوا منه سيعودون ويتخلصون منهم هم الآخريين (ابن

فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة ١٥ - ١٦ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ج ٤

ص ٢٠٩) .

(٣) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٩ ، العقد الثمين ج ٣ ص ٣٢٢ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١

ص ٥٧٨ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٩ .

(٥) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

إليه في كل سنة من بغداد الخلع والذهب وهو في داره بمكة» (١) .

- موقف الأيوبيين من قتادة :

انشغلت الأسرة الأيوبية بالخلافت التي نشأت بين أفرادها بسبب التنافس على الحكم عقب وفاة صلاح الدين ، فلم يتدخلوا في الخلافت التي نشأت بين قتادة والعباسيين ، أو في شئون مكة الداخلية وبخاصة بعد أن جعل قتادة المؤذنين في الحرم يؤذنون الأذان الشيعي « حي على خير العمل » (٢) بعد انقطاعه أواخر عهد أسرة الهواشم الحسينيين على يد سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين (٣) وعامل أهل السنة معاملة قاسية إلى حد قتل بعض أئمتهم ، إذ يخبرنا كل من الفاسي وابن فهد أن قتادة قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بالمسجد الحرام (٤) ، وإن لم يذكر السبب في ذلك ، ونظن أنه كان متعصباً لمذهبه الزيدي وأراد إرهاب أهل السنة في مكة حتى لا يهاجموا أصحاب مذهب من الطائفة الزيدية .

لكن الأيوبيين بدأوا يتدخلون تدريجياً في أمور مكة منذ سنة ٦١١هـ إلى أن صارت كل أمور مكة بأيديهم وهذا ما سوف نتناوله في الفصل التالي .



(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٥٧ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٧٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٤٨ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٧ ، وقد ذكر أن قتادة قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية سنة ٦٠٧هـ

بينما يذكر ابن فهد أنهما قتلا في سنة ٦٠٦هـ (انظر : عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٩) .

الفصل الثاني

مظاهر السيادة الأيوبية في الحجاز



الفصل الثاني

مظاهر السيادة الأيوبية في الحجاز

مدخل :

في أواخر عهد قتادة بن إدريس بدأ الأيوبيون يستعيدون نفوذهم تدريجياً على الحجاز، ويرجع السبب في ذلك إلى الخلافات التي نشأت بين قتادة وأشراف المدينة المنورة من بني الحسين ، إذ أنه لما توفي قتادة وتولى ابنه الحسن أمر مكة نازعه الإمرة أخوه راجحاً الذي استعان بالملك المسعود بن الكامل الأيوبي فمهد بذلك للسيطرة الأيوبية الكاملة على مكة والقضاء على بني قتادة الحسينيين وإخراجهم من السلطة بما فيهم راجح الذي استعان به .

ولم تكون خطورة موقف المسعود من بني قتادة مقصورة على هزيمته لهم ، وإنما تمثلت أيضاً في اتخاذ نواباً له في مكة من غير الأشراف على غير ما جرت به السياسة المتبعة من قبل منذ أن تجلّى التنافس بين الخلفاء العباسيين والفاطميين على بسط سيادتهم على ذلك البلد المقدس ، فقد كانت غاية ما يسعى إليه كل خليفة هو أن يدعو له شريف مكة في الحرم ، ويرفع علمه على عرفات يوم الحج وأن يعلق كسوة الكعبة التي يرسلها دون سواه .

أما في عهد المسعود فقد صار الحجاز تابعاً لمصر ، وأصبح أمراء مكة يعينون من قبل السلطان الأيوبي ؛ بل يمكن القول إن مكة آنذاك كانت تتبع مصر إدارياً ، ويسط الأيوبيون سيادتهم على الحجاز وهذا الفصل سوف يعرض لمظاهر تلك السيادة .

النفوذ الأيوبي في الحجاز أواخر عهد قتادة

توفى صلاح الدين الأيوبي دون أن يضع نظاماً خاصاً لولاية العهد ، ونشأ عن ذلك قيام النزاع والخلاف بين أولاده ، وإخوته ، وأحفاده ، ثم استطاع العادل أخو صلاح الدين أن يضم إليه الشطر الأكبر من الدولة الأيوبية ، وغدا سلطاناً بمفرده على مصر . ومعظم أجزاء الشام سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م^(١) ، وفي نفس العام تولى قتادة الحكم في مكة وخطب للخليفة العباسي ، ويخبرنا المؤرخ الفاسي أن قتادة قدم إلى مصر أكثر من مرة لكنه لم يذكر هل جاء إلى مصر قبل تسلمه مقاليد الأمور بمكة ، أم بعدها ؟ وبخاصة أن المؤرخين قد اختلفوا في تاريخ خطبته للملك العادل على منابر مكة ، فقد ذكر الفاسي أنه كان يخطب بمكة للعادل أبي بكر بن أيوب صاحب مصر والشام سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م^(٢) لكن ابن خلدون يخبرنا أنه خطب للملك العادل سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م بعد الخليفة العباسي الناصر ثم للكامل أيضاً^(٣) ، ويذكر بعض الباحثين أن قتادة خطب في أول أمره للعباسيين ولما قطعت علاقاتهم به استمر يخطب للأيوبيين وحدهم^(٤) .

ويتضح مما سبق أن قتادة قد خطب على منابر العادل سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م لأن هذا العام شهد مقدم الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل إلى مكة ، وبصحبه ألف فارس،

(١) إبراهيم العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ص ٣١٤ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٣٤ ، العقد الثمين ج ٧ ص ٥٣ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ .

(٤) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٢٩ .

وخمسمائة من الحرس الخاص والرماة وكان متوجهاً إلى اليمن^(١) ففرع منه أمير مكة قتادة الحسنى وخشي على نفسه ، وأخذ يجمع قواته استعداداً لقتال المسعود ، وخرج للقاءه خارج مكة ، لكن المسعود أظهر الود لأهل مكة فنثر على الناس ألف دينار ، وقام بإعطاء قتادة ألف دينار أخرى وقماشاً يبلغ قيمته ألف دينار فزالت مخاوفه^(٢) .

وأقيمت الخطبة في مكة على يد المسعود الذي لم يبق في مكة سوى ستة أيام ثم قفل عائداً إلى اليمن قبيل الحج خشية تفرق جنده أثناء موسم الحج^(٣) .

(١) هو الملك المسعود صلاح الدين أبو المظفر ويقال له أطسزوأقسييس بن الكامل ناصر الدين محمد بن العادل سيف الدين ولد سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م وولاه أبوه اليمن سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م لاضطراب الأمور بها ، فذكر المؤرخون أنه عقب وفاة سيف الإسلام طفتكين تولى ابنه المعز إسماعيل ولم يكن يتصف بالعقل والاتزان وجاهر بالتشيع في بداية عهده مما شجع الزيدية على تجديد البيعة للإمام عبد الله بن حمزة سنة ٥٩٣هـ فكثرت جموعه وتطلع إلى امتلاك اليمن كله ، فلما تولى أمر اليمن الناصر أيوب بن طفتكين بعد مقتل أخيه المعز إسماعيل سنة ٥٩٨هـ حاول وأنصاره الحد من نفوذ الإمام عبد الله بن حمزة ، لكن الناصر أيوب لم يلبث أن توفي مسموماً على يد أتابك عسكره غازي بن جبريل الذي أخذ البيعة من الجند لنفسه وتلقب بالملك الظافر لكنه لم يتمتع بالحكم طويلاً فقد ثار عليه الجند وقتلوه وضعف أمر الأيوبيين في اليمن حتى أن الإمام عبد الله بن حمزة تمكن من بسط نفوذه على صنعاء وغيرها من المدن ، ولم تؤد تولية سليمان بن تقي الدين شاهنشاه الأيوبي ملك اليمن في بداية سنة ٦١١هـ إلى استقرار الأمور للأيوبيين فيها فتنبه السلطان العادل إلى خطورة الوضع بالنسبة للأيوبيين في اليمن وخشي من زوال نفوذهم فاستقر رأيه على إنفاذ حملة بقيادة حفيده المسعود لاستعادة سلطانهم بهذه البلاد فسار المسعود إلى اليمن وضبط الأمور بها فدخل زيد وملكها واستولى على تهامة وتعز وصنعاء وسائر ممالك اليمن . (المقرئزي : الذهب المسبوك ص ٧٦ - ٧٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ج ١ ص ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٩٩ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٨٢) .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ١٩ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٨٩ - ٥٩٠ .

وفي نفس العام أدى الملك المعظم عيسى^(١) فريضة الحج وتصدق على أهل الحرمين بصدقات جليلة ، وبذل من أمواله في سبيل البر الشيء الكثير ، وقد استقبله بالمدينة الشريفة سالم بن قاسم الحسيني فأحسن استقباله ، وأعطاه مفاتيح المدينة وسهر على راحته^(٢) وبالغ في الحفاوة به ، وصحبه إلى مكة^(٣) .

ولما قدم المعظم عيسى إلى مكة وتلقاه قتادة سأله المعظم عن المكان الذي سينزل فيه مدة إقامته في مكة فأجابه قتادة وقد أشار بسوطه هناك - يريد الأبطح - فشرع المعظم عيسى أن قتادة يستهين به فغضب وأسرها في نفسه^(٤) .

ولعل جفاء قتادة الذي أبداه في استقبال المعظم عيسى يرجع إلى استيائه من تألف خصمه القديم أمير المدينة مع صاحب دمشق ، وسيره في خدمته إلى مكة .

- التدخل الأيوبي في الصراخ بين قتادة وأشراف المدينة :

لما أدى المعظم عيسى مناسك الحج عاد إلى دمشق بطريق المدينة اشتكى له الأمير سالم من جور قتادة وظلمه منتهزاً غضب المعظم عيسى من سوء استقبال قتادة له فوعده أن ينجده عليه^(٥) وتوجه الأمير سالم بصحبة عيسى إلى دمشق^(٦) .

(١) هو الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ وأعطاه أبوه الملك العادل دمشق ، وجعل في ولايته غزة والكرك والشويك سنة ٥٩٦هـ وظل على ذلك حتى توفي بدمشق سنة ٦٢٤هـ (ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٤ ، المقرئ : الذهب المسبوك ص ٧٣-٧٥) .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٣٤ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

(٣) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

(٤) المصدر السابق

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٢ .

(٦) المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٨٠ .

ويظهر أن قتادة علم بذلك فخشي أن يتآمر سالم مع المعظم عيسى عليه خاصة أنه أساء استقباله في مكة ، فأراد أن يمتلك زمام الموقف في يده فأسرع في سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م وحاصر المدينة المنورة أثناء غياب سالم عنها ، وقطع تمرها وكثيراً من نخلها فقاتله أصحاب سالم ودافعوا عن المدينة فارتد عنها خاسراً^(١) .

وتواترت الأخبار على سالم بما حدث ، وكان مقيماً عند الملك المعظم بالشام فأرسل معه جيشاً لمؤازرته ، وسار سالم من الشام إلى المدينة المنورة ، ولكنه توفي بالطريق ، فتولى الأمر من بعده ابن أخيه قاسم بن جمار الذي جمع أشراف المدينة ، وشاورهم في الخروج لقتال قتادة صاحب مكة ، فوافقوه جميعاً وشجعهم على ذلك وصول عسكر الشام الذي أرسله المعظم عيسى بقيادة الناهض بن الجرخي والتقى الجيشان بوادي الصفراء في ذي القعدة من نفس العام سنة ٦١٢ هـ^(٢) فكانت الغلبة لعسكر المدينة الذين استولوا على عسكر قتادة قتلاً ونهباً ، ومضى قتادة منهزماً إلى ينبع فتبعوه ، وحاصروه بقلعته^(٣) بعد أن غنموا من أمواله وسلاحه شيئاً كثيراً ، وأسر من جيشه عدد كبير سيره الأمير قاسم إلى الشام بصحبة الناهض بن الجرخي قائد الجيش الشامي ، وكان في الجيش عدد كبير من الأشراف الحسينيين والحسينيين فأقاموا مع أشراف دمشق يشاركونهم في أوقافهم هناك^(٤) .

ولما علم قتادة بأن الأمير قاسم أخذ وادي القرى ونخلة وينتظر انتهاء الحجاج من قضاء مناسك الحج والعودة إلى بلادهم حتى يهاجم مكة ويستولي عليها^(٥) ترك حصن ينبع لنوابه واتجه إلى مكة^(٦) .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٣ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٢١ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٥ .

(٦) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٢٨ .

ولعل قتادة استنجد بالملك الكامل في مصر لأن أبا شامة يخبرنا أنه في سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦م وصل الخبر بتسلم نواب الملك الكامل لينبع من نواب قتادة حماية له من قاسم بن جمار الحسيني صاحب المدينة^(١).

ويبدو أن ما حدث في الحجاز كان نوعاً من التنافس والخلاف بين المعظم والكامل لم تظهر بوادره إلا بعد وفاة والدهم العادل^(٢).

وأراد الشريف قاسم بن جمار الحسيني أن يواصل ضرباته ضد قتادة حتى يضعف من نفوذه فأغار على مدينة جدة سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦م فخرج إليه الشريف قتادة وهزمه^(٣).

وفي سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م قرر قتادة مهاجمة المدينة مرة أخرى كي يؤدب صاحبها ويخضعه لنفوذه وسلطانه فحشد قوات كثيرة ، وسار من مكة إلى المدينة ونزل بوادي الفرع^(٤) لكنه مرض فأناب عنه أخاه على الجيش وجعل معه ابنه الحسن للاستيلاء على المدينة المنورة^(٥) فلما بلغ الجيش منتصف الطريق اجتمع أخو قتادة برؤساء الجيش ، وأخبرهم بمرض

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ٩٢ - القاهرة ١٩٤٧م ، الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٤ - ٤٥ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٥٧ .

(٢) يذكر الدكتور سعيد عاشور أن المعظم عيسى بدأت أطماعه تظهر واضحة سنة ٦٢٠ - ٦٢١ هـ حين أراد أن يتوسع في أملاكه على حساب أخويه الكامل ولأشرف وأقاربه ، ومن ذلك مهاجمته لحماة واستيلائه على بعض أعمالها مثل المعرة ، وسلمية من ابن عمه الناصر صلاح الدين . 'قلج أرسلان بما أغضب الأشرف والكامل ، فأرسل إليه الكامل يطلب منه الرحيل عن حماة فتركها غاضباً ، ويذكر أن هذا الحدث كان فاتحة الخلاف بين المعظم من ناحية وأخويه الكامل والأشرف من ناحية أخرى (سعيد عاشور : الأيوبيون والمالكي في مصر والشام ص ١٠٦) .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٥ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٢٣ ، المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٨٥ .

(٤) وادي الفرع بينه وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة (عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ حاشية ص ٢٦) .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٢٧ .

قتادة ، وأخذ منهم عهداً بمبايعته بالإمارة عقب وفاة أخيه^(١) فلما علم الحسن بن قتادة أن عمه أخذ العهد لنفسه بالإمارة بعد أبيه وثب على عمه ، وقتله أثناء الطريق^(٢) وعلم قتادة بمقتل أخيه على يد ابنه فأقسم ليقتل ابنه قوداً أي قصاصاً في أخيه^(٣) .

- مقتل قتادة واستيلاء ابنه الحسن على الإمارة :

لما قتل الحسن بن قتادة عمه ، وعلم بتهديدات أبيه ، عاد بالقوات إلى مكة وترك مهاجمة المدينة ، وأسرع إلى دار أبيه فوجد حشداً كبيراً من الناس كانوا يعودونه أثناء مرضه فأمرهم بالانصراف إلى ديارهم ، ودخل على أبيه الذي بادر بتأنيبه وتهديده بالقتل جزاء ما فعل فوثب على أبيه وخنقه^(٤) بمساعدة غلام ، وجارية له اشتركا معه في قتل أبيه ، وبعد أن قتله بادر بقتلهما حتى لا يكشفوا للناس سوء فعله ثم زعم للناس أنه قتلهم لقتل أبيه^(٥) .

ويخبرنا ابن الأثير أن الحسن بن قتادة خرج للحرم الشريف ، وأحضر الأشراف ، وقال لهم: « إن أبي اشتد مرضه ، وقد أمركم أن تحلفوا لي أن أكون أميركم » فحلفوا له^(٦) ، ونادى بنفسه أميراً على مكة ، ودعا للعباسيين والأيوبيين^(٧) .

وانتهت حياة قتادة بن إدريس العلوي الحسيني قتلاً على يد ابنه الحسن عن عمر يناهز التسعين سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م^(٨) وقد وُصِفَ بأنه أدهى وأشهر من ملك مكة من الأشراف الحسينيين ، وكان يخطب للخليفة العباسي الناصر وللأيوبيين ثم يخطب لنفسه بالأمير المنصور،

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٨٥ .

(٢) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

(٣) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٣٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٢٧ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٨٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٢٧ .

(٧) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٣٠ .

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٥٩ ، الذهبي : العبر ج ٣ ص ١٧٤ .

وقد دام ملكه نحو سبع وعشرين سنة ، وقد اشترى المماليك وجعلهم جنداً في بلاد الحجاز مما لم تعهده هذه البلاد من قبل ، وقد أثبت ذاته أمام الأيوبيين والعباسيين ، وقوي نفوذه في بلاد الحجاز حتى أطاعته التهائم والنجود^(١) .

- الصراع بين الحسن بن قتادة وأخيه راجح وأثره على النفوذ الأيوبي بالحجاز :-

لما استقرت الأمور بمكة للحسن بن قتادة الحسني أرسل إلى أخيه بقرية ينبع يستدعيه على لسان أبيه ، وقد كتم موت أبيه عنه ، فلما حضر أخوه قتله كي يستقر له الأمر^(٢) ويبدو أنه نسي أخاه الأكبر راجحاً ، أولم يكن يقدر خطورته ، فلم يعبأ به ، لكن راجحاً لم يلبث أن خرج عليه ونازعه الملك^(٣) فلما قدم ركب الحاج العراقي بقيادة أقباش بن عبد الله الناصري ، مملوك الخليفة الناصر العباسي قصده راجح بن قتادة الحسني وبذل له وللخليفة مالاً ليساعده على ملك مكة^(٤) .

وقد اختلف المؤرخون في موقف أقباش الناصري من طلب راجح بن قتادة الحسني .

فقد ذكر ابن الأثير أنه أجاب طلب الأمير راجح واتجه معه نحو مكة ، ونزلوا بالزاهر فحشدوا صفوفهم ، ونظموا قواتهم ، ثم ساروا لقتال الحسن بن قتادة الحسني وكان قد جمع جموعاً كثيرة من الأعراب وغيرهم من أنصاره ، واستعد للنزال ، فلما التقوا اشتد القتال بينهم فخرج أقباش من بين يدي عسكره منفرداً^(٥) وصعد الجبل إدلالاً بنفسه ، وظناً منه أن لا يقدم عليه أحد فأحاط به أصحاب حسن بن قتادة الحسني وقتلوه^(٦) .

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٨٧ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٨٦ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٨٠ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٤٢٦ .

(٦) المصدر السابق .

بينما يذكر آخرون أن أقباش وصل ومعه تقليد وخلعة بالإمرة للحسن بن قتادة الحسيني فاجتمع به أخوه راجح وسأله الولاية لنفسه ، فلم يجبه ، واصطحبه إلى مكة فظن الحسن أن أقباش وافقه ، وشب قتال بين الحسن وأنصار أخيه ، فركب أقباش ليسكن الفتنة ويصلح بين الأخوين فخرج إليه أصحاب الحسن وأحاطوا به وقتلوه ، فانهزم أصحابه عنه^(١) .

والحقيقة أن ما ذكره ابن الأثير هو الأقرب إلى الصواب لأن العباسيين كانوا دائماً ما يميلون إلى الشخصية الضعيفة في الحجاز حتى يسهل السيطرة عليها ولا تخرج عن نفوذهم ، وهم بالطبع رأوا ما فعله الحسن مع عمه وأبيه وأخيه ، ما يظهر أن شخصيته قاسية يصعب التعامل معها ؛ لذا مالوا إلى مساعدة راجح وكانت النتيجة هزيمتهم ومقتل أمير الحاج العراقي أقباش الناصري .

بعد مقتل أقباش أحاط أصحاب الحسن بن قتادة الحسيني بالحجيج لنهبهم وسلب أموالهم فمنعهم أمير حاج الشام المبارك إبراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد وخوفهم من الأخوين الكامل والمعظم عيسى ملكي مصر والشام فأجابوه وكفوا عن الحجيج^(٢) خوفاً من الأيوبيين وأرسل الحسن بن قتادة عمامته أماناً للحاج فعاد أصحابه عنهم ، ولم ينهبوا منهم شيئاً^(٣) وأذن لهم الحسن بن قتادة بدخول مكة المكرمة وتأدية مناسكهم فأقاموا بمكة عشرة أيام ثم رجعوا إلى العراق سالمين .

وعظم الأمر على الخليفة العباسي عندما علم بمقتل أقباش ، فلم يخرج إلى لقاء الحاج لكن الحسن بن قتادة أرسل إلى الخليفة معترفاً طالباً العفو فقبل الخليفة اعتذاره وعفا عنه^(٤) .

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٢٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٣٠ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٧٨ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٨١ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٨٧ .

(٤) المصدر السابق .

وهرب راجع بن قتادة إلى اليمن بعد هزمته من أخيه الحسن ولجأ إلى المسعود صاحب اليمن يطلب عونه على أخيه ، فاستجاب له وقدم إلى مكة وبقدومه صارت مكة تتبع الأيوبيين تبعية مطلقة وهذا ما سوف تتناوله الصفحات التالية .

مكة والتبعية المطلقة للأيوبيين

لم يكن راجح بن قتادة الحسني أقل من أخيه الحسن عناداً وجرأة ، فأبى أن يترك ثأره من أخيه بعد هزيمته واتجه إلى الملك المسعود^(١) الذي كان يحكم اليمن باسم أبيه الملك الكامل^(٢) ، وطلب مساعدته ، فانتهاز المسعود هذه الفرصة لمد نفوذه على مكة بالإضافة إلى اليمن وأجابه إلى طلبه .

استيلاء الملك المسعود على مكة :

سار الملك المسعود في سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م على رأس جيش كبير من اليمن إلى مكة مصطحباً معه الشريف راجح بن قتادة الحسني لقتال أخيه الحسن ، الذي تفرق عنه الأشراف والمماليك من أتباع أبيه ، وتركوه لفظاظته وسوء فعالة فضعفت قواه^(٣) لكنه تجهز في قوة من بقية أتباعه والتقى الفريقان بالقرب من المسعى بين الصفا والمروة فدارت بينهما معركة انتهت بهزيمة الحسن وفراره من مكة^(٤) هارباً من جيش الملك المسعود الذي قام على إثر ذلك بنهب مكة المكرمة ، لكن المسعود نادى بالأمان وأوقف النهب وسفك الدماء^(٥) بعد أن سيطر على مكة سيطرة كاملة .

وفي موسم الحج دفع المسعود بجيشه إلى عرفات ، ومنع أعلام الخليفة العباسي أن تتقدم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل الأيوبي^(٦) .

(١) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٨٧ .

(٢) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٣٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٣٥ .

(٤) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١٠ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

(٥) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٨٨ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٦ .

وقال لأصحابه : « إن رفع علم الخليفة فاكسروه »^(١) وكاد أمير الحاج العراقي أن يشتبك معه لكنه شعر بقلّة جنده ، وأنه لا قبل له بقوات المسعود الذي سمح برفع راية العباسيين قبيل غروب يوم عرفة^(٢) .

وظل المسعود على أمره في مكة إلى انتهاء موسم الحج وقد خطب لوالده السلطان الملك الكامل الأيوبي كما ضرب الدراهم المسعودية التي تنسب إليه^(٣) وصارت مكة تتبع الأيوبيين بعد أن تولى المسعود أمرها .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الملك المسعود قام بأفعال مشينة في مكة ، وعلى رأس أولئك المؤرخين سبط بن الجوزي فقالوا إنه وجنوده نهبوا مكة حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم ، وأن المسعود كان يصعد على زمزم فيرمي حمام الحرم بالبندق ، ويستخف بحرمة الكعبة ، وأنه أكثر من سفك الدماء ، وكان إذا نام بالقرب من المسعى ضرب حراسه المسممين وهم يسعون بأطراف السيوف قائلين لهم اسعوا قليلاً قليلاً فإن السلطان نائم سكران في دار السلطنة فأخذ الدم يسيل من سيقان الناس^(٤) ويبدو أن هذه الأقوال مبالغ فيها والدليل على ذلك ما يلي :

أولاً : حين قام عسكر المسعود بنهب مكة أسرع المسعود بوقف النهب وسفك الدماء ، ونادى بالأمان في الناس^(٥) .

ثانياً : أنه رد على أهل الحجاز ما أخذه منهم الحسن بن قتادة الحسني من الأموال والنخيل والدور بمكة والوادي^(٦) .

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦١١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٩٤ .

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦١١ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٣٥ ، ابن الفوطي : الحوادث

الجامعة ص ١٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٣٥ .

(٥) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٨٨ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ١٧٠ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٣٥ .

ثالثاً : يسر على الحجاج أمر دخول الكعبة فأمر بأن يفتح بابها ليلاً ونهاراً مدة مقام الحاج فيها وأعطى سدنة الكعبة من بني شيبه أموالاً مقابل ما كاتوا يأخذونه بإغلاق الباب وفتحه لمن أراد تحاشياً لزحام الناس ولتقصير المدة التي كانوا يفتحون فيها الباب وعظم ما يناله الناس من إرهاق وضرب وموت ، وقد عاد الشيبيون لما كاتوا يفعلون بعد رحيل المسعود^(١) .

رابعاً : قام ببناء القبة الموجودة على مقام إبراهيم عليه السلام^(٢) وكانت القبة قبل ذلك غير ثابتة ، فقد كانوا ينقلون حجر المقام إذا اشتد الزحام إلى داخل الكعبة أو أحد أركان المسجد^(٣) .

خامساً : كثرت الأرزاق بمكة في عهده ، وقلت حوادث السرقة فقد أربب المفسدين وشتت شملهم فأمنت الطرق والديار وخلت من الأشرار^(٤) .

سادساً : كثر جلب السلع إلى مكة من مصر واليمن في أيامه فرخصت الأسعار ، وسعد الناس^(٥) .

فمن يقدم على هذه الأعمال لراحة الحجاج والناس لا يستخف بحرمة الكعبة كما قال بعض المؤرخين ، وإنما يبدو أن هذه الأقوال مدسوسة عليه من خصوم الأيوبيين ، وربما من العباسيين الذين ساءهم أن يتولى الأيوبيون أمر الحجاز دونهم ففي عهد المسعود لم يعد للعباسيين نفوذ هناك ، ويؤيد قولنا هذا أيضاً رفض الخزرجي ما نقله عن سبط بن الجوزي عندما أخبرنا بقصة خروج المسعود من اليمن إلى مصر فقال : « إنه تجهز بجهاز عظيم لم يسبقه إليه ملك ، حتى قيل إن المراكب التي حملت أمتعته سبعين مركباً فيها ألف خادم ومائة قنطار عنبر ، وعود ، وسبعون ألف ثوب ومن الجواهر واللاكن والأحجار الكريمة ما لا ينحصر »^(٦) ثم قال : « وعدد

(١) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٥ .

(٣) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٣٣ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٣٥ ، العقد الثمين ج ٧ ص ٤٩٣ .

(٥) المصدران السابقان .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤١ .

ابن الجوزي الأصناف التي سافر بها وعظمها حتى أن السامع لا يكاد يصدق بها ولهذا تركت ذكرها ^(١) وعن قول ابن الجوزي أن المسعود كان ظالماً شديداً الظلم سفاكاً للدماء حتى قيل أنه قتل في اليمن ثمانمائة شريف من أولاد الحسينيين ، يقول الخزرجي هذا شيء لا يقبله العقل ولا يصدق النقل ، ولا يوجد في اليمن كله من أعيان الأشراف الحسينيين مائة رجل ، ولا ذكر هذا ولا ما يشابهه أحد من علماء التاريخ باليمن ^(٢) .

- موقف الخليفة العباسي من أحداث مكة :

لما علم الخليفة العباسي في بغداد بما حدث من المسعود في مكة كتب إلى صاحب مصر الملك الكامل الأيوبي والد المسعود يعاتبه على فعل ابنه ، فاضطر الكامل إرضاء للخليفة العباسي أن يكتب إلى ابنه يعنفه ويشدد اللوم عليه ^(٣) قائلاً له : « برئت يا أقسى من ظهر العادل إن لم أقطع يمينك فقد نبذت وراء ظهرك دينك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ^(٤) إلا أن ذلك لم يغير من سياسة الملك المسعود الذي استقرت له الأمور في مكة . مما يدل على رضا الكامل عما فعل ^(٥) .

- محاولة الحسن بن قتادة الحسني استرداد مكة :

بعد أن استقرت الأمور في مكة للأيوبيين ، قفل الملك المسعود راجعاً إلى اليمن في سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م وأتاب عنه بمكة نور الدين عمر بن علي بن رسول وأمدّه بثلاثمائة فارس لمعاوضته فيها ^(٦) .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ص ٤٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٦ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٣٦ .

(٥) يذكر الدكتور عبد المجيد بدوي أن تتابع الحوادث بعد ذلك وصمت الكامل تجاهها ، وقيام المسعود بزيارة لأبيه في القاهرة بعد استيلائه على مكة يؤكد أن الملك الكامل كان على علم بما أقدم عليه ابنه ، وأنه باركه ، وإلا لما جرؤ المسعود على القيام بهذه الخطوة (العلاقات المصرية الحجازية ص ٨٠) .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٩٦ ويذكر ابن الفوطي أن المسعود بعد أن ولي مكة نائباً عنه ظل يتردد عليها دائماً للاطمئنان على أمورها (ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ١٢) .

وظل نائبه في مكة يدعو له ولأبيه الكامل في مصر^(١) .

ولما رحل المسعود عن مكة حاول الحسن بن قتادة استعادة الإمارة والسيطرة على مكة فجمع بعض أتباعه من أشراف بني الحسن في ينبع ، وسار بهم إلى مكة حيث التقى بنائب المسعود نور الدين عمر بن رسول وجيشه ، فانهزم الحسن ، وخرج من مكة مدحوراً^(٢) واتجه نحو الشام ربما ليجد مساعدة من أصحابها هناك ، ولما لم يجد ناصراً أو معيناً بها اتجه إلى العراق لعله يجد طلبه هناك ، فلما وصل إلى بغداد وجدهم غاضبين عليه ؛ بل يذكر المؤرخون أن أهل بغداد هموا بقتله قوداً بأقباش الناصري أمير الحاج العراقي الذي قتله أصحاب الحسن بمكة ، ويبدو أنه مرض وعاجلته المنية قبل أن يقتلوه^(٣) ودفن في مشهد الإمام موسى الكاظم هناك سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م^(٤) .

- استيلاء الأيوبيين على قلعة ينبع :

لما وجد الأيوبيون أن أشراف بني الحسن يتخذون من ينبع قاعدة انطلاق لمهاجمة مكة قرروا الاستيلاء عليها وإخراج بني الحسن منها لتأمين مكة وحمايتها منهم فقد ذكر المؤرخون أن المصريين أرادوا شراء قلعة ينبع من الأشراف بأربعة آلاف مثقال ، فامتنع الأشراف عن بيعها ورفضوا تسليمها لهم ، فاضطر الأيوبيون إلى أخذها عنوة ، ثم أقاموا لهم فيها نائباً يتولى أمورها ولم تزل تحت أيديهم إلى سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م^(٥) .

(١) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٣٤ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ١٧٠ .

(٣) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة (٤٧) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ١٧٠ - ١٧١ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٤٢ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ١٧١ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٥٨ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٦٩ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٦ ص ٣٤٧ .

- أشرف المدينة المنورة يحاولون الاستيلاء على مكة :

غضب أشرف المدينة لاستيلاء الأيوبيين على مكة وطردهم أبناء عموماتهم من الأشراف الحسينيين ، فعملوا على استردادها من الأيوبيين وإعادتها للأشراف الحسينيين مرة أخرى ففي سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م قدم قاسم بن جواز الحسيني أمير المدينة المنورة للاستيلاء على مكة ، وطرد نواب الملك الكامل منها ، لكنه لم يستطع أن يدخلها ففرض عليها حصاراً استمر نحو شهر ، لكنه قتل أثناء الحصار وعادت قواته إلى المدينة^(١) .

وتولى إمرة المدينة شيحة بن هاشم بن قاسم الحسيني بعد مقتل ابن عمه قاسم بن جواز الحسيني فأعاد العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين الأشراف الحسينيين وبين الأيوبيين^(٢) .

- استتقرار الأمور في مكة للملك المسعود :

استقرت الأمور في مكة ، وصارت ولاية تابعة للأيوبيين يعينون ولاتهم عليها بعد أن خلعوا حكامها من الأشراف الحسينيين الذين ظلوا يحكمونها أكثر من قرنين ونصف من الزمان عندما استقل جعفر بن محمد الحسني بمكة سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م وخلع طاعة العباسيين وخطب للفاطميين .

وقد استمر نور الدين عمر بن رسول نائباً على مكة من قبل الملك المسعود إلى أن استدعاه إلى اليمن وجعله أتابكه ، وقائد جنده^(٣) وأتاب بمكة بعده الأمير حسام الدين ياقوت ابن عبد الله المسعودي ، وكان يلقب نفسه أمير الحاج والحرمين ومتولي الحرب بمكة ، ومدير أحوال الأجناد بها وما حوت من الرعية^(٤) .

(١) المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢١٩ ، عمر بن قهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٣٩ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٥ ص ٢٣ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٣ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٢٥ ويذكر أنه وجد هذه الترجمة في عقد بيع لدار بمكة باعها ياقوت بنفسه لحاجة الجند بمكة إلى المال حيث لم يكن في بيت المال فائض من ذهب أو فضة ولا غلال ولا خراج

بعد أن استتبت الأمور للمسعود في مكة واليمن قرر المسير إلى مصر سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م لزيارة والده الملك الكامل وترك نور الدين عمر بن رسول نائباً عنه نيابة عامة باليمن ، وترك أخاه بدر الدين الحسن بن رسول على صنعاء وحلف لهم الجند المقيمون هناك^(١) ثم توجه إلى مكة للاطمئنان على سير الأمور بها وغادرها عن طريق عيذاب إلى مصر^(٢) ، لكن المسعود لم يلبث أن عاد إلى مكة في طريقه إلى اليمن^(٣) حين علم باضطراب الأمور هناك^(٤) على نائبه نور الدين عمر بن رسول وأخيه بدر الدين الحسن^(٥) فلما وصل اليمن ألقى القبض

ولا أعشار حاضرة ينفق عليها منه كما ذكر في مکتوب البيع الذي وقع عليه الأمير حسام الدين ياقوت بنفسه سنة ٦٢٥هـ ويبدو أن المسعود علم بحاجة مكة إلى الأموال فقدم إليها في العام التالي سنة ٦٢٦هـ بأموال كثيرة وأمتعة .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٣ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٩٧ .

(٢) لما وصل المسعود إلى مصر امتدحه الشاعر المصري البهاء زهير بقصيدة مطلعها :

لكم أينما كنتم مكان وإمكان وملك له تعنوا الملوك وسلطان
ومنها

ضريت من العز المنيع سرادقاً وأنتم له بين السماكين سكان
قدمت قدوم الليث والليث باسل وجئت مجئ الغيث والغيث هتان
وما برحت مصر إليك مشوقة ومثلك من يشتاقي لقياء بلدان
فحسبك قد وافاك يا مصر يوسف وحسبك قد وافاك يا نيل طوفان

(عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٤١) .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٢٠ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٤١ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٩ .

(٥) حينما خرج المسعود من اليمن قام رجل يدعى : « يزعم الصوفي » وصار يدعو لنفسه أنه الإمام الحق فانضم إليه جمع غفير من الناس فسار إليه نور الدين ومعه قائد راشد بن مظفر فقال الصوفي لأتباعه : « إن قاتلونا في غد هزمناهم وقتلنا راشد بن مظفر » فوقع القتال كما قال اتفاقاً فازدادت محبة الناس له ، وفر نور الدين من أمامه ، ولجأ إلى ذروان واستنجد بأخيه بدر الدين في صنعاء فلما علم أتباع الصوفي بقدوم بدر الدين تفرقوا عنه ، وكان قد ظهر لهم كذبه ، وفساد مذهبه ، كما انتهز أشراف اليمن هذه الفتنة فخرجوا بزعامة عز الدين محمد بن حمزة - وكان المسعود قد استولى على حصون وممتلكات أبيه - يحاولون الاستيلاء على صنعاء فاستمات بنو حاتم في الدفاع عنها بقيادة الأميرين سالم بن علي بن

على أسرة بني رسول وهم بدر الدين حسن بن علي ، وفخر الدين بكر بن علي ، وشرف الدين موسى بن علي وأودعهم السجن^(١) .

وكان القبض على أولاد علي بن رسول بتوجيه من أخيه نور الدين وسبب ذلك أن الملك المسعود حينما عاد إلى اليمن سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م أنبأ نور الدين أنه سيعود إلى مصر ، ويتركه نائباً عنه في اليمن ، فأخبره نور الدين أنه لا يستطيع حفظ اليمن مع وجود إخوته به فسجنهم المسعود ثم أرسلهم إلى مصر^(٢) .

وسبب عودة المسعود إلى الديار المصرية هو وفاة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق^(٣) إذ كتب إليه والده الملك الكامل يستدعيه ليعطيه دمشق ، ففرح فرحاً شديداً حتى أنه سافر ، وقد ابتداءً به المرض^(٤) وترك المسعود نور الدين عمر بن رسول نائباً عنه باليمن^(٥) ومر بمكة في طريقه إلى مصر وقد اشتد عليه المرض فمكث بها فأحس بدنو الأجل .

ويسوق المؤرخون قصة مضمونها أن المسعود أوصى ألا يجهز بشئ من ماله ؛ بل يسلم إلى رجل من المجاورين يقال له صديق بن بدر بن جناح من أكراد إربل - وكان من كبار الصالحين - فلما مات المسعود تولى الشيخ صديق أمره فكفنه في إزار كان قد أحرم فيه بالحج والعمرة سنين عديدة ، وجهزه تجهيز الفقراء على حسب قدرته ، كما أوصى المسعود ألا يبنى

حاتم وعلوان بن بشر بن حاتم حتى قدم عليهما نور الدين بن رسول وأخاه بدر الدين الحسن فتمكنوا من هزيمة الأشراف وقتل عدد كبير منهم . (انظر : الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٣٤-٣٥) .

(١) المصدر السابق ص ٣٩ .

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ٢٠٦ .

(٣) لما توفي الملك المعظم عيسى وتولى ابنه داود ذهب الملك الكامل إلى دمشق ، وأكره ابن أخيه على ترك دمشق وأعطاه بدلاً منها الكرك وأعمالها بالإضافة إلى الصلت والبلقاء والأغوار ونابلس وبيت جبريل

(المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٣٥) .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٤٠ .

(٥) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٣٧ .

على قبره شئ ؛ بل يدفن في جانب المعلاة - جبانة مكة - وكتب على قبره (هذا قبر الفقير إلى رحمة الله « يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ») فتم له ذلك^(١) بعد أن توفي سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م^(٢) .

لما علم الكامل بوفاة ابنه المسعود اشتد حزنه عليه وتسلم محاليكه وخزائنه وأولاده وعين الأمير طغتكين بن عبد الله الكامل نائباً عنه بمكة^(٣) ويخبرنا ابن فهد أن طغتكين أنفق أموالاً كثيرة في مكة لاستمالة أهلها ، ثم جمع أشرافها وحلفهم ووثق منهم حتى لا يخرجوا على طاعته^(٤) .

وخلاصة القول أن الأيوبيين تمكنوا من فرض سيطرتهم التامة على مكة والمدينة بعد أن استولى المسعود على مكة واتخذ نواباً له من غير الأشراف على غير ما جرت به السياسة المتبعة من قبل ، بالإضافة إلى استيلاء الأيوبيين على مكة فقد استولوا على ينبع وطردها الأشراف منها وأخضعوا أشراف المدينة لهم وصار أمير المدينة تابعاً للأيوبيين يتلقى أوامره منهم كما سنرى في الفصل التالي .



(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٩٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٨٤ - دار صادر بيروت ١٩٧٧م ١٣٩٧هـ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٩٤ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٩٠ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦١٣ .

الفصل الثالث

القوى الخارجية المعارضة للحجاز وموقف الأيوبيين منها

الفصل الثالث

القوى الخارجية المعادية للحجاز وموقف الأيوبيين منها

مدخل :

في عهد الأيوبيين تعرض الحجاز لبعض القوى الخارجية التي حاولت النيل منه وسعت لبسط نفوذها عليه وتتمثل هذه القوى في :

أولاً : الصليبيون الذين حاولوا غزو المدينة المنورة بهدف بسط سيادتهم على البحر الأحمر ، والاستيلاء على طريق الحج البحري والسيطرة عليه وضرب المسلمين في مقدساتهم .

ثانياً : بنو رسول الذين استقلوا باليمن عن الأيوبيين وحاولوا بسط نفوذهم على الحجاز وقد نجحوا في ذلك أواخر عهد الأيوبيين .

وهذا الفصل سيعرض لمحاولات هذه القوى بسط نفوذها على الحجاز ، ورد الفعل الأيوبي تجاه هذه المحاولات .

أولاً : المحاولات الصليبية لغزو المدينة المنورة

تعرضت المدينة المنورة لخطر الصليبيين أكثر من مرة^(١) ، ففي عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م تجرأ أحد الأمراء الصليبيين واسمه في المصادر العربية (أرناط)^(٢) صاحب إمارة الكرك الواقعة شرق البحر الميت على القيام بحملة ضد المسلمين ، كان الغرض منها غزو بلاد الحجاز ، وبسط سيادة الصليبيين على البحر الأحمر ، وتحويل التجارة إلى الموانئ الصليبية في خليج

(١) كانت المحاولة الأولى في عهد نور الدين محمود سنة ٥٥٧ هـ حين حاول الصليبيون سرقة رفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المدينة المنورة فيسوق المؤرخون قصة مضمونها أن نور الدين محمود رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - في منامه ثلاث مرات وهو يقول له : يا محمود أنقذني من هذين الشخصين لرجلين أشقريز تجاهه فأحضر وزيره وأخبره بما رأى فأشار عليه بالذهاب إلى المدينة المنورة ، فتجهز وخرج على عجل نقدار ألف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة على غفلة من أهلها فلما زار طلب الناس عامة للصدقة ، وقال لا يبقى في المدينة أحد إلا جاء ليأخذ الصدقة ، فلم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان في الناحية التي تقابل حجر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب التي تعرف اليوم بدار العشرة - رضي الله عنهم - فجد في طلبهما حتى حضرا فلما رآهما قال للوزير هما هذان فسألهما عن حالهما ، وما جاء بهما فقالا لمجاورة النبي - صلى الله عليه وسلم - فكرر السؤال عليهما حتى أفضى إلى العقوبة فأقرا أنهما من النصارى وصلا لكي ينقلا النبي - صلى الله عليه وسلم - من هذه الحجرة الشريفة ووجدهما قد حفرا نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلي فضرب أعناقهما عند الشباك الذي يقع شرقي حجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - خارج المسجد ثم أحرقا ، وأمر بإحضار رصاص وصبه وملأ الحفرة به (انظر : ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ٤ ص ٢٣٠ ، القرمانلي : أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٨٠ ، السهمودي : الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٢٩) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٠١ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١٠٥ ، المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٤٩ ، العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص ٢١٣ ، ويسمى أرناط في المصادر الأجنبية ريجنالد دي شاتيون Reginald of Chatillon رينو دي شاتيون (انظر : البير شاندور : صلاح الدين ص ١٦٣ ، عزيز سوريال : الحروب الصليبية ص ٥٤ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٥٦) .

العقبة ، وضرب المسلمين في مقدساتهم ، والاستيلاء على طريق الحج البحري والسيطرة عليه^(١) ، فجمع أرناط عساكره ، وعزم المسير على تيماء^(٢) والتوجه منها إلى المدينة المنورة للاستيلاء عليها^(٣) ولما علم بذلك عز الدين فرخشاه نائب صلاح الدين الأيوبي بالشام^(٤) انطلق بالعسكر الدمشقي إلى الكرك وهاجمها وأخذ ينهب ويخرب ، وظل مرابطاً تجاه القوات الصليبية ، ولما أدرك أرناط إصرار المسلمين على البقاء حتى يتفرق جمعه رجع عن عزمه لحماية إمارته ، وأثناء عودته استولى على قافلة للحجاج كانت متجهة من دمشق جنوباً في طريقها إلى مكة ، إذ أن هذه القافلة لم تتردد في عبور الأراضي الخاضعة للفرنج ثقة منهم بالهدنة المعقودة بين بلدوين الرابع وصلاح الدين ، لكن أرناط خان التعهد ، وأسر الحجاج وأخذهم إلى حصنه في الكرك واستولى على أموالهم والأضاحي المخصصة للكعبة^(٥) .

ووجه صلاح الدين احتجاجاً شديداً إلى ملك القدس طالباً منه إطلاق سراح الدمشقيين وإعادة القافلة ، بما تحمله من ركاب ، وسجاد وذهب ، وخمسة وعشرين قنطاراً من الشموع المنهوبة وغيرها ، فأرسل الملك إلى أرناط يأمره أن يعيد كل ما أخذه لكنه أبى ولم يصدع بالأمر^(٦) وحدث آنذاك أن قذفت الأمواج على الشاطئ المصري مركباً كبيراً للفرنج^(٧) كان على متنه ألفان وخمسمائة راكب في طريقهم لزيارة القدس فألقتهم الريح على ثغر دمياط ففرق عدد كبير منهم ، وأسر الباقون ، وكان عدد الأسرى الفرنج ألفاً وستمائة وستة وسبعين

(١) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ٦٣ - ٦٤ ، الناصر صلاح الدين ص ١٤٣ ، عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين ص ١٠٨ .

(٢) تيماء واحة لها أهميتها لوقوعها في منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة على طريق حاج الشام دمشق (ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٧) .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١٠٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٠١ .

(٥) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبي ص ١٦١ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) المصدر السابق .

نفساً^(١) رداً على أسر أرناط للحجاج المسلمين .

وفي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م فكر أمير الكرك أرناط في مهاجمة مكة والمدينة مرة أخرى ونتيجة لفشله في عبور الصحراء ، ومهاجمة المدينة في المرة الأولى عزم هذه المرة على مداومة الأماكن الإسلامية المقدسة بحراً عبر الساحل الغربي فوضع أسطولاً في البحر الأحمر^(٢) على طريقة القراصنة كما وصفه أحد المؤرخين الغربيين بقوله : « إن الأفاق لم يتردد في تحويل فرسانه إلى قراصنة ، وحملهم على مهاجمة السفن الإسلامية الماخزة عباب البحر الأحمر معرقلين تجارتها ، قاطعين طريق الحج بين أفريقية وآسيا »^(٣) .

ومما لا شك فيه أن استيلاء صلاح الدين على أيلة كان يمكنه من تهديد الشوك والأراضي الصليبية في وادي عربة ، ولما كان من الصعب على الصليبيين الاحتفاظ بأيلة دون السيطرة على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) المواجهة لها في خليج العقبة ، فكر أرناط في الاستيلاء على هذه الجزيرة ضمن خطته^(٤) التي بدأها ببناء خمس سفن كبرى للنقل ومراكب خفيفة وسريعة حملت اجزاؤها على ظهور الجمال إلى شواطئ البحر الأحمر ، وهناك جمعت وشحنت بالذخائر ، والمؤن ، والرجال ، وبعد أن سلحت بدأت أعمالها^(٥) بالاستيلاء على القلعة، ومنعت الماء عن أهلها^(٦) وسارت بقية السفن نحو عيذاب فقتلوا وأسروا كثيراً من المسلمين ، وأحرقوا في بحر القلزم نحو ستة عشر مركباً ، وأخذوا بعيذاب مركباً يأتي بالحجاج من جدة، وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع ، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة

(١) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص ١٩٤ .

(٢) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبي ص ١٦٤ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ١٦٦ .

(٥) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبي ص ١٦٤ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢٧ .

الحرمين^(١) ثم توجهوا إلى سواحل الحجاز ، وأغاروا عليها^(٢) فعظم البلاء وأعضل الداء^(٣) وأشرف أهل المدينة منهم على خطر كبير^(٤) إذ لم يكن بين الصليبيين وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم واحد^(٥) وكان صلاح الدين الأيوبي منشغلاً بحصار مدينة الموصل^(٦) .

وحينما علم صلاح الدين بالهجوم الصليبي أصدر أوامره إلى أخيه العادل كي يسرع بحماية الحرمين الشريفين فأمر العادل بأن تفكك فوراً السفن المائتان التي كانت تحمي مدخل ميناء دمياط ، وأن تنقل برأً إلى القلزم (البحر الأحمر) حيث أعيد تركيبها وتسليحها ووضعت في البحر وجمع في الوقت ذاته بحارة شديدي البأس بالغى الشجاعة بقيادة حسام الدين لؤلؤ قائد الأساطيل بالديار المصرية فبدأ بأسطول الفرنج الذي يحاصر أيلة فمزقه شر ممزق ، وبعد الانتصار عليهم أقلع يطلب الآخرين ، وانتهى إلى عيذاب فلم يجدهم فعاد إلى رابغ فوجدهم بساحل الحوراء^(٧) فأوقع بهم وأطلق الأسرى من التجار ورد عليهم ما أخذ منهم من الأموال والمتاع^(٨) ثم نزل إلى البر وسار وراء المنهزمين منهم فحصرهم في شعب لا ماء فيه وأسره جميعاً^(٩) إلا أرناط فقد استطاع الفرار والهرب دون أن يعرف أحد كيف تسنى له ذلك^(١٠) .

(١) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٩ ، ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٦٤) .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢٧ .

(٤) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص ٢١٣ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ٣٥ .

(٦) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص ٢٠٧ .

(٧) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٨) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص ٢١٣ ، ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٦٤) .

(٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(١٠) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبي ص ١٦٦ .

أخذ حسام الدين لؤلؤ الأسرى ، وقد أهل موسم الحج فاقتاد اثنين منهم إلى منى لينحروا بها كما ينحر الزهدي جزاء تجرئهم على حرم الله ، وحرم رسوله^(١) وعاد بالباقيين إلى مصر^(٢) .

ولقد وصف ابن جبير وصول هؤلاء الأسرى إلى مصر عند زيارته لمدينة الاسكندرية في أوائل ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ / إبريل سنة ١١٨٢م بأنهم « أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذنانها ، وحولهم الطبول والأبواق »^(٣) .

وقد كتب الملك العادل إلى أخيه صلاح الدين يعرفه ذلك فورد عليه كتابه يأمره بضرب رقاب الأسرى جميعاً ، ولا يبقى منهم أحداً^(٤) نتيجة فعلتهم الشنعاء وحتى يكونوا عبرة لغيرهم من الصليبيين فلا يتجرأ أحد منهم بعد ذلك في الهجوم على الحرمين الشريفين ، وهكذا استطاع الأيوبيون حماية الحرمين وإعطاء الصليبيين درساً لا ينسى ، وقد ظل صلاح الدين حريصاً على أمن البحر الأحمر وحماية بلاد الحجاز من الخطر الصليبي ، كما ظل حريصاً على أن تبقى تجارته في يد التجار المسلمين دون غيرهم ولم يكن يسمح بتهه . هذا الأمن .

وكتب القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي على لسان صلاح الدين يخبره بهذا النصر ويقول : « .. وكان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً واقتنصوا من البحر بكرة وعمروا مراكب وشحنوها بالمقاتلة والأزواد وضربوا بها سواحل تهامة وأوغلوا في البلاد ، وما ظن المسلمين إلا أن الساعة قد نشرمطوى أشراطها وطوى منشور بساطها ، فثار غضب الله لفنا بيته المحرم ومقام أنبيائه المعظم وضريح نبيه المفخم - صلى الله عليه وسلم - وزجر بفضل الله من قصده فلم يبق الله من العدو مخبراً ولا أثراً ، وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمراً »^(٥) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٥٠ ، تاريخ ابن الهيجاء لوحة (٢٦٤) .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٣٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢٨ .

(٥) ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٦٤) .

ثانياً : الصراع بين الأيوبيين وبنو رسول لبسط النفوذ على مكة

(٦٢٩ - ٦٥٠ هـ / ١٢٣١ - ١٢٥٢ م)

اشتد النزاع بين الأيوبيين وبنو رسول على مكة عقب وفاة الملك المسعود وقد توالى الحملات من الجانبين عليها ، ودارت معارك بين الطرفين تناوب فيها كل منهما الانتصار على الآخر وظل الحكم في مكة يتداوله ولاية ضعاف من الطرفين واستمر ذلك لفترة طويلة انتهت بسيطرة نور الدين عمر بن رسول على مكة حتى وفاته ، فاستقفل الأشراف بحكم مكة مرة أخرى وسنعرض لذلك بعد أن نعرف ببني رسول ودوافعهم للاستيلاء على مكة .

- بنو رسول ^(١) في اليمن :

توفي الملك المسعود في مكة بعد أن ترك نور الدين عمر بن علي بن رسول نائباً عنه على اليمن كله سهل ووعره ، بره وبحره ، وكان حسن السيرة ثاقب الرأي عاقلاً ^(٢) فأضمر في نفسه

(١) كان اسم رسول هو محمد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحى بن رستم التركماني الغساني من ذرية جبلة ابن الأيهم آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام فاتصل ببعض الخلفاء العباسيين ، وتقرب منهم فاختره بحمل رسائله إلى الشام ومصر فعرف برسول وترك اسمه الحقيقي حتى صار لا يعرفه بذلك إلا النادر من الناس ، ثم انتقل من العراق إلى الشام ومن الشام إلى مصر فبقي معه من أولاده واتصل بجماعة من بني أيوب بمصر فاتفقوا على تسيير ابنائه إلى اليمن بصحبة الملك المعظم توران شاه بن أيوب وقد استحلفهم له أخوه صلاح الدين الأيوبي ، وأوصاهم بحسن معاملته والنصح له فساروا معه إلى اليمن ، وكانوا خمسة رجال من بيت واحد هم : شمس الدين علي بن رسول ، بدر الدين الحسن بن علي ، نور الدين عمر بن علي ، فخر الدين أبو بكر بن علي ، شرف الدين بن موسى بن علي وفي عهد الملك المسعود تولى نور الدين اليمن نائباً عنه (انظر : الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٦-٢٩ ، الفاسي :

العقد الثمين ج ٦ ص ٣٣٩ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٩٥ - ٥٩٦) .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٤ .

الاستقلال باليمن ، لكنه تظاهر بالولاء والطاعة للأيوبيين فلم يغير السكة أو الخطبة^(١) وقام بإرسال الهدايا الثمينة إلى الملك الكامل متظاهراً بالخضوع والولاء وقال له « أنا نائب السلطان على البلاد »^(٢) حتى يطمئن له الأيوبيون فلا يعرقلون خطته للاستقلال ، وقد نجح في خداعهم حتى أبقى الملك الكامل عليه باليمن ولم يرسل أحداً غيره .

ولقد استغل نور الدين انشغال الملك الكامل بعدة أمور منها الصلح مع الفرنجة وتسليمه بيت المقدس لهم^(٣) ، وصراعه مع ابن أخيه الملك الناصر داود صاحب دمشق من أجل أن يأخذها منه^(٤) وطمع ابنه الصالح نجم الدين أيوب في الملك^(٥) .

لذا أسرع نور الدين في مباشرة تنفيذ خطته في الاستقلال باليمن عن الأيوبيين فأخذ يولى الحصون والمدن لأتباعه ممن يرتضيهم ويشق بهم ، وشرع في عزل كل من يخشى منه خلافاً ، ويادر بقتل أو سجن كل من أظهر عصياناً ممن يميلون إلى الأيوبيين^(٦) وعندما استقرت له الأمور في تهامة سار من زبيد قاصداً تعز وحاصرها حصاراً شديداً سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م وضيق على أهلها حتى أجهدهم فخضعوا له ، ثم تسلم صنعاء وأعمالها ، واقطعها لابن أخيه أسد الدين محمد بن بدر الدين الحسن^(٧) ، وأخذت حصون اليمن بعد ذلك تتساقط على يديه واحداً تلو الآخر^(٨) .

وفي سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م عقد نور الدين صلحاً مع أشراف اليمن على حصن ذمّر^(٩) .

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ٢٠٦ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٣٧ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٣٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٣٣ - ٢٣٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٣٨ .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٦ .

(٧) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٩٩ .

(٨) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٧ .

(٩) هؤلاء الأشراف هم الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة وأولاده ، والأمير شمس الدين أحمد بن الإمام وإخوته ، وهاس بن قاسم (المصدر السابق) .

وأقرهم على البلاد التي معهم بعد أن تعهدوا بمعاذته ومؤازرته ضد الأيوبيين^(١) .

وفي سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م أعلن نور الدين استقلاله باليمن ، وأمر بضرب السكة على اسمه ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له في سائر أقطار اليمن ، وتلقب بالملك المنصور^(٢) وفي سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م أرسل الهدايا إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله وطلب منه تقليده اليمن فأجابه إلى ذلك^(٣) وقيام دولة بني رسول سقطت دولة الأيوبيين في اليمن بعد حكم استمر ما يقرب من ستين عاماً من سنة ٥٦٩ - ٦٣٠ هـ / ١١٧٣ - ١٢٣٢ م .

ولا شك أن انشغال الأيوبيين بالمنازعات القائمة فيما بينهم التي وصلت إلى حد استعانة بعضهم بالصليبيين ضد بعضهم الآخر قد مهد لنور الدين عمر بن رسول السبيل للاستقلال بشئون اليمن .

- دوافع بني رسول للسيطرة على مكة :

بعد أن استقرت الأمور في اليمن لتور الدين عمر بن رسول بدأ يفكر في فرض سيطرته على مكة والحجاز ، لأسباب عدة من بينها :

أولاً : أن امتلاك بني رسول للأماكن المقدسة سوف يتيح لهم مركزاً مرموقاً بين المسلمين مما يؤدي إلى تثبيت أقدامهم في بلاد اليمن التي اغتصبوا ملكها من الأيوبيين .

ثانياً : أن مكة كانت من أملاك المسعود الأيوبي التي سعى نور الدين إلى السيطرة عليها وادعى أن المسعود أوصاه بالحفاظ على مكة إذا ما توفي وألا يمكن أحداً من الأيوبيين من السيطرة على شيء منه^(٤) .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٧

(٢) المصدر السابق : ص ٥١ .

(٣) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ٢٠٧ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٠ - ٤١ .

ثالثاً : أن الحملات التي سيرها الأيوبيون إلى اليمن من مصر كانت جميعها تفد إلى تلك البلاد عن طريق الحجاز^(١) ولذا يحتمل أن تكون محاولة بني رسول السيطرة على مكة والحجاز من قبيل تأمين بلادهم والتصدي لمثل هذه الحملات ومنعها من الزحف إلى اليمن^(٢).

وخلاصة القول أن نور الدين عمر بن رسول بدأ يفكر في فرض نفوذه على الحجاز حتى يضمن سلامة حكمه في اليمن ويؤمنه من المخاطر الخارجية ، إذا ما تعرض لانتقام الملك الكامل الأيوبي ، وقد خشي نور الدين أن يتعرض لمثل هذا الهجوم ، فلم ينتظر حتى تدهمه قوات الأيوبيين ؛ بل عمل على نقل المعارك خارج قاعدة ملكه باليمن إلى أملاك الدولة الأيوبية بالحجاز .

ونتيجة لهذا أخذ يرسل الحملات العسكرية على مكة الحملة تلو الحملة خوفاً من اتخاذها قاعدة للانطلاق نحو قواته في اليمن لمحاربتة وإسقاطه ، ولم ينجح في استبعاد الأيوبيين عن اليمن فحسب ؛ بل نجح أيضاً قبل وفاته ، في إبعادهم عن الحجاز وفرض نفوذه عليه بعد عدة حملات .

-الحملة الأولى لبني رسول على مكة :

بعد وفاة الملك المسعود خشي الملك الكامل على مكة فولى طغتكين بن عبد الله الكامل عليها ، وأمدّه بجيش لمساندته في ضبط الأمور هناك فقدم طغتكين إلى مكة واجتمع بأعيانها ، وأنفق عليهم أموالاً كثيرة ، وأخذ العهود والمواثيق عليهم بمؤازرته وطاعته^(٣) ثم قام بعدة إصلاحات في مكة بعد استقرار الأمور له ففي سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م أوقف رباطاً بمكة على الفقراء^(٤) ، وأوقف البيمارستان المنصوري العباسي بالجانب الشمالي من المسجد الحرام

(١) محمد عبد الفتاح عليان : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول باليمن ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٥ ص ٦٤ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦١٢ - ٦١٣ .

(٤) يذكر ابن فهد أن هذا الرباط هو بيت شمس الدين الأنصاري بالصفا (عمر بن فهد : اتحاف الوري ج ٣

ص ٤٨ - ٤٩) .

على معالجة الفقراء (١) .

ولم يهنأ طغتكين طويلاً لأن ابن رسول بعد استقرار أموره في اليمن، جهز جيشاً سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م بقيادة الأمير ابن عيدان ومصاحبة الشريف راجح بن قتادة الحسني الذي كان يسعى لإعادة حكم أسرته من الأشراف الحسنيين على مكة مرة أخرى وأمدهما ابن رسول بالأموال للاتفاق على الجند ، واستمالة أهل مكة وإغرائهم بالمال .

وعندما اقترب الجيش اليمني من مكة عمل ابن عيدان وراجح بن قتادة الحسني على استمالة المكيين إلى جانبهم ، فذكرهم راجح بإحسان نور الدين إليهم عندما كان والياً عليهم وما قام به من أعمال طيبة وصالحة فمالوا إليه (٢) .

وعندما شعر طغتكين بتخلي أهل مكة عنه ، ويضعف موقفه فضل تجنب الهزيمة والقتال، وألا يحاصر من الداخل والخارج ففر هارباً في مائتي فارس من فرسانه إلى وادي نخلة ، ومنها إلى ينبع التي اتخذها الأيوبيون ملاذاً ، وملجأ لهم عند الشدائد ووضعوا فيها الإمدادات الكافية من السلاح والغذاء ، ومن هناك أرسل إلى السلطان الكامل يخبره بما حدث ويطلب عونه ونجده (٣) .

أما الجيش اليمني فقد دخل إلى مكة ، وخطب فيها لنور الدين عمر بن رسول الذي بعث لهم الأموال والهدايا ، وجعل الشريف راجح بن قتادة الحسني نائباً عنه بمكة (٤) .

- الأيوبيون يستردون مكة من بني رسول :

لم يكن الملك الكامل ليقبل ضياع النفوذ الأيوبي في الحجاز وأغلب الظن أن طغتكين حينما بعث إليه بخبر هزيمته من بني رسول وخروجه من مكة أرسل إليه يطلب منه البقاء في

(١) عمر بن فهد : اتحاف الوري ج ٣ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٥ ص ٦٥ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٥٠ .

(٣) عبد العزيز : بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦١٣ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٧٤ .

مكانه إلى أن يصله جمع كبير من جنده بقيادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ^(١) ، وأرسل الكامل إلى كل من الشريف شيحة أمير المدينة المنورة ، والشريف أبي سعد أمير ينبع اللذين كانا في خدمته يأمرهما بالانضمام بقواتهما إلى جيش الأيوبيين كي يتعاونوا معاً على دخول مكة وطرد بني رسول منها^(٢) .

وسار الجيش إلى مكة بقيادة طغتكين بن عبد الله الكامل وحاصرها^(٣) ثم نشبت المعركة بين الجيشين فقتل ابن عيدان ، وعدد كبير من أهل مكة ، وهاقت الهزيمة بالجيش اليمني ، وفر الأمير راجح بن قتادة الحسني ، فدخل طغتكين مكة وأمر بنهب المدينة لمدة ثلاثة أيام ، وأخاف أهلها خوفاً شديداً ، فلما علم الملك الكامل بما فعله طغتكين غضب عليه ، وعزله عن إمارة مكة ، واستدعاه إلى مصر ، وأرسل إلى مكة المكرمة أميراً آخر يقال له ابن مجلي^(٤) فدخل مكة سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م^(٥) .

ومما لاشك فيه أن الملك الكامل خشي غضب أهل مكة لما فعله طغتكين بهم فقرر سحب جنوده منها إلى مصر ، فلما علم الشريف راجح بن قتادة بذلك جمع أتباعه وأنصاره وجاء إلى مكة فدخلها بدون قتال في أواخر سنة ٦٣٠ هـ وأخرج من كان بها من المصريين^(٦) لكن الملك الكامل لم يتركه يستقر بها إذ أرسل إلى مكة قوات أخرى من مصر بقيادة علاء الدين آق

(١) هو يوسف بن محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حموية المعروف بابن شيخ الشيوخ كان من رجال الملك الكامل، فلما توفي عمل وزيراً للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، وقام بتدبير الأمر من بعده لابنه المعظم توران شاه ، وقد قتل في المنصورة سنة ٦٤٧ هـ (الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٩٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦١٥) .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٠ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ٢٠٧ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦١٣ ، فريال محمود عباس : الحجاز في ظل الدولة الأيوبية ص ٢٣٥ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٥ ص ٦٥ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٠ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦٢٥ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٧٧ .

سنقر الزاهدي^(١) فدخل مكة في سبعمائة فارس ، وكان بها الشريف راجح بن قتادة الحسيني وعسكر لبنى رسول ففروا منها ودخلها علاء الدين الزاهدي دون قتال فأقام بمكة وحج بالناس ، ثم عاد إلى مصر تاركاً الأمير ابن مجلي بمكة في خمسين فارساً^(٢) .

الحملة الثانية لبنى رسول على مكة :

ظلت بلاد الحجاز تتأرجح بين آل رسول والأيوبيين واستمرت الحرب سجالاً بينهما إذ بالرغم من دخول الأيوبيين إلى مكة المكرمة ، وتولية ابن مجلي عليها فإن نور الدين عمر بن رسول عقد العزم على الاستيلاء عليها فأرسل عسكرياً آخر إلى مكة بقيادة الشريف راجح بن قتادة الحسيني سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م استطاع دخول مكة وإخراج الأيوبيين وابن مجلي منها^(٣) .

وفي نفس العام أرسل نور الدين عمر إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله هدية عظيمة وسأله أن يقلده بلاد اليمن^(٤) ليضفي على حكمه صفة الشرعية ويصير نداً للأيوبيين فأجابه الخليفة بأن التقليد والتشريف سيصلان إليه في عرفة بصحبة أمير الحاج العراقي ، فخرج نور الدين من اليمن إلى مكة ، لتأدية فريضة الحج وتعزيد نائبه بها الشريف راجح بن قتادة الحسيني واستلام التقليد بولاية اليمن ، فلما ذهب إلى هناك ، وأدى مناسك الحج لم يصل أحد من قبل العباسيين إلى مكة^(٥) .

لأن الأعراب هاجموا الحاج العراقي ، وقطعوا عليهم الطريق فعادوا إلى بغداد ، ولم يصل إلى مكة أحد منهم في ذلك العام فعاد نور الدين إلى اليمن حزيناً^(٦) .

(١) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٤ .

(٤) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ٢٠٧ .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٤ .

(٦) المصدر السابق .

وفي السنة التالية وصل رسول الخليفة بالتشريف والتقليد فأصبح السلطان نور الدين عمر بن رسول واليا على اليمن من قبل الخليفة العباسي المستنصر^(١) ولقب نفسه بالملك المنصور^(٢) وأرسل إلى مكة قناديل من ذهب وقضة للكعبة المعظمة فرحاً بهذه المناسبة^(٣).

ولما علم نور الدين عمر بن رسول بخروج جيش من مصر إلى مكة أرسل إلى نائبه بها راجح بن قتادة الحسني خزانة كبيرة من الأموال^(٤) بصحبة ابن البصري لكي ينفق منها على قواته بمكة ، وأوصاه باستخدام الفرسان وأن يكثر من الجند^(٥) لكن الجيش المصري داهمه بقوة كبيرة تتكون من خمسمائة فارس يتقدمهم الأمير أسد الدين جبرائيل^(٦) أو جفري^(٧) فدخلوا مكة دون مقاومة بعد فرار الشريف راجح وابن البصري ، ومن كان معهما من عسكر إلى اليمن^(٨) وعادت مكة مرة أخرى للأيوبيين ، وتولى الأمير أسد الدين جفري نائباً عن الملك الكامل الأيوبي^(٩).

- الحملة الثالثة على مكة :

استمر الأمير أسد الدين جفري نائباً عن الملك الكامل بمكة^(١٠) لكن الأمور لم تستقر له دون متاعب ، فقد أخذ يتصدى لمحاولات بني رسول لاسترداد العاصمة المقدسة ففي سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م أرسل نور الدين جيشاً إلى مكة بقيادة الشهاب بن عبد الله ومعه خزانة

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٥٥ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٥٣ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٥٥ .

(٤) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٥٠ .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٥٥ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦٢٦ .

(٧) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٥٠ .

(٨) الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٥٥ .

(٩) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٥٠ .

(١٠) المصدر السابق .

مال^(١) للإتفاق على الجند واستمالة أهل مكة إلى جانبه فخرج إليه الأمير جفريل بجنده ، وانتصر عليه ، وأسره مع جماعة كبيرة من أفراد جيشه ، وأرسله إلى القاهرة مقيداً^(٢) ولم تنجح هذه الحملة في دخول مكة .

- الحملة الرابعة بقيادة السلطان نور الدين والاستيلاء على مكة :

لم تثبط الهزائم المتكررة التي تعرض لها جند السلطان نور الدين بن رسول من عزيمته وإصراره في الاستيلاء على مكة فأعد جيشاً كبيراً بقيادته وزحف هذا الجيش من اليمن إلى مكة سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م عن طريق الساحل في ألف فارس وانضم إليهم الشريف راجح بن قتادة الحسني الذي أرسله ابن رسول في ثلاثمائة فارس ليكونوا طليعة جيشه إلى مكة^(٣) ووصلت أنباء هذه الحملة إلى الأمير جفريل عن طريق عيونته التي بثها لاستطلاع الأمر ، ولاشك أنه قدر الموقف حق قدره ، وعرف أنه لا قبل له بهذا الجمع الغفير الذي حشده ابن رسول لملاقاته ، بالإضافة إلى أنه تأكد من تخلي أهل مكة عنه ، وانضمامهم إلى قوات المنصور نور الدين بن رسول الذي أغراهم بالأموال ، واستمالهم إلى جانبه فما كان من جفريل إلا أن أسرع بما كان معه من الأحمال والأثقال وخرج من مكة بمن معه قبل وصول الجند اليمني بيومين^(٤) فلما وصل نور الدين إلى السرين أتاه كتاب الشريف راجح بن قتادة الحسني يخبره بفرار نائب السلطان الكامل أسد الدين جفريل بمن معه من عسكر المصريين^(٥) .

وقد عاد الأمير أسد الدين جفريل وقواته إلى مصر ماراً بالمدينة المنورة فلما وصلها جاءه الخبر بوفاة الملك الكامل الأيوبي^(٦) فبادر بالمسير إلى مصر^(٧) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٥٣ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج ٣ ص ٥٠ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٦١ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٤٣٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج ٣ ص ٥٣ .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٦١ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٤٣٤ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦٢٦ .

(٧) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج ٣ ص ٥٤ .

ودخل نور الدين إلى مكة معتمراً في رجب سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م وتصدق فيها بأموال كثيرة ، وجعل الشريف راجح بن قتادة الحسني نائباً عنه فيها^(١) ثم رحل إلى اليمن في سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م بعد أن ترك حامية من الجند لمساعدة نائبه تتكون من مائة وخمسين فارساً ، وجعل عليها اثنين من قواده هما ابن الوليدي وابن التغري^(٢) وقد خطب راجح للخليفة العباسي ، ولابن رسول^(٣) .

موقف الملك الصالح نجم الدين أيوب من بني رسول :

عقب وفاة الملك الكامل نشبت الخلافات بين أبنائه فأهملوا أمر الحجاز واستقرت الأمور لبني رسول ، إلا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب استطاع القضاء على الخلافات التي نشبت بعد وفاة والده ، وتولى الأمور في مصر والشام فبسط العدل في الرعية ، وأحسن إلى الناس ، وأخرج الصدقات^(٤) .

ولما استقر الصالح نجم الدين أيوب بمصر شرع يفكر في إعادة الأمور في الحجاز كما كانت من ذي قبل تحت سيطرة مصر ، فأعد عسكرياً قوامه ألف فارس ، وأمر عليهم الشريف شبحه ابن قاسم الحسيني أمير المدينة الذي قدم إلى مصر لتهنئته ، وطلب منه طرد اليمنيين من مكة ، فلما بلغ عسكر المنصور قدوم هذه القوات أخلوها وفروا هاربين فدخلها الشريف شبحه وملكها دون سفك دماء^(٥) .

واشتد التنافس بين الأيوبيين وبني رسول على تملك العاصمة المقدسة إذ حينما بلغت الأخبار الملك المنصور قرر استرداد إمارة مكة مرة أخرى فأرسل الشريف راجحاً إلى مكة في

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤة ج ١ ص ٦٢ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٧٨ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٨٤ - ٨٥ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٧٧ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٥٦ .

عسكر كبير بقيادة ابن النصيري ، ففر الشريف شيخة بمن معه ، وقدم القاهرة لإبلاغ الملك الصالح بما حدث^(١) .

وفي سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م أعاد الملك الصالح تجهيز جنده وأرسلهم مع الشريف شيخة واثنان من كبار القادة هما علم الدين الكبير ، وعلم الدين الصغير فاستطاعوا دخول مكة وطرد عسكر صاحب اليمن وحجوا بالناس هذا العام^(٢) .

وهكذا نلاحظ أنه رغم الحملات العسكرية المتعددة التي أرسلها بنو رسول إلى مكة فإنهم لم يستطيعوا الاستقرار فيها فقد تداول الحكم بها ولاية كل من الفريقين المتنافسين من الأيوبيين واليمنيين نحو عدة سنوات كان الولاية فيها ضعافاً لا يستطيعون حماية البلاد مما أدى إلى غلاء المعيشة وقلة الأرزاق

استيلاء بني رسول على مكة وانتهاء النفوذ الأيوبي بها :

ظل الأمل يراود ابن رسول في السيطرة على مكة فجهز في سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م جيشاً إلى مكة المكرمة بصحبة الشريف راجح بن قتادة الحسني^(٣) فلما علم عسكر الأيوبيين بقدومهم كتبوا إلى الصالح نجم الدين الأيوبي يطلبون العون والنجدة^(٤) فأرسل إليهم اثنين من كبار قاداته هما مبارز الدين علي بن الحسين بن برطاس ، ومجد الدين أحمد بن التركماني في مائة وخمسين فارساً لنجدتهم ، فلما علم عسكر اليمن بذلك أقاموا بالسريرين بعد خروجهم من مكة وكتبوا إلى المنصور نور الدين عمر بن رسول يطلبون نجدة^(٥) فبادر بإعداد جيش كبير تولى قيادته بنفسه ، وسار إلى مكة المكرمة ، فلما علم الجند الأيوبي بقدومه تركوا مكة ،

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٦٤ - ٦٥ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠١ ، العقد الثمين ج ٦ ص ٣٤٦ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٥٧ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦٢٢ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٥٧ .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٦٩ .

وخرجوا منها بعد أن أحرقوا دار السلطنة بما فيها من عدد وسلاح وغيرهما^(١) .

ودخل السلطان نور الدين مكة في شهر رمضان من نفس العام فصام بها وأبطل سائر المكوس والجبايات ورفع عن أهلها المظالم ، وكتب بذلك رقعة جعلت قبالة الحجر الأسود بمكة^(٢) .

ولتأمين مكة وحمايتها من الأيوبيين أرسل إلى صاحب ينبع أبي سعد بن علي بن قتادة الحسني ، يطلب منه شراء قلعة ينبع فلما اشتراها أمر بهدمها حتى يقضي على خط الإمداد والتموين الذي كان الأيوبيون يعتمدون عليه^(٣) .

وجعل المنصور نور الدين مملوكه فخر الدين الشلاح أميراً على مكة المكرمة وابن فيروز نائباً له ، كما جعل الشريف أبا سعد علي بن أبي قتادة الحسني مساعداً له ، ثم عاد إلى اليمن سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م^(٤) وقد قام الأمير الشلاح بعدة إصلاحات في مكة بأمر الملك المنصور منها أنه في سنة ٦٤١ هـ قام ببناء مدرسة بالجانب الغربي من المسجد الحرام ، وقفها على الفقهاء الشافعية^(٥) وحينما أتى ركب الحاج العراقي وكانت معهم والدته الخليفة العباسي المستعصم بالله جهز لهم السلطان نور الدين هدية عظيمة إمعاناً في التقرب إلى الخليفة العباسي كي يضمن مساندته له على مكة ويعطيه تقليداً بولايتها إلى جانب اليمن ، وأمر نائبه على مكة أن يتولى خدمتهم ورعايتهم طوال فترة وجودهم بمكة^(٦) .

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٦ ص ٣٤٧ .

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٥٨ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٦٩ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ١١٧ ، ج ٦ ص ٣٤٨ ، شفاء الغرام ج ١ ص ٣٢٨ .

(٦) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٦٠ - ٦١ .

وفي سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م أمر بتعمير المسجد الذي يوجد بالقرب من دار النحر
بمنى^(١).

وظل الأمير فخر الدين الشلاح والياً على مكة لآل رسول حتى سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م
حيث عزله السلطان نور الدين في تلك السنة ، وولى مكة بدلاً منه ابن المسيب الذي تعهد بدفع
مال يؤديه عن الحجاز من نفقات الجند وإرسال مائة فرس كل سنة واستمر ابن المسيب نائباً عن
السلطان نور الدين بمكة لمدة عام^(٢) فاستبد بأمرها وأعاد المكوس والجبايات على أهل مكة ،
وخلع الرقعة التي كتبها السلطان نور الدين بجوار الحجر الأسود بمنع المكوس والجبايات
واستولى على أموال الصدقة التي كانت تأتي لمكة من اليمن وبغداد وغيرها ، ومنع النفقة عن
الجند ففضبوا منه وأخذوا يتفرقون عنه^(٣) مما جعل الأمير أبا سعد علي بن قتادة الحسني
يأتي إلى مكة ويقبض عليه ويقيده ويستولى على ما كان معه من الخيل والسلاح والماليك
وذكر الخزرجي أن أبا سعد اجتمع بأهل مكة وقال لهم : « إني تحققت أنه يريد الهرب بمال
السلطان إلى العراق ، وأنا غلام مولانا السلطان ، والمال عندي محفوظ والخيل والعدد إلى أن
يصل مرسوم السلطان فيه » فوردت الأخبار بعد أيام يسيره بوفاة السلطان^(٤).

فلما علم أبو سعد بوفاة السلطان تولى الأمور بمكة في هذه السنة سنة ٦٤٧هـ/
١٢٤٩م^(٥) واستمر مقيماً على ولايته بها ، وأثناء حكمه لمكة سقطت الدولة الأيوبية بمصر ،
وقامت دولة المماليك .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٦٦ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦٣٢ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٧٧ - ٧٨ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٧٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٦٩ .

الباب الثالث

المجتمع الحجازي
في عهد الفاطميين والإيوبيين



المجتمع الحجازي في عهد الفاطميين والأيوبيين

مدخل :

كانت العلاقات بين مصر والحجاز طيبة من الناحية السياسية مما أدى إلى ازدهارها في الناحية الاقتصادية وتطورها في الناحية الفكرية والاجتماعية .

ففي الناحية الاقتصادية تمثل العلاقات بين مصر والحجاز وضعاً مميزاً نظراً لما قام به حكام مصر في العهدين الفاطمي والأيوبي من رعاية مالية واقتصادية لسكان الحجاز وأشرافه .

فقد كانت قافلة الحاج تخرج في كل عام من مصر إلى الحجاز تحمل الأموال والمتون والغلال لأهل الحجاز ؛ بل إن الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر كان أثرها يظهر واضحاً وجلياً على بلاد الحجاز أيضاً مما يبين مدى الارتباط بينهما .

أما في الناحية العلمية فقد بدأت الحركة العلمية في الحجاز متمثلة في حلقات العلم في المسجد الحرام ومسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد لعبت الحلقات دوراً كبيراً في الحياة العلمية والثقافية وأثرى ذلك قدوم كثير من طلاب العلم المصريين والعلماء الذين شدوا الرحال إلى الحرمين الشريفين فأفادوا واستفادوا ، وأثروا وتأثروا بل إن بعض العلماء المصريين طاب لهم البقاء بجوار الحرمين الشريفين يَدْرُسُون وَيُدَرِّسُون وقد جاوروا وأقبلوا على العبادة مخلصين لدين الله الكريم .

وفي الناحية الاجتماعية شكل المجاورون من المصريين في الحرمين على مر العصور جزءاً من أجزاء المجتمع في المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، ولم يعد أكثرهم إلى مصر ؛ بل تزوجوا وأنجبوا وتعلم أولادهم بمكة وصاروا جزءاً من سكانها ، كما قدم علماء من بلاد الحجاز إلى مصر وطاب لهم المقام بها واتخذوا منها وطناً ثانياً لهم ، ونتيجة لهذا الاتصال الفكري والاجتماعي حدث تأثير وتأثر واضح بين البلدين ، وغدت العلاقات بينهما صورة مثلى لما يجب

أن تكون عليه العلاقات بين البلدان وفي هذا الباب نوضح مدى الروابط الوطيدة بين البلدين في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعلمية .

وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الناحية الاجتماعية .

الفصل الثاني : الناحية الاقتصادية .

الفصل الثالث : الناحية الفكرية والثقافية .

الفصل الأول

الناحية الاجتماعية

الفصل الأول

الناحية الإجتماعية

مدخل :

لقد عمل الإسلام منذ ظهوره على تغيير العادات والأحوال الاجتماعية التقليدية فبدلها تبديلاً جوهرياً ، وطبعها كلها بطابع واحد ، فالإسلام ليس ديناً فحسب ؛ بل إنه دين وسياسة واجتماع ، وكان من نتيجة ذلك أن العادات والتقاليد الاجتماعية المحلية غلب عليها الطابع الإسلامي فصارت عند جميع المسلمين متقاربة في الأصول والفروع وما نلمسه من اختلاف في بعض النواحي الاجتماعية فهو بتأثير العوامل المعيشية والإقليمية ، وفي هذا الفصل سوف نعرض لأوجه التشابه والاختلاف بين المجتمعين المصري والحجازي في عهدي الفاطميين والأيوبيين .

طبقات المجتمع الحجازي

لقد كان المجتمع الحجازي في هذه الفترة يتكون من طبقة الأشراف ، فأرباب الوظائف الدينية ، ثم المجاورون ، فطبقة العبيد ، ثم طبقة العامة ، وسوف نعرض لهذه الطبقات كما يلي:

أولاً : طبقة الأشراف :

يطلق لقب الأشراف على آل البيت^(١) ، وكان كل من العلويين والعباسيين يخاطب بالشريف^(٢) ، ولقد تمتع الأشراف في المجتمع الإسلامي بوجه عام ، والفاطمي بوجه خاص بمكانة مرموقة جعلت منهم طبقة مميزة تقابل بالاحترام والتقدير ، ويمكننا أن نقسم الأشراف في العصر الفاطمي إلى قسمين :

١ - الأشراف الأقارب :

وهم الذين ينتسبون إلى الفرع الفاطمي ، وكان يطلق عليهم « الأشراف الاسماعيليون » وكان يعين لهم موظف كبير ليشرّف على مصالحهم ، ويكون الصلة بينهم وبين الخليفة فيما يتعلق بشئون حياتهم الخاصة والعامة ، ويحافظ على أنسابهم ، وكان يطلق عليه « نقيب الأشراف » كما كان يلقب أحياناً بالأمير^(٣) .

٢ - الأشراف الطالبيون :

وهم الذين ينتسبون إلى أبي طالب عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكانت لهم

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص ٣٦ .

نقابة خاصة تعرف بنقابة الطالبين ، وكانت هذه النقابة تسند إلى أحد الأشراف المميزين أو الشهود المعدلين^(١) .

وحيثما استقر أبناء الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب بمكة والمدينة وتولوا الأمور بالحجاز أطلق عليهم الفاطميون لقب الأشراف^(٢) وصار هذا اللقب منذ تلك الفترة يطلق على أمراء الحرمين الشريفين ، وأفراد عائلتهم الذين كانوا يعتمدون عليهم في إدارة شئون الإمارة ، ولم يكن هذا اللقب معروفاً من قبل في الحجاز^(٣) .

وكما كان الفاطميون يرون في إمامهم شخصاً مقدساً تحيطه هالة من الجلال والتنزيه^(٤) أثر هذا نرى أهل الحجاز إلى حكامهم من الأشراف^(٥) إذ بعد أن كان الأمراء في مكة لا يمتازون في نظر رعاياهم بغير الإمارة التي لا تستحق التنزيه استطاع الأشراف أن يحيطوا مراكزهم بشئ من الإجلال ، وأن يطبعوا العامة على تقديسهم ، وبالفوا في هذا حتى عم الغلو في تقديس كل شريف ينتسب إلى بيت الحاكمين^(٦) .

ولما كان الفاطميون يميلون إلى مظاهر الترف والأبهة ، وتكتظ قصورهم بتقاليد مرعية الجانب أثر هذا في حكام مكة من الأشراف ، وبدأت الأبهة تأخذ طريقها إلى مجالسهم ومواكبهم وحفلاتهم مما لا عهد لمكة به من قبل ، وشرعوا يحتجبون عن رعاياهم كما رتبوا لهم فرقة موسيقية خاصة تصدح بأنغامها أمام قصورهم ، وابتدعوا المواكب التي تمشي بين أيديهم كلما غدوا أو راحوا^(٧) .

(١) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣٨٦ .

(٢) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢١٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٣٢٠ .

(٥) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢١٤ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) المصدر السابق .

وظلت هذه المظاهر سائدة طوال العصرين الفاطمي والأيوبي فقد وصف ابن جبير خروج أمير مكة للاحتفال بالعمرة الرجبية بقوله : « خرج الأمير يزحف بين قواده ، وأبنائه أمامه ، وقد قاربوا سن الشباب ، والرايات تخفق أمامه والطبول والدبابت بين يديه والسكينة تفيض عليه ، وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين ، فلما انتهى إلى الميقات ، وقضى غرضه أخذ في الرجوع ، وقد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم ومرحهم ، والرجالة على الصفة المذكورة من التجاول ، وقد ركب جملة من أعراب البوادي نجياً صهباً لم ير أجمل منظراً منها ، وركابها يسابقون الخيل بها بين يدي الأمير رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه » (١) .

ويبدو أن بلاد الحجاز لم تتأثر بالأيوبيين كما تأثرت بالفاطميين من قبل لضيق المدى الذي تمتع فيه الأيوبيون بنفوذهم هناك ، بالإضافة إلى انشغال الأيوبيين بالجهاد وقاتل الصليبيين ، لذا بقي حكام مكة على عاداتهم التي تأثروا فيها بالفاطميين .

ثانياً : أرباب الوظائف الدينية :

كان في الدولة الفاطمية عدد من الموظفين لوظائفهم صبغة دينية ، وكان أولئك الناس يعرفون بأرباب العمائم ، لأن العمائم الكبيرة كانت تميزهم عن غيرهم من الطوائف الأخرى ، ومن أهم هذه الوظائف القضاة والدعاة والشهود العدول ، وقراء الحاضرة ، والخطباء والقراء ، والمؤذنون في الجوامع ، وكانت وظيفة قاضي القضاة من أجل الوظائف الدينية وأرفعها شأناً ، وحينما يجمع بين القضاء والدعوة ويلقب بقاضي القضاة وداعي الدعاة يخرج موكبه عند التعيين بالطبول والأبواق والبنود (٢) .

وقد تأثر الحجاز بمصر فوجدت به وظائف القضاء والخطابة والإمامة وكان به الموظفون من القضاة والخطباء والأئمة والقراء والمؤذنين .

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٠٩ .

(٢) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص ٥١ - ٥٢ .

وكان منصب القضاء بمكة من أجل المناصب^(١) إذ تعتبر وظيفة القاضي الوظيفة الثانية بعد ولاية مكة والمدينة ، ولا بد أن يكون قاضي البيت الحرام والمسجد النبوي من كبار العلماء والفقهاء ، وأشهر من تولى منصب القضاء بمكة عائلة الطبري فقد ذكر المؤرخ المكي الفاسي عدداً كبيراً منهم في كتابه « العقد الثمين » نذكر منهم :

- إبراهيم بن علي بن الحسن الشيباني (أبو إسحاق الطبري المكي) وقد توفي سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٨م^(٢) .

- محمد بن علي بن الحسين الشيباني (أبو المظفر الشيباني الطبري المكي) وقد توفي سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م^(٣) .

- عبد الرحمن بن علي بن الحسين الشيباني (أبو القاسم الشيباني الطبري المكي) وقد توفي سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٨م^(٤) .

- يحيى بن عبد الرحمن بن علي بن الحسين الشيباني وقد تولى القضاء خلفاً لوالده وقدم إلى القاهرة في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي أكرمه ووقف عليه وعلى ذريته بلدة بديار مصر ، لم يذكر المؤرخ الفاسي اسم هذه البلدة^(٥) .

- عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن (القاضي جمال الدين أبو محمد الشيباني الطبري المكي) تولى القضاء والخطابة بمكة ، وكان قاضياً حتى سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م^(٦) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٢٤١ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٠١ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٣ ، المصدر السابق ص ٥١٢ - ٥١٣ .

(٤) المصدر السابق ج ٥ ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ، المصدر السابق ص ٥٢٢ .

(٥) المصدر السابق ج ٧ ص ٤٣٨ - ٤٣٩ ، المصدر السابق ص ٥٣٠ .

(٦) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٩٨ ، المصدر السابق ص ٥٦٨ .

ومن أشهر قضاة المدينة المنورة أبو الطيب الحسني الحنفي الأزهري ، وقد وفد إلى مصر وتعلم في الأزهر الشريف ثم رحل إلى المدينة في منتصف القرن السادس الهجري وتولى أمر القضاء فيها ، ومن أبنائه أحمد وعباس اللذان توليا الخطابة والإمامة بالمسجد النبوي الشريف^(١) ويبدو أنه كان قاضياً للسنة لأن قاضي الشيعة علي بن سنان الحسيني كان يتولى القضاء للشيعة بالمدينة المنورة^(٢) .

وكان للخطيب في مكة مراسم يبدو أنها كانت منذ العصر الفاطمي واستمرت في العصر الأيوبي وقد وصفها ابن جبير حين ذكر أن خطبة الجمعة كان يتولاها الخطيب الشافعي الذي كان يحضر إلى الحرم لابساً الخلعة الخليفية ، ويتقدم إلى المنبر ببطء مبدئاً السكينة والوقار بين رايتين سوادوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين ، ويسعى بين يديه قيم بيده عود مخروط أحمر وفي يده مرسى من الأديم المفتول الرقيق الطويل في طرفه عذبة صغيرة ينفضها في الهواء بيده فتحدث صوتاً مرتفعاً يسمعه من بالحرم وخارجه « يسمونها الفرقة » ويعني ذلك وصول الخطيب ويستمر في نفضها حتى يصل المنبر ، وعندما يقترب منه يصعد على الحجر الأسود فيقبله ويدعو عنده ثم يعود إلى المنبر ورئيس المؤذنين « المؤذن الزمزمي » بين يديه لابساً ثياباً سوداء ممسكاً سيفاً بيده ، ثم يبدأ الخطيب في صعود المنبر ، وعندما يعتلي الدرجة الأولى يقلده المؤذن السيف فيضرب الدرجة بحديدة في مؤخرة سيفه ضربة يسمعها الحاضرون ويكرر ذلك في الدرجة الثانية والثالثة وإذا ما صعد على درجة ضربها ضربة رابعة ووقف مستقبلاً الكعبة داعياً بصوت منخفض ، ويلتفت يمنة ويسرة ويلقي السلام على الحاضرين فيردون عليه ويجلس ، ويبادر المؤذنون في المنبر بالأذان بين يديه بصوت واحد وإذا فرغوا وقف للخطبة^(٣) .

أما في المدينة المنورة فكان الخطيب يتقدم للخطبة يوم الجمعة بعد أن يؤذن المؤذنون

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٧٧ .

(٢) السمهودي : الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤٩ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٧٢ - ٧٣ .

فتتقدمه الرايتان السوداءوان وتركزان في جانبي المنبر فيقف بينهما ، وبعد ما يفرغ من الخطبة الأولى يجلس جلسة طويلة يخالف بها جلسة الخطباء التي تتصف بالسرعة ويقوم الخدام التابعون له باختراق الصفوف وتخطي الرقاب يجمعون ما يتبرع به الحاضرون لهذا الخطيب الذي لا يهمله سوى جمع الأموال والذهب والثياب حتى ولو كان ذلك على حساب الدين^(١) .

والحقيقة أن أرباب الوظائف الدينية في بلاد الحجاز كانوا ينقسمون إلى فئتين :

الفئة الأولى : تمثل أهل السنة بمذاهبهم المختلفة حيث كان لكل فئة قضاتهم وفقهاؤهم وعلمائهم وخطبائهم وأئمتهم وقراءهم في الحرم المكي .

الفئة الثانية : قضاة وفقهاء وخطباء وأئمة وقراء الشيعة الحسينيين بالمدينة المنورة^(٢) .

ومن أرباب الوظائف الدينية في الحجاز نذكر على سبيل المثال :

أولاً : في العصر الفاطمي :

- أبو عبد الله الكازريني (محمد بن حسين بن محمد) مقرئ مكة وقد توفي سنة ٤٤٤هـ / ١٠٤٨م^(٣) .

- أحمد بن أسد بن أحمد بن باذل الكوجي ، شيخ الحرم الصوفي توفي بعد سنة ٤٤٦هـ^(٤) .

- محدث مكة أبو الفضل جعفر بن يحيى بن إبراهيم التميمي المعروف بابن الحكاك يذكر الفاسي أنه « كان موصوفاً بالمعرفة والحفظ والإتقان وكان أمير مكة يرسله إلى الخلفاء والملوك

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٧٩ .

(٢) السهودي : الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٦ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٦٢ .

(٤) المصدر السابق ج ٣ ص ١٧ .

ويأخذ الأموال منهم لأشراف الحجاز ويحمل كسوة الكعبة» (١).

ويبدو أنه كان وزيراً للخارجية لدى أمير مكة يرسله للخلفاء والملوك ويأخذ منهم المعونات التي كانوا يرسلونها إلى مكة ويتولى الإشراف على كسوة الكعبة حتى تصل إلى مكة .

- محمد بن هبة الله بن ثابت - فقيه الحرم - أبو النصر البندنجي الشافعي مؤلف كتاب المعتمد في فروع الشافعية ، وقد درس على يديه الحافظ السلفي وأجاز له وقد توفي بمكة سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م (٢) .

- عبد الملك بن أبي مسلم النهاوندي ، إمام مقام إبراهيم الخليل عليه السلام توفي سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م (٣) .

- محمد بن عمر بن عثمان بن عبد العزيز بن طاهر البخاري ، أبو بكر ، وأبو الفضل الحنفي إمام الحنفية بالحرم الشريف ، الملقب كاك ، وقد أجاز للحافظ السلفي وذكره في كتابه «الوجيز» وقد توفي سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م (٤) .

- رزين بن معاوية بن عمار العبدي ، أبو الحسن إمام المالكية بالحرم ، روى عنه قاضي مكة أبوالمظفر الشيباني ، والحافظ أبو القاسم بن عساكر ، وأجاز للحافظ السلفي وله مؤلفات منها كتاب جمع فيه ما في الصحاح الخمسة والموطأ ومنها كتاب « في أخبار مكة » ملخص من كتاب الأزرقى « أخبار مكة » وجاء إلى الاسكندرية ودرس على يد أئمة المالكية بها ، وقد توفي سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م (٥) .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوری ج ٢ ص ٤٨٦ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٣٨١ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الوری ج ٢ ص ٤٩٩ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الوری ج ٢ ص ٥٠٢ .

- أبو بكر بن أبي الحسن الطوسي ، إمام مقام إبراهيم الخليل - عليه السلام - بالمسجد الحرام وقد توفي سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م^(١) .

ثانياً : في العصر الأيوبي :

- علي بن عبد الله بن حمود الفاسي ، أبو الحسن المكناسي إمام المالكية بالحرم الشريف أخذ عن أبي بكر الطرطوشي سنن أبي داود ، وصحيح مسلم أخذه عن ابن طرخان ، وجاور ، وأم بالحرم ، وأصله من مكناسة الزيتون ، وقد توفي بمكة سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م^(٢) .

- مبارك بن علي بن الحسين بن عبد الله بن محمد البغدادي ، أبو محمد المعروف بابن الطباخ الحنبلي إمام الحنابلة بالمسجد الحرام ، توفي سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م^(٣) .

- محمد بن عبد الله بن الفتوح بن محمد المكناسي ، جمال الدين أبو عبد الله ، إمام المالكية بالحرم الشريف ، تولى مقام المالكية بمكة سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م ووقف في هذا العام ست مجلدات على المالكية والشافعية والحنفية الذين يستقرون بمكة ، وجعلها مقرها خزانة المالكية بمكة ، وقد توفي سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م^(٤) .

- محمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طلحة البرمكي الهروي ، أبو عبد الله ، ويقال له أبو الفتح الحنبلي إمام الحنابلة بالحرم الشريف ، سمع من أبي المعالي بن النحاس ، وأبي الوقت السجزي وغيرهم ببغداد ومصر والاسكندرية ، ثم سار إلى مكة واستوطنها إلى حين وفاته ، وأم فيها بمقام الحنابلة سنين وحدث فيها للكثير ، وكان حياً في سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م ويذكر الفاسي أنه توفي بعدها بيسير ودفن بالمعلاة^(٥) .

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٨ ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٤٣ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٧٤ - ٧٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٥٢ .

- علي بن مظفر بن علي بن نعيم السلامي ، أبو الحسن المعروف بابن الحبير التاجر ،
تولى النظر في مصالح المسجد الحرام ، ومصالح الكعبة ، وتوفي سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م^(١) .

- عبد المحسن بن أبي العميد بن خالد المنعوت بالحجة ، الفقيه الشافعي الصوفي إمام
الحرمين سمع بالقاهرة من أبي القاسم الأباصيري ، وفاطمة بنت سعد الخير ، وفي الاسكندرية
من محمد أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحضرمي ، وقد توفي سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م
بمكة^(٢) .

- محمد بن عمر بن يوسف بن نعيم الأنصاري ، أبو عبد الله القرطبي الفقيه المالكي
المقري ، شيخ الحرمين ، أخذ القراءات بالمغرب عن جماعة منهم : أبو محمد عبد الله بن محمد
ابن عبد الله الحجري ، ويمصر عن أبي القاسم الشاطبي ، وأبي القاسم البوصيري ، وأبي عبد الله
الأرتاحي ، وأبي محمد بن بري ، وقد أم بالحرم الشريف النبوي وتوفي سنة ٦٣١ هـ / ١٢٢٣ م
ودفن بالبقيع وكان يلقي احتراماً من قبل أشرف مكة فإذا ذهب إلى أحدهم يقوم له حتى
يقضي حاجته .

ويذكر الفاسي أن له أخباراً مع السلطان الملك الكامل في حق أشرف المدينة وتعظيمهم ،
وقد سافر مع بعض الأشراف^(٣) إلى مصر ، وسعى في قضاء حوائجهم حتى قضيت سريعاً ،
وكان الكامل صاحب مصر يأتي إليه ويزوره^(٤) .

ثالثاً : المجاورون :

المجاورون قوم قدموا من مختلف أنحاء العالم الإسلامي إلى مكة المكرمة للمجاورة في
الحرم المكي الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ - الفاسي : العقد الثمين ج ٥ ص ٤٩٣ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٢٣٧ - ٢٤١ .

(٤) المصدر السابق .

للناس وأمناً ﴿ (١) .

وكان المجاورون ومنهم التجار والعلماء وطلبة العلم يطلبون رضوان الله ، وفضله وكرمه ، ثم ما لبث هؤلاء أن استقروا في مكة المكرمة ، واندمجوا في مجتمعتها ، وشاركوا في حركتها العلمية والاقتصادية (٢) .

وكان للمجاورين دور في كل ما يدور من أحداث داخل مكة إذ يذكر عبد العزيز بن فهد المؤرخ المكي أن الحاكم بأمر الله أرسل إلى أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني أمير مكة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م سجلاً ينتقص فيه بعض الصحابة - رضي الله عنهم - فلما أنفذه الأمير إلى القاضي إبراهيم بن إسماعيل الموسوي قاضي مكة وأمره بقراءته على الناس ، وعلم المجاورون بذلك غضبوا غضباً شديداً ، وثاروا فأرجأ القاضي الخروج ، ثم امتنع أبو الفتوح عن تنفيذ ذلك (٣) .

وحينما رأى المجاورون هادي المستجيبين (٤) الذي كان يدعو إلى عبادة الحاكم مضوا إلى أبي الفتوح وذكروا له حكايته فأمر بقتله (٥) .

(١) سورة البقرة آية (١٢٥) .

(٢) المشيخ : تاريخ أم القرى ص ٤٧ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٩٣ .

(٤) هو حمزة بن أحمد ، وقد تلقب بالهادي ، وهادي المستجيبين ، وأقام بمسجد تنبر خارج القاهرة وقد تساهل في أعمال الشريعة فأسقط جميع التكاليف في الصلاة والصوم ونحو ذلك فاستجاب له بعض الغافلين وظهر على يديه مذهب الدرزية ببلاد صيدا وبيروت وساحل الشام ، وقد ظهر في أواخر أيام الحاكم ، وكان يدعو إلى عبادته ، فلما جاء إلى مكة نزل ضيفاً على أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني فلما رآه المجاورون يطوف بالكعبة مضوا إلى أبي الفتوح ، وذكروا له شأنه فقتله . (المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ١١٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٤٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٥٤) .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٤٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٥٥ .

رابعاً : طبقة العبيد :

كثرت هذه الطبقة في بلاد الحجاز ، وكانت تضم أتباع الأمير وأعوانه وخواصه الذين يسهرون على راحته وخدمته وحمايته وتنفيذ أوامره ، وكان لكل أمير مجموعة من العبيد تقل أو تكثر حسب مركزه ، فقد ذكر المؤرخون أن أبا الفتوح الحسن بن جعفر الحسني كان له كثير من العبيد فلما خرج على الحاكم بأمر الله وسار إلى آل الجراح بالرملة كان معه نحو ألف فارس من بني حسن ونحو ألف عبد من قواده^(١) .

وكان للعبيد دور كبير في الحجاز ووصل بعضهم إلى مرتبة الإمارة ، إذ لما توفي الأمير شكر بن أبي الفتوح الحسني أمير مكة سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م ، ولم يعقب ، تولى الإمارة خلفاً له عبد من قواده يسمى طراد بن أحمد^(٢) واستمر فترة من الزمن حتى خلعه بنو أبي الطيب الحسنيين ، وتولوا الأمر منه^(٣) .

وقد أسهم العبيد في إثارة الشغب والفوضى بمكة فقد ذكر الفاسي أنه في سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م كانت بمكة فتنة بين أهلها والحجاج العراقيين سببها أن جماعة من عبيد مكة أثاروا الشغب ضد الحجاج بمنى ، فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاج العراقي فقتلوا منهم جماعة ورجع من سلم إلى مكة فجمع العبيد حشودهم وأغاروا على جمال الحاج فأخذوا ما يقرب من ألف جمل ، فنادى أمير الحاج العراقي في جنده فركبوا بسلاحهم ووقع القتال بينهم ، فقتل جماعة من الحجاج ، ونهب بعض منهم ، فرجع أمير الحاج العراقي ولم يدخل مكة حتى أرسل إليهم أمير مكة يستعطفهم فرفضوا العودة^(٤) .

(١) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٠) ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٣٨ ، عبد العزيز ابن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٧١ .
(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٧ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٥ ص ١٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٢ .

(٣) دحلان : خلاصة الكلام ص ١٧ - ١٨ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٢٩ .

وفي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م نهب عبيد الأمير مالك بن فليته بن قاسم الحسني جده وأخذوا أموال التجار (١) .

وفي العصر الأيوبي حينما قدم سيف الإسلام طفتكين سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م إلى مكة واستولى عليها ، وخطب بها لأخيه صلاح الدين قتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس ، وشرط على بقية العبيد ألا يؤذوا الحاج (٢) .

إلا أن عبيد مكة عادوا مرة أخرى إلى إثارة الشغب ضد الحجاج ونهبهم ، ففي سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م نهبوا الحاج العراقي ، وكان سبب ذلك أن أحد دعاة الباطنية أراد قتل الشريف قتادة الحسني لكنه أخطأ وقتل ابن عمه الذي كان شديد الشبه به ، فثار عبيد مكة والأشراف وصعدوا الجبلين بمنى ، وهللوا وكبروا ، وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب ، ونهبوا الحجاج ، وقتل من الفريقين جماعة ، ثم حمل قتادة الحسني أمير مكة والعبيد على الحجاج حتى قتلوا كثيراً منهم (٣) .

وكانت الإماء والجواري يجلبن من أسواق النخاسة بجميع البلاد ، ومنهن الحبشيات والروميات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر (٤) وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم ، حتى نشأ فيهم علي بن الحسن بن علي - رضي الله عنه - ، وفاق أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً فرغب أهل المدينة في اتخاذ الجواري (٥) .

وفي العصر الأيوبي أخذ أمير الحجاز قتادة بن إدريس الحسني جارية حبشية من المدينة وجعلها مقربة منه وقد اشتركت مع ابنه الحسن في قتله كي يتولى الإمارة (٦) .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٢ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٤٨ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٣ ص ١١ - ١٢ .

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٣٢ - ٤٣٣ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٧١ ، ٥٨٧ .

كما كان بعض أمراء الأشراف بمكة من أبناء الإمام كالأمر أبي سعد علي بن قتادة الذي كانت أمه حبشية^(١) .

والحقيقة أن طبقة العبيد في الحجاز كانت كبيرة ولها دور في الأحداث خلال العصرين الفاطمي والأيوبي .

أما في مصر فقد كانت طبقة العبيد السودان كبيرة وكثير عددهم في عهد كافور الاخشيدي، وظهر أمرهم في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله الذي استعان بهم على الأتراك كما أحرقوا القاهرة في عهده حنقاً على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسة الحاكم .

وقد ظهر أمر العبيد السودان من جديد أيام الخليفة الظاهر الذي تزوج بسيدة سودانية ثم تفاقم خطرهم في عهد ابنه المستنصر^(٢) حتى بلغ عدد الجنود السودانيين خمسين ألفاً^(٣) .

وقد استطاع صلاح الدين الأيوبي القضاء على هذه الطبقة في مصر ، لكنها استمرت في الحجاز حتى عصر المماليك .

خامساً : طبقة العامة :

هم السواد الأعظم من الناس ، وتتكون هذه الطبقة من التجار الذين يشتغلون بالتجارة بين الشرق والغرب ، والفلاحين الذين كانوا فئة فقيرة نظراً لطبيعة الحجاز الصحراوية القليلة الأمطار ، والصناع الذين كانوا يشكلون فئة قليلة من السكان .

أما معظم سكان الحجاز فكانوا يعملون بالرعي لأنها من الحرف المفضلة لديهم نظراً للبيئة التي كانوا يعيشون فيها ، ولأنها توفر للأعرابي الحرية التي لا يتمتع بها الفلاح .

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦٣٧ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤٨٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٠٣ .

وكان سكان البوادي يتألفون من مجموعات يرأسها شيخ القبيلة التي تكون كلمته مسموعة فيهم^(١) وكان الأشراف يعتمدون عليهم في حروبهم ، ففي سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م حشد أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني عدداً من أبناء البادية وحارب رجلاً من بني حرام استولى على مدينة حلي^(٢) فأخذها أبو الفتوح منه وهزمه^(٣) .

وفي سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م جمع قاسم بن هاشم الحسني جموعاً كثيرة من هؤلاء الأعراب وأطمعهم ي مال له بمكة فاتبعوه ، فلما خذلهم ولم يعطهم الأموال تخلوا عنه^(٤) .

والحقيقة أن طبقة العامة في الحجاز كانت كثيراً ما تتعرض للجوع والفقر وعدم الاهتمام من الأشراف أيام القحط والجذب ، فيخبرنا ناصر خسرو أنه في سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م كان بمكة قحط وجذب فخرج من الحجاز خلق كثير ممن أصابهم الجوع والفقر وتوجهوا ناحية مصر وبلغ عددهم خمسة وثلاثين ألف حجازي كساهم الخليفة الفاطمي وأجرى عليهم الرزق سنة كاملة ، وقد كانوا جميعاً جوعى وعرايا ، ولما أمطرت السماء في بلادهم ، وأخصبت الأرض ، وكثر فيها الطعام ، كساهم السلطان صغيرهم وكبيرهم وأغدق عليهم الصلات ثم قام بترحيلهم إلى الحجاز^(٥) .

وقد هاجر كثير من أفراد هذه الطبقة إلى مصر في العصر الفاطمي ، واستقروا فيها وانتظم عدد منهم في سلك الجندية بها ، فقد ذكر الرحالة ناصر خسرو أن جيش الخليفة الفاطمي

(١) جميل حرب : بلاد الحجاز واليمن ص ٢٣٠ .

(٢) حلي : مدينة صغيرة على ساحل البحر الأحمر بينها وبين ميناء السرين خمسة أيام جهة الشمال وهي محطة السفن الآتية من اليمن (الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨) .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٤٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٩٤ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٧٩ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٢٦ .

(٥) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٢ .

المستنصر كان به فرقة تسمى « البدو » وهم من أهل الحجاز ، ويقال لهم الرماة ، وقد قدر عددهم بحوالي خمسين ألف فارس^(١) .

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٩٤ .

العادات والتقاليد

كان لموقع بلاد الحجاز الجغرافي واتصاله بمصر براً وبحراً أثر كبير فيما كان بينهما من اتصال أوجد نوعاً من التأثير والتأثر والتفاعل والامتزاج بينهما في العادات والتقاليد ، ومن ينظر إلى الحياة الاجتماعية في مصر والحجاز يلحظ تشابهاً واضحاً حيث انتقلت من مصر إلى الحجاز عادات اجتماعية كثيرة ، وخاصة في العصر الفاطمي ، أما في العصر الأيوبي فكان التأثير ضعيفاً وتلمس ذلك فيما يلي :

أولاً : الأعياد والمواسم الدينية والاحتفالات :

ذكر المقرئ أن الخلفاء الفاطميين كان لهم في طوال السنة أعياد ومواسم هي : موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبي - صلى الله عليه وسلم - ومولد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، ومولد الحسن ومولد الحسين - رضي الله عنهما - ومولد فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان ، وغرة رمضان ، وسماط رمضان ، وليلة الختم ، وعيد الفطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ، ويوم النوروز ، ويوم الغطاس ، ويوم الميلاد^(١) .

وقد تأثر الحجازيون بكثير من هذه الأعياد والمواسم كما يلي :

أ - استهلال الشهور الهجرية :

كان الفاطميون يحتفلون برأس السنة الهجرية بإخراج الأسلحة والنفائس وإعداد الخيول المشتركة في الموكب الكبير الذي يخرج صبيحة يوم الاحتفال فيخرج من خزانة الأسلحة ما

(١) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٤٩٠ .

يحملة طوائف الجند في الموكب وصبيان الركاب المحيطين بالخليفة من أنواع الأسلحة المختلفة المحلاة بالذهب والفضة والجواهر ، كما تخرج الألوية والبنود بالإضافة إلى الطبول الضخمة التي تحمل على البغال وتصاحب الموكب ، ومن الاصطبلات مائة فرس يرسم ركوب الخليفة ، وكبار رجال الحاشية عليها سروج محلاة بالذهب والفضة والجواهر وفي أعناقها أطواق من الذهب وقلائد العنبر ، بالإضافة إلى الخيول التي خصصت لكبار رجال الدولة حسب مكانة كل منهم^(١) .

ولقد تأثر الحجازيون بهذه المظاهر ، وبدا ذلك واضحاً في احتفالاتهم باستهلال الشهور الهجرية إذ جرت العادة أن يأتي أمير مكة أول يوم من أيام الشهر يحيط به كبار رجاله والقراء يقرأون أمامه فيدخل على باب النبي - صلى الله عليه وسلم - ورجاله السودان الذين يعرفون بالحراية يطوفون أمامه وبأيديهم الحراب وهو يسير متقلداً سيفه ، لابساً ثوباً أبيض ، ويبدو عليه السكينة والوقار ، وعندما يصل إلى مقام إبراهيم يصلي ركعتين ، ثم يقبل الحجر الأسود ، ويطوف حول الكعبة سبعة أشواط وبعد الانتهاء من كل شوط يتجه لتقبيل الحجر الأسود فيعلو صوت رئيس المؤذنين - الذي يقف على قبة زمزم - بالدعاء للأمير وتهنئته بدخول الشهر ثم يختتم ذلك بثلاثة أو أربعة أبيات من الشعر في مدحه ومدح سلفه الكريم^(٢) .

ب- احتفالات ليالي الوقود :

كان الاحتفال بليالي الوقود الأربع من الاحتفالات الشهيرة في الدولة الفاطمية ويحتفل بها أول شهر رجب ونصفه ، وأول شهر شعبان ونصفه .

وكان أهم مظاهر هذا الاحتفال إضاءة الجوامع والمساجد من الداخل والخارج كما تضاء المآذن والأسطح فتتألق بالأضواء الساطعة ، وتصبح كأنها شعلة من نور ويحتشد فيها الناس على مختلف طبقاتهم للتعبّد ومشاهدة الزينات والاستمتاع بما يوزع عليهم من أصناف الطعام والحلوى^(٣) .

(١) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص ١٢٩ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣) المقرئ : المخطوط ج ١ ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

ولقد تأثر الحجازيون بالفاطميين في الاحتفال بهذه الليالي فكانوا يحتفلون بليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، بالإضافة إلى ليلة السابع والعشرين منه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه ، وكانت احتفالاتهم كما يلي :

- ليلة أول رجب :

يخبرنا ناصر خسرو أن أول رجب موسم عظيم في الحجاز مثل عيد رمضان^(١) ، ويذكر ابن جبير أن هذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة^(٢) .

وقد وصف ابن جبير احتفال أهل مكة بالليلة التي يستهل فيها الهلال فقال : عند ثبوت رؤية الهلال ، يأمر الأمير بضرب الطبول والدبابة^(٣) والبوقات إشعاراً بأنها ليلة الموسم ، وفي تلك الليلة يمتلئ المسجد الحرام كله سرجاً فتتلاأ الأنوار ، ويخرج الأمير لقضاء العمرة في احتفال مهيب ، وقد احتشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة ، وحارة حارة ، شاكين الأسلحة فرساناً ورجاله فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة وهم يخرجون في تنسيق كامل .

فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها ، والرجالة يتواثبون ويلعبون بالأسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وتروساً ، وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض ، والتضارب بالسيوف والمدافعة بالتروس التي يحتمون بها ، ويظهرون في ذلك مهارة كبيرة^(٤) ولا يزالون في هذا إلى أن يخرج الأمير إليهم ، وقد أحاط به قواده ، وأبناؤه أمامه ، وقد قاربوا سن الشباب ، والرايات تخفق أمامه والطبول والدبابة بين يديه إلى أن ينتهي إلى الميقات للإحرام للعمرة ، ثم يأخذ في الرجوع للمسجد الحرام فيطوف بالكعبة والقراء أمامه والمؤذن الزمزمي

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٢١ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ١٠٦ .

(٣) الدبابة : نوع من الطبول وواحدة دبابة (ابن جبير : حاشية ص ١٠٨) .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ١٠٨ .

يقف على سطح قبة زمزم رافعاً صوته بتهنئته بالموسم والثناء عليه ، والدعاء له كالعادة^(١).

- ليلة النصف من رجب :

يذكر ابن جبير أنهم في يوم الخامس عشر من هذا الشهر يحتفلون احتفالاً شبيهاً باحتفال الليلة الأولى منه ويخرج الناس إلى العمرة ولا يبقى أحد من الرجال والنساء إلا خرج لها^(٢).

- ليلة السابع والعشرين من رجب :

في ليلة السابع والعشرين من رجب يحتفل أهل مكة منذ صبيحتها احتفالاً عظيماً ويخرجون للعمرة التي يسمونها عمرة الأكمة لأنهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد السيدة عائشة - رضي الله عنها -^(٣).

- ليلة أول شعبان :

في صباح أول يوم من شعبان يبكر أمير البلاد بالخروج إلى الطواف كعادته في أول كل شهر في موكب مهيب مع أخيه وبنيه وقادته وأتباعه^(٤).

- ليلة النصف من شعبان :

وهي ليلة معظمة عند أهل مكة فهم يبادرون فيها إلى أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفراداً وجماعات فيحتفلون احتفالاً عظيماً في الحرم المقدس إثر صلاة العشاء حيث يحتشدون في جماعات متعددة يصلون تراويح يقرأون فيها بفاتحة الكتاب ، وبسورة الإخلاص عشر مرات في كل ركعة إلى أن يكملوا خمسين تسليمه بمائة ركعة ، وقد قدمت كل جماعة إماماً ويسطت الحصر ، وأوقدت الشموع وأشعلت المشاعل وأسرجت المصابيح^(٥).

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٤ .

(٤) المصدر السابق ص ١١٧ .

(٥) المصدر السابق ص ١١٩ - ١٢٠ .

ج - الاحتفال بشهر رمضان :

استمر الحجازيون طوال العصرين الفاطمي والأيوبي يصومون شهر رمضان ويفطرون على حساب لهم متأثرين في ذلك بالفاطميين فيخبرنا ابن جبير أنه عند زيارته للحجاز حدث اختلاف بين أهل السنة والشيعة حول حلول شهر رمضان ، إذ لم يظهر الهلال ليلة الأحد سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، وعلى ذلك اعتبر أئمة المذاهب السنية أن بداية رمضان يوم الإثنين ؛ أما أهل مكة من الشيعة فقرروا الصيام يوم الأحد بحجة أنهم يشكون في رؤية الهلال ، وحسب مذهبهم يعتبر يوم الشك فرضاً^(١) .

ولذلك أقر أمير البلاد الصيام يوم الأحد وأمر بالآذان بالصوم وضربت دبابده ليلة الأحد لموافقة مذهب ومذهبه شيعته^(٢) .

وكان من عادة الفاطميين في مصر الإعلان عن بداية شهر رمضان بخروج الخليفة في موكب رسمي كبير على غرار موكب أول العام ، وترسل الكتب والبشارات إلى ولاية الأعمال والبلاد الخاضعة للتنفيذ الفاطمي ، وكان هذا الموكب بمثابة إعلان ببدء شهر رمضان ، وهو بديل عن الاحتفال برؤية الهلال عند أهل السنة^(٣) ثم تضاء المساجد ويتبارى القراء في تلاوة القرآن الكريم بأصوات فيها تطريب ، ويتبعهم المؤذنون بالتكبير وذكر فضائل السحور ، ويأتي بعدهم دور الوعاظ فيذكرون فضائل شهر رمضان ، ويسهبون في مدح الخليفة وكرمه ويستمر الاحتفال الديني إلى منتصف الليل^(٤) .

وفي الحجاز يتم الاحتفال بحلول شهر رمضان فتجدد الحصر بالمسجد الحرام وتزداد الشموع والمشاعل فيتلأأ الحرم بالأنوار ، ويتفرق الأئمة عدة فرق لإقامة صلاة

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص ١٣٧ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٨ .

الشافعية والحنابلة والحنفية والزيدية أئمة لهم ، أما المالكية فكانوا يجتمعون على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة^(١) .

أما السحور فكان يتولاه المؤذن الزمزمي الذي كان يقيم في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد بسبب قربها من دار الأمير فيقوم في وقت السحور داعياً ومذكراً وحاثاً الناس على القيام للسحور ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويردان عليه ، وفي أعلى الصومعة تنصب خشبة كبيرة طويلة في رأسها عود كالذراع وفي طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان كبيران من الزجاج لا يزالان مشتعلان مدة التسحير ، فإذا جاء وقت الفجر أنزل المؤذن القنديلين وبدأ بالأذان ويبادر بقية المؤذنين في الأذان من كل ناحية ، وكانت دور مكة كلها أسطح مرتفعة فمن لم يسمع النداء بالتسحير ممن يبعد مسكنه عن المسجد يبصر القنديلين ، فإذا لم يبصرهما عرف أن الوقت قد انقطع فيمتنع عن الطعام والشراب^(٢) .

وفي الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان تصنع أنواع كثيرة من الحلوى من العسل والسكر المعقود على صفات شتى يمثلون بها أشكال الفواكه المختلفة وتقام الأسطة المليئة بهذه الحلوى بين الصفا والمروة^(٣) .

ويبدو أنهم قد تأثروا بالفاطميين في ذلك إذ يخبرنا المقرئ أن الموائد كانت تمد في أروقة الجامع الأزهر طوال أشهر رجب وشعبان ورمضان ، وتباح محتوياتها لمن يريد^(٤) .

د - الاحتفال بعيدي الفطر والأضحي :

اهتم المسلمون منذ عهد بعيد بالاحتفال بالعيدين في شئ كبير من الأبهة والعظمة فيؤم خلفاء المسلمين الناس في الصلاة ، ويلقون عليهم خطبة في فضائل العيد ، وما يجب على

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٨ .

(٤) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٢٨٥ .

المسلمين اتخاذه للمحافظة على شعائر الإسلام ولاعجب فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى في الاحتفال بالعيدين في البلاد الإسلامية^(١).

ففي مصر بدأ الفاطميون احتفالهم الرسمي بعيد الفطر منذ قدوم الخليفة المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م فقد ركب في هذا العام لصلاة عيد الفطر إلى مصلى العيد التي تقع شرقي القصر الكبير بجوار باب النصر ، التي بناها القائد جوهر لهذا الغرض وفي سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م خرج الخليفة العزيز في موكبه لصلاة عيد الفطر في هذه المصلى ، وقد أقيمت لهذا الغرض مصاطب على الطريق الذي يسلكه الخليفة بين المصلى والقصر ووضع عليها المؤذنون ، ويجلس على كل مصطبة جماعة من أنصار الدولة من الشيعة تخرج بأسمائهم كشوف من قاضي القضاة ، وداعي الدعاة فيجلس هؤلاء الأتباع على المصاطب^(٢) حسب ترتيب أسمائهم ، ويبدأ التكبير والابتهالات من القصر إلى المصلى متصلاً بين المؤذنين الذين على المصاطب ، والخليفة يخترق هذا الطريق في موكبه الضخم الذي يضم طوائف العسكر في أجمل زينة^(٣).

وكانت الاحتفالات بعيد الأضحى في الدولة الفاطمية تبدأ منذ الأول من ذي الحجة فتعقد مجالس الشعراء في القصر ، وفي دار الوزارة ، ويتبارى الشعراء في مدح الخليفة والوزير بهذه المناسبة وتهنئتهم بها ، كما يجري توزيع أموال الصدقة على الأطفال والأيتام والفقراء من أهل القاهرة والفسطاط^(٤).

ولقد حافظ الأيوبيون - بوصفهم مسلمين - على إحياء الأعياد الدينية ؛ ولكن في غير إسراف^(٥).

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٥٠٦ .

(٢) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٤٥١ .

(٣) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص ١٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٥) سعيد عاشور : الأيوبيون والمالكي في مصر والشام ص ١٧٢ .

أما في بلاد الحجاز فقد كانوا يحتفلون بالعيدين كبقية الشعوب الإسلامية فيذكر ابن جبير أنه في صباح العيد وبعد قضاء صلاة الفجر يلبس الناس ثياب العيد ويتجهون إلى المسجد الحرام لتأدية صلاة العيد ، لأن السنة جرت بالصلاة فيه ، ولم يتخذوا مصلى يخرجون إليه كبقية المدن الأخرى وذلك لشرف بقعة الحرم وفضل بركتها وفضل صلاة الإمام ومن يأتهم به خلف المقام^(١) .

وفي هذا اليوم يخرج الأمير إلى المسجد الحرام فيطوف حول الكعبة سبعة أشواط والحرم قد امتلأ بالناس الذين حضروا لأداء الصلاة ، والمؤذن الزمزمي في قبته رافعاً صوته بالدعاء للأمير والثناء عليه ، وبعد انتهائه من الطواف يتوجه إلى مصطبة قبة زمزم في مقابلة ركن الحجر الأسود فيجلس بها وأولاده عن يمينه ويساره ووزيره وأمرأه وحاشيته وقوفاً على رأسه^(٢) ويحضر بعض الشعراء وينشدون أشعاراً يمدحون بها الأمير ويهنتونه بهذه المناسبة^(٣) .

وعندما يحين موعد الصلاة يأتي القاضي الشافعي فيتقدم إلى المقام الإبراهيمي ويقف الناس ويؤذن المؤذن لصلاة العيد ، وبعد الفراغ من الصلاة يصعد إلى المنبر ويخطب في الناس خطبة العيد ، وبعد الفراغ من الخطبة يبادر الناس إلى مصافحة بعضهم بعضاً متناسين خلافاتهم فرحين بالعيد^(٤) .

أما في عيد الأضحى فكان المسلمون يتوافدون من شتى أنحاء العالم الإسلامي إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وكان الخطيب يخطب في المسجد الحرام في اليوم السابع من شهر ذي الحجة بعد صلاة الظهر خطبة بليغة يشرح لهم فيها مناسك الحج ثم يأخذون في أداء شعائره ويضحون أضحيات العيد بعد رميهم الجمار بمنى^(٥) .

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٣٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص ١٣٥ .

(٥) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٣٥ .

ومن عادة أهل مكة استعدادهم لاستقبال محمل الكسوة الخاصة بالكعبة المشرفة فقد ذكر القلقشندي أنه في كل سنة يجهز إلى الحجاز المحمل من الديار المصرية لكسوة الكعبة المشرفة فيخرج أمير مكة لملاقاة المحمل هو وأفراد حاشيته من الأشراف وعندما يبصرونه يترجلون عن خيولهم ويستقبلون أفرادهم بحفاوة بالغة ويعد وضع الكسوة الجديدة يأخذ سدنة الكعبة الكسوة القديمة التي كانت على البيت فتوزع بمعرفتهم^(١).

هـ - الاحتفال بالمولد النبوي :

كان الاحتفال بالمولد النبوي في الدولة الفاطمية يبدأ بعد صلاة ظهر اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول فيخرج قاضي القضاة على رأس موكب الاحتفال وبصحبه الشهود العدول والمكلفين بحمل صواني الحلوى ويتجه الجميع إلى الجامع الأزهر ، وهناك يجلس القاضي مدة لسماع القرآن حتى يتم ختم المصحف الشريف ، ثم يعود الموكب إلى القصر وقد احتشد الناس على جانبي الطريق لمشاهدته ، وعندما يصل الموكب إلى القصر يسلم عليهم الخليفة ، ثم يبدأ بعدها الاحتفال بقراءة القرآن ويتباري خطباء الجوامع الكبرى في الخطابة ، وذكر مناقب الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وما يناسب هذه الذكرى الجليلة ويختتمون الاحتفال بالدعاء للخليفة^(٢).

وقد تأثر الحجازيون بالفاطميين في ذلك فاحتفلوا بمولد النبي - صلى الله عليه وسلم - واستمر ذلك طوال العصرين الفاطمي والأيوبي إذ يذكر ابن جبير أنهم يحتفلون بمولد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول وهو يوم مشهود بمكة حيث تفتح المواضع المقدسة كلها في هذا اليوم^(٣).

ويبدو أن هذا الاحتفال ظل مستمراً بعد ذلك ، فقد ذكر ابن بطوطة أثناء رحلته للحجاز أنهم يفتحون الكعبة المشرفة في يوم مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم -^(٤).

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٤٣٣ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٩٢ ، البتانوني : الرحلة الحجازية ص ٥١ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

ثانياً : الملابس والأطعمة والأشربة

١- الملابس :

تمتعت مصر بشهرة كبير في فن صناعة النسيج منذ أقدم العصور واستمرت تلك النهضة خلال العصرين الفاطمي والأيوبي ، فقد اشتهرت بعض المدن المصرية بإنتاج أنواع راقية من المنسوجات أصبحت تنسب إليها ، وكانت موضع الإعجاب لجمالها وجودة صناعتها فكانت مدينة الاسكندرية تشتهر بإنتاج المنسوجات الكتانية الرقيقة التي يقال لها الشرب ، وكانت لجودتها تباع بقيمة وزنها فضة^(١) ، كما اشتهرت مدينة تنيس والقرى المحيطة بها بصناعة أرقى أنواع النسيج من الشرب الرقيقة وكانت تنتج من خيوط الكتان نسيجاً رقيقاً يسمى القصب كانت تصنع منه العمام وملايس النساء^(٢) كما كانت تنتج البرقلمون وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار وكانت القرى المحيطة بتنيس مثل شطا تنسب إليها الملايس الشطوية الراقية وديبق التي اشتهرت بصناعة الثياب الديققية المذهبة والعمائم الشرب الملونة والمذهبة التي تصل طول العمامة منها مائة ذراع وتبلغ قيمة ما فيها من ذهب خمسمائة دينار^(٣) .

وكانت مدينة دمياط تختص بصناعة النسيج الأبيض الذي تبلغ قيمة الثوب منه ثلاثمائة دينار^(٤) .

ونتيجة للتقارب الكبير والاتصال الدائم بين مصر والحجاز في العصرين الفاطمي والأيوبي عرفت مكة في تلك الفترة بالرغم من عسرها ثياباً جديدة من الحرير والكتان وأنواعاً

(١) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ١٦٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

(٤) آدم متر : تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٨ .

براقة تتلألأ وتتغير ألوانها إذا انعكست عليها أشعة الشمس ، وكانت هذه الثياب ترد إليها في تجارتها مع مصر^(١) وعرفت بلاد الحجاز العمائم المزركشة ، وعرفت لبس الجبة بما يشبه شكلها في الوقت الحاضر^(٢) .

وقد روى المقرئ عن الفاطميين « أنهم كانوا يخرجون من خزائن الكسوة إلى جميع خدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير كسوات الصيف والشتاء من العمامة إلى السراويل ، وما دونه من الملابس والمنديل وفاخر الثياب ونقيس الملبوس »^(٣) كما ذكر أن خلعتهم على الأمراء كانت الثياب الديبقي والعمائم بالطراز الذهب وكانت خاصة بالأعياد والمناسبات^(٤) .

وبما لا شك فيه أن الأمراء في مكة كان لهم نصيب طيب من هذه الخلع بحكم صلتهم الوثيقة بالفاطميين ، كما كان يهدى إلى الأشراف في مكة أنواع من هذه الأثواب الموشاة بخيوط الذهب والفضة في مواسم الحج ومناسبات الأعياد ولا بد أن يشيع تقليد هذه الأثواب في الأوساط الراقية في مكة ، وأن تترك أثرها في أزياء الأهالي إلى حد تبدو فيه ملابسهم وقد نالها من التطور ما يجعلها قريبة الشبه بما يلبسه الفاطميون^(٥) .

وقد استمرت هذه العادة في ارتداء الثياب الموشاة بالحجاز طوال العصر الأيوبي فقد ذكر ابن جبير أثناء رحلته أن مكثراً الحسنى أمير مكة كان يرتدي إحدى الخلع التي خلعت عليها عليه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين الأيوبي فيقول : « طلع علينا الأمير مكثراً وغاشيته^(٦) الأقربون حوله وهو رافل في حلة ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب ذيلها وعلى رأسه

(١) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢١٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المقرئ الخطط ج ١ ص ٤٠٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٤١٠ .

(٥) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢١٧ .

(٦) غاشيته : الذين يغشون داره أي يدخلون عليه (ابن جبير : الرحلة حاشية ص ١٢٦) .

عمامة شرب^(١) رقيق سحابي اللون قد علا كورها^(٢) على رأسه كأنها سحابة مركومة وهي مصفحة بالذهب وتحت الحلة خلعتان من الديبقي^(٣) المرسوم البديع الصنعة ، خلعتها عليه الأمير سيف الإسلام طففتكين فوصل بها فرحاً جذلان^(٤) .

أما العلماء وطلبة العلم والمجاورون فقد كانوا يرتدون ثياباً وجيباً مصنوعة من الكتان ، وغالباً ما كانوا يرتدون العمائم السود^(٥) .

كان الحجازيون يستحسنون لبس الثياب البيض فقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « خلق الله الجنة بيضاء ، وخير ثيابكم البيض تلبسونها في حياتكم وتكفنون بها موتاكم »^(٦) .

لذا شاع استعمال الملابس البيضاء في بلاد الحجاز ، وكانت تصنع في الغالب من الكتان والقطن ، وكانت فئات الشعب المختلفة تلبس تلك الثياب البيضاء ، فقد ذكر ابن جبير أن الأمير مكث بن عيسى الحسيني أمير مكة خرج في أول شهر جمادي الأولى سنة ٥٧٩هـ إلى الحرم المكي للطواف كالعادة عند بداية أول كل شهر هجري وكان يرتدي ثوباً أبيض ويتعمم بعمامة صوف بيضاء رقيقة^(٧) .

ويبدو أن هذه الثياب كانت تصنع في مصر وترسل إلى الحجاز ، إذ لم نجد في ضوء المصادر المتاحة ما يدل على وجود مصانع نسيج بالحجاز في هذه الفترة ؛ بل كانت مصر هي

(١) الشرب : هو النسيج الرقيق الذي اشتهرت به مدينتا الاسكندرية وتنبس (المقريري : المخطط ج ١ ص ١٧٧) .

(٢) كورها : الدور منها (ابن جبير : الرحلة حاشية ص ١٢٦) .

(٣) الديبقي : نوع من أنواع النسيج ينسب إلى قرية من قرى دمياط (المقريري : المخطط ج ١ ص ٢٢٦) .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٦ .

(٥) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٣٥ ، البتاتوني : الرحلة الحجازية ص ٥١ .

(٦) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٨ .

(٧) ابن جبير : الرحلة ص ٧٤ .

التي تشتهر بصناعة الثياب البيضاء من الكتان في الاسكندرية^(١) .

وكان لباس المرأة في هذه الفترة يتكون من ملاء فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد ، وإذا خرجت المرأة العربية من بيتها فإنها ترتدي ملاء طويلة تغطي جسمها ، وتحفظ ملابسها ، وتلف رأسها بمنديل يلف فوق الرقبة^(٢) .

وكانت المرأة المصرية في العصرين الفاطمي والأيوبي ترتدي فوق ثيابها ملاء واسعة فضفاضة تخفي كل جسدها^(٣) وكان من وظيفة المحتسب أن يمنع النساء من ارتداء الملابس الخليعة^(٤) .

أما سيدات الطبقة الراقية في الحجاز فقد غالين في التزين وارتداء أنواع الثياب المختلفة من الحرير ، ويبدو أنه كان نوع من التمثل بسيدات الطبقة الراقية في مصر إذ يصف ابن جبير خروج نساء الطبقة الراقية في الحجاز لتأدية العمرة الرجبية بقوله : « قد امتلأت هودج مشدودة على الأبل مكسوة بأنواع الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم ، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته ، فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهودج في أباطح مكة وشعابها ، والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزين ، وأشعرت بغير هدي بقلائد رائعة المنظر من الحرير وغيره ، ومن أغرب ما شاهدناه من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليته الحسني عمة الأمير مكثر فإن أذيال ستره كانت تنسحب على الأرض انسحاباً وغيره من هودج حرم الأمير وحرَم قواده »^(٥) .

(١) آدم مترز : تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٩ .

(٣) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص ٢٨٣ .

(٤) ابن الأخوة : معالم القرية في أحكام الحسبة ص ٢٤٤ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ١٠٧ .

ب- الأطعمة والأشربة :

تميزت مصر على مر العصور بوفرة خيراتها ، وكثرة إنتاجها الزراعي والصناعي والحيواني والذي كان غالباً مايزيد عن حاجتها ، فلم تبخل بخيراتها على جيرانها وقامت بسد حاجتهم من الغلال والأطعمة والصناعات الغذائية وخاصة بلاد الحجاز التي غلب الفقر على سكانها ، فقد كان سكان الحجاز يعتمدون على الرعي أو كربي الجمال أو بيع الماء واللبن أو الحطب أو بعض الثمار ، وكان طعامهم قليلاً ، وكانت وجباتهم لا تعتمد على كثير من أصناف الطعام ؛ إلا أنه كان هناك بعض الأطعمة التي اشتهر بها أهل الحجاز مثل :

الهريسة والحريرة والثريد والفالودج (١) .

ويبدو أن هذه الأطعمة قد نقلت إلى الحجاز من مصر التي اشتهرت بكثير من أنواع الطعام المختلفة مثل الهريسة وهي طعام يتكون من خليط القمح واللحم وكان أصحاب هذه الصناعة يسمون بالهراثسين (٢) وكان المحتسب وأعوانه يشرفون على صناعة الهريسة في الأسواق حتى لايقوم بعضهم بغشها ، ويلزمونهم بعملها طبقاً للنسب المقررة (٣) ، ثم يختمون على قدور الهريسة بعد إتمام صنعتها لمنع تغيير ما فيها (٤) .

وكما كانت في مصر تصنع في دار الفطرة قصور السكر الضخمة التي تزن الواحدة منها سبعة عشر قنطاراً ويحملها العتالون ليزينوا بها سماط عيد الفطر ، وكانت تلك الأسطة تزين أيضاً بأطباق من قماثيل السكر على أشكال مختلفة وتوزع منها كميات كثيرة على الحاضرين (٥) .

(١) جميل حرب : الحجاز واليمن ص ٢٤٤ .

(٢) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٣٦ .

(٣) النسبة المقررة هي لكل صاع من القمح ثمانى أواق من لحم الضأن وروطل من لحم البقر (المصدر السابق) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

ولقد تأثر أهل الحجاز بهذه العادة فيخبرنا ابن جبير أنهم يصنعون من الحلوى أنواعاً غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى قد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية وجلبت في منصات كأنها العرائس وتوضع على أسمطة بين الصفا والمروة للمشتريين في الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان^(١) .

ويذكر ابن جبير من أنواع الطعام بالحجاز اللبن الذي يشرب ويصنع منه السمن والجبن ، والعسل المسعودي الذي يضرب به المثل في الجودة والطيب، والرطب وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجره يجنى ويؤكل^(٢) والمشروب الوطني في البلاد هو القهوة العربية التي تقدم للضيف ولكن دون مزجها بالسكر^(٣) أما الماء فيؤخذ من الآبار ويضعونه في أوان خزفية تسمى « أزياراً » لتصفيتها وتبريدها^(٤) .

كسوة الكعبة :

حظيت مصر بشرف صنع كسوة الكعبة الشريفة منذ العصر الجاهلي ، وقبل أن يشرق نور الإسلام على أرضها بفترات طويلة وسبب ذلك اشتهاؤها بصناعة الثياب الجيدة مثل القباطي وغيرها .

ويخبرنا المسعودي أن أول من كسا الكعبة الملك اليمني تبع بن حسان أبو كرب الذي ملك اليمن والحجاز ، وكساها القصب اليماني^(٥) وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالجلد والقباطي -وهو قماش مصري - زمناً طويلاً ثم استمر الناس يقدمون إليها الكساوي المختلفة فيلبسونها

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ١٢٠ .

(٤) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٧٦ - ٧٧ .

على بعضها فكان الثوب إذ بلي وضع عليه ثوب آخر^(١) حتى جاء قصي بن كلاب فوضع على القبائل مبلغاً من المال لكسوتها سنوياً واستمر ابنائهم يفعلون ذلك^(٢) .

وكان أبو ربيعة بن المغيرة يكسوها قبل الإسلام سنة ، وقبائل قريش تكسوها سنة أخرى ، وسمي بذلك العدل لأنه كان يعدل بين قبائل قريش في كسوة الكعبة^(٣) .

ويعتبر خالد بن جعفر بن كلاب أول من كسا الكعبة بالديباج ، ومن كسوها بالديباج أيضاً نائلة بنت كلاب أم العباس بن عبد المطلب الذي ضل الطريق وهو صغير فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو الكعبة بالديباج^(٤) .

كسوة الكعبة في صدر الإسلام :

في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - كسيت الكعبة بالبرود وهي ضرب من ثياب اليمن^(٥) .

ولقد كسيت الكعبة بالقباطي في عهدي أبي بكر وعمر^(٦) ، وكان عمر بن الخطاب ينزع الكسوة في كل عام ويقسمها على الحجاج^(٧) وفي عهد عثمان كسيت الكعبة بالقباطي المصرية^(٨) .

(١) البتانوني : الرحلة الحجازية ص ١٣٥ .

(٢) الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

(٥) ابن العاقولي : عرف الطبيب من أخبار مكة ومدينة الحبيب لوحة (٥) ، الصباغ المكي : تحصيل المرام

لوحة (٣٧) ، الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص ١٧٦ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ١ ص ١٢٠ .

(٦) الصباغ المكي : تحصيل المرام لوحة (٣٧) .

(٧) ابن العاقولي : عرف الطبيب لوحة (٥) .

(٨) المصدر السابق .

كسوة الكعبة في العصر الأموي :

ذكر القلقشندي أن معاوية بن أبي سفيان حين تولى الحكم كسا الكعبة مرتين بالديباج والقباطي المصرية فكانت الكعبة تكسى الديباج يوم عاشوراء وتكسى القباطي في أواخر شهر رمضان^(١) ثم قام بكسوتها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، وجرت عادة الخلفاء الأمويين على وضع الكسوة الجديدة فوق الأكسية القديمة^(٢) .

كسوة الكعبة في العصر العباسي :

تولى أبو العباس السفاح الحكم كأول خليفة في الدولة العباسية ، ولم يستمر في الحكم سوى سنوات معدودة إذ توفي سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣م^(٣) فخلفه أخوه أبو جعفر المنصور الذي عمل على توطيد أركان الدولة وتقويتها وتأمينها حتى تولى الخلافة ابنه المهدي وكان جواداً كريماً ، وفي عهده كسيت الكعبة أول كسوة في عهد العباسيين ، فيخبرنا السيوطي أن المهدي حج في سنة ١٦٠هـ / ٧٧٦م فأبلغه حجية الكعبة أنهم يخافون هدمها لكثرة ما عليها من الأكسية فأمر المهدي برفع الأكسية القديمة وأبدلها بكسوة جديدة^(٤) وأصبحت سنة تتبع طوال العصور التالية^(٥) .

وقد كسيت الكعبة القباطي المصرية في عهد المهدي فقد روى المقرئ عن الفاكهي أنه رأى كسوة من قباطي مصر مكتوباً عليها : « بسم الله ، بركة من الله ، مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين - أصلحه الله - محمد بن سليمان أن يصنع في تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامه سنة ١٥٩هـ »^(٦) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) الخريوطي : تاريخ الكعبة ص ١٧٦ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٧٣ .

(٥) الخريوطي : تاريخ الكعبة ص ١٧٦ .

(٦) المقرئ : الخطط ج ١ ص ١٨١ .

ويبدو أن هذه الكسوة هي كسوة العباسيين الأولى للكعبة التي أهداها المهدي عند حجه لمكة سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م .

كما ذكر المقرئ عن الفاكهي أنه رأى كسوة مما يلي الركن الغربي من الكعبة مكتوباً عليها : « بسم الله ، بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع في طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة ١٦٢ هـ » (١) .

وقد كسيت الكعبة في عهد هاون الرشيد القباطي المصرية أيضاً فقد ذكر المقرئ مرة أخرى عن الفاكهي أنه قال : « رأيت أيضاً كسوة لهارون الرشيد من قباطي مصر مكتوباً عليها بسم الله ، بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة ١٩٠ هـ » (٢) .

وقام الخليفة العباسي المأمون بكسوة الكعبة ثلاث مرات فكان يكسوها الديباج الأحمر يوم التروية والقباطي يوم هلال رجب ، والديباج الأبيض في السابع والعشرين من رمضان (٣) .

وكان سائر الخلفاء العباسيين يأمرهم بصنع الكسوة الشريفة في مصر ثم يرسلونها إلى الكعبة كل عام باستثناء بعض السنوات القليلة التي كانت الكسوة تأتي فيها من الخارج (٤) .

كسوة الكعبة في عهد الفاطميين :

يذكر بعض الباحثين أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أمر بعد فتحه مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م بعمل كسوة للكعبة لينافس بها خلفاء بغداد العباسيين وكانت هذه الكسوة مربعة

(١) المقرئ : الخطط ج ١ ص ١٨١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) السيد الدقن : كسوة الكعبة ص ١٢٧ .

الشكل من ديباج أحمر وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبراً وكان في حافتها اثني عشر هلالاً ذهبياً ، في كل هلال أترجة ذهبية ، وفي كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر كما كان فيها الباقوت الأحمر والأصفر والأزرق وقد نقش في حافتها آيات قرآنية زينت كتابتها بالجواهر الثمينة وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك^(١) .

ومما لا شك فيه أن هذه هي الشمسة وليست كسوة الكعبة ، والدليل على ذلك ما ذكره المقرئ في حوادث سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م : « وفي يوم عرفة نصب المعز الشمسة التي عملها للكعبة على إيوان قصره ، وسعتها اثني عشر شبراً في مثلها وأرضها ديباج أحمر ودورها اثنا عشر هلالاً ذهبياً ، وفي كل هلال أترجة ذهب مشبك ، جوف كل أترجة خمسون درة كبيض الحمام ، وفيها الباقوت الأحمر والأصفر والأزرق وفي دورها مكتوب آيات الحج بزمرد أخضر»^(٢) .

فقد أراد الخليفة الفاطمي المعز مناقسة الخلفاء العباسيين بمثل هذه الشمسة الثمينة والغالية القدر بما تحتويه من الذهب والدر والياقوت ، خاصة ، أن الخلفاء العباسيين كانوا منذ عهد المتوكل يرسلون شمسة مكللة ببعض الدر والياقوت إلى الكعبة فيقدم بها قائد يرسل من العراق فيأخذها حجة الكعبة فيعلقونها على الكعبة يوم السادس من ذي الحجة ثم تنزع يوم التروية^(٣) .

أما كسوة الكعبة فمعروف أن الخلفاء العباسيين كانوا يأمرن ولاية مصر بصنعها في مصر ثم يرسلونها إلى الكعبة فلا فضل لهم في صنعها ، وإنما الفضل للمصريين في ذلك ، فكيف للمعز بعد أن ملك مصر أن ينافسهم في ذلك ؟ .

(١) الخريطي : تاريخ الكعبة ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) المقرئ : اتعاظ الخنفا ج ١ ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤١ .

ولعل انشغال المؤرخين بوصف بدائع هذه الشمسة جعلهم ينسون ذكر الكسوة التي أرسلها المعز في عهده إلى الكعبة مما دعا بعض الباحثين إلى القول بأن الفاطميين كسوا الكعبة سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م^(١).

فمن المرجح أن يكون المعز قد قام بكسوة الكعبة والدليل على ذلك هذه الشمسة إذ من غير المعقول أن يرسل المعز هذه الشمسة البديعة الزمن والباهظة التكاليف لكي تعلق على الكعبة دون أن يرسل الكسوة أو يغفل عنها ، وقد ذكر المقرئ أن الستائر نصبت على الكعبة وعليها اسمه ، كما نصبت له المحاريب الذهب والفضة داخل الكعبة وعليها اسمه^(٢).

ولقد استمر الخلفاء الفاطميون من بعد المعز يواصلون إرسال الكسوة إلى الكعبة ففي عهد الخليفة الفاطمي العزيز أرسلت كسوة الكعبة ومعها صلات الأشراف والطيب والشمع والزيت وقد قدر ذلك بمبلغ مائة ألف دينار^(٣).

وقد ظل العزيز طوال فترة حكمه يرسل كسوة الكعبة والصلاة بمعية ركب الحاج سنوياً فلما توفي وتولى الحاكم بأمر الله الخلافة سار على نهجه واستمر يرسل الكسوة إلى الكعبة من القباطي البيض ، وفي عهده يذكر ابن إياس أن جماعة من العريان وثبوا على كسوة الكعبة سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٦م ونهبوها فقام الحاكم بكسوتها بالشنقاص الأبيض ، ولم تكس الكعبة قط بهذا النوع من الثياب إلا في زمن الحاكم بأمر الله^(٤).

وفي سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣١م في عهد الخليفة الظاهر وردت من مصر كسوة الكعبة وأموال للصدقة ، وصلات لأمر مكة^(٥) وفي عهد الخليفة المستنصر كسيت الكعبة الديباج الأبيض^(٦).

(١) السيد الدقن : كسوة الكعبة ص ٣٦ ، إبراهيم حلمي : كسوة الكعبة ص ٤٣ .

(٢) المقرئ : اتعاظ الخنقا ج ١ ص ٢٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٢ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٢٠٥ .

(٥) الفاسي : شفاء القرام ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٢ .

وكانت الكعبة تكسى بالبياض شعار الفاطميين وقد وصفها ناصر خسرو أثناء زيارته للحجاز سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م فقال : « والكسوة التي تغطي بها الكعبة بيضاء وقد طرزت في موضعين عرض كل منها ذراع وبينهما عشرة أذرع تقريباً ، ومن فوقهما وتحتهما عشرة أذرع أيضاً بحيث ينقسم ارتفاع الكعبة إلى ثلاثة أقسام ، كل منها عشرة أذرع بواسطة طرازي الكسوة ، وعلى جوانب هذه الكسوة نسجت محاريب ملونة مزينة بخيوط من ذهب ، وعلى كل ناحية ثلاثة محاريب : محراب كبير في الوسط ومحرابان صغيران على جانبيه ، فعلى النواحي الأربعة اثنا عشر محراباً » (١) .

ولقد استمرت الكسوة ترسل إلى الكعبة في عهد الفاطميين حتى ضعفت الدولة وعاد النفوذ العباسي قوياً في بلاد الحجاز فتولوا هم إرسالها مما يجعلنا نقول أن كسوة الكعبة قد اتخذت - إلى جانب طابعها الديني - طابعاً سياسياً فصارت مظهراً من مظاهر القوة السياسية آنذاك .

كسوة الكعبة في عهد الأيوبيين :

لم يذكر أحد من المؤرخين أن الأيوبيين قاموا بكسوة الكعبة ويرجع السبب في ذلك إلى ما يلي :

أولاً : إنشغال المؤرخين أنفسهم بعرض الأحداث التاريخية المهمة التي تعرضت لها وخاصة جهادهم العظيم ضد الصليبيين .

ثانياً : الدولة الأيوبية كانت تتبع الخلافة العباسية فكان يدعى على منابر مصر للخليفة العباسي (٢) وكان الخلفاء العباسيون يأمرهم بصنع الكسوة الشريفة في مصر ثم يرسلونها إلى الكعبة ، وبالتالي فمن الطبيعي أن يتسبب المؤرخون إرسال الكسوة إلى العباسيين وأن يغفلوا

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن الهيجاء لوحة (٢٤٠) .

ذكر الأيوبيين ، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ المكي ابن عبد القادر الطبري حين قال « إن كسوة الكعبة تأتي من وقف بالديار المصرية ، وهي كسوة من حرير أسود مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ومكتوب فيه سورة الإخلاص وترد كل عام من مصر صحبة أمير الركب المصري ، ويلبسها الكعبة في يوم عيد الأضحى بعد نزولهم من منى ورمي جمرة العقبة »^(١) وهذا دليل على أن الأيوبيين كانوا يرسلون الكسوة لكنها نسبت إلى العباسيين لأن مصر كانت تتبعهم ، كما أن صلاح الدين وقف الأوقاف العديدة على الحرمين الشريفين^(٢) وأهلها ولم يكن ليتأخر عن إرسال الكسوة ، وكذلك خلفاؤه ، حتى انفردت مصر بإرسال الكسوة باسمها في العصر المملوكي^(٣) .

كسوة الحجرة النبوية الشريفة :

كانت مصر تتولى إرسال كسوة الحجرة النبوية الشريفة بالإضافة إلى كسوة الكعبة الشريفة فيخبرنا القلقشندي أن كسوة الحجرة الشريفة كانت ترسل إلى المدينة لكنها لم تكن تجدد في كل سنة مثل كسوة الكعبة ؛ بل كانت تجدد كل سبع سنين أو ما قاربها نظراً لأنها لا تتعرض لأشعة الشمس بخلاف كسوة الكعبة التي تتعرض دائماً لأشعة الشمس فيسرع بلاؤها^(٤) .

وقد ذكر ابن النجار أن أول من كسا الحجرة الشريفة هو الحسين بن أبي الهيثم صهر الصالح طلائع بن رزيق وزير الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين^(٥) .

كسوة الكعبة والمحمل المصري :

كان المحمل يطلق على الجمل الذي يحمل الهدايا العينية والنقدية إلى الكعبة المشرفة ،

(١) ابن عبد القادر الطبري : الأراج المسكي في التاريخ المكي لوجه (٦٧) .

(٢) انظر ص ٢٩٣ من البحث .

(٣) السيد الدقن : كسوة الكعبة ص ٤٥ ، إبراهيم حلمي : كسوة الكعبة ص ٤٥ - ٤٦ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٣ .

(٥) ابن النجار : الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ص ٣٩٤ .

ولقد تبارى ملوك المسلمين وأمراؤهم في إرسال المحامل التي تحمل هداياهم إلى الحرمين الشريفين كل عام^(١).

وقد اختلف المؤرخون حول بداية ظهور المحمل فيرى البعض أن المحمل يبدأ تاريخه من سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م حينما رحلت شجرة الدر زوجة السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب إلى مكة لأداء فريضة الحج فركبت هودجها ، واحتفل بسفرها إحتفالاً شائقاً^(٢) ؛ بينما يرى البعض الآخر أن المحمل قديم جداً ؛ بل ربما يرجع إلى ما قبل الإسلام لأنه كان يطلق على الجمل الذي يحمل الهدايا إلى الكعبة المشرفة^(٣).

والحقيقة أنه من الصعب تحديد بداية ظهور المحمل ، لأن المحمل بهذه الصورة المبسطة التي تقتصر على إرسال جمل يحمل الهدايا إلى البيت العتيق أمر عادي من الممكن حدوثه حتى قبل ظهور الإسلام ، لأن تقديس العرب للكعبة المشرفة وإرسال الهدايا إليها كان أمراً مألوفاً لدى العرب منذ الجاهلية ، أما خروج المحمل في موكب رسمي تحيط به مظاهر الأبهة والزينة فهذه أمور ليست من الإسلام في شيء وقد حدثت في وقت لاحق بعد ظهور الإسلام بقرون عديدة^(٤).

ويبدو أن المحمل بهذه الصورة قد بدأ في عهد الفاطميين الذين تميزوا بالاهتمام بمظاهر الأبهة والترف والزينة ، فقد ذكر المقرئ في عند حديثه عن قافلة الحج : « أنه كان ينفق في كل سنة على القافلة المجهزة إلى مكة في الموسم مائة وعشرون ألف دينار منها عن الطبيب والخلق^(٥) والشمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار ونفقة الوفد الواصلين إلى الحضرة أربعون ألف دينار ، وعن الجرايات والصدقات وأجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية

(١) السيد الدقن : كسوة الكعبة ص ١٧٩ .

(٢) الخريوطي : تاريخ الكعبة ص ١٨٠ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٤٧ .

(٣) البتاتوني : الرحلة الحجازية ص ١٤٠ .

(٤) السيد الدقن : كسوة الكعبة ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٥) الخلق : نوع من الطبيب ، أعظم أجزائه الزعفران (انظر : المعجم الوسيط ج ١ ص ٢٥٢) .

وأمر الموسم وخدم القافلة والضعفاء وحفر الآبار ونفقات العربان ستون ألف دينار^(١) ثم زادت النفقة في وزارة اليازوري حتى بلغت مائتي ألف دينار في السنة ، ولم تبلغ النفقة على موسم الحج مثل ذلك في دولة من دول الإسلام قط^(٢) .

ومن ثم فقد صار خروج المحمل على تلك الصورة عادة يقوم بها حكام مصر كل سنة ، ولعل خروج موكب شجرة الدر في هودج مزين بأبهى زينة ينحيط به الخدم والجنود هو استمرار لهذه العادة التي بدأها الفاطميون .

وكان المحمل يجهز من الديار المصرية بكسوة البيت مع أمير الركب ويكسى البيت بالكسوة المجهزة مع المحمل ، ويأخذ سدنة الكعبة الكسوة التي كانت على البيت فيهدون بها الملوك وأشرف القوم^(٣) وكان من عادة أمير مكة إذا وصل المحمل إلى ظاهر مكة خرج لملاقاته هو وأفراد حاشيته من الأشراف فإذا لقيه ترجل عن فرسه واستقبل أفراد^(٤) .

أمير ركب المحمل (أمير الحاج) :

يعتبر أمير ركب المحمل (أمير الحاج) المسئول الأول عن قافلة الحاج بكل ما فيها ومن فيها ، وقد نشأ هذا المنصب اقتداءً بقول النبي - صلى الله عليه وسلم - « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما - وروى الإمام أحمد في « المسند » عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم » فأوجب - صلى الله عليه وسلم - تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر

(١) بقيت عشرة آلاف من هذه النفقات لم يذكر المقرئ مصارفها (انظر المقرئ: اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٣٠٣-٣٠٤).

(٢) المقرئ: اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ، الخطط ج ١ ص ٤٩٢ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٦ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٧٧ .

منبهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع فتعين بذلك التأمير على حجاج بيت الله تعالى شرعاً ، وهم في الغالب جمع كثيرون^(١) .

وقد ذكر الماوردي أن أمير الحاج ينظر في عشرة أشياء هي :

- ١- جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا .
- ٢- ترتيبهم في المسير والنزول وتعريف كل منهم بمقر إقامته ، فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه .
- ٣- أن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم .
- ٤- أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجدها وأوعرها .
- ٥- أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعي إذا قلت .
- ٦- أن يحرصهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا .
- ٧- أن يمنع عنهم من يصددهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج بقتال إن قدر عليه أو ببذل مال إن أجاب الحجيج إليه .
- ٨- أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين ، ولا يتعرض للحكم بينهم إجباراً.
- ٩- أن يقوم زائغهم ويؤدب خائنهم ولا يتجاوز التعزير إلى الحد .
- ١٠- أن يراعي اتساع الوقت حتى يؤمن الفوات ، ولا يلحقهم ضيقه في الحث على المسير ، فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سنته^(٢) .

(١) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٢١٨ .

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٩٤ .

ولقد كانت بداية إمارة الحاج من مكة المكرمة في السنة الثامنة من الهجرة النبوية حين فتحها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقام بها عتاب بن أسيد أميراً عليهم وأقامه أميراً أيضاً على الحاج ليحج بالمسلمين ، فحج بهم ذلك العام ثم صار أمير الحاج يخرج من المدينة المنورة إلى أن انتقلت الخلافة إلى بني أمية وكانت عاصمة الخلافة دمشق فصار الأمير يخرج بالحاج منها ويجتمع عليه الحجاج من أنحاءها بمكان معلوم ويسير بهم على النهج المنظوم^(١) إلى أن انتقلت الخلافة للعباسيين وصارت بغداد عاصمة لهم فصار أمير الحاج يخرج منها واستمر الحال على ذلك إلى أن فتح الفاطميون مصر فصار أمير الحاج يخرج من مصر بحمله الشريف ، ووردت المحامل من بغداد ودمشق ، وغيرها من البلدان بصحبة أمرائها . لكنهم كانوا يتبعون أمير الحاج المصري لأنه كان المقدم عليهم نظراً للصلات الوطيدة والنفوذ القوي للفاطميين في الحجاز .

فلما ضعفت الدولة الفاطمية وتولى الأيوبيون حكم مصر عاد الأمر إلى بغداد وصار أمير الحاج يخرج منهم كما كان من قبل^(٢) وعاد الحجاج المصريون يؤدون شعيرتهم الدينية تحت زعامة أمير الحاج العراقي .

وكان لأمر الحاج هيبة كبيرة بالإضافة إلى القوات التي يصحبها معه للمحافظة على الحجاج ففي سنة ٣٦٧هـ أرسل الخليفة الفاطمي العزيز باديس بن زيري الصنهاجي أميراً على موسم الحج وأمره بطائفة من الجند فاستطاع أن يؤمن الحاج ، وحينما أراد قطاع الطرق من الأعراب مفاوضته على ترك الحجيج دون أذى مقابل خمسين ألف درهم يدفعها لهم ، رفض وتمكن من القضاء عليهم ، وأنزل الرعب في نفوس الأعراب الذين كانوا يحاولون التعرض للحجاج وأنقذ الحجاج من سطوتهم^(٣) .

(١) الرشدي : حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٨٠ ، المقرئ : المقفي الكبير ص ٢٩٩ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٢٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤١٥ - ٤١٦ .

وقد بدأ أمير الحاج المصري في العهد الفاطمي يتدخل في الشؤون الداخلية لمكة منذ سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م حين صحب قافلة الحاج المصرية ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل لمساعدة أمير مكة في القضاء على أحد الخارجين عليه (١).

وقد استمر نفوذ أمير الحاج المصري قوياً حتى ضعفت الدولة الفاطمية وازداد النفوذ العباسي قوة في الحجاز فشرع أمير الحاج العراقي يظهر هيئته .

ففي موسم سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م دخل أمير الحاج العراقي مكة وعلى رأسه الأعلام ، والسيوف في ركابه ويذكر سبط بن الجوزي أنهم قصدوا بذلك إذلال أمير مكة وعبيده لأنهم كانوا عصاة على بني العباس لا يرون إمامتهم ولا يخطبون لهم (٢).

ولم يكتف أمير الحاج العراقي بإظهار هيئته في مكة ؛ بل شرع يتدخل في شئون مكة الداخلية فقد ذكر المؤرخون أنه في موسم سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م سار أمير الحاج العراقي أرغش التركي إلى مكة ومعه طائفة من الجند العباسي وقام بعزل أمير مكة قاسم بن هاشم الحسني بحجة مصادرتة لأموال المجاورين ، وولى مكانه عمه عيسى بن قليته الحسني (٣).

وفي سنة ٥٧١هـ أمر الخليفة العباسي أمير الحاج العراقي طاشتكين بن عبد الله المقتفوي أن يعزل أمير مكة مكث بن عيسى الحسني وأمدّه بعسكر كثير وعدد من المنجنقات والنفاطين ، وجرى بينهما قتال شديد تمكن فيه أمير الحاج العراقي من هزيمة أمير مكة الذي فر هارباً ، وولى أمير الحاج العراقي مقاليد الأمور بمكة إلى أمير المدينة قاسم بن مهنا الحسني الذي رأى نفسه عاجزاً عن إدارة الأمور بمكة ، فقرر أمير الحاج إعادة داود بن عيسى الحسني

(١) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورقة ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٥ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٢٣

أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣٩ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة

للإمارة بعد خلع أخيه مكثراً وأخذ عليه العهود والمواثيق بإسقاط المكوس عن الحجاج^(١) .

وعلى هذا نرى مدى تدخل أمراء الحاج في شئون مكة الداخلية .

إلى أن أصبحت مكة تابعة للأيوبيين يولون عليها الولاية من قبلهم ، فلم يعد لأمراء الحاج نفوذ في مكة ، ولم تعد لهم قوة تذكر .

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٢٧٥-٢٧٦ ، ج ٤ ص ٣٥٥ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ٧٧ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٧ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ج ٢ ص ٢٠٥ ، ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة (٤٦) ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٤٠ ، دحلان : خلاصة الكلام ص ٢١ .

طريق الحاج من مصر إلى الحجاز في عهدي الفاطميين والإيوبيين

كان الحجاج أغلب ما يفدون آنذاك من طريق مصر يصلون إليها من الأندلس والمغرب وإفريقيا براً وبحراً فيصلون إلى مصر ليجتمعوا مع من اجتمع فيها من غيرهم بالقاهرة ومن ثم يتجه بعضهم إلى السويس بعد شهر رمضان حيث تنقلهم المراكب الشراعية إلى جدة^(١).

ويمضي الكثيرون في طريق الصعيد إلى عيذاب وقد روى المقرئزي أن حجاج مصر والمغرب أقاموا أكثر من مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب ، فيركبون النيل من ساحل مدينة الفسطاط إلى قوص^(٢) وتستغرق رحلتهم في النيل ثمانية عشر يوماً^(٣).

وكان الحجاج يستريحون في قوص وقد وصفها ناصر خسرو أثناء زيارته لها سنة ١٠٥٠ هـ / ١٠٥٠ م بأنها مدينة قديمة محاطة بسور من الحجر وفيها أبنية عجيبة تبعث العجب في نفس من يراها^(٤).

وقد نزل ابن جبير سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م في مدينة قوص بفندق كبير خارج المدينة ووصفها بأنها « حافلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين والحبشيين لأنها محط الرجال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم »^(٥).

(١) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢١٨ .

(٢) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٤٠١ .

(٤) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٦ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ٤١ .

ويتجمع الحجاج من قوص في المبرز ، وهو موضع بقبلي البلد ، وعلى مقربة منه فسيح الساحة ، محدق بالنخيل ، كثير المياه^(١) ثم يركبون الأبل من قوص ويعبرون الصحراء إلى عيذاب^(٢) .

وكانت الصحراء معمورة أمنأ نظراً لمرور القوافل العيذاوية والقوصية بها صادرة وواردة^(٣) .

وقد ذكر ابن جبير أنهم أرادوا إحصاء عدد القوافل الواردة والصادرة فلم يستطيعوا لكثرتها^(٤) .

وكان الطريق في هذه الصحراء أمنأ يجد الحجاج على قارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائر السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذا السبيل إما لإعياء الأبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة على كثرة المار عليها من أطوار الناس^(٥) .

وكانت الرحلة في هذا الطريق تستغرق سبعة عشر يوماً من قوص إلى عيذاب^(٦) وقد ذكر ناصر خسرو أثناء زيارته لمدينة عيذاب في العصر الفاطمي أنه لا يوجد فيها ماء سوى ماء المطر فلا يثر فيها ولا عين ، وكانت قرية الماء تباع فيها بدرهم أو درهمين^(٧) .

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٤١ .

(٢) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٤٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٣ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٤ .

(٦) الجزيري : درر الفوائد ج ١ ص ٤٠١ .

(٧) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٩ .

ويبدو أن عيذاب قد وجدت الرعاية من حكام مصر بعد ذلك إذ يؤكد ابن جبير وجود المياه فيها أثناء زيارته لها في العصر الأيوبي فيذكر أن قافلة الحجاج نزلت على ماء الخبيب ، وهو موضع برأى العين من عيذاب ، يستقي منه القوافل ، وأهل البلد ويعم الجميع ، وهي بئر كبيرة^(١) .

وكانت عيذاب تعتبر من أحفل مراسي الدنيا نظراً لكثرة المراكب التي تحط فيها من الهند واليمن وتقلع منها بالإضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة^(٢) .

وكان أهل عيذاب يأخذون من الحجاج على كل حمل طعام يحملونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة بالإضافة إلى المكوس التي كانت تفرض عليهم وعلى التجار ، وقد رفع صلاح الدين كل هذه المكوس والضرائب عن الحجاج^(٣) .

وبعد إقامة الحجاج في عيذاب مدة ثلاثة وعشرين يوماً^(٤) يركبون السفن في البحر إلى جدة ساحل مكة^(٥) فيصلون بعد ثمانية أيام^(٦) ثم يتجهون براً إلى مكة لتأدية فريضة الحج .

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٤٥

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص ٤٩ .

(٥) المقرئزي : المخطط ج ١ ص ٢٠٢ .

(٦) ابن جبير : الرحلة ص ٥٢ .

تأجيل لقب خادم الحرمين الشريفين

ظهر لقب خادم الحرمين الشريفين في العصر الأيوبي ، وكان يقصد به من يتولى الإشراف على المسجد الحرام بمكة المكرمة ، ومسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة المنورة ، ورعاية هذين المكانين المقدسين لما لهما من شأن كبير في نفوس وقلوب المسلمين في شتى الأمصار الإسلامية .

وقد أطلق هذا اللقب لأول مرة على صلاح الدين الأيوبي^(١) ، وإن كانت المصادر التاريخية لا تمدنا بمن أطلق عليه هذا اللقب الذي وجد في نقش مؤرخ في سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩٠ م في قبة يوسف ببيت المقدس^(٢) .

وقد استمر هذا اللقب يطلق على من تولى الإشراف على الحرمين الشريفين من الأيوبيين ، فقد ذكر المؤرخون أن الملك الكامل كان يخطب له في مكة ويقولون عنه « صاحب مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، وخادم الحرمين الشريفين أبو المعالي محمد الكامل ناصر الدين خليل أمير المؤمنين »^(٣) .

وقد صار هذا اللقب من جملة الألقاب التي اصطلح عليها للسلطان بالديار المصرية^(٤) .

(١) كان صلاح الدين يطلق على نفسه الخادم في مراسلاته للخليفة العباسي الناصر لدين الله ففي سنة ٥٧٥ هـ كتب إليه حين عزم على المسير إلى مصر فقال : « وقد توجه الخادم إلى الديار المصرية لتجديد النظر فيها وترتيب مصالحها » (انظر : ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ٥٢) .

(٢) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ٢٦٨ نقلاً عن Repertoire ج ٩ رقم ٣٤٤٧ ، عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ١٥٣ ، ريتشارد مورتييل : مكة في العصر المملوكي ص ٣٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٨٢ - ٨٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ٢ ص ٢٨٣ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج ١ ص ٦٠٩ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ١٢٤ .

الفصل الثاني
الناحية الاقتصادية

الفصل الثاني

الناحية الاقتصادية

مدخل :

إن العلاقات الاقتصادية بين مصر والحجاز علاقات وطيدة ، وقديمة إذ كانت صلات مصر ببلاد الحجاز قائمة على التجارة ، ويذكر بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص أتى إلى مصر في الجاهلية وقام بزيارة الاسكندرية مع بعض التجار المصريين .

وبعد الفتح الإسلامي خرجت القوافل من مصر تحمل المؤن للحجاز لتتقذه من محنة اقتصادية شديدة انتابته نتيجة للجذب والقحط لعدم سقوط الأمطار .

وتمثل العلاقات الاقتصادية بين مصر والحجاز وضعاً مميزاً نظراً لما قام به حكام مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي من رعاية مالية واقتصادية لسكان الحجاز وأشرافه .

فقد كانت قافلة الحاج المصرية تخرج كل عام من مصر إلى الحجاز تحمل الأموال والغلال والمؤن لأهل الحجاز ؛ بل إن الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر كان أثرها يظهر واضحاً وجلياً على بلاد الحجاز فتنشأ هناك أزمات ومحن أيضاً .

وهذا الفصل سوف يتناول الدعائم الثلاث التي يقوم عليها الاقتصاد وهي الزراعة والصناعة والتجارة ويبين أثرها في كل من مصر والحجاز ثم يعرض للمعونات الاقتصادية المصرية للحجاز والأزمات الاقتصادية التي مربها البلدان وأثرها على العلاقات بينهما .

أولاً: الزراعة

تعتمد بلاد الحجاز في زراعتها على مياه الأمطار والعيون والآبار^(١) ، ويمثل المطر المصدر الرئيسي لمياه الري اللازمة للزراعة في الحجاز^(٢) وقد أقيمت البرك لتخزين مياه الأمطار في أطراف الأودية ، واستخدمت لسقيا الدواب ، وفرعت منها قنوات كثيرة لري المزارع^(٣) .

ومن أهم المحاصيل الزراعية بالحجاز : الذرة - الشعير - القمح (الحنطة) وتعتبر الذرة الغذاء الرئيسي لبعض السكان نظراً لقلّة إنتاج البلاد من القمح ، وتزرع في السرين^(٤) والصفراء^(٥) وخيبر^(٦) .

أما الشعير فيزرع بالمدينة المنورة ويعتمدون عليه في غذائهم بعد التمر وكان محصوله يسد جانباً من احتياجاتهم إلى الحبوب^(٧) ويزرع الشعير بالطائف والقرى المحيطة بها^(٨)

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٦ .

(٢) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص ٢٧٦ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ج ١ ص ٣٣٩ .

(٤) السرين : مدينة في طريق مكة من اليمن بالقرب من يلملم وهي من عمل مكة وأكثر زروعهم الذرة والسّمسم (الحميري : الروض المعطار ص ٣١٢) .

(٥) الصفراء عرض كبير من أعراض المدينة فيه أودية وقرى يقع بين ينبع والمدينة وماؤه يجري على ينبع - (حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ١٩٥) .

(٦) خيبر : بلدة عامرة أهلة ذات نخيل وحدائق ومياه وهي في جهة الشمال والشرق من المدينة على نحو ست مراحل (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩١) .

(٧) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ١٩٧ .

(٨) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص ٢٩١ .

ويعتبر القمح أقل انتشاراً في الحجاز من الشعير والذرة لأنه يحتاج إلى كميات كبيرة من المياه عند زراعته ، لذا نجده يزرع في الأماكن الأكثر مطراً ، وعلى مياه العيون وتعتبر الطائف من أهم مناطق الحجاز المنتجة للقمح إلا أن إنتاجها لا يكفي حاجة البلاد الحجازية^(١) .

وتوجد بعض المزروعات الأخرى في الحجاز مثل البقول فيذكر الرحالة ابن جبير أنه رأى أنواعاً من البقول التي تزرع بالحجاز كالبادنجان والسلجم (اللفت) والجزر والكرنب^(٢) ويخبرنا القلقشندي أن البقول تزرع بالحجاز في بطن مر^(٣) وفي الطائف^(٤) .

وأكثر فواكه مكة تصدر عن الطائف ، وقد وصفها كثير من الجغرافيين العرب بأنها مدينة صغيرة متحضرة مياهها عذبة ، وهواؤها معتدل ، وفواكهها كثيرة وضياعها متصلة^(٥) .

ويعتبر النخيل من رموز الزراعة الصحراوية ومن أهم علاماتها^(٦) إذ تتحمل أشجار النخيل العطش والجفاف وشدة الحرارة^(٧) ومن النادر أن يوجد نبات آخر مثمر يمكنه التكيف لهذه الظروف مجتمعة ، وتعد منطقة المدينة المنورة أهم مناطق تجمعات النخيل بالحجاز يليها منطقة الطائف ، ثم منطقتي جدة ومكة^(٨) .

ويوجد بالحجاز نبات البلسان وهو من العقاقير الطبية الشرقية التي اشتهرت في كل

(١) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص ٢٩١ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ٩٧ .

(٣) بطن مر : واد من أودية الحجاز في الشمال من مكة على مرحلة منها على طريق حجاج مصر والشام ، بها عدة عيون ومياه تجري ونخيل ومنها تحمل البقول إلى مكة (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٥٩) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الأدرسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٤٤ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٧٩ ، ابن حوقل : صورة الأرض ص ٣٢ ، ابن الجاور : تاريخ المستبصر ص ٢٢ - ٢٣ ، الحميري : الروض المعطار ص ٣٧٩ .

(٦) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص ٢٩٢ .

(٧) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج ٢ ص ٣٩١ .

(٨) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص ٢٩٢ .

مكان ، ويزرع البلسان البري في الحجاز^(١) ويسمى شجره بالبشام^(٢) ويزرع بمكة^(٣) ووادي العقيق^(٤) ويبدو أن شتلته كانت تصدر إلى مصر لأن بها نوع جديد يسمى بلسم مكة^(٥) .

ويمكن القول من خلال ماسبق أن الزراعة في هذه المناطق شبه الصحراوية لم تكن بقادرة على كفاية سكانها جميعاً فقد كانت مساحتها وإنتاجيتها وفائضها أقل من أن تعول أعداداً متزايدة من السكان^(٦) مما جعلها تعتمد في حاجاتها الضرورية اعتماداً كبيراً على مصر وما تنتجه أرضها من غلات ومحاصيل وخضروات فقد كانت الزراعة دائماً هي الدعامة الأساسية للإقتصاد المصري .

وقد وصف المقدسي ما تقدمه مصر للحجاز من خيرات فقال : « مصر إقليم كرر الله في القرآن ذكره ، وأظهر للخلق فضله ، مصر قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وبخيراته تعمر الحجاز ، وبأهله يبهج موسم الحج ، وبره يعم الشرق والغرب »^(٧) .

ويعتبر القمح الغلة الرئيسية الأولى في مصر ، وكانت ترسل منه كميات كبيرة إلى بلاد الحجاز لمساعدة أهلها فقد كانت قافلة الحاج المصرية تتجه إلى الحجاز كل عام وبها صلات الأشراف وأحمال القمح والشعير والدقيق وسائر الحبوب^(٨) .

وقد ذكر المقدسي حين زيارته لمصر أنه رأى في قرية مشتل كثير من الطواحين التي يحمل منها أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك ، وقد أحصى ذلك في وقت من أوقات السنة فإذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل في كل أسبوع كلها حبوب ودقيق^(٩) .

(١) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة ص ٢٠٦ ، أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ١٩٩ .

(٢) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٨٦ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الجزيري : درر الفرائد المنظمة ج ٢ ص ١٤٠٧ .

(٥) نعيم زكي : طرق التجارة ص ٢١١ .

(٦) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص ٢٧٤ .

(٧) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٣ .

(٨) المقرئزي اتعاظ الخنفا ج ١ ص ٢٤٦ .

(٩) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٥ .

ويخبرنا المقرئزي أن الفاطميين كانوا يرسلون للحجاز ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعين أردباً من الغلال^(١).

ولما تعرضت مصر للشدائد والقحط نتيجة انخفاض مياه النيل وتعرض اقتصادها لأزمات شديدة تتوقف معها إمدادات الغلال لبلاد الحجاز ، كان الحجازيون يسارعون إلى مصر مستغيثين لطلب العون والمساعدة^(٢).

بعد زوال الدولة الفاطمية من مصر وتولي الأيوبيين للحكم أمر صلاح الدين أن يرسل للحجاز ثمانية آلاف أردب من القمح كل عام^(٣).

وقد ذكر ابن جبير أن صلاح الدين أمر أشرف الحجاز بإلغاء المكس المفروض على الحجاج وعوضهم عنه ألفي دينار وألفي أردب من القمح كل عام^(٤).

ولقد كانت أسعار القمح في الحجاز مرتبطة بما ترسله مصر فإن توقفت إمدادات مصر لهم ارتفعت أسعاره إرتفاعاً شديداً .

فيذكر القاسي أنه في سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م كان بمكة غلاء شديد وارتفعت أسعار الخبز فبلغ عشرة أرطال بدينار مغربي وتعذر وجوده فأشرف الناس والحجاج على الهلاك ، وكان سبب هذا الغلاء عدم زيادة النيل بمصر على العادة ، فلم يحمل منها الطعام إلى مكة^(٥).

وفي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م بلغ الحب بمكة خمسة أمداد بدينار لتأخر وصول الميرة من مصر فلما وصلت جلبتان مشحونتان بالغلال من مصر أحيا الله المسلمين وفرج عنهم بها وانخفضت الأسعار^(٦).

ويذكر العماد الأصفهاني أنه في سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م كان القمح في مكة يباع منه

(١) المقرئزي : اتعاظ الخنفا ج ٣ ص ٨٠ .

(٢) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص ١٩٢ .

(٣) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص ١٥٤ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ٥٥ .

(٥) القاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٦) المصدر السابق .

الويبة وبيع بدينار مصري ، وهذا غلو شديد في سعره فلما أرسل صلاح الدين ثمانية آلاف أردب من القمح ^(١) انخفضت الأسعار إنخفاضاً شديداً ويسر على الناس .

ومن ذلك نجد أن مصر كانت تكمل النقص الموجود في الحجاز من الغلال وتيسر على المسلمين والحجاج به ، ولقد كانت مصر تستورد من الحجاز شجر البلسان البري الذي تجود زراعته في البيئة الصحراوية . ويخبرنا الجزيري بذلك فيقول : « شجر البلسان البري أخذناه من رؤوس جباله مراراً يمر الراكب به في مضيق وجبال وعرة وواد يسمى واد العقيق ، وحمل من هذا المحل شجر البلسان من حوالي فساقى مكة المشرفة إلى القاهرة المحروسة مغروساً في الطين الموضوع في شقاف من الخشب المتقنة المحكمة الصنعة ورجل يسقيه ويقوم عليه إلى أن زرع بغيط البلسان بأرض المطرية » ^(٢) .

أثر الزراعة في حياة السكان بمصر والحجاز :

لقد كان للزراعة في مصر والحجاز أثر واضح في رخص الأسعار ووفرة السلع الغذائية مما أحدث رواجاً اقتصادياً وانتعاشاً اجتماعياً في حياة السكان باستثناء الفترات التي حدثت فيها أزمات اقتصادية نتيجة القحط والجفاف .

ففي مصر نجد أنها تعتمد في زراعتها على نهر النيل ، وإذا نقص فيضان النيل عن المستوى اللازم لري الأراضي ، كان المصريون يعجزون عن تلاقي النتائج الخطيرة المترتبة على هذه الظاهرة الطبيعية نظراً لعدم وجود نظام للري الثابت يركز على قواعد علمية دقيقة ^(٣) .

أما الفيضان العام فلم يكن يقل خطراً عن الفيضان المنخفض ، وبرغم أنه كان قليل الحدوث إلا أن أثره كان خطيراً لأنه يغرق الأراضي ويفسد المراعي ويهلك الماشية اللازمة للزراعة ، وفي كل هذه الحالات كانت الزراعة تتعذر في كثير من المناطق .

(١) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص ١٥٤ .

(٢) الجزيري : درر الفرائد المنظمة ج ٢ ص ١٤٠٧ .

(٣) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٧٩ .

ويترتب على ذلك قلة العرض من المواد الغذائية بالنسبة إلى الطلب وترتفع الأسعار^(١) ويسود الغلاء الذي يؤثر في حياة السكان نتيجة قلة المزروعات الغذائية ، وحينما يصل ارتفاع النيل إلى الحد المناسب والمنسوب الملائم للزراعة يقوم الفلاحون بزراعة الأراضي ، وتنخفض الأسعار وتتوفر المواد الغذائية وتهدأ الأحوال وتستقر الأمور وتستقبل البلاد الرخاء^(٢) .

ويخبرنا ناصر خسرو أنه عند زيارته لمصر كان النيل قد بلغ حد الوقاء المناسب^(٣) فكان الرخاء عظيماً لدرجة أنه رأي في يوم هذه الفواكه والرياحين : الورد الأحمر ، والنيلوفر والرنجس ، والنانج ، والليمون والتفاح ، والياسمين ، والريحان ، والسفرجل والرمان ، والكمثرى ، والبطيخ ، والموز ، والزيتون ، والرطب ، والعنب ، وقصب السكر ، والباذنجان ، والفلول الأخضر وغيرها من المزروعات الكثيرة .

ويذكر أن سبب إجتماع كل هذه الأشياء بمصر هو جودة جوها الذي يشمل البارد والحار^(٤) .

ويذكر المقدسي حين زار مصر في أوقات الرخاء بأن الفسقاط حسن الأسواق والمعاش ويطول الوصف بنعت أسواقه ، وأنه اشترى به الخبز الحواري ثلاثين رطلاً بدرهم ، والبيض ثمانية بدانق ، والموز والرطب بها رخيص^(٥) .

ويصف الأدرسي مدينة الفسقاط بأنها مصر^(٦) وهي مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب ، والطيب والحسن ، فسيحة الطرقات ، متقنة البناءات ، قائمة الأسواق ، نافقة التجارات متصلة العمارات ، نامية الزراعات ، لأهلها هم سامية ، ونفوس نقية عالية ، وأموال مبسطة نامية ، وأمتعة رائعة ، لا تشغل نفوسهم بهم ، ولا تعقد قلوبهم على غم لكثرة أمنهم

(١) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٩٣ .

(٤) المصدر السابق ١٠٣ .

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٦) الإدرسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٢٢ .

ورفاهة عيشهم^(١) .

والحقيقة أن الإدريسي بين أثر الزراعة الكبير في حياة السكان من خلال هذا التحليل النفسي العظيم الذي عرض له ، فالزراعة هي مصدر رخاء مصر ومنبع ثرواتها ، فالمحاصيل الزراعية الغذائية المتوفرة تؤثر تأثيراً إيجابياً على نشاط السكان اليومي فينطلقون لتحقيق التقدم في شتى المجالات .

وفي الحجاز الذي يعتمد على المطر في معظم أراضيه ، كان هطول الأمطار سبباً في الرخاء الناشئ عن الزراعة ، وانخفاض أسعار المحاصيل الزراعية ، وإذا انعدم المطر أجذبت الأرض ، وقحطت ، وجفت الموارد وارتفعت الأسعار ، وساد الغلاء ومن ذلك ماحدث في سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م .

فيقول ابن فهد : « نال أهل مكة الجهد وأضر بهم القحط وأهلك المواشي الحر ، فإن المطر لم يهطل عليهم في الربيع ولا الخريف ولا الشتاء »^(٢) .

ويذكر ابن جبير عند زيارته لمكة أن الحجازيين كانوا في رخاء نتيجة سقوط الأمطار وزراعة الأرض فيقول : « وكانوا يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ولين سعرها وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم ، كان سعر الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمني وهي أويتان من كيل مصر وجهاتها ، والأويتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربي »^(٣) .

ولاشك أن رخص الأسعار أدى إلى ازدهار الأحوال في البلدين ، باستثناء حالات القحط والجفاف التي كانت تؤدي إلى الغلاء وشدة المعاناة والضييق .

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٢٣ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٤٧ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ١٠٠ .

ثانياً : الصناعة

إن الحياة التي كانت سائدة في بلاد الحجاز يغلب عليها طابع البداوة نظراً لبيئتها الصحراوية لذا لم تتقدم بها الصناعة تقدماً ملحوظاً مثل مصر لأن الصناعة تحتاج إلى الاستقرار وتوفر المواد الخام المعدنية والزراعية ، كما تتطلب كثرة الأسواق والمستهلكين .

لذا بقيت الصناعات في الحجاز قليلة وبسيطة ؛ بل يدوية ويدائية مثل صناعة الحلبي في المدينة المنورة^(١) نظراً لتوفر معدن الذهب في الحجاز بالقرب من المدينة المنورة وبين ينبع والمروة^(٢)

ونظراً لتوفر معدن الحديد بعدة أماكن من الحجاز فقد قام أهل الحجاز بصناعة بعض أنواع الأسلحة مثل صناعة السيوف في مكة والمدينة ، والسهام التي كانت تصنع برقم المدينة وإليها تنسب السهام الرقميات^(٣) .

وفي الطائف قامت صناعة دبغ الجلود ، ويذكر الإدريسي أن بالطائف تجار مياسير ، وجل بضائعهم صنع الأديم وأديمها عالي الجودة ، رفيع القيمة^(٤) .

ويخبرنا ابن جبير أن صناعة الحلوى قامت في مكة فكانوا يصنعون منها أنواعاً غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات مختلفة^(٥) ويبدو أن العسل والسكر كانا يجلبان إليها من مصر ضمن ما تأتي به قافلة الحاج المصرية^(٦) .

(١) العباسي عمدة الأخبار ج ٥ ص ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٥٨ .

(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ٩٨ .

(٦) المصدر السابق .

ونظراً لتوفر حجارة الرحي بالحجاز^(١) صنعت الرحي التي تطحن الغلال وكانوا يطحنون السدر وهو سوق النبق^(٢) وقد صنعت بعض الأدوات الفخارية لحفظ مياه الشرب كما صنعت بعض أواني الطهي^(٣).

أمامصر فإنها تقدمت تقدماً ملحوظاً في النشاط الصناعي مما أثر تأثيراً واضحاً في التقدم الاقتصادي بها ، فقد استطاعت الدولة أن تصدر ما فاض عن احتياجاتها وتستورد ما لم تستطع إنتاجه مما أحدث رواجاً كبيراً في الاقتصاد ظهر أثره واضحاً على سكان البلاد .

ويمثل التعاون الصناعي بين مصر والحجاز في العصرين الفاطمي والأيوبي صورة طيبة لما يجب أن يكون عليه التعاون بين البلدان العربية والإسلامية لتحقيق الرخاء والازدهار لشعوبها .

فقد كانت مصر تصدر كل عام إلى الحجاز الزيت والدقيق والشمع والطيب بصحبة قافلة الحاج^(٤).

ويخبرنا القلقشندي أن مصر كانت ترسل إلى المدينة المنورة كل عام سبعة وعشرين قنطاراً من الزيت الحار لإضاءة قناديل المسجد الشريف بالمدينة المنورة ، ومائة وستين شمعة ما بين كبيرة وصغيرة^(٥).

واشتهرت مصر بتفوقها في صناعة المنسوجات ، وكانت أهم مراكز هذه الصناعة في تنيس وتونة وشطا وديبق ودمياط .

لذا فإن مصر طوال العصرين الفاطمي والأيوبي كانت تقوم بإعداد كسوة الكعبة المشرفة وإرسالها كل عام بصحبة قافلة الحاج ، ويروي المقرئ عن المسيحي حوادث سنة ٣٨٤هـ أنه في

(١) ابن الجاور : تاريخ المستبصر ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٤٤ .

(٤) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١٥ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٤ .

ذي القعدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهدية وهي أسفاط وتخوت وصناديق مال وخيل وثلاث مظل وكسوتان للكعبة^(١) .

ولقد كان أشرف مكة يرتدون الملابس المنسوجة في مصر .

إذ يذكر ابن جبير أنه أثناء رحلته للحج شاهد في مكة الأمير مكث بن عيسى الحسيني وهو يرقل في حلة ذهب وعلى رأسه عمامة شرب ، ومعروف أن الشرب نسيج رقيق اشتهرت به مدينتا تنيس ودمياط^(٢) .

كما يذكر أنه كان يرتدي تحت الحلة خلعتان من الديبقي المرسوم البديع الصنعة^(٣) والقماش الديبقي من أجود أنواع الأقمشة التي كانت تصنع بمصر آنذاك^(٤) .

ويذكر المقدسي أثناء زيارته لمصر أنه رأى بمصر كثيراً من الطواحين بمدينة مشطول ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك^(٥) .

ويخبرنا المقرئ أن الحكومة المصرية في عهد الفاطميين كانت تنفق كل عام عشرة آلاف دينار ثمن الطيب والحلوى والشمع مما يصدر إلى الحجاز^(٦) .

ولقد ساهم العمال بدورهم في التعاون الصناعي بين مصر والحجاز إذ يذكر المقدسي أنه شاهد بعض الفسيفساء في الكعبة وعليها توقيع صناع مصريين^(٧) بالإضافة إلى أن أروقة الكعبة كانت تستند على أعمده رخام حملت من الاسكندرية إلى جدة^(٨) .

نستنتج مما سبق أن الحجاز كان يعتمد على المصنوعات المصرية اعتماداً كبيراً مما أحدث إزدهاراً وانتعاشاً إقتصادياً به .

(١) المقرئ : الخطط ج ١ ص ١٨١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٧ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٦ .

(٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٥ .

(٦) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٤٩٢ .

(٧) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٧٢ .

(٨) المصدر السابق .

ثالثاً: التجارة

إن خصب مصر ووفرة إنتاجها الزراعي والصناعي ونمو ثروتها وجذب بلاد الحجاز ، وقلة مواردها ، وسهولة الانتقال براً وبحراً بين البلدين ظروف طبيعية تجعل اتصالهما أمراً ضرورياً فمن موانئ الحجاز على البحر الأحمر اتخذت المراكب طريقها إلى مصر ، ونخص بالذكر ميناء جدة فعن طريقه كانت تنقل إلى مصر غلات الهند وشرقي آسيا^(١) كما تيسر لموانئ الحجاز أن تستقبل في مراحل نموها التجاري سفناً تجارية من مصر والحبشة والهند والصين^(٢) وكان الحجاز وبه الأماكن المقدسة قبلة الكثير من المصريين الذين يقومون بأداء فريضة الحج ويساهمون في رواج التجارة وازدهارها هناك .

ولقد كانت هناك بعض الطرق البرية والبحرية التي ساعدت على نشاط الحركة التجارية بينهما بالإضافة إلى كثرة الموانئ التي ترسي فيها السفن المحملة بالبضائع .

وستعرض الصفحات التالية للطرق بين مصر والحجاز والموانئ والمحطات التجارية الموجودة فيهما وأهميتها في التبادل التجاري بينهما ونظم المعاملات التجارية في كل منهما ، والصادرات والواردات ، والمعونات الاقتصادية المصرية للحجاز ثم الأزمات الاقتصادية في مصر والحجاز وأثرها على العلاقات بينهما .

أ - الطرق بين مصر والحجاز :

كانت هناك عدة طرق بين مصر والحجاز عملت على ازدهار النشاط التجاري بينهما منها الطريق المحاذي للنيل إلى قوص ، ثم إلى أسوان وبلاد النوبة ، ويتفرع منه طريق إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، فضلاً عن طريق يتجه من مكة عبر الصحراء إلى البحر الأحمر ثم إلى الجار ميناء المدينة^(٣) .

(١) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٣٤ .

(٢) علي السليمان : النشاط التجاري ص ٩٧ .

(٣) انطوان خليل : الدولة المملوكية ص ١٨٥ .

أما البضائع التي كانت تأتي عن طريق البحر الأحمر فكانت تنقل عبر النيل إلى عيذاب ومنها براً إلى قوص ، ثم عبر النيل إلى القاهرة ، ثم عبر النيل أيضاً إلى رشيد والاسكندرية ويستمر طريق عيذاب - قوص إلى فندق الكارمية بالفسطاط ، وكان هذا الطريق أكثر أماناً لقلة الشعاب المرجانية فيه كما استعمل أيضاً طريق قوص إلى فندق الكارم ومنه بالنيل إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط^(١) وهناك طريق مدينة أسوان وكان يمتاز بقصره وكانت القوافل تقطعه في خمسة عشر يوماً ، كما تميز هذا الطريق بخلوه من الجبال المتشابكة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن أسوان كانت ثغراً هاماً للتجارة مع بلاد النوبة لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص ، وكانت المراكب تسير بالحجاج شرقاً إلى جدة ميناء الحجاز ، أو بالبضائع جنوباً إلى بلاد اليمن وعدن حيث تستأنف سيرها إلى سواحل بلاد الهند والصين ، ثم تعود محملة بالبضائع إلى عيذاب ومنها إلى الساحل المصري^(٢) .

وقد توزعت على تلك الخطوط التجارية موانئ ومحطات تجارية أمنت الاتصال التجاري بين البلدين ، وسوف نشير إلى تلك الموانئ في كل من مصر والحجاز :

ب- الموانئ والمحطات التجارية :

أولاً : في مصر :

- الفسطاط :

كانت الفسطاط من أهم المراكز التجارية في مصر وقد وصفها الإدريسي بقوله : « هي الآن مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب والطيب والحسن قسيحة الطرقات متقنة البناءات قائمة الأسواق نافقة التجارات »^(٣) .

وترجع أهميتها التجارية إلى أنها تقع على النيل في مكان متوسط بين الوجهين القبلي

(١) انطوان خليل : الدولة المملوكية ص ١٨٥ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٧ .

(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٢٣ .

والبحري وعلي مقربة من النقطة التي ينقسم فيها النيل إلى فرعيه الرئيسيين كما أنها تتصل بالنيل بكافة أنحاء البلاد من أسوان حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكانت ترتبط بالبلاد بواسطة القوافل حيث تخرج منها طرق برية مباشرة إلى بلاد الحجاز والشام وبلاد المغرب ، وبذا وصلت إليها المتاجر من أوربا وآسيا وإفريقيا^(١) ومنها كانت ترد المؤن والإعانات إلى مكة المكرمة^(٢) .

واستمرت الفسطاط مزدهرة إلى أن أمر شاور بإحراقها في نهاية العهد الفاطمي خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها^(٣) .

وقد شاهد ابن جبير بعضاً من آثار الخراب الذي أحدثه الإحراق ، إلا أن مبانيها جددت في العهد الأيوبي^(٤) وعادت المدينة لبعض من النشاط الذي كان يمارسه أهلها .

- القاهرة :

أخذت القاهرة تنافس الفسطاط وتزدهر تجارياً نظراً لوقوعها عند التقاء الطرق التجارية والطريق الذي استعمل لنقل السلع بين إفريقيا وآسيا وفي حج المسلمين الإفريقيين إلى مكة كان يمر من وسطها ، فضلاً عن أن الطريق الذي كانت تحمل عليه السلع الثمينة من السودان والحبشة كان ينتهي عندها وفيها تركز الجهاز العسكري والإداري الحاكم الذي جذب إليه تجارة البحرين الأحمر والمتوسط^(٥) .

وقد وصف المقرئزي ازدهار تجارتها ورواجها بقول : « هي عظمة أهلة يجبى إليها من

(١) البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ١٩٩

(٢) القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ص ٣٨ .

(٣) المقرئزي : المخطط ج ١ ص ٢٨٦

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ٢٩ .

(٥) انطوان خليل : الدولة المملوكية ص ١٨٨ .

الشرق والغرب والجنوب والشمال ما لا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكل جل وعلا» (١)

فالسُّلع التي كانت ترد الأسكندرية ودمياط كانت ترسل بدورها إلى بولاق ميناء القاهرة على النيل وأسواقها كانت مزدهرة وعامرة بجميع أنواع السلع المحلية والأجنبية الشرقية والغربية وكان فيها سوق للأقمشة الإيطالية والأوربية وأخرى للسلع الفارسية فضلاً عن أسواق التجارة الكارمية (٢).

وهكذا صارت القاهرة مستودعاً للتجارة العالمية التي كان يتزود منها التجار العرب والمسلمون .

- الاسكندرية :

كانت الاسكندرية مربعة الشكل ولها أربعة أبواب موزعة على الجهات الأربعة وفيها طريق رئيسي يصل الباب الشرقي بالباب الغربي وينفرج الباب الشمالي على الميناء وبالقرب منه يمتد الحي الأكثر ازدهاراً بالسكان ، حيث الحي التجاري وفيه كانت تنتشر مؤسسات الأجانب التجارية ومراكز قنصلياتهم وكانت أسواق الاسكندرية تعتبر من أكبر وأشهر أسواق البهارات في العالم ، وكانت تحمل إليها الأقمشة الأوربية المتنوعة والبهارات من آسيا والذهب من السودان ، والمعادن والأخشاب من أوربا ، والسجاد والأحجار الكريمة من بلاد فارس ، وفيها كانت تتم المبادلات التجارية العالمية (٣).

(١) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٣٦٧ .

(٢) تجار الكارمية هم تجار التوابل وغيرها من سلع الشرق الأقصى بين المحيط الهندي ومصر عبر البحر الأحمر وقد بني لهم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فندقاً في مدينة الفسطاط ، وكانت المحطات الكبرى للتجارة الكارمية في عدن وتعز وزيد ، ومخازنهم التجارية في قوص حيث نظموا شئونهم الاقتصادية ومن عيذاب والطور والسويس كانت تبدأ رحلاتهم بين البحر الأحمر وقوص والقاهرة والاسكندرية ودمياط وكانوا يغرقون أسواق مكة وجدة في مواسم الحج بسلعهم المتنوعة وفيهما تعقد الصفقات التجارية الكبرى .

(انظر : صبحي لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى - المجلة المصرية للدراسات التاريخية - مايو ١٩٥٢ - العدد الثاني - المجلد الرابع ص ١٢ - ١٩) .

(٣) انطوان خليل : الدولة المملوكية ص ١٩٠ - ١٩١ .

- عِيَذَاب -

شهد العصر الإسلامي بمصر نشأة ميناء عيذاب على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر ، ولقد استمدت شهرتها من أهمية الدور الذي قامت به كقاعدة بحرية تجارية لتجارة الشرق الأقصى عبر مصر إلى أوروبا ، وكمرحلة هامة في طريق قوافل الحجاج إلى المقدسات الإسلامية بالحجاز عبر البحر الأحمر نظراً لموقعها المواجه لميناء جدة^(١) .

وكانت عيذاب تستخدم في السفر إلى مكة قبيل الفاطميين^(٢) ثم زادت أهميتها في العصر الفاطمي منذ سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م بسبب الشدة العظمى التي قاستها مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله^(٣) نتيجة لحراب الدلتا فتحولت قوافل الحجاج المصريين والمغاربة من طريق شبه جزيرة سيناء إلى عيذاب واستمر هذا الطريق طوال العصر الأيوبي بسبب الحروب الصليبية^(٤) .

فقد ظل حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب^(٥) فيركبون المراكب في النيل من الفسطاط إلى قوص ثم يركبون الإبل من قوص ، ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب ثم يركبون السفن إلى جدة ، ومنها إلى مكة^(٦) .

وكان البحارة والتجار يفضلون الرسو فيها عند قدومهم إليها أو عند رحيلهم عنها بسبب عمق مينائها وغزارة مياهه ، وخلوه من الشعب المرجانية التي تعيق الملاحة^(٧) وكانت تجيى بها

(١) أحمد دراج : عيذاب - مقال بمجلة نهضة أفريقية ص ٥٣ .

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٨٩ .

(٣) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٢٠٢ .

(٤) أحمد دارج : عيذاب ص ٥٧ .

(٥) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٢٠٢ .

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٢٠ .

(٧) آدم متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٩ ، القلقشندي : صحيح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٤ ، ٤٦٨ .

الرسوم على البضائع الواردة من الحجاز واليمن وزنجبار والهند والحبشة^(١) .

ولقد ازدهرت عيذاب في العصر الأيوبي فيذكر ابن جبير في رحلته للأراضي الحجازية بأنها كانت من أحفل مراسي الدنيا لأن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها باستمرار بالإضافة إلى مراكب الحجاج التي تقصدها دائماً في مواسم الحج^(٢) ، وأنه أراد إحصاء عدد القوافل العيذاوية الصادرة والواردة فلم يستطع لكثرة عددها^(٣) .

وقد ساد الأمن والاستقرار في عيذاب بحيث كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك ، توجد ملقاة بها دون أن يتعرض لها أحد حتى يأتي صاحبها ويأخذها^(٤) .

ونظراً لقرب عيذاب من جدة فقد كانت الغلات الآتية من الحبشة وساحل أفريقيا واليمن والهند ، وما بعدها تصل إلى عدن إذ هي نقطة ابتداء البحر الأحمر ثم تنقل منها مباشرة إلى جدة ، ومن جدة تنقل إلى عيذاب^(٥) .

- دمياط :

يعتبر ميناء دمياط من الموانئ الشهيرة في مصر فهو ثالث الشغور التي تقع على ساحل مصر الشرقي وهي تنيس والفرما ودمياط^(٦) ويعتبر مخرج التجارة المصرية إلى البحر المتوسط ويتصل بالقوافل البرية إلى موانئ البحر الأحمر ، ولا تدخل إليه المراكب مباشرة بسبب شدة تيار مياه النيل فقد كانت تخرج منه قناة تصل حتى مدينة تنيس حيث كانت ترسو المراكب^(٧) .

وقد برزت دمياط في مجال التجارة والصناعة ، وصارت في العصر الفاطمي مركزاً هاماً لصناعة النسيج كما كانت تبنى فيها السفن التجارية والحربية^(٨) .

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٨ ، راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٨٩ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ٤٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ٤٣ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٤ ، المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٢٠٢ ، الجزيري : درر الفرائد ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٥) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٦) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٤٠٦ .

(٧) انطوان خليل : الدولة المملوكية ص ١٩٢ .

(٨) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٤٠٦ .

- القصير :

يقع ميناء القصير في جهة الشمال من عيذاب ، وكانت بعض المراكب تقصده لقربه من قوص ، وبعد عيذاب منها ، وتحمل البضائع منه إلى قوص ومن قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط^(١) .

- القلزم :

كانت القلزم من الموانئ ذات الصلة التجارية بموانئ الحجاز^(٢) وفيها كانت تبني بعض السفن التجارية^(٣) ومنها تحمل الحمولات إلى الحجاز واليمن^(٤) وقد وصفها المقدسي بأنها خزانة مصر وفرضة الحجاز ، ومعونة الحاج^(٥) ، وقد استمرت القلزم في أهميتها التجارية بين مصر والحجاز حتى نهاية القرن الرابع الهجري^(٦) .

- الفرما :

صارت الفرما (وكانت مفتاح الديار المصرية) من المراكز التجارية بين الشرق والغرب^(٧) فقد كانت البضائع تجلب من الموانئ الأوربية المختلفة إلى الاسكندرية والفرما ثم منها إلى الحجاز ، وكانت الفرما حلقة اتصال بين موانئ البحر المتوسط والبحر الأحمر وهي محطة لتجار أوروبا وسورية^(٨) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٤ ، ٤٦٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٢٧ .

(٣) الحميري : الروض المعطار ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٤) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٢١٣ .

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٦ .

(٦) عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ص ٣٧ .

(٧) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٤٠٦ .

(٨) عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ص ٣٣ .

ثانياً : الموانئ والمنشآت في بلاد الحجاز :

كان لموقع بلاد الحجاز الممتاز على البحر الأحمر واتصاله ببلاد الشام شمالاً واليمن جنوباً ومصر براً وبحراً أثره العظيم في النشاط التجاري داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها ونتيجة لتعدد مراحل ذلك النشاط اختلفت أطواره بين البر والبحر .

فمنذ أقدم العصور سارت القوافل التجارية من اليمن وعبر أراضي الحجاز حتى وصلت إلى أراضي الشام حيث مرت بمدن هامة كصنعاء ومأرب ومكة المكرمة ، ومن بلاد الحجاز تعددت وجهات القوافل حاملة البضائع فكانت تسير إلى مصر والشام والعراق واليمن والحبشة وكانت المراكب تأخذ طريقها إلى مصر واليمن عبر ثغور الحجاز على البحر الأحمر ، كما كانت هذه الثغور الحجازية تستقبل سفناً تجارية من الحبشة والهند والصين ومصر^(١) ومن هذه الثغور : جدة - الجار - ينبع - السرين .

- جدة :

يعتبر ثغر جدة من أشهر الموانئ الحجازية وقد اشتهر بأنه ميناء مكة وفرضتها على البحر الأحمر^(٢) فكانت تستقبل مراكب الحجاج وتحصل منهم المكوس وتعد لهم الإقامة في خاناتها ويأخذ الحجاج من أسواقها السلع والمؤن حتى ينتقلوا إلى مكة^(٣) .

ولقد كان لموقع جدة المتوسط من موانئ الحجاز ، ولقربها من عدن والهند ثم قربها من مكة المكرمة أكبر الأثر في أن تقوم على تجارة عريضة مع الموانئ العالمية في حوض البحر المتوسط وعدن ؛ بل إن تجارة جدة وصلت إلى الهند والصين ؛ على أن تجارتها مع موانئ البحر الأحمر ولاسيما المصرية منها وصلت في عصر الفاطميين والأيوبيين إلى درجة كبيرة من الازدهار فقد كانت البضائع تجلب من الموانئ الأوربية إلى الاسكندرية والفرما ثم منها إلى

(١) علي بن الحسين : النشاط التجاري ص ٨٣ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٣١ ، ابن الجاور : تاريخ المستبصر ص ٥١ ، القلقشندي : صبح الأعشى

ج ٤ ص ٢٥٨ - عبد القادر الجدي : السلاح والعدة في تاريخ جدة ص ٧٨ .

(٣) علي بن الحسين : النشاط التجاري ص ١٠٩ .

وكانت بضائع الشرق ينقل بعضها عن طريق جدة إلى عيذاب التي كانت تنقل منها براً إلى القاهرة والفسطاط عبر الصحراء ، وكانت لميناء جدة علاقات تجارية مع ميناء القصير الواقع إلى الشمال من عيذاب ، وكانت تصل إليه بعض المراكب لقربه من قوص ولكن ما كان يصل إليه أقل بكثير مما كان يصل إلى عيذاب (٢) .

وكانت جدة وهي ثغر مكة على البحر الأحمر تستقبل المراكب التجارية القادمة من اليمن ومصر ، وكانت أيضاً قبلة الحجاج القادم من عيذاب إليها وميقاته (٣) .

لذا فقد أصابت من ذلك تجارة عظيمة وثراء كبير وقد وصفها الإدريسي بقوله : « هي مدينة كبيرة عامرة تجاراتها كثيرة وأهلها مياسير ذوو أموال واسعة وأحوال حسنة ومرايح ظاهرة، ولها موسم قبل وقت الحجاج مشهود البركة تنفق فيه البضائع المجلوبة والأمتعة المنتخبة والذخائر النفيسة » (٤) .

استمرت جدة في النمو في العصر الأيوبي لازدياد مواردها المالية تبعاً لزيادة عدد الحجاج ولازدهار الحركة التجارية فيها التي كانت تنشط في الحج وحين قدوم القوافل التجارية إليها من عدن .

وفي جدة اعتاد التجار استبدال سلعهم في أسواقها والتهيو منها لدخول البيت الحرام ومتابعة تجارتهم في مكة أيضاً بعد المكوث فيها فترة من الوقت ثم السير منها إلى الشام (٥) .

ولقد اهتم أشرف مكة بجدة لقربها من مكة ومركزها المرموق في التجارة الدولية فضلاً

(١) الزيلعي : مكة وعلاقاتها الخارجية ص ١٧٧ .

(٢) جميل حرب : الحجاز واليمن ص ١٣٧ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٥) علي بن الحسين : العلاقات الحجازية زمن سلاطين المماليك ص ١٩٣ .

عن أهميتها كبوابة الحجاز للوافدين إليه من مصر وإفريقيا والمغرب وبلاد السودان^(١) .
 وكان أمير جدة يعين من قبل أمير مكة^(٢) ويتولى أخذ المكوس من التجار القادمين إليها^(٣) .

وكانت جدة وغيرها من موانئ الحجاز من الميادين التي راجت فيها تجارة الكارم بحيث كانت تعتبر إلى جانب الموانئ اليمنية من أهم مراكز هذه التجارة في البحر الأحمر وكانت هذه التجارة القادمة من الحجاز تخضع للمكوس قبل دخولها إلى الموانئ المصرية^(٤) .

وكانت السلع التي يجلبها تجار الكارم إلى جدة مما يقبل عليه العامة والخاصة فمنها التوابل كالفلفل والقرنفل ، وكذلك البخور ، وغيرها من السلع المجلوبة من اليمن والهند .

وقد ترك ارتياد تجارة الكارم لميناء جدة وما جلبوه معهم من مختلف السلع الرائجة أكبر الأثر في دفع ذلك الميناء نحو حركة تجارية قوية أدت إلى ارتفاع موارده المالية ارتفاعاً كبيراً^(٥) .

- الجار :

ومن الموانئ الحجازية التي كان لها علاقة مع الموانئ المصرية ميناء الجار^(٦) إذ كانت المراكب الواردة من مصر ترسو فيه^(٧) وقد اشتهر بأنه فرضة المدينة لأنه يقع على ثلاثة مراحل منها^(٨) .

(١) ريتشارد مورتيل : مكة في العصر المملوكي ص ١٧٤ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٢٠ .

(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٣٩ .

(٤) الزيلعي : مكة وعلاقاتها ص ١٨٣ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٨٦ .

(٧) ابن الجاور : تاريخ المستبصر ص ٥٠ .

(٨) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٣١ .

وميناء الجار كان معروفاً قبل الإسلام إلا أنه اكتسب شهرة بعد الفتح الإسلامي لمصر ، فقد روى المؤرخون أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية كتب إليه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن يحمل الطعام منها إلى المدينة حتى يصل إلى ساحل الجار فأرسل عمرو طعاماً في عشرين مركباً حتى وافي الجار (١) .

ولقد أصبحت الجار الفرضة الرئيسية للمدينة وحازت شهرة تاريخية بحيث كان البحر الأحمر يعرف ببحر الجار (٢) .

ولقد ضعف شأن الجار منذ القرن الرابع الهجري حيث اختل نظام الأمن بالحجاز نتيجة ضعف الحكام فتسلط الأعراب على الجار بالتهب والسلب وقتل أهله (٣) .

واستمر الجار على حاله من عدم الاستقرار يستقبل المراكب الواردة من مصر رغم الفتن والمنازعات التي سادت الحجاز في القرن الرابع الهجري حتى أخذ الحجاج من مصر والمغرب طريق عيذاب إلى ميناء جدة في أواخر القرن السادس الهجري فضعف أمر الجار ثم بدأ ثغر ينبع في الازدهار بقدم سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م حين جعله الأيوبيون ميناءً رئيسياً للمدينة بعد جدة (٤) .

- ينبع :

تنقسم مدينة ينبع إلى قسمين : ينبع النخل ، وينبع البحر، وقد صارت ميناء للمدينة المنورة ، ومنفذاً لها على ساحل البحر الأحمر (٥) .

ولقد بدأ ميناء ينبع ينشط حتى صار من موانئ الحجاز الرئيسية سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م في الوقت الذي كان الأيوبيون يسيطرون على الحرمين ، إذ جعلوا ينبع ميناء للمدينة وأقاموا

(١) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٤) علي بن الحسين : النشاط التجاري ص ٩٥ .

(٥) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج ١ ص ١٩٥ .

فيها بعض الإصلاحات والإنشاءات ، وشيدوا فيها قلعة حصينة ، ووضعوا فيها جنداً لحمايته ، وكانوا يرسلون السفن من مصر تحمل ما يحتاج إليه الحجاج وما يريدون توزيعه على المحتاجين من أهل المدينة بطريق ميناء ينبع^(١) كما كانت ينبع أيضاً محطة على الطريق البري لحجاج مصر وتجارها والذي كان يبدأ من القاهرة إلى مدينة السويس ، ثم ينتقل منها الحجاج والتجار بالسفن إلى العقبة ثم ينزلون إلى البر فيمرون بينبع في طريقهم إلى المدينة ومكة ، وظل هذا الطريق مستخدماً في مجال الانتقال بين مصر والحجاز حتى بعد قيام دولة الماليك في مصر^(٢) .

واستمرت الصلة التجارية قوية بين مصر وميناء ينبع حتى أن بعضاً من سكان هذا الميناء كانوا من الأسر المصرية التي انتقلت إليه من صعيد مصر للتجارة^(٣) .

- السرين :

تمثل السرين الواجهة البحرية الثانية لمكة المكرمة^(٤) فهي تقع في طريق مكة من اليمن بالقرب من يلملم وهي من عمل مكة^(٥) وكان يتولى جباية المكوس والضرائب من التجار بها وال من قبل أمير مكة يأخذ نصفها لصاحبه ، ويعطي النصف الآخر لصاحب تهامة^(٦) ولقد أسهم هو وميناء جدة في تزويد مكة بكل ما تحتاجه من السلع التجارية .

ج - نظم المعاملات التجارية :

لقد كان للنشاط التجاري بين مصر والحجاز أثره الكبير في توثيق العلاقات وتوطيدها وتوحد نظم المعاملات التجارية بينهما مثل :

السكة - الصكوك - الموازين - المكاييل - المكوس وسوف نعرف بهذه النظم كما يلي :

(١) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص ٤٩ .

(٢) علي بن الحسين : النشاط التجاري ص ٩٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٣ .

(٤) الزيلعي : مكة وعلاقاتها ص ١٨٤ .

(٥) الحميري : الروض المعطار ص ٣١٢ .

(٦) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٣٨ .

أولاً : السكة :

يعرف ابن خلدون السكة بقوله : « السكة هي الختم على الدنانير والدرهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب به على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليه ظاهرة مستقيمة »^(١) ثم يقول : « ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهي الحديد المتخذة لذلك ثم نقل إلى إثرها وهي النقوش الماثلة على الدراهم والدنانير ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علماً عليها في عرف الدول »^(٢) .

وتعتبر السكة وسيلة هامة من وسائل التعامل التجاري في البيع والشراء ترجع أهميتها إلى أنها كانت توضح مدى التقدم والازدهار الاقتصادي والحضاري للدولة ، وكانت هذه العملة عبارة عن الدينار وهو الاسم الذي كان يطلق على النقود الذهبية ، كما كان اسم الدرهم يطلق على النقود الفضية^(٣) .

ولقد ظلت مصر منذ الفتح الإسلامي تستخدم سكة الخلافة ، إلى أن قام أحمد بن طولون بضرب دنانير سميت بالدينار الاحمدي^(٤) .

فلما فتح جوهر الصقلي مصر عمل على إصدار عملة جديدة تحمل اسم الفاطميين فأمر بضرب الدينار المعزي^(٥) وكثر ضرب الدينار المعزي لكن المصريين استمروا يتعاملون بالدينار الراضي فلما قدم الخليفة الفاطمي المعز إلى مصر عهد إلى يعقوب بن كلّس وعسلوج بن الحسن بالإشراف على الخراج فامتنعا أن يأخذا إلا ديناراً معزياً فاتضع الدينار الراضي وانحط ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار^(٦) وبذلك حملت الحكومة الفاطميين المصريين على التعامل

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عبد الموضي محمد عطوة : العلاقات بين المغرب والأندلس ص ٢٧٨ .

(٤) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٢ .

(٥) المقرئى : شذور العقود فى ذكر النقود ص ١٣٩ .

(٦) المصدر السابق ص ١٤١ .

بنقودها^(١) وبالإضافة إلى الدينار المعزي فقد وجد في مصر الدينار المغربي الذي أتى به الفاطميون معهم من المغرب ، ولم يقف الأمر عند ذلك ؛ بل أصدر الفاطميون في عهد الخليفة الحاكم أمراً بضرب الدراهم الفضية واتخاذها وحدة للتعامل ، وبذلك أصبحت مصر تسير على نظام المعدنين bimetallic System وأصبحت النقود الفضية عملة قانونية^(٢) وتقرر أمر الدراهم على ثمانية عشر درهماً بدينار^(٣) ولعل ضرب هذه الدراهم أريد به تيسير التعامل في السلع القليلة الثمن^(٤) .

فلما زالت الدولة الفاطمية وتولى الأيوبيون حكم البلاد ضرب صلاح الدين السكة باسم الخليفة العباسي المستنصر بأمر الله ، وباسم نور الدين محمود^(٥) .

ولما توفي نور الدين محمود واستقرت الأمور لصلاح الدين الأيوبي أمر في سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م بأن تبطل نقود مصر وضرب الدينار ذهباً مصرية ، وضرب الدراهم الناصرية ، وجعلها من فضة مخلوطة بالنحاس على التساوي^(٦) .

فلما تولى الملك الكامل الحكم أمر بإلغاء الدرهم الناصري ، وفي سنة ٦٢٢هـ / ١١٢٥م أمر بضرب دراهم مستديرة سميت باسمه ، وجعل الدرهم الكامل ثلثاه فضة خالصة والثلث نحاس^(٧) واستمرت هذه الدراهم مدة ملوك بني أيوب^(٨) .

أما في الحجاز فقد كان التعامل في عصر الفاطميين يعتمد على دينار الذهب ودرهم الفضة ، ويبدو أنه كانت بمكة دار لضرب النقود إذ يذكر ابن الجاور : « أن نقد البلد ذهب

(١) جمال سرور: الدولة الفاطمية ص ١٦٠ .

(٢) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٤ - ٣ .

(٣) المقرئ : شذور العقود ص ١٤٢ .

(٤) جمال سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ١٦٠ .

(٥) المقرئ : شذور العقود ص ١٤٣ .

(٦) المصدر السابق ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٧) العمري : مسالك الأبصار ص ٨٠ .

(٨) المقرئ : شذور العقود ص ١٤٦ .

مصري ، وبها يضرب على عيار الدينار المصري « (١) .

كما شاع التعامل بالدينار المغربي (٢) الذي أحضره الفاطميون معهم من المغرب وتعاملوا به في مصر .

وفي عهد أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني ضربت السكة باسم الحاكم بأمر الله (٣) .

وفي عهد الأيوبيين تولى سيف الإسلام طفتكين إصلاح الأمور في مكة وفي سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م ضرب الدراهم والدنانير فيها باسم أخيه السلطان صلاح الدين الأيوبي (٤) .

ولقد شاع في مكة نوعان من الدراهم هما الدراهم النقرة أو الكاملية وتنسب إلى الملك الكامل (٥) وقد ضربها في مصر سنة ٦٢٢هـ (٦) والدراهم الثانية تسمى بالدراهم المسعودية وتنسب إلى الملك المسعود بن الملك الكامل (٧) وهي دراهم مربعة الشكل من الفضة الخالصة ، ويساوي الدرهم فيها في المعاملة ثلثي الدرهم الكامل (٨) .

ويذكر القلقشندي أن المعاملات في المدينة المنورة هي نفسها ما كان يتم به التعامل في الديار المصرية ومكة (٩) .

(١) ابن الجاور : تاريخ المستبصر ص ١٢ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ٢٠٩ .

(٣) المقرئ : كتاب المقفى الكبير ص ٤٣٢ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٨ ، ابن فهد : تحاف الورى ج ٢ ص ٥٥٣ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٥ .

(٦) العمري : مسالك الأبصار ص ٨٠ .

(٧) المقرئ : الذهب المسبوك ص ٧٩ ، ابن الجاور : تاريخ المستبصر ص ١٢ .

(٨) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٦ .

(٩) المصدر السابق ص ٣٠٢ .

ثانياً : الصكوك :

لما كانت المعاملات الضخمة تستدعي وسائل للدفع مأمونة من الضياع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص^(١) ظهرت الحاجة إلى استعمال الصك ، وقد استخدمه التجار في مصر والحجاز ، وأقطار أخرى من العالم الإسلامي .

ويعرف الخوارزمي الصك بأنه يجمع فيه أسماء المستحقين وعدتهم ومبلغ ما لهم ويوقع السلطان في آخره بإطلاق الرزق لهم^(٢) وقد تطور حتى صار من وسائل التعامل التجاري ، إذ يعتبر في الأصل سند الدين^(٣) وهو أشبه بالشيك في الوقت الحاضر^(٤) .

ويخبرنا ناصر خسرو أنه استعمل الصك في تعاملاته أثناء وجوده في مصر فيروي أنه لما خرج من أسوان متجهاً من عيذاب أخذ خطاباً من صديق له كتب إلى وكيله في عيذاب بأن يعطي ناصر كل ما يريد ، ويأخذ منه صكاً قبل سفره إلى الحجاز^(٥) .

ويرى آدم متز أن التعامل بالصك هو أرقى ما وصل إليه التعامل المالي بين التجار المسلمين^(٦) .

ثالثاً : الموازين :

كانت الموازين المستخدمة في مصر هي : القنطار - الرطل - الأوقية - الدرهم - المن - وكان القنطار المتعارف عليه مائة رطل ، والرطل المصري يقدر بأثنى عشرة أوقية ، والأوقية تقدر بأثنى عشر درهماً ، لذا يقدر الرطل المصري بمائة وأربعة وأربعين درهماً ، ويقدر المن بمائتين وستين درهماً^(٧) .

(١) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٨٣ .

(٣) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٤١٨ .

(٥) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٦) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٨٠ .

(٧) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٥-١٦ ، العمري : مسالك الأبصار ص ٨١ .

ولقد اختلف وزن الرطل في جميع مدن مصر ، فكان لكل مدينة ومنطقة رطلها الخاص بها ومن النادر أن نجد مدينة يوافق وزن رطلها مدينة أخرى^(١) .

أما بلاد الحجاز فوحدة الوزن عندهم هي المن المعروف في جميع بلاد العالم الإسلامي ويسمونه رطلاً^(٢) .

ويختلف المؤرخون في وزن الرطل عند الحجازيين فيذكر المقرئ أن وزن الرطل يصل إلى مائتي درهم^(٣) ويذكر ابن الجاور أن الرطل يصل إلى مائة وثلاثين درهماً وهو ستة أواق ، وكل أوقية واحد وعشرون درهماً وثلاث^(٤) .

ويرى ابن الأخوة أن الرطل الحجازي يزن مائة وعشرين درهماً^(٥) ، بينما يذكر القلقشندي أن المن (الرطل) يساوي مائتين وستين درهماً ، وأواقيه عشرة وكل أوقية عشرة دراهم^(٦) .

ويظهر أن اختلاف المؤرخين في تحديد وزن الرطل الحجازي ناشئ عن اختلاف وزنه في المدن الحجازية كما كان يحدث في المدن المصرية .

رابعاً : المكاييل :

كانت المكاييل المستخدمة في مصر هي :

الأردب - الويبة - القدح - ويعتبر الأردب أكبر وحدة للمكيال بمصر ويساوي ست وبيات^(٧) وتليه الويبة وتساوي ستة عشر قدحاً^(٨) ، والقدح وتقديره بالوزن من الحب مائتان واثنان وثلاثون درهماً^(٩) .

(١) انظر ابن الأخوة: معالم القرية ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٩٩ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ابن الجاور : تاريخ المستبصر ص ١٢ .

(٥) ابن الأخوة : معالم القرية ص ١٣٨ .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٥ ، ٣٠٢ .

(٧) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٠٤ .

(٨) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١ .

(٩) العمري : مسالك الأبصار ص ٨١ .

أما المكايل في الحجاز فكانت الصاع - المد^(١) ويساوي الصاع أربعة أمداد ، وكل مد يساوي رطلاً ، ويباع بالصاع والمد الخنطة وسائر الحبوب^(٢) .

ونظراً لاعتماد الحجاز على ما تنتجه مصر من الغلال والحبوب فإن الأردب المصري يساوي أربعة وعشرين صاعاً حجازياً ، والويرة تساوي أربعة وعشرين مداً^(٣) .

خامساً : المكوس :

المكوس هي عبارة عن الرسوم التي فرضها الفاطميون^(٤) على كل عمليات البيع والشراء حيث كانت تحصل على السلع الصادرة والواردة مهما كان نوعها ، فقد فرضت الرسوم على البضائع التي يجلبها التجار الكارمية في البحر الأحمر من جهة الحجاز واليمن وما والاها ويجري تحصيلها في أربع جهات : عيذاب وكانت تعج بالنشاط لكثرة السفن العابرة من جدة إليها ، ومن عيذاب يتم نقل البضائع إلى قوص ، ومن قوص تحمل البضائع عن طريق النيل إلى فندق الكارم بالفسطاط^(٥) .

أما الجهة الثانية فهي القصير وترد إليها بعض السفن لقربها من قوص وبعد عيذاب منها ، ويجري حمل البضائع إلى قوص ، ثم إلى فندق الكارم بالفسطاط إلا أن القصير لم تكن في نشاط عيذاب، ويضاف إلى هذين الموضعين الطور والسويس غير أنهما لم ينالا الأهمية المطلوبة في زمن الأيوبيين بسبب تعرضهما لأخطار الصليبيين^(٦) .

وقد اختلفت قيمة الرسوم فكان يؤخذ من تجار الروم الواردين على الثغر الخمس ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر ، ولم تكن هناك نسبة ثابتة فأحياناً تصل إلى ٣٥٪ من

(١) ابن الجاور : تاريخ المستبصر ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) على بن الحسين: النشاط التجاري ص ٢٦٧ .

(٤) المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٠٤ .

(٥) السيد العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٩٤ .

(٦) المرجع السابق .

قيمة البضائع ، وقد تهبط إلى ٢٠٪^(١) ، وكانت الرسوم المفروضة على تجار المسلمين أقل بطبيعة الحال من التي يدفعها التجار المسيحيون وكانت حاجة الحكومة إلى الأموال سبباً في رفع المكوس، وخاصة خلال الشدائد والأزمات، كما أنها قد تزداد على سلع الترف^(٢).

وحين زالت الدولة الفاطمية واستقر الأمر لصالح الدين أمر بإلغاء هذه المكوس برغم ما كان يتحصل منها كل سنة من الأموال، وأبقى الضرائب على التجار الأجانب وتنقسم إلى نوعين ضريبة الصادر، وضريبة الوارد ، ويتولى الديوان تحصيل هاتين الضريبتين فتؤخذ ضريبة الوارد على البضائع التي تباع فعلاً، أما التي لم تجد لها سوقاً في البلاد، فلا يدفع عنها أربابها ضريبة وارد، أما ضريبة الصادر فيجرى تحصيلها عن جميع السلع التي يشتريها التجار الأجانب من مصر، وعن الأموال التي تخرج من البلاد^(٣).

أما من ناحية المكوس في بلاد الحجاز فيصفها المقدسي بقوله: «والضرائب والمكوس يؤخذ بجدة عن كل حمل حنطة نصف دينار، وكيل من فرد الزاملة، وعلى سبط ثياب الشطوى ثلاث دنانير، ومن سبط الديبقي ديناران، وحمل الصوف دينار، وعلى سلة الزعفران دينار»^(٤).

ويبدو أن هذه الرسوم كانت ضمن رسوم أخرى كانت تفرض على بقية السلع الأخرى الواردة إلى الحجاز ، إذ يذكر الإدريسي أن الموظفين المكلفين من قبل والي جدة كانوا يفحصون البضائع الموجودة في الشجر ثم يقررون المكوس اللازمة عليها ويأخذونها من أصحابها^(٥) ولأن جدة كانت تتبع أمير مكة فقد كانت تلك المكوس والعشور جميعاً تحصل تحت إشرافه.

وكان هناك نوع من المكوس يفرض على الحجاج القادمين إلى الحجاز بطريق عيذاب^(٦)

(١) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٦٨.

(٢) المرجع السابق .

(٣) السيد العريني : مصر في عصر الأيوبيين ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٠٤.

(٥) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٣٥.

(٦) الجزيري: درر الفرائد ج ١ ص ٥٧٢.

مقداره سبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية^(١) وكانت تلك المكوس تؤدي أحياناً في عيذاب أو في جدة^(٢).

ويذكر ابن جبير أن هذا المكس قرر في عهد الفاطميين وكان الحجاج يلاقون عنتاً شديداً حتى يؤدوا هذا المكس، ومن يعجز عن أدائه يتعرض لأنواع شديدة من القهر والتعذيب في مدينة عيذاب^(٣).

وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤد مكسه بعيذاب، ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء^(٤)، بل قد يحبس ويمنع من تأدية الفريضة^(٥).

وكانت هذه المكوس تعود إلى صاحب مكة لأن جباياته لا تكفى ولا تفي بلوازمه وأرزاق من معه من الجند^(٦) وكان لأمير المدينة أيضاً جزء من هذه المكوس^(٧).

ويروى المؤرخون حادثة تبين سبب إلغاء هذه المكوس فيذكرون أن الشيخ أبا عبد الله علوان بن علوان الأسدي الحلبي، وكان على صلة بصلاح الدين قرر الحج سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م فلما طلب منه دفع المكس، رفض وهم بالعودة دون أن يؤدي فريضة الحج فطلب منه الأشراف أن يتروى وينتظر حتى يخبروا أمير مكة، فأمر الأمير باطلاق سراحه واعفائه من المكس وأرسل في طلبه، وأخذ يشكو إليه الضيق الذي يعانون منه مما اضطره إلى فرض هذه المكوس على الحجاج، فأرسل الشيخ إلى صلاح الدين يخبره فأمر صلاح الدين بإلغاء هذه المكوس^(٨).

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٣٠.

(٢) عمر بن فهد: اتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٩.

(٣) ابن جبير: الرحلة ص ٣٠-٣١.

(٤) الفاسي: العقد الثمين ج ٧ ص ٢٧٧.

(٥) الصباغ: تحصيل المرام لوحة (٢٣٤).

(٦) الحميري: الروض المعطار ص ٤٢٤.

(٧) الفاسي: العقد الثمين ج ٧ ص ٢٧٧.

(٨) عمر بن فهد: اتحاف الوري ج ٢ ص ٥٤٠، الجزيري: درر الفرائد ج ١ ص ٥٧٢، الصباغ: تحصيل المرام

لوحة (٢٣٤).

وبرغم هذه الرواية فإننا نرى أن سبب رفع المكوس هو سياسة صلاح الدين الرشيدة في إلغاء كل ما فرضه الفاطميون من ضرائب جائرة وغير شرعية لذا فإنه أبطل هذا المكس وعوض أمير مكة عنه ألفى دينار وألفى أردب قمح سوى اقطاعات بصعيد مصر واليمن^(١) يبلغ مجموع انتاجها ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إلى ساحل جدة كل عام^(٢) وقرر أيضاً إرسال الغلال إلى المجاورين والفقراء بمكة والمدينة^(٣).

وكانت هذه الأموال والغلال تتأخر في بعض الأحيان نظراً لظروف مصر السياسية مما جعل أمير مكة يعود إلى ترويع الحجاج وطلب المكس منهم، فلما علم صلاح الدين بذلك كتب إليه ينهيه عن ظلمه للحجاج ويهدده ويتوعده إن لم يرفع الظلم عنهم^(٤) فلما وصل كتاب صلاح الدين أمر أمير مكة بدخول الحجاج إلى بيت الله الحرام على أن يضمن بعضهم بعضاً إلى أن يأتيه الرسم المقرر من قبل صلاح الدين^(٥).

د- الصادرات والواردات :

لم يجهل العرب ثروة مصر فقد جاءها كثير منهم للتجارة في أيام الجاهلية ولا بد أن كثيراً من الأعراب والتجار العرب كانوا يقدون إلى الصعيد بطريق البحر الأحمر، ووديان الصحراء الشرقية^(٦).

وقد كان من الطبيعي أن تكون لبلاد الحجاز علاقات تجارية مع مصر أقرب الجارات إليها فلو لم يكن البحر الأحمر لكانت بلاد الحجاز ومصر رقعة واحدة من الأرض^(٧).

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٤، الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٨٩، ج ٧ ص ٢٧٧، الجزيرى : درر الفرائد ج ١ ص ٥٧٢.

(٢) الصباغ: تحصيل المرام لوحة ٢٣٤.

(٣) الأصفهاني : سنا البرق ص ١٥٤.

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ٧ ص ٢٧٨.

(٥) ابن جبير: الرحلة ص ٥٤.

(٦) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ص ٩.

(٧) على بن الحسين: النشاط التجارى ص ٢٠٤.

ومما لاشك فيه أن العلاقات السياسية الطيبة بين مصر والحجاز لعبت دوراً كبيراً في تنشيط الحركة التجارية الخارجية بينهما فقد عمل الحكام على توفير سبل الأمن والحماية للتجار حتى يستطيعوا ممارسة أعمالهم في أمن واطمئنان .

ويخبرنا القلقشندي « أنه كان للفاطمين أسطول بعذاب يتلقى الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك، يعترضون المراكب فيحرقونهم الأسطول منهم» (١) .

ولقد قام الأيوبيون بمثل ما قام به الفاطميون من العمل على صد خطر القراصنة في مياه البحر الأحمر فرصدوا سفناً من أسطولهم خصيصاً لهذه الغاية (٢) .

تنوعت صادرات مصر إلى بلاد الحجاز، وبالعكس، واستقبلت المراسى - هنا وهناك - كثيراً من السفن التجارية المليئة بالبضائع، فقد كانت مصر تصدر إلى جدة أنواعاً من المواد الغذائية والحبوب والمصنوعات الجلدية والمنسوجات (٣) .

أما الشجر الحجازي فينبع فكانت ترد عليه المراكب بالغلال من سواحل الطور وعيذاب وقد انتقلت إلى ذلك الميناء بعض الأسر المصرية من صعيد مصر بغرض التجارة وهو ما حدث في جدة أيضاً حين قامت بها تجارة الحبوب على يد نفر من تجار مصر (٤) وساهمت مصر في جلب السلع الأوربية إلى بلاد الحجاز والتي كانت يحملها التجار القادمون من مقاطعة «بروفانس» بفرنسا ويسمون عند المسلمين «تجار البحر» تحملهم السفن حتى مدينة الفرما، ثم يستخدمون الدواب في قوافل تجارية لنقل متاجرهم إلى القلزم ويحملون معهم من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني (القرفة) (٥) كما كانوا يجلبون معهم من سلع الغرب الديباج والخز الفائق والجلود والفراء.

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٠.

(٢) عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ص ١٧٦.

(٣) عبد الفتاح وهبة: دراسات في جغرافية مصر التاريخية ص ١٠٠.

(٤) علي بن الحسين: النشاط التجاري ص ١٠٨.

(٥) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٧٣.

وقد تركت مصر لهؤلاء التجار الحرية فى أن يجلبوا هذه السلع من الغرب ويمرون بها داخل البلاد من الفرما^(١) إلى القلزم^(٢) ثم يعبرون البحر الأحمر فيقصدون الجار أو جدة، ولا بد أن هذين الثغرين استفادا كثيراً من قدوم أولئك التجار بما يجلبون من سلع أوربية^(٣).

ولعل أهم العوامل التى جعلت مكة تقوم على تجارة عريضة موقعها على مسافة أربعين ميلاً من جدة، إذ كانت المراكب القادمة من مصر ما تكاد تنتهى إلى جدة حتى تسير منها المتاجر إلى مكة فتتنشط الحركة التجارية بها^(٤) ومن عذاب المصرية^(٥) جمال البجة الشهيرة المسماة بالنجبية تصدر إلى الحجاز فتنتقل بواسطة السفن إلى جدة، ومنها إلى مكة المكرمة^(٥).

ويذكر المقدسى أن الحجاز يأخذ من مصر الدقيق والكعك^(٦) كما كانت الخيول ترد إلى أمير مكة من مصر^(٧).

ولقد كانت قافلة الحاج المصرية تقوم بدور كبير فى النشاط التجارى إذ كان التجار والحجاج يسرون ومعهم بضائعهم إلى الحجاز، ويعودون ببضائع الشرق النفيسة^(٨).

(١) الفرما : أول مدن مصر من جهة الشمال، وكانت أقرب إلى البحر الأبيض المتوسط ، وموضعها الآن تل يعرف فى خريط مصلحة المساحة المصرية باسم تل الفرامة ويقع جنوب شرق مدينة بور سعيد الحالية، وشمال مدينة السويس على مسافة نحو ثلاثة وثلاثين كيلو متراً (الخميرى : الروض المعطار ص ٤٣٩، أحمد خيرى : السويس ليست الفرما مقال بمجلة المجمع العلمى العراقى ص ٣٥٦).

(٢) القلزم : مدينة من أعمال مصر وإليها ينسب بحر القلزم وهو الذى يعرف اليوم بالبحر الأحمر، وقد خربت هذه المدينة، وبنى موضعها مدينة السويس ولا يزال تل القلزم موجوداً فى شمال مدينة السويس حيث كانت المدينة القديمة (المقرىزى : الخطط ج ١ ص ٢١٣، أحمد خيرى : السويس ليست الفرما - مقال بمجلة المجمع العلمى العراقى ص ٣٥٦-٣٥٧ - المجلد ١٥، ١٣٨٧/هـ ١٩٦٧م).

(٣) على بن الحسين: النشاط التجارى ص ٢٠٩.

(٤) المرجع السابق ص ٨٧.

(٥) ناصر خسرو: سفرنامه ص ١١٩.

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٥.

(٧) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٢.

(٨) إبراهيم بن حمود المشيخ : تاريخ أم القرى ص ٣٢.

وكانت القلزم من أهم الموانئ المصرية ذات الصلة التجارية بموانئ الحجاز إذ عن طريقها يفد التجار الأوربيون من الفرما ثم يبحرون إلى جدة للتجارة والتموين ومنها يتجهون إلى عدن في طريقهم إلى الهند^(١) كما كانت قوافل الغلال الصادرة من مشطول تسافر إلى الحجاز عن هذا الطريق^(٢).

أما بلاد الحجاز فعبر ثغورها على البحر الأحمر كانت المراكب تأخذ طريقها إلى مصر واليمن^(٣) فعن طريق عدن وجده كانت تنقل إلى مصر غلات الهند وشرقي آسيا بالإضافة إلى البخور من اليمن^(٤).

وكان تجار الهند واليمن والحبيشة يردون في البحر من جدة إلى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ومنها يردون مدينة القسوط فكانت هذه الصحراء لاتزال عامرة أهلة بما يصدر ويرد من قوافل التجار والحجاج حتى كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك توجد ملقاة بها إلى أن يأخذها أصحابها^(٥).

وكانت مواسم الحج مواسم اقتصادية مزدهرة بالنسبة للحجاج والتجار معاً ويقصد الحجاز في تلك المواسم تجار الهند والصين بطريق جدة أو عدن فيبيعون ويشتررون ثم تسير القوافل بعد انتهاء الحج إلى القلزم^(٦).

وقد استفاد الفاطميون من خبرة التجار الحجازيين وصلاتهم بعدن والهند والصين في تأمين بعض ما يحتاجون فيخبرنا المقرئ : « أن المعز أنفذ إلى ابن السوادكي فقال: من لك بالحجاز من التجار تكاتبه، اكتب إلى من تراه منهم بأن يكتب إلى عدن بحمل ما يقدر عليه

(١) الزيلعي : مكة وعلاقاتها الخارجية ص ١٧٨.

(٢) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٨٨.

(٣) علي بن الحسين : النشاط التجاري ص ٨٣.

(٤) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٣٥.

(٥) عبد القادر الجزيري : درر الفرائد ج ٢ ص ٤٠٠.

(٦) إبراهيم بن حمود المشيقح : تاريخ أم القرى ص ٣١.

من خشب الأبنوس الحسن التلميع التام الطول الغليظ مما لا غاية وراءه، فكتب إلى تاجر بمكة، وأكد عليه، فما كان إلا نحو شهرين حتى عاد جوابه أنه وجد منه ما ليس له في الدنيا نظير وحمله في مركب فسر بذلك، وبكر إلى المعز فأخبره الخبر وأنه في القلزم»^(١).

وهكذا كانت التجارة والتبادل التجارى بين مصر والحجاز وسيلة من وسائل الارتباط الوثيق بينهما .

ويتضح مما سبق مدى اعتماد الحجاز على مصر اقتصادياً لدرجة أن توقف الحج من مصر إلى الحجاز كان يسبب ركوداً وكساداً للتجارة في الحجاز ويؤكد ذلك ابن فهد المؤرخ المكي الذى يقول فى حوادث سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م «فيها لم يبع التجار فى مكة شيئاً على عادتهم لأن حاج مصر لم يأتوا لانشغالهم بما حدث عندهم من القتال بين نور الدين وشيركوه وبين الفرنج والمصريين»^(٢).

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ١ ص ٢٢٧.

(٢) عمر بن فهد : اتخاف الورى ج ٢ ص ٥٢٩.

المعونات الاقتصادية المصرية للحجاز

إن الدارس لتاريخ العلاقات بين مصر والحجاز فى العصرين الفاطمى والأيوبي يجد أن مصادر الدخل المصرى لسكان الحجاز كانت متعددة الجوانب فقد كرسست مصر قسطاً كبيراً من أموالها لمساعدة أهل مكة والمدينة، هذا إلى جانب ما كانت توفره قافلة الحاج المصرية سنوياً لهؤلاء السكان من مصادر رزق ثابتة فى مقابل الخدمات التى يؤدونها للحجاج المصريين^(١).

وكان أمير الحاج يأخذ مبالغ سنوية من الخزانة المصرية لاعطاء الراتب السنوى لأمير مكة بالإضافة إلى أموال أخرى لسد نفقات المهام المكلف بها^(٢).

وقد خصص حكام مصر ثلاثة أبواب لتمويل دخل أمراء الحجاز هى : المعونات المالية والمعونات التجارية، والأوقاف^(٣) وسنعرض لها كما يلى :

أ - المعونات المالية: (٤)

سنعرض للمعونات المالية من خلال هذا البيان :

العام	المبلغ
٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م	٤٠٠٠٠٠ درهم ^(٥)
٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م	١٠٠٠٠٠ دينار ^(٦)
٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م	٣٠٠٠٠٠ دينار ^(٧)

(١) فؤاد الماوى : الحجاز - مقال بمجلة كلية الآداب بفاس ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أحمد جلى : أوضح الاشارات حاشية ص ٨٢٩ للمحقق .

(٤) هذه المعونات قدر قيمتها المؤرخون وهناك معونات أخرى ذكرها المؤرخون ولم يقدروا قيمتها .

(٥) هذا المبلغ قيمة صلات وفد الحجاز من الأشراف فى عهد المعز لدين الله (ابن ميسر : المنتقى فى أخبار مصر ص ١٦٦) .

(٦) هذا المبلغ قيمة صلات الأشراف والطبيب والشمع والزيت (المقرئى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٥٢) .

(٧) هذا المبلغ قيمة صلات الأشراف وكسوة الكعبة (ابن ميسر : المنتقى فى أخبار مصر ص ١٧١) .

العصام	المبلغ
٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م	٣٠٠٠٠ دينار (١)
٤٠٢ هـ / ١٠١١ م	٥٠٠٠٠ دينار (٢)
٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م	٢٠٠٠ دينار (٣)
٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م	٤٠٠٠٠ دينار (٤)
٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م	٣٠٠٠ دينار (٥)
في العصر الفاطمي الثاني	١٢٠٠٠ دينار (٦)
في وزارة اليازوري	٢٠٠٠٠ دينار (٧)
٥٥١ هـ / ١١٥٦ م	١٥٠٠٠ دينار (٨)
٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م	٢٠٠٠ دينار (٩)
٦١١ هـ / ١٢١٤ م	٣٠٠٠ دينار (١٠)

- (١) هذا المبلغ قيمة صلات الأشراف وكسرة الكعبة (المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ١ ص ٢٧٩) .
- (٢) هذا المبلغ مساعدة من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لأمير الحجاز أبى الطيب ابن عم أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى كى يوطد سلطانه بالبلاد عقب خروج أبى الفتوح على الحاكم (ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٠٩) .
- (٣) مساعدة من الخليفة الظاهر ومظفر الصقلبي صاحب المظلة لأشراف الحجاز حين أتوا لمصر لطلب العون المالى (المسبحى : أخبار مصر ص ١٩٩ - المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ١٦٤) .
- (٤) صدقة من الخليفة الظاهر لأهل الحجاز بعد شفائه من المرض (المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ١٧٥) .
- (٥) الصلة الشهرية لأمير مكة (ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٢) .
- (٦) نفقة الحاج فى العصر الفاطمي الثاني (المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٣٠٣) .
- (٧) نفقة الحاج فى عهد الوزير الفاطمي اليازوري (المصدر السابق) .
- (٨) هذا المبلغ أخرجه الخليفة الفاطمي برسم إطلاق الحاج (الفاسى : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٤ ، عمر بن فهد : تحاف الورى ج ٢ ص ٥١٧) .
- (٩) حينما أبطل صلاح الدين المكوس المفروضة على الحجاج فى البحر إلى مكة عن طريق عيذاب عوض أمير مكة هذا المبلغ سنوياً بالإضافة إلى الغلال (المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٤) .
- (١٠) حينما حج الملك المسعود بن الملك الكامل تثر على الناس ألف دينار، وأعطى أمير مكة ألف دينار، وقماشاً بألف دينار (عمر بن فهد : تحاف الورى ج ٣ ص ١٩) .

ب - المعونات التجارية :

لم تقتصر المساعدات المصرية لبلاد الحجاز على المعونات المالية فحسب وإنما كانت هناك بعض المعونات التجارية وفيما يلي بيان لها :

العام	المعونات
٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م	قمح وشعير ودقيق وزيت ومحراب من الذهب للكعبة ^(١)
سنوياً	قمح وشعير ودقيق وزيت وطيب ويخور ^(٢)
سنوياً	الدقيق والكعك من مشلول ^(٣)
سنوياً	الجمال النجبية تحمل من عيذاب لأمير مكة في السفن ^(٤)
مرتان في السنة	الخيول والخلع لأمير مكة ^(٥)
٥١٦ هـ / ١١٢٢ م	٨٩٤ أردباً من الغلال ^(٦)
٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م	١٠٠ أردب من القمح ^(٧)
٥٦٧ هـ / ١١٧١ م	جلبتان مشحونتان بالغلال ^(٨)
٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م	٨٠٠٠ أردب قمح وتقرر أن يكون سنوياً ^(٩)
سنوياً	٢٧ قنطاراً من الزيت الحار لإضاءة قناديل المسجد النبوي ^(١٠)
سنوياً	١٦٠ شمعة ما بين كبيرة وصغيرة ^(١١)
سنوياً	١٠٠ مثقال من الند (الطيب) ^(١٢)
سنوياً	١٠٠٠ أردب قمح لأمير مكة ^(١٣)

- (١) المقرئى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٤٦ .
 (٢) المصدر السابق ص ٢٥٢ .
 (٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٥ .
 (٤) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١١٩ .
 (٥) المصدر السابق ص ١١٢ .
 (٦) المقرئى : اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٨٠ .
 (٧) المصدر السابق ص ٢٢٨ .
 (٨) الفاسى : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٧٠ .
 (٩) العماد الأصفهاني : سنا البرق ص ١٥٤ .
 المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٤ .
 (١٠) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٤ .
 (١١) المصدر السابق .
 (١٢) المصدر السابق .
 (١٣) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٤ ، ابن جبير : الرحلة ص ٥٥ ، الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٨٩ ، ج ٧ ص ٢٧٧ ، الجزيرى : درر الفرائد ج ١ ص ٥٧٢ .

ج - الأوقاف :

وقف الفاطميون ثم الأيوبيون الأوقاف الآتية على الحرمين :

- وقف الوزير الفاطمي طلائع بن رزيك بركة الحبش^(١) ، ويلقس^(٢) على أشرف الحجاز بمكة والمدينة واستمر هذا الوقف طوال العصرين الفاطمي والأيوبي .

- وقف صلاح الدين الأيوبي ناحية نقادة من عمل قوص^(٣) وقبالة بالصعيد^(٤) وثلاث ناحية سنديس بالقليلية على أربعة وعشرين خادماً لخدمة الضريح الشريف^(٥) وضمن ذلك كتاباً ثابتاً تاريخه ١٨ ربيع الآخر سنة ٥٦٩هـ^(٦) .

- وقف صلاح الدين متحصلات مدينة بليس لفك أسرى المدينة المنورة الذين أسره الصليبيون سنة ٥٦٤هـ^(٧) .

- كسوة الكعبة يذكر ابن عبد القادر الطبري أنها تأتي من وقف بالديار المصرية ولم يذكر اسمه^(٨) .

- وقف صلاح الدين على قاضي مكة عز الدين أبو المعالي الشيباني الطبري بلدة بمصر ثم يذكر الفاسي اسم هذه البلدة^(٩) .

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٤ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٥٧ ، ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٥ ص ٣٣ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٢٤٣ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٥٧ ، ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٥ ص ٣٣ .

(٦) المصدران السابقان .

(٧) محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص ٦٦ .

(٨) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكى لوحة (٦٧) .

(٩) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٣٩ .

الآزمات الاقتصادية في مصر والحجاز

وأثرها على العلاقات بين البلدين

برغم الاهتمام الذي وجهه الفاطميون ثم الأيوبيون إلى الري والزراعة ووفرة الحبوب في العهدين فإن البلاد قد تعرضت لكثير من الآزمات الاقتصادية التي كان بعضها نتيجة لانخفاض ماء النيل وكان معظمها يرجع إلى إهمال العناية بالترع والجسور وإقامة السدود، كما أن بعضها نشأ نتيجة لانتشار الفتن والثورات واضطراب الأمن.

وقد أثرت الآزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر على بلاد الحجاز التي كانت تعتمد اعتماداً كاملاً على مصر مما أحدث بها ضيقاً اقتصادياً أدى في بعض الأحيان إلى الخروج على السياسة المصرية وعدم الدعوة لمصر على منابر الحرمين الشريفين، وأحياناً كانت بلاد الحجاز تتعرض لآزمات اقتصادية نتيجة القحط والجفاف لعدم سقوط الأمطار فكانت مصر تسرع بإرسال الامدادات والمعونات واستضافة من يرحل إليها فراراً من هذه الآزمات وهذا ما سوف نبينه عند عرضنا لهذه الآزمات.

- في سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م ارتفعت الأسعار بمكة ارتفاعاً شديداً لانقطاع الميرة عنها من مصر^(١) نظراً لانقطاع الدعوة للفاطميين من على منابر الحجاز والدعوة للخليفة العباسي مما جعل الخليفة الفاطمي العزيز يقطع المعونات التي كان يرسلها لهم فاشتدت الأحوال في الحجاز فعادوا يخطبون للعزيز على منابرهم مرة أخرى فأعاد المعونات لهم فانخفضت الأسعار^(٢).

- في سنة ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م كان بمكة قحط شديد وارتفعت الأسعار فكانت الأربعة أمنان من الخبز بدينار وهاجر كثير من المجاورين، وخرج من الحجاز خلق كثير ممن أصابهم الجوع والفقر وتفرقوا في البلاد^(٣) ورحل إلى مصر خمسة وثلاثون ألف شخص استقبلتهم مصر

(١) عمر بن فهد: اتحاف الوري ج ٢ ص ٤١٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص ٣٦٢، المقرئ: اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٣٨، العصامي: سبط النجوم ج ٤ ص ١٩٥، دحلان: خلاصة الكلام ص ١٦، عمر بن فهد: اتحاف الوري ج ٢ ص ٤١٤.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه ص ١١١.

وكساهم الخليفة الفاطمي وأجرى عليهم الرزق سنة كاملة، ولما أمطرت السماء في بلادهم، وكثر فيها الطعام كساهم السلطان وأغدق عليهم الصلات ثم أعادهم إلى بلادهم^(١).

- وفي سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م وقع بمصر غلاء نتيجة لنقص النيل وعدم وجود شيء من الغلال في المخازن السلطانية واشتد الأمر على الناس^(٢)، ولم يحمل الطعام من مصر إلى مكة وانقطعت المعونات فوق الغلاء بها نتيجة لذلك فبلغ الخبز عشرة أرطال بدينار مغربي وتعذر وجوده فأشرف الناس والحجاج على الهلاك فأرسل الله تعالى عليهم الجراد ما ملأ الأرض فتقوت الناس به^(٣).

- وفي سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٤م وقع بمصر الغلاء الشديد الذي استمر لمدة سبع سنين^(٤) وقد سميت هذه النكبة بالشدة العظمى^(٥) ونتيجة لهذه الشدة انقطعت الإمدادات والمعونات التي كانت ترسل من مصر إلى الحجاز فارتفعت الأسعار بها، وضائق يد شريف مكة فأخذ الذهب من على أستار الكعبة والميزاب والباب وضربه دراهم ودنانير وفعل مثله صاحب المدينة بالقناديل التي في الحجرة النبوية الشريفة^(٦) وترتب على ذلك أن قطعت خطبة الفاطميين من بلاد الحجاز سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م وأعيدت الخطبة للعباسيين بعد انقطاعها نحو مائة سنة^(٧).

- وفي سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م قطع الأفضل بن بدر الجمالي المعونات عن الحجاز نتيجة لاعتداء بعض جنود أمير مكة على التجار المصريين بثغر عيذاب^(٨) فارتفعت الأسعار بالحجاز

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٢.

(٢) المقرئ : إغاثة الأمة ص ٢٠.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٢٥، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٧٠، العقد الثمين ج ١ ص ٢٠٩، عمر بن فهد : اتحاف الوري ج ٢ ص ٤٦٤، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٤٧.

(٤) المقرئ : إغاثة الأمة ص ٢٤-٢٦.

(٥) المصدر السابق حاشية ص ٢٧.

(٦) العصامي : سمط النجوم العوالي ج ٣ ص ٤٣٢.

(٧) المقرئ : اتعاط الحنفا ج ٢ ص ٣٠٣، عمر بن فهد : اتحاف الوري ج ٢ ص ٤٧٢.

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٢٩، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٥٨.

ارتفاعاً شديداً^(١) حتى تم التصالح وأعيدت العلاقات بين البلدين فانخفضت الأسعار.

- وفي سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م حدث كساد وركود وتوقفت الحركة التجارية بمكة لانقطاع الحج المصري في هذا العام^(٢).

- وفي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م وقع غلاء بمكة حيث بلغ الحب خمسة أمداد بدينار^(٣) وانخفضت الأسعار فور وصول الإعانات من مصر والتي تمثلت في جلبتين مشحونتين بالحبوب^(٤).

- وفي سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م توقف النيل في مصر عن الزيادة، وانتهى إلى اثنتي عشرة ذراعاً واصبغاً، ثم هبط، ولم يزد بعد ذلك شيئاً فاضطربت الأحوال بمصر^(٥) وأقحطت البلاد وارتفعت الأسعار بها^(٦) واستمر النيل على ذلك لمدة ثلاث سنين متوالية^(٧) وترتب على وقوع الغلاء بمصر اشتداد الأحوال ببلاد الحجاز ووقوع الغلاء بها أيضاً لمدة سنتين^(٨).

ونستنتج مما سبق أن الحجاز كانت يعتمد اعتماداً كاملاً في الناحية الاقتصادية على مصر وأن الأزمات الاقتصادية في مصر كان أثرها يظهر واضحاً وجلياً في الحجاز فيشتد الكرب والضيق بالناس هناك.



(١) عمر بن فهد: اتحاف الوري ج ٢ ص ٤٩٧.

(٢) المصدر السابق ص ٥٢٩.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٧٠.

(٤) عمر بن فهد: اتحاف الوري ج ٢ ص ٥٣٣، الجزيري: درر الفرائد ج ١ ص ٥٦٩.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٢٥٤.

(٦) البغدادي: الإفادة والاعتبار ص ٨٥.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٢٥٤.

(٨) الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٧١.

الفصل الثالث

الناحية الفكرية والثقافية

=====

الفصل الثالث

الناحية الفكرية والثقافية

مدخل :

فى هذا الفصل نتحدث عن العلاقات الفكرية بين البلدين ومدى قوة هذه العلاقات وتأثيرها عليهما من خلال دراسة المذاهب الفقهية فى كل منهما ومدى التشابه والاختلاف ثم ندرس العلماء وانتقالهم بين البلدين للتحصيل العلمى والتدريس ، وما قامت به مصر من إنشاء بعض المدارس والأربطة بالحجاز لنبين مدى التأثير والتأثر فى الناحية الفكرية .



المذاهب الفقهية في مصر والحجاز

نشأة المذاهب الفقهية :

يعرف ابن خلدون الفقه بأنه «معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحذر والندب والكراهة، والإباحة، وهي متلقة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه»^(١).

على أن اختلاف أئمة الفقه في فهم بعض النصوص الفقهية واستنباط الأحكام منها قد أدى إلى تعدد المذاهب، واشتهر من هذه المذاهب أربعة هي :

مذهب مالك بن أنس إمام أهل الحجاز وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة أهل الحديث.
ومذهب أبي حنيفة إمام أهل العراق، وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأي والقياس.

ومذهب الشافعي وكان يسير أولاً على طريقة أهل الحجاز ثم جعل مذهبه وسطاً بين الطريقتين.

ومذهب أحمد بن حنبل، وسمى بالمذهب الحنبلي وكان يبعد عن الاجتهاد مما أدى إلى قلة عدد أنصاره^(٢).

ومن ثم ظهرت في ميدان الفقه مدرستان : مدرسة أهل الحديث في المدينة وعلى رأسها الإمام مالك بن أنس الذي كان يأخذ بمبدأ التوسع في النقل عن السنة، ومدرسة أهل الرأي في العراق وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة النعمان الذي كان يدين بالرأي^(٣).

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٦٣.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣١.

(٣) المرجع السابق.

وقد ولد الإمام مالك بالمدينة سنة ٩٣هـ / ٧١١م، والمدينة المنورة كانت مركز الخلافة منذ بداية الإسلام، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فهي منشأ الأخيار من الأمة، وأفق شمس المعارف الدينية، منها انتشر النور في المعمورة، وأهلها يروون السنة عن آبائهم وأجدادهم، خلفاً عن سلف، وجيلاً بعد جيل، وكانوا متوافرين فيها إلى عصر مالك، فورث مالك علم هؤلاء العلماء، ونشأ مجداً في التحصيل والرواية^(١).

وروى عن نافع مولى عبد الله بن عمر، وابن شهاب الزهري وأبي الزناد، وعبد الرحمن بن القاسم، وأيوب السختياني، ويحيى بن سعيد الأنصاري وعائشة بنت سعد بن أبي وقاص وغيرهم وقد توفي الإمام مالك سنة ١٧٩هـ - ٧٩٥م بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع^(٢).

وكان مالك أول من كتب في العلوم الدينية في العصر العباسي، ويعتبر كتابه «الموطأ» أول كتاب ظهر في الفقه الإسلامي، ومن كتبه «المدونة» وهي مجموعة رسائل من فقه مالك، جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابوري، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة وكان مالك يعتمد على الحديث كثيراً لأن بيئته الحجازية كانت تزخر بالعلماء والمحدثين الذين تلقوا الحديث عن الصحابة - رضوان الله عليهم - وورثوا من السنة ما لم يتح لغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى^(٣).

ومن تلاميذ مالك بمصر ابن القاسم، وأشهب، وابن عبد الحكم، والحارث بن مسكين^(٤) واستمرت الطريقة المالكية في مصر من لدن الحارث بن مسكين، وابن المبشر، وابن اللهيث وابن الرشيق، وابن شاس، وكانت بالاسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله^(٥).

أما أبو حنيفة النعمان بن ثابت فقد ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ / ٦٩٩م^(٦) وتوفي سنة

(١) مالك بن أنس : الموطأ برواية الشيباني ص ١٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٣٥ - ١٣٨.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٦٨-٥٦٩.

(٥) المصدر السابق ص ٥٧٠.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٣.

١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ببغداد^(١) وقد روى أنه رأى أنس بن مالك - رضى الله عنه - وأخذ الفقه عن حماد بن أبى سليمان، وسمع عطاء بن أبى رباح وأبى إسحاق السبيعي، ومحارب بن دثار، والهيثم ابن حبيب الصواف، ومحمد بن المنكدر وناقياً مولى عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - وهشام بن عروة، وسماك بن حرب وروى عنه عبد الله بن المبارك، ووکیع بن الجراح، والقاضى أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى وغيرهم، وكان عالماً عاملاً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله^(٢) وكان إماماً في القياس^(٣).

ومن تلاميذ أبى حنيفة الليث بن سعد الذى تولى قضاء مصر، وقد ولد ببلدة قلقشندة بمصر فى محافظة القليوبية، واشتهر بالكرم والثناء، وبلغ دخله خمسة آلاف دينار فى السنة كان يفرقها على أهل العلم من أصحابه وقد أشاد العلماء بعمله وعلمه فقد روى عن الشافعى أنه قال: «إن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به»^(٤).

ومن أشهر تلاميذ أبى حنيفة القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الذى ولد سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م وتوفى سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م^(٥)، وقد نشأ فقيراً، وكان أستاذه أبى حنيفة يمدّه بالمال، وقد تولى أبو يوسف القضاء للمهدى والهدى والرشيد ومن مؤلفات أبى يوسف «كتاب الخراج» الذى ألفه لهارون الرشيد، وقد أخذ أبو يوسف الفقه عن أبى حنيفة، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد^(٦).

ومن أصحاب المذاهب الفقهية أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى الذى جمع بين مدرستى النقل والعقل بما أوتيته من سعة العقل والقدرة على الابتكار، وهو أول من تكلم فى

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٤.

(٢) المصدر السابق ص ٤٠٦.

(٣) المصدر السابق ص ٤٠٩.

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٤.

(٥) أبو يوسف يعقوب: كتاب الخراج ص ١، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ج ٣ ص ٢٤٥.

(٦) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٤-٣٣٥.

أصول الفقه، وأول من أخذ في وضع مبادئه، وقد ترك العراق سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م وقصد مصر حيث مات بها سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م وله كتب كثيرة في الفقه منها كتاب « المبسوط في الفقه »، وكتاب « الأم »، وقد أملاه على تلاميذه في مصر، وروى عن كثير من الفقهاء كأبي ثور، وابن الجنيد، والبويطي، وابن سريج وغيرهم (١).

ومن أصحاب المذاهب الإمام أحمد بن حنبل الذي ولد في بغداد سنة ١٦٤هـ / ٧٨٠م وكان إمام المحدثين وقد صنف كتابه « المسند »، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره، وكان من أصحاب الإمام الشافعي وخواصه، ولم يزل مصاحباً له إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر، وقد قال الشافعي عنه: « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » (٢) وقد توفي سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م ببغداد (٣).

المذاهب الدينية التي سادت مصر والحجاز

انتشرت هذه المذاهب وغيرها في مصر والحجاز، لكننا نتساءل كيف انتشرت في مصر والحجاز، وما مدى انتشارها هنا وهناك ؟ وهذا ما سوف نحيط عليه من خلال عرضنا للمذاهب الدينية في مصر والحجاز.

أولاً : في مصر :

كان مذهب الإمام مالك أول ما عرفت في مصر من المذاهب الأربعة، وقد قدم به إليها عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى وكان فقيهاً وقد توفي بالاسكندرية سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م، واشتهر مذهب مالك منذ ذلك الحين.

ولم يكن مذهب أبي حنيفة معروفاً في مصر من قبل حتى قدم إسماعيل بن إيسع الكوفي قاضياً، وكان يذهب إلى قول أبي حنيفة، فعرفت مصر ذلك المذهب، وإن لم تقبل

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٣ - ١٦٦.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٦٤.

(٣) المصدر السابق .

عليه (١) .

ولم يزل مذهب مالك منتشراً بمصر حتى قدم محمد بن إدريس الشافعى إلى مصر سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها، وكتبوا عنه ما ألفه وعملوا بما ذهب إليه، ولم يزل أمر مذهبه يقوى بمصر، وذكره ينتشر .

واستمر مذهب مالك ومذهب الشافعى يعمل بهما أهل مصر ويولى القضاء من كان يذهب إليهما أو إلى مذهب أبى حنيفة حتى قدم جوهر الصقلى إلى مصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م ومن حينئذ فشا بديار مصر مذهب الشيعة وعمل به فى القضاء والفتيا، وأنكر ما خالفه (٢) وابتدت مظاهره واضحة جلية فكانوا ينادون فى الآذان بجميع المساجد «حي على خير العمل» ويفضلون على بن أبى طالب على غيره من الصحابة (٣) ويجهرون بالصلاة عليه، وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء - رضوان الله عليهم - ويجهرون بالبسملة فى الصلاة، وفى صلاة الجمعة يزيدون القنوت فى الركعة الثانية وفى الميراث يردون على ذوى الأرحام، وأن لا يرث مع البنت أخ ولا أخت، ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم، ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا الزوج أو الزوجة والأبوان، والجدة، ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد (٤) .

ويخبرنا المقرئ أن «أبا الطاهر محمد بن أحمد قاضى مصر خاطب القائد جوهرأ فى بنت وأخ، وأنه كان قد حكم قديماً للبنت بالنصف وللأخ بالباقي، فقال: لا أفعل فلما ألح عليه، قال : يا قاضى هذه عداوة لفاطمة عليها السلام فأمسك أبو الطاهر ولم يراجعه بعد ذلك» (٥) .

(١) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) يذكر المقرئ أن المعز لدين الله حين دخل مصر فى رمضان سنة ٣٦٢هـ كتب على سائر الأماكن بمدينة مصر خير الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمير المؤمنين على بن أبى طالب (المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٣٤٠) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

وفى الصيام يصومون شهر رمضان ويفطرون على حساب لهم، وقد صام القاضى وغيره من المصريين مع جوهر الصقلى كما يصوم وأفطروا كما يفطر (١) .

ولقد عمل الفاطميون على نشر مذهبهم بالترغيب حيناً وبالقوة حيناً آخر فيذكر المقرئى أنه فى سنة ٣٨١هـ ضرب رجل بمصر وطيف به المدينة لأنهم عشروا عنده على كتاب « الموطأ » للإمام مالك بن أنس (٢) .

ورغم ما كان يلاقيه أهل السنة من العسف والظلم أحياناً على يد الفاطميين لم تنقطع دراسة المذاهب الثلاثة فى مصر، فلما قتل الخليفة الأمر بأحكام الله، وتولى الوزارة أبو على أحمد بن الأفضل سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م أعلن مذهب الإمامية (٣) ، والدعوة للإمام المنتظر، وضرب دراهم كتب عليها الله الصمد الإمام محمد، ورتب فى سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م أربعة قضاة اثنان أحدهما إمامى والآخر إسماعيلى، واثنان أحدهما مالكى والآخر شافعى وحكم كل منهم بمذهبه وورث بمقتضاه، واسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق، وأبطل من الأذان «حى على

(١) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٣٤٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الفرقة الإمامية هم القائلون بإمامة على - رضى الله عنه - بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - وساقوا الإمامة من بعده إلى ابنه الحسن بالوصية ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه على زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق فهم يرون أن الإمامة وراثية من على بن أبى طالب - رضى الله عنه - يرثها أبناؤه من فاطمة - رضى الله عنها - ويغلب أن يكون أكبر الأبناء سناً وقد انقسموا إلى فرقتين هما :

* الفرقة الموسوية أو الاثنا عشرية: وهم القائلون بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر الصادق ويسمون بالموسوية نسبة إليه، وقد سمو بالاثني عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الأئمة وهم يقولون بغيبته إلى آخر الزمان.

* الفرقة الإسماعيلية: وتتميز بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق وتنسب إليه فتسمى بالإسماعيلية وتسمى بالسبعية لأن إسماعيل يعد الإمام السابع حسب ترتيبهم وتعرف بالباطنية نسبة إلى قولهم بالظاهر والباطن (انظر : الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٦٢-١٦٩، ١٩١ - ١٩٢، ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥١ عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ٣٩، المقرئى : المقفى الكبير ص ٥٥، كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ٧٧).

خير العمل» وقولهم محمد وعلى خير البشر فلما قتل سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م عاد الأمر إلى ما كان عليه من مذهب الإسماعيلية^(١).

ولما قدم صلاح الدين الأيوبي إلى مصر وتولى الوزارة للعاضد سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م شرع في تغيير الدولة ولم يلبث أن أسقط الدعوة للفاطميين ودعا للعباسيين وأنشأ بمصر مدرسة للفقهاء الشافعية، ومدرسة للفقهاء المالكية، وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم، وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درياس الماراني^٣ الشافعي فلم يستتب عنه في إقليم مصر إلا من كان شافعي المذهب، فانتشر مذهب مالك والشافعي واختفى مذهب الشيعة الإسماعيلية والإمامية من أرض مصر كلها^(٢).

وكان نور الدين محمود حنفياً فنشر مذهب أبي حنيفة ببلاد الشام، ومنه كثرت الحنفية بمصر، وقدم إليها أيضاً عدة من بلاد الشرق، وبنى لهم السلطان صلاح الدين الأيوبي المدرسة السيوفية بالقاهرة، واستمر مذهبهم ينتشر ويقوى وفقهاؤهم يكثرون بمصر والشام^(٣) وقد اشتهر مذهب أحمد بن حنبل في أواخر الدولة الأيوبية^(٤).

ثانياً في الحجاز :

في صدر الإسلام كان للعلوم الدينية بمكة والمدينة شأن كبير، فأما مكة فلأنها كانت منبع الإسلام، وبها نشأ النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - ودعا أهلها إلى الإسلام، وتعرض لناهضتهم له، ومقاومتهم للدعوة، وبها كان التشريع المكي.

أما المدينة المنورة فدار هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وبها كان التشريع الإسلامي وبها حدث النبي صلى الله عليه وسلم أكثر حديثه وكانت مركز الخلافة أيام أبي بكر الصديق وعمر وعثمان، وبها كان كثير من كبار الصحابة قد شاهدوا ما فعل النبي

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٤٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

صلى الله عليه وسلم وسمعوا ما قال، وكانوا شركاء فى بعض ما وقع من أحداث كفزوات وفتوح، فهم يحدثون بما سمعوا وشاهدوا فلا غرو إذن أن كانت مكة والمدينة مركزين من أهم مراكز الحياة العلمية فى صدر الإسلام لقصدهما طلاب الحديث والفقه والتاريخ^(١).

ففى مكة كان معاذ بن جبل يفقه أهلها ويقرئهم القرآن، وكذلك علم بمكة عبد الله بن عباس فى أخريات أيامه، فكان يجلس فى البيت الحرام يعلم التفسير والحديث والفقه، وإلى عبد الله بن عباس وأصحابه يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية، وأشهر من تخرج فى هذه المدرسة من التابعين مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبى رباح وطاووس بن كيسان، واستمرت هذه المدرسة قائمة تتلقى العلم فيها طبقة عن طبقة^(٢).

أما مدرسة المدينة فكانت أكثر علماً وأوفر شهرة حيث اشتهر فيها كثير من الصحابة كعمر وعلى، وامتاز بالعلم فيها زيد بن ثابت الأنصارى، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى أمثال هؤلاء العلماء تخرج كثير من علماء التابعين من أشهرهم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام، وعن هذه الطبقة أخذ ابن شهاب الزهري القرشى^(٣).

وقد ظلت الحركة العلمية فى مكة والمدينة فى العصر العباسى سائرة سيرها فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى، وكان أكثر ما عرف عن مدرستى مكة والمدينة الحديث والفقه^(٤).

وفى المدينة نشأ الإمام مالك بن أنس إمام أهل المدينة فاعتنق بعض الحجازيين المذهب المالكى^(٥) كما انتشر بينهم أيضاً المذهب الشافعى^(٦).

(١) عمر كحالة: مقدمات ومباحث فى حضارة العرب والإسلام ص ١٣٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ص ١٣٧.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام ص ٧٣.

(٥) السيد عبيد مدنى: رسائل فى تاريخ المدينة ص ٦١.

(٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٩٦.

أما في العهد الفاطمي فقد كان حكام مكة من الأشراف الحسينيين يعتنقون المذهب الزيدي^(١).

فقد ذكر ابن جبير عند رحلته للحجاز أن «للحرم أربعة أئمة سنية، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية، وأشراف هذه البلدة - يقصد مكة - على مذهبهم، وهم يزيدون في الآذان «حي على خير العمل» إثر قول المؤذن «حي على الفلاح» وهم روافض سبابون»^(٢).

كما ذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة ٤٧٢هـ أن صاحب مكة كان رافضياً خبيثاً^(٣) ويبدو أنهم كانوا من إحدى فرق الزيدية الذين طعنوا في الصحابة طعن الإمامية^(٤) مما جعل بعض المصادر تصفهم بأنهم روافض.

ومما يدل على ذلك معاملتهم الشديدة لأهل السنة، بل وقتل بعض أئمتهم فقد ذكر ابن فهد في حوادث سنة ٤٧٢هـ أنه جرى بين أهل السنة والروافض بمكة نزاع فبادر الروافض بالشكوى إلى أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني أمير مكة فأخذ فقيه الحرم هياج الخطيئى وجماعة من أصحابه مثل أبي محمد الأنطاقي، وأبي الفضل بن قوام فضربهم ضرباً شديداً فمات

(١) اعتنق المذهب الزيدي بعض الأشراف العلويين منهم الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم ابن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد استطاع إقامة دولة زيدية في صعدة باليمن سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م والداعي إلى الله الإمام الناصر للحق الحسن بن علي ابن الحسن بن زيد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب والذي كان يلقب بالأطروش واستطاع هو الآخر أن يقيم دولة في بلاد الديلم والجيل سنة ٣٠١هـ/٩١٣م وفي نفس العام قام محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب بالاستقلال بمكة عن العباسيين ويذكر ابن خلدون أنه كان يعتنق المذهب الزيدي (انظر: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٤٣-٤٤).

ابن النديم: الفهرست ص ٢٧٣ - ٢٧٤، الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٥٤-١٥٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٨١، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٤٥٧ - ٤٥٨، ج ٤ ص ١٢٨، ١٤٢. أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ج ١ ص ٢١١، ٢٦٨.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٧٨.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٩.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٥٧.

الاثنان في الحال، وحمل فقيه الحرم هياج الخطيئى إلى زاويته حيث مات هو الآخر^(١)، وفى سنة ٦٠٧ هـ قام شريف مكة قتادة بن إدريس الحسنى بقتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بمكة^(٢).

وكان أشرف المدينة الحسينيون من الشيعة الإثنى عشرية^(٣) ويروى السهمودى أن المدينة لم يكن لها من يعرف مذهب الإمامية حتى جاءها القيشانيون^(٤) من العراق وكانوا أصحاب ثروة ومال كثير فصاروا يؤلفون ضعفة الناس بالمال، ويعلمونهم قواعد مذهبهم، ولم يزالوا على ذلك حتى ظهر مذهبهم وكثر المشتغلون به^(٥) وتأخر أهل العلم والسنة ولم يكن لهم آنذاك بالمدينة الشريفة كلمة، وكانت الأمور كلها بيد الشيعة الإمامية فكان القضاء والخطابة لسنان الحسينى وأهل بيته توارثوا ذلك من زمن الفاطميين وحتى نهاية الدولة الأيوبية^(٦).

ولقد بدأ مذهب الشيعة يمد ظله فى مكة والمدينة بتأثير الفاطميين الذين كانوا يساعدون أشرف الحجاز، ويشدون من أزهرهم، خاصة أنهم يعتنقون المذهب الشيعى.

ولقد تأثر الحجازيون بالفاطميين فى مصر بإضافة قولهم «حى على خير العمل» إلى الأذان فى منائر المسجد الحرام، وهو تقليد شيعى كان الفاطميون يعملون به^(٧).

(١) عمر بن فهد: التحاف الورى ج ٢ ص ٤٨٠.

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٧.

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٢.

السيد محسن الأمين: مستدركات أعيان الشيعة ج ١ ص ٢٠٠ دار التعارف للمطبوعات - بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

(٤) الأسرة القاشانية (الكاشانية) جاءت من مدينة قاشان (كاشان) الفارسية التى تقع بين قم وأصفهان وأهلها كلهم شيعة إمامية، وقد استقرت هذه الأسرة بالنجف فى العراق ثم انتقلت إلى المدينة المنورة ونشرت مذاهب الشيعة الإثنى عشرية هناك . (انظر : القرمانى : أخبار الدول ص ٣٧١، الحميرى: معجم الأقطار ص ٤٤٧، السهمودى: الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤٩، أغابزرك الطهرانى: طبقات أعلام الشيعة ج ٢ ص ٤٧ المطبعة العلمية بالنجف ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م - السيد محسن الأمين : مستدركات أعيان الشيعة ج ١ ص ٢٠٦).

(٥) السهمودى: الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤٩.

(٦) المصدر السابق ص ١٤١.

(٧) أحمد السباعى : تاريخ مكة ج ١ ص ٢١٦.

فلما زالت الدولة الفاطمية وجاء الأيوبيون إلى الحكم خضعت مكة في بعض الأحيان للأيوبيين خضوعاً مباشراً بينما لم يحدث أن خضعت لهم المدينة مباشرة، وكان من نتائج ذلك الوضع في مكة أن أصبح للمذاهب السنية أهمية كبيرة بها . وصار كبير أئمة الحرم شافعيًا^(١).

وكان للحرم المكي خمسة أئمة أربعة سنيين وخامس زيدي^(٢).

يتقدمهم إمام الشافعية وكان مقدماً من العباسيين والأيوبيين .

ومما ساعد على انتشار المذهب الشافعي بمكة آنذاك أن الأيوبيين كانوا يعتنقون هذا المذهب وقد عملوا منذ قيام دولتهم في مصر على انتشاره في كافة أنحاء مملكتهم وبالإضافة إلى أن كبير أئمة الحرم كان شافعيًا فقد وجد بمكة عدد كبير من الفقهاء والقضاة والعلماء الذين يعتنقون هذا المذهب ويعملون على نشره^(٣).

وكان إمام الشافعية أول من يصلى في الحرم خلف مقام إبراهيم عليه السلام^(٤) ويليهِ الإمام المالكي ويصلى قبالة الركن اليماني^(٥).

أما الإمام الحنفى فيصلى قبالة الميزاب^(٦) والحنبل يصى في موضع يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، وتتم صلاته في وقت واحد مع صلاة الإمام المالكي^(٧).

وكان الأئمة الأربعة يصلون المغرب في وقت واحد مجتمعين بسبب ضيق وقتها، وكيفية صلاتها أن يبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة ثم يقيم من بعده مؤذنو سائر الأئمة^(٨).

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) جميل حرب : الحجاز واليمن ص ١٦٣.

(٤) ابن جبير: الرحلة ص ٧٨.

(٥) المصدر السابق ص ٧٩.

(٦) يخرج الميزاب من أعلى منتصف الحائط الشمالي الغربي للكعبة ويقال له ميزاب الرحمة وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطح الكعبة (الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص ١٨٦).

(٧) ابن جبير : الرحلة ص ٧٩.

(٨) المصدر السابق .

ونتيجة لذلك كان المصلون يصابون بالسهر والغفلة أحياناً للتكبير في الحرم من كل جهة، فربما ركع المالكى بركوع الشافعى، أو الحنفى بركوع المالكى أو يسلم أحدهم بغير سلام إمامه، لذا كان المصلون ينصتون باهتمام شديد لصوت إمامهم أو مؤذنينهم خوفاً من السهو^(١).

ولم تشر المصادر إلى المكان الذى كان يصلى فيه إمام الزيدية، وإنما اكتفت بالقول بأنهم لا يصلون الجمعة مع الناس، وإنما يصلون الظهر أربعاً ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة السنية من صلاتهم^(٢).

وبعد فراغ المصلين من صلاة المغرب يقف المؤذن فى سطح قبة زمزم رافعاً صوته بالدعاء للخليفة العباسى ولأمير مكة، ثم لصالح الدين الأيوبي، ويصل ذلك بالدعاء لأمرء اليمن الأيوبيين، ثم سائر المسلمين والحجاج والمسافرين^(٣).

أما خطبة الجمعة فكان يتولاها الخطيب الشافعى^(٤).

وفى شهر رمضان كان أهل مكة يصومون ويفطرون بأمر أمير مكة على حساب لهم كما كان الفاطميون يفعلون فى مصر، واستمر ذلك طوال العصرين الفاطمى والأيوبي.

ويخبرنا ابن جبير عند زيارته للحجاز سنة ٥٧٩هـ - ١١٨٣م أن صيام أهل مكة لشهر رمضان كان يوم الأحد بدعوى فى رؤية الهلال لم تصح، لكن الأمير أمضى ذلك، ووقع الإذن بالصوم بضرب الدباب ليلة الأحد المذكور لموافقة مذهبه ومذهب شيعته العلويين لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضاً حسبما يذكر^(٥).

وأثناء صلاة التراويح كان الأئمة يتفرقون فرقاً فالشافعية تتقدم وقد نصب لها إماماً فى ناحية من نواحي المسجد، ثم الحنبلية، والحنفية، وكذلك الزيدية^(٦).

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٧٩ .

(٢) جميل حرب : الحجاز واليمن ص ١٦٤ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٨٠ .

(٤) جميل حرب : الحجاز واليمن ص ١٦٥ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٢ .

(٦) المصدر السابق.

أما المالكية فكانوا يجتمعون على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة، وكان إمام الشافعية في التراويح أكثر الأئمة اجتهاداً لأنه يصليها لهم عشرون، ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون، بينما سائر الأئمة لا يزيدون في صلاتهم عن عشر ركعات^(١).

وقد كان أهل السنة يتعرضون أحياناً للعداء من أشرف مكة ففي سنة ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م توفي هياج بن عبيد مفتي أهل مكة وفقه الحرم، وكان سبب موته أن بعض الشيعة شكروا إلى أمير مكة محمد بن جعفر الحسني أن أهل السنة يستطيّلون عليهم بهياج بن عبيد فأخذوه الأمير وضربه ضرباً شديداً حتى مات^(٢).

وفي المدينة المنورة كان الوضع مختلفاً عن مكة فالإمامة والخطابة والقضاء بها للشيعة، وخاصة سنان الحسيني، وأهل بيته من الأشراف الحسينيين يتوارثها الأبناء عن الآباء منذ العصر الفاطمي وطوال العصر الأيوبي^(٣).

وكان لأهل السنة إمام شافعي يصلي بالناس الصلوات الخمس^(٤) فحسب لأن الأمر بيد الشيعة، وأهل السنة في ضعف عظيم معهم بالمدينة ولا يستطيعون قراءة كتبهم أو سماع الأحاديث النبوية إلا خفية^(٥).

ومما ساعد على تمادى أنصار الشيعة بالمدينة في أفعالهم اشتراك أمرائهم مع صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين فكان يتبرك بهم ويستشيرهم في كثير من الأمور^(٦) ولا يعرف ما يفعلونه بأهل السنة.

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٣.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٩ ، الذهبى : العبر ج ٢ ص ٣٣١.

(٣) السمهودى : الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤١.

(٤) المصدر السابق ص ١٤٢.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ ص ١٧٤ - ١٧٥.

ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يجعل لأهل السنة مكانة في المدينة فاستمال أشرافها وأغدق عليهم الأموال والهدايا حتى سمحوا له بأن يعين جماعة من قبله لإدارة المسجد النبوي فأرسل إليهم في عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م أربعة وعشرين خادماً يرأسهم شيخ الخدام بدر الدين الأسدي، وأوقف عليهم ناحية نقادة من عمل قوص وقبالة بالصعيد وثلاثي ناحية سندبيس بالقلبيوية^(١).

ورغم ذلك لم يصبح لأهل السنة نفوذ قوى بالمدينة، بل بقوا على ما كانوا عليه من ضعف وظلت السيادة لأصحاب مذهب الشيعة وصار إمامهم على بن سنان الحسيني يخطب ويصلى ويتولى كافة الأمور الدينية بالمدينة^(٢) وكان إذا عقد في البلد عقد نكاح بغير إذن على بن سنان وأمره طلب من فعلوا ذلك، وعزّهم ودفع شرفاء المدينة لمعاقتهم^(٣).

ولم يكن أهل السنة والمجاورون يستطيعون عقد نكاح أو الفصل في أي قضية بين المتخاصمين إلا بعد الرجوع إلى على بن سنان الحسيني إمام الشيعة الذي كان يصدر أوامره إلى إمام السنة في كتاب يقول فيه اعقد نكاح فلانة على فلان أو أصلح بين فلان وفلانة^(٤).

ولقد توارث الشيعة الخطابة بالمدينة منذ عهد الفاطميين وطوال عصر الأيوبيين حتى أخذت منهم في العصر المملوكي^(٥).

وكان من عاداتهم أن يجمع للخطيب في الموسم المال الجزيل، والهدايا الكثيرة ولا يتم الخطيب خطبته حتى يحصل على ما يريد^(٦) وقد وصف ابن جبير ذلك حين ذكر في رحلته أنه شاهد عند دخوله المدينة الشريفة بعد رجوعه من مكة صحبة الحاج العراقي في يوم الجمعة

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٥٧، ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٢٤٣.

(٢) السهمودي : الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق ص ١٤٨.

(٦) المصدر السابق ص ١٤٩.

السابع من المحرم سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م أمراً يندى له الإسلام فقد وصل الخطيب وصعد منبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو كما يذكر على مذهب غير مرضى، فلما فرغ من الخطبة الأولى جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل في السرعة حتى قام الخدام التابعون له باختراق الصفوف وتخطى الرقاب يجمعون ما يتبرع به الحاضرون لهذا الخطيب الذي لا يهتم سوى جمع المال والذهب والثياب، ولو كان ذلك على حساب الدين^(١).

فقد كان منهم من يقدم له الثوب النفيس الغالى ومنهم من يأتي بالقطعة الثمينة من الحرير فيعطئها له ومنهم من يخلع العمامة ويلقيها إليه ومنهم من يخلع بردته ويقدمها له ومنهم من يدفع القراضة من الذهب ومنهم من يمد يده بالدينار أو الدينارين وهو جالس يراقب ذلك بنظرات كلها طمع ورغبة في الاستزادة حتى كاد الوقت أن ينقضى وتضيع الصلاة، وضع أصحاب الدين، وصاحوا في وجه الخطيب وهو جالس ينتظر دون خجل أو حياء حتى تجمع أمامه كومة كبيرة من هذه الأشياء وحينئذ شعر بالرضا فقام وأكمل الخطبة^(٢).

العلماء بين مصر والحجاز - تأثير وتأثر :

كانت النهضة العلمية بمصر في بدء عهدها نهضة دينية إسلامية فمع الفتح الإسلامي جاء إلى مصر عدد من الصحابة أشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدون ما يسمع، وكان يحج ويعتمر ويأتي الشام ثم يرجع إلى مصر وقد مات بها ويعد مؤسس المدرسة المصرية، وأخذ عنه كثير من أهل مصر واشتهر من بعده يزيد بن أبي حبيب من دنقلة، وقد أخذ العلم عن بعض الصحابة المقيمين بمصر، وكان أول من نشر الفقه بمصر وكان من أشهر تلاميذ يزيد بن أبي حبيب عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد^(٣).

ولقد قامت في مصر حركة دينية واسعة النطاق مركزها جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وكانت نواة هذه الحركة الصحابة الذين جاءوا لفتح مصر، واستوطنوها، وكان يدرس في مصر

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٧٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٠.

(٣) عمر كحالة : مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام ص ١٤٧.

القرآن والحديث والفقه والقراءات (١) .

ثم جاءت مرحلة الاستقلال والعطاء وتشمل العصرين الفاطمي والأيوبي، وفي هذه المرحلة نجد أن مصر بعد تلقيها للعلوم وتمكنها منها بدأت تعطى غيرها من البلاد الأخرى، وهذا ما تؤكد كـتـب الطبقات التي تتحدث عن العلماء المصريين الذاهبين إلى الأمصار الإسلامية مشاركة في النهضة بها فقد رحل بعضهم إلى القيروان أو المغرب أو الحجاز ونقلوا إلى المسلمين ما تلقوه وما هضموه وفي نفس الوقت بدأ كثيرون من طلاب المشرق والمغرب يأتون هذه البلاد للاستزادة من علمها (٢) .

وكانت القاهرة مأوى لكثير من العلماء وطلاب العلم من مختلف أقطار العالم الإسلامي وكان بعض العلماء يأتون إليها ليستقروا فيها وبعضهم يقيم فيها فترة ثم يعود إلى بلده وقد ذهب كثير من العلماء المصريين إلى الحجاز، فمنهم من أقام هناك، ومنهم من عاد مرة أخرى إلى بلاده، وكان لهم دور في تنشيط الحركة العلمية هناك.

وكما أسس الفاطميون والأيوبيون عدة مدارس في مصر شاركوا في إنشاء المدارس في الحجاز أيضاً وصار التأثير والتأثر بين مصر والحجاز صفة واضحة في هذه الفترة، وفي الصفحات التالية تبيان لهذا التأثير.



(١) عمر كحالة : مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام ص ١٤٧ .

(٢) حسن محمود : دراسات في تاريخ مصر ص ١١ .

التأثير الثقافي لمصر في الحجاز

يبدو التأثير الثقافي لمصر في الحجاز واضحاً من خلال طلاب العلم الحجازيين الذين كانوا يأتون إلى مصر زرافات ووحداناً لطلب العلم والإفادة من علمائها ومن خلال العلماء المصريين الذين كانوا يذهبون إلى الحجاز للحج أو المجاورة للحرمين الشريفين ويطبقون هناك يعلمون الحجازيين بالإضافة إلى المدارس التي أقامها المصريون في بلاد الحجاز لينهل الحجازيون من منابع علمها الغزير.

١ - طلاب علم من الحجاز في مصر :

أوردت كتب التراجم أسماء كثير من علماء الحجاز الذين حرصوا على العلم والاستزادة منه فشدوا الرحال إلى مصر لتلقى العلم على أيدي علمائها ومن هؤلاء العلماء :

أولاً : في العصر الفاطمي :

* هياج بن عبيد بن الحسن الخطيني، أبو محمد الفقيه الزاهد فقيه الحرم ومفتي أهل مكة سمع الحديث بمصر وبغداد ودمشق، فقد سمع أبا الحسن بن موسى السمسار وعبد الرحمن بن عبد العزيز ابن الطير ومحمد بن عوف المدني، وجماعة بدمشق، وعلى بن حميصة بمصر، وقد حدث وروى عنه جماعة منهم هبة الله الشيرازي، ومحمد ابن طاهر المقدسي، وقد قتل على يد أمير مكة سنة ٤٧٢هـ لشكوى الشيعة منه^(١).

* شميلة بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم الحسنى المكي، ويلقب بالزين جاء إلى مصر طلباً للعلم حين أرسله أبوه أبو هاشم محمد بن جعفر الحسنى أمير مكة فنزل مصر في شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م وسمع من القضاة كتابه «الشهاب»^(٢).

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٨٠ - ٣٨١.

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ١٧-١٨.

* عبید الله بن سعید بن حاتم بن أحمد الوائلی البکری (الحافظ أبو نصر السجزي) حدث عن أبي أحمد الحاكم، وأبي عمر بن مهدي، وأبي عبد الرحمن السلمی وأحمد بن فراس العبقيسي وحمزة بن عبد العزيز المهلبی، وقد رحل إلى مصر طلباً للعلم، وله كتاب «الإبانة الكبرى في مسألة القرآن» وقد توفي سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م^(١).

* أبو معشر الطبري المقرئ (عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد بن علي) شيخ القراء بمكة قرأ بمكة على أبي عبد الله الكازريني، ويمصر على أبي العباس بن نفيس، وإسماعيل بن راشد الحداد، وله من المؤلفات: «التلخيص»، «وسوق العروس في القراءات المشهورة والعربية» وكتاب «طبقات القراء»، وكتاب «الدرر في التفسير» وقد توفي بمكة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م^(٢).

* أبو عبد الله المكي (محمد بن الحسن الفهري) الشاعر المنجم قدم مصر طلباً للعلم وأراد أن يهاجر إلى مصر أن يحدث فرفض قائلاً: شاعر منجم لا يصلح لي هذا وقد توفي سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م^(٣).

ثانياً : في العصر الأيوبي :

* الشيخ قطب الدين القسطلاني المكي الشافعي، نشأ بمكة وأجاز له الشيخ أبو الفتوح الحصري المدرس المصري بمدرسة ابن الأرسوفي بمكة، وقرأ عليه وسمع منه^(٤) ثم رحل إلى مصر لتلقي العلم وعاد إلى مكة مرة أخرى وفي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م عين لقضاء مكة ثم طلب من مكة للتدريس بمشيخه دار الحديث الكاملية فوليها حتى مات^(٥).

(١) المصدر السابق ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٤٧٣.

(٤) المصدر السابق ص ٣٢١.

(٥) الكتبي : فوات الوفيات ج ٣ ص ٣١٠.

* أبو الفتح محمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طلحة من كبار الحنابلة بمكة، وقد جاء إلى مصر، وسمع من أبي الطاهر الزيات، وبالإسكندرية من الحافظ السلفي، وحدث بمكة ومصر والإسكندرية وأقام بمكة إماماً للحنابلة حتى توفي سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م^(١).

* تقي الدين أبو حفص المعروف بالمياشي (عمر بن عبد المجيد بن عمر بن حسين القرشي) شيخ مكة وخطيبها جاء إلى مصر، ولقي بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد الرازي وأخذ عنه سداسياته، وسمع من أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري كتابه «المعلم بفوائد مسلم» ومن مؤلفاته «المجالس المكية»، و«إيضاح ما لا يسع المحدث جهله» وكتاب «الروضة في الرقائق» وقد حدث بمصر ومكة وكان عالماً ورعاً ثقة وتوفي بمكة سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م^(٢).

* عبد الرحمن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن عبد الملك بن أبي النصر انطبري، ويلقب بالعماد الشافعي مفتي مكة، سمع من أبي الحسن علي بن المقير ومن علي بن أبي الفضل المرسى صحيح مسلم، وصحيح ابن حبان، وغير ذلك عليهما، وأجاز له من مصر ابن الحباب والساوي وكان فقيهاً ويعرف طرفاً من الحديث والعربية^(٣).

* صديق بن يوسف بن قریش (الفقيه أبو الوفاء الحنفی) ولد سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م وذهب إلى مصر فسمع بالإسكندرية من الحافظ أبي طاهر السلفي، ومن أبي القاسم البوصيري وقد استوطن الديار المصرية مدة، وولى الحسبة بها ثم عاد إلى مكة، وتولى التدريس بمدرسة ابن الزنجبيلي^(٤).

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ج ٦ ص ٣٣٤.

(٣) المصدر السابق ج ٥ ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٤) المصدر السابق ص ٣٩.

* ابن الحباب المالكي (محمد بن عبد العزيز بن الحسين بن عبد الله التميمي السعدي الأنصاري) قدم من مكة إلى مصر طلباً للعلم فسمع من الحافظ السلفي وأبي طاهر ابن عوف بالاسكندرية وسمع بمصر من جماعة منهم الشريف أبو الفتوح ناصر بن الحسين الزيدي، وقرأ عليه القرآن بالروايات، وقرأ الأدب على العلامة أبي محمد بن بري، وأجاز له وحدث، وقد ولي القضاء بمكة، وتوفي بها سنة ٦٠٥ هـ (١).

ب - علماء مصريون يُدرّسون بالحجاز :

لم يتوقف دور العلماء المصريين عند تعليم طلاب الحجاز الوافدين إلى مصر وإنما انتقل كثير من العلماء المصريين إلى بلاد الحجاز، وقد أتوا للمجاورة في مكة والمدينة ومنهم من قضى فترة زمنية ثم عاد إلى مصر، وربما أقام بعضهم بقية عمرهم الزماني في مكة أو المدينة . وكان لهؤلاء العلماء دور كبير في تعليم أبناء الحجاز، ولا يكاد يخلو مصدر من الحديث عن هؤلاء العلماء الذين جاؤوا وبرزوا حتى أصبحت أهميتهم بالغة في الحرمين الشريفين، ومن هؤلاء العلماء :

أولاً : في العصر الفاطمي :

* مسعود بن علي بن أحمد بن عبد المعطي، ولد بمصر ونشأ بها ، وقرأ على أبي الخير الفاسي ولازمه وتخرج على يديه، وسمع منه، ومن عثمان بن الصفي وغيرهم، وكان فاضلاً في القراءات والفقه والحديث والعربية، وقد ذهب إلى مكة وأقام بها حتى توفي سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م (٢) .

* عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن صدقة المصري (أبو محمد المعروف بابن الغزال) سمع بمصر أبا عبد الله القضاعي، وعبد العزيز بن الحسن الضراب، وأبا محمد المحاملي وغيرهم وقد ذهب إلى مكة فسمع منه جماعة منهم الحافظ أبو القاسم بن عساكر وقد

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ١٨٣ .

جاور ابن الغزال بمكة عدة سنين وتوفى بها سنة ٥٢٤هـ (١) .

* القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكيمون المصري الفقيه الشافعي مصنف كتاب الشهاب وكتاب مناقب الإمام الشافعي وأخباره وكتاب الأنبياء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء وكتاب خطط مصر وقد ذهب إلى الحجاز سنة ٤٤٥هـ وحدث فسمع منه جماعة ثم عاد إلى مصر حيث توفى بها سنة ٤٥٤هـ (٢) .

ثانياً : في العصر الأيوبي :

* عبد المعطى بن محمود بن عبد المعطى بن عبد الخالق الأسكندري كان من أعيان مشايخ الاسكندرية وقد اشتهر بالزهد والصلاح وله معرفة بأصول الدين، ومذهب مالك، وصنف كتاباً في الرقائق وعلم الباطن، وشرح «الرعاية» للمحاسبي ورسالة القشيري، وقد ولد سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م بالاسكندرية وانتقل في آخر عمره إلى مكة وجاور بها حتى توفى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م، ويذكر الفاسي أنه «كان من كبار العلماء الأئمة الصالحاء» (٣) .

* عبد الله بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الغنى التميمي، تفقه بالاسكندرية على مذهب الإمام مالك، وسمع بها من الحافظ أبي طاهر السلفي، وحدث وجاور بمكة عدة سنين ثم عاد إلى مصر حيث توفى سنة ٦٢٣هـ بالاسكندرية (٤) .

* شعيب بن يحيى بن أحمد بن محفوظ بن عطية التميمي الاسكندري، يكنى أبا مدين ويعرف بالزعفراني التاجر، ولد سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م بالاسكندرية وسمع بها من الحافظ أبي طاهر السلفي، ثم ذهب إلى مكة وجاور بها سنين إلى أن توفى بها وقد

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ورقة ٨١، ٢١٣.

(٢) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٩٣.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٥ ص ٤٩٧ - ٤٩٩.

(٤) المصدر السابق ص ٣٠٢.

سمع منه جماعة من الأعيان منهم ابن الحاجب الأميني والرشيد العطار، وقد سمع منه الدمياطي بالحرمين، وقد توفي آخر سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م^(١).

* ناصر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حاتم المصري العطار (أبو الفتح المكي الفقيه المفتي الشافعي) يقول الفاسي : «شيخ مصري استوطن مكة وجاور بها أكثر عمره وكان رجلاً صالحاً، شافعي المذهب، وكان يعيد في المدرسة التي أنشأها ابن الأرسوفي بمكة خارج باب العمرة، وقد استقر بمكة منذ سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م إلى أن توفي بها سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م^(٢).

* مكي بن أبي حفص عمر بن أبي الخير نعمة بن يوسف بن سيف بن عساكر، سمع من والده القاضي أبي حفص ومن أبي محمد عبد الله بن برى، ومن أبي القاسم البوصيري وكان شيخاً صالحاً ذهب إلى مكة وجاور بها عدة سنين ثم عاد إلى مصر حيث توفي سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م^(٣).

* الشيخ تاج الدين أبو الحسن بن الشيخ أبي العباس القسطلاني المصري، ولد في سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م وسمع من الشريف يونس بن يحيى الهاشمي صحيح البخاري، ومن زاهر بن رستم جامع الترمذي، ومن أبي الفتح المصري مسند الشافعي، وسانن أبي داود والنسائي، وسمع من أبي الصيف وأبي عبد الله بن البناء بمكة، وبمصر من أبي الحسن بن حبير كتاب الشفاء للقاضي عياض عن التميمي إجازة عنه وغيره بمصر وحدث بها بمكة، وسمع وأفتى ودرس بمدرسة المالكية المجاورة لجامع عمرو بن العاص بالفسطاط وقد توفي ودفن بسفح المقطم^(٤).

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٥ ص ١٢-١٣.

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٣١٦-٣١٧.

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٤) المصدر السابق ج ٦ ص ١٣٦ - ١٣٧.

* على بن عبد الوهاب بن محمد بن أبي الفرج (أبو القاسم الاسكندري) صاحب الرباط بأسفل مكة ، وقد وقفه وحبسه وتصدق به على فقراء العرب الغرياء المتعبدین وقد سمع منه السلفی وغيره، وحدث بمكة وتوفى سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م^(١) .

* الشيخ الصالح المحدث مصطفى بن محمود بن موسى بن محمود بن على بن أبي الثناء المصرى ولد بالفسطاط بعد سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م وجاور بالحرم الشريف حتى توفى سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م بمكة^(٢) .

* القاضى عماد الدين أبو عمرو الكردي الحميدى الشافعى تفقه على مذهب الشافعى بالموصل على عمه ثم قدم مصر واستوطنها وتولى القضاء بثغر دمياط ثم عاد إلى القاهرة وناب بها عن قاضى القضاة أبى القاسم عبد الملك بن عيسى المارائى، كما ناب عنه بقلوب وأعمالها ودرس بالجامع الأحمر وبالمدرسة السيفية بالقاهرة مدة، وسمع بها من الحافظ أبى الحسن على بن المفضل المقدسى ثم توجه إلى مكة ولم يزل مجاوراً بها إلى أن مات سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ودفن بالمعلاة^(٣) .

ج- دور العلم النقي أنشأها المصريون بالحجاز :

كان التدريس قائماً فى المساجد منذ صدر الإسلام، وكان للعلماء فيها حلقات ، وكانت هذه الحلقات مأهولة بالطلاب، وكانت منتشرة فى جميع عواصم العالم الإسلامى، ففى مصر كانت تلقى الدروس فى مسجد عمرو بن العاص والمسجد الطولونى والمسجد الأزهر، ومسجد الحاكم بأمر الله، وتعددت الحلقات فى المسجد الواحد ولم تكن هذه الحلقات مقصورة على علوم الدين فكان يجلس للتدريس بها علماء كذلك فى اللغة والنحو والتاريخ^(٤) .

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ٦ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٢٠٤ .

(٣) المصدر السابق ج ٦ ص ٤٨ ، عمر بن فهد : اتحاف الورى ج ٣ ص ٣٨ .

(٤) أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ج ٢ ص ١٤٥ .

وفى الحجاز أدت حلقات العلم فى المسجد الحرام دوراً واضحاً فى ازدهار الحياة الفكرية فقد كان العلماء يفدون إليه من شتى البلدان وتعدد فيه الحلقات العلمية فى مختلف العلوم الدينية وكان هؤلاء العلماء ومنهم المصريون يزاولون التدريس والإفتاء لأهل مكة والقادمين إليها^(١).

وإلى جانب المساجد نشأت المدارس فيذكر المقرئى أن «المدارس مما أحدث فى الإسلام، ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمئة سنة من سنى الهجرة»^(٢).

ويعلل آدم متز سبب نشأة المدارس بأن المساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس بما يتبعه من مناظرة وجدل، قد يخرج بأصحابه أحياناً عن حد الأدب الذى يجب مراعاته للمسجد^(٣).

لذا فكر العلماء فى إنشاء المدارس، وأول مدرسة أحدثت بمصر كانت فى عصر الفاطميين وهى المدرسة التى بناها الوزير رضوان بن ولخشى فى الاسكندرية سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م وقرر فى تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف^(٤) ثم بنى الوزير ابن السلار الكردى مدرسة أخرى بالاسكندرية للحافظ السلفى سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م^(٥).

ومع قدوم الأيوبيين إلى مصر بدأ إنشاء المدارس فيها يزداد فيخبرنا المقرئى أن أول مدرسة أحدثت فى عهد الأيوبيين هى المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضاً، وقد اقتدى بالسلطان صلاح الدين أبنائوه وأمرأؤه فقاموا ببناء المدارس فى القاهرة والقسطنطين وغيرها من أعمال مصر^(٦) حتى بلغ عدد المدارس المنشأة

(١) إبراهيم المشيقح: تاريخ أم القرى ص ٤٦.

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٣.

(٣) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٥٤.

(٤) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٠، المقرئى: اتعاظ الخنفا ج ٣ ص ١٦٧.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٥.

(٦) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٣.

فى العصر الأيوبي أربعاً وعشرين مدرسة فى القسطاٲ والقاهرة ومدرستين بالفيوم^(١) .
وكما أنشئت المدارس بمصر فقد أنشئت بعض المدارس والأرطة بالحجاز فى عهد الأيوبيين
كما يلى :

مدرسة الزنجبيلى :

وقف هذه المدرسة الأمير عز الدين المعروف بالزنجبيلى، وكان نائباً للسلطان صلاح الدين
الأيوبي بعدن وقد وقفها سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م وتقع عند باب العمرة، وبنى بجوارها رباطاً
خاصاً يسكنه الدارسون فيها، وكانت الدراسة فى هذه المدرسة على مذهب الإمام أبى حنيفة
النعمان^(٢) وقد ذكر ابن فهد أن هذه المدرسة تعرف بدار السلسلة، ويشرف عليها بعض أشرف
مكة^(٣) وقد تولى التدريس بهذه المدرسة الفقيه أبو الوفاء الحنفى صديق بن يوسف بن قريش
وقد تلقى تعليمه بمصر، وأقام بها فترة طويلة^(٤) .

مدرسة الأرسوفى :

وقف هذه المدرسة العفيف عبد الله بن محمد الأرسوفى، وتقع بالقرب من باب العمرة،
ويذكر الفاسى أنه لا يعرف متى وقفت ويرجح أن يكون تاريخ وقفها هو نفس التاريخ الذى وقف
فيه رباطاً بمكة سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م^(٥) وكانت الدراسة فى هذه المدرسة على مذهب الإمام
الشافعى^(٦) .

وكان يدرس بهذه المدرسة علماء من مصر أيضاً نذكر منهم الشيخ أبو الفتوح الحصرى^(٧)

(١) أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها ج ٢ ص ١٥٣ .

(٢) الفاسى :العقد الثمين ج ١ ص ١١٧ ، ج ٦ ص ٣٤ - ٣٥ ، شفاء الغرام ج ١ ص ٣٣١ .

(٣) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج ٢ ص ٥٤٩ .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ٥ ص ٣٩ .

(٥) الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، العقد الثمين ج ٥ ص ٤٢٢ - ٤٢٣ ، عمر بن فهد: اتحاف
الورى ج ٢ ص ٥٦٢ .

(٦) ناجى معروف : المدارس الشرايية ص ٣٤٨ ط ٢ سنة ١٣٩٧هـ .

(٧) الفاسى :العقد الثمين ج ٧ ص ٣١٦ - ٣١٧ .

والشيخ أبى الفتوح ناصر بن عبد الله العطار، وقد ذكر الفاسى أنه كان معيداً بهذه المدرسة^(١).

ومن الجدير بالذكر أن الأرسوفى كانت له مدرسة بمصر أيضاً تعرف باسم مدرسة ابن الأرسوفى، ويذكر المقرئى أن هذه المدرسة كانت بالبزازين التى تتجاوز خط النخالين بمصر وكان بناؤها فى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م^(٢).

المدرسة الشهابية بالمدينة المنورة :

تقع هذه المدرسة فى الناحية الجنوبية الشرقية للمسجد النبوى ، وكانت داراً لأبى أيوب الأنصارى - رضى الله عنه - وقد اشتراها الملك شهاب الدين غازى بن الملك العادل وبنائها مدرسة سميت باسمه وهى موقوفة على المذاهب الأربعة، ووضع بها كثيراً من الكتب الدينية^(٣).

والحقيقة أنه يرجع الفضل للأيوبيين فى إنشاء المدارس بالحجاز، إذ تعتبر المدارس التى أنشأها الأيوبيون بالحجاز من أقدم المدارس التى أنشئت هناك ويبدو أن الهدف الرئيسى من إنشاء هذه المدارس بالإضافة إلى التدريس ونشر العلم والمعرفة هو محاربة المذهب الشيعى الذى كان سائداً آنذاك.

وبعد إنشاء هذه المدارس كثرت المدارس بالحجاز كثرة واضحة ويظهر ذلك من المدارس التى ذكرها الفاسى فى كتابه كما يلى:

- مدرسة طاب الزمان الحبشية وقفت على فقهاء الشافعية سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م.

- مدرسة أبى على بن أبى زكري وتاريخ وقفها سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م.

(١) المصدر السابق .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٤.

(٣) عبد القدوس الأنصارى : آثار المدينة المنورة ص ٢١.

- مدرسة ابن الحداد المهدوى وقفت على فقهاء المالكية بقرب باب الشبيكة وتعرف بمدرسة الأدارسة وتاريخ وقفها سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م.

- مدرسة الملك المنصور عمر بن على بن رسول صاحب اليمن وقفها على فقهاء الشافعية سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م.

- مدرسة بدار العجلة القديمة على يسار الداخل للمسجد الحرام وتاريخ وقفها قبل العشرين وسبعمئة.

- مدرسة الملك المجاهد صاحب اليمن بالجانب الجنوبي من المسجد الحرام وقفها على فقهاء الشافعية سنة ٧٣٩هـ.

- مدرسة ابن النهاوندى، ويذكر الفاسى أن لها نحو مائتى سنة.

- مدرسة الملك المتصور غياث الدين بن المظفر أعظم شاه صاحب بنجاله من بلاد الهند وقفها على المذاهب الأربعة سنة ٨١٤هـ (١).

والحقيقة أن المدارس فى بلاد الحجاز اهتمت بتدريس العلوم الدينية على مذهب من المذاهب الشهيرة أو أكثر كما اتضح عند عرضنا لهذه المدارس فكانت هناك مدارس للشافعية وأخرى للمالكية وأخرى للأحناف، هذا إلى جانب علوم القرآن والحديث وبعض هذه المدارس كان يدرس المذاهب الأربعة .

وكان المدرسون فى هذه المدارس على طبقتين : مدرسين ومعيدين، فالمدرس هو من يتولى التدريس الفعلى، والمعيد هو من يتولى إعادة الدرس الذى ألقاه المدرس على الطلاب ليفهموه ويتقنوه، وقد ذكر الفاسى أن مدرسة الأرسوفى بمكة كان المدرس بها الشيخ أبا الفتوح الحصرى، والمعيد الشيخ أبا الفتوح ناصر بن عبد الله العطار (٢).

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١١٧ - ١١٨.

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٣١٧.

الأربطة :

بالإضافة إلى المدارس التي أنشأها المصريون بالحجاز فقد كانت هناك الأربطة وكان لها علاقة وثيقة بالحجاج الوافدين إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج وكذلك لطلاب العلم المجاورين أيضاً في مكة، وكان لإنشاء هذه الأربطة نتيجة حتمية لابد منها، إذ أنها توفر جميع سبل الراحة لطلاب العلم وللحجاج المقيمين فيها أثناء موسم الحج من مسكن ومأكل ومشرب ووجود هذه الأربطة في مكة المكرمة دفع المجاورين إلى الإقبال على طلب العلم والتفقه في الدين حيث توفر لهم ما يرفع عنهم الفقر والحاجة.

وكان واقف الرباط يقف عليه أحياناً بعض الدور أو الضياع أو الأماكن للإتفاق عليه، كما كان يوقف به بعض الكتب ليتلقى المجاورون فيها بعض العلوم لأن الأربطة كانت تشبه المدرسة وتقوم مقامها أحياناً ولهذا أقبل كثير من طلبة العلم والمجاورين على هذه الأربطة وتسابقوا على سكنها وكثرت الأربطة في مكة والمدينة وساهم المصريون في إنشاء بعض هذه الأربطة في كل من مكة والمدينة نشير إليها كما يلي :

رباط الزنجبيل :

بنى عثمان بن علي الزنجبيلي نائب السلطان صلاح الدين الأيوبي بعدن رباطاً سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م يقع أمام مدرسته في مكة عند باب العمرة، وقد وقفه على طلاب المدرسة وعلى أصحاب المذهب الحنفي المقيمين بمكة^(١).

رباط العفيف :

ينسب إلى العفيف عبد الله بن محمد الأرسوفى ويسمى رباط أيا رقية وقد وقفه عنه وعن موكله القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني مناصفة في سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م^(٢) ويقع الرباط عند مدرسة الأرسوفى جنوب مكة بالقرب من باب العمرة كما

(١) عمر بن فهد: اتحاف الوري ج ٢ ص ٥٤٩، الفاسي : شفاء الغرام ج ١ ص ٣٣١، العقد الثمين ج ١ ص ١١٧، ١١٩.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ١٢٢.

هو مثبت فى الحجر الذى على باب الرباط فقد نقش على حجر تأسيسه بأن الرباط المذكور وقف على الفقراء والمساكين العرب والعجم من الرجال دون النساء القادمين إلى مكة المكرمة والمجاورين بها على أن لا يزيد سكن المقيم فيه على ثلاث سنوات^(١).

رباط ربيع :

وقفه ربيع بن عبد الله محمد الماردى عن موكله الملك الأفضل نور الدين على ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م ويقع بأجياد، وقد وقفه على الغرباء من فقراء المسلمين، كما وقف فيه الملك الأفضل مجموعة من الكتب من بينها المجلد فى اللغة لابن فارس والاستيعاب لابن عبد البر، واشترط فى وقفه أن يكون وقفاً على الفقراء والغرباء من المسلمين^(٢).

رباط الموفق :

وقفه القاضى الموفق أبو الحسن على بن عبد الوهاب بن محمد بن أبى الفرج الاسكندرى بأسفل مكة، وقد حبسه وتصدق به على فقراء العرب المتعبدى ذوى الحاجات، وجعل عليه وقفاً بمكة سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م^(٣) وقد نقش على لوحته التأسيسية بالخط النسخ ما يلى :

- بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله

- هذا ما وقف وحبس وسبل وتصدق به القاضى الموفق المكين الأمين جمال الدين

- ولى أمير المؤمنين أبو الحسن على بن القاضى السعيد الأمين أبى القاسم عبد الوهاب

ابن الشيخ أبى عبد الله محمد.

- ابن أبى الفرج العدل بالأعمال المصرية - رضى الله عنه - وقف وحبس وسبل وتصدق

بجميع هذا الرباط^(٤).

(١) الفاسى : شفاء الغرام ج ١ ص ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٥، العقد الثمين ج ١ ص ١١، عمر بن فهد : اتحاف الورى ج ٢ ص ٥٦٤.

(٣) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج ٣ ص ٦١، الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٢٢.

(٤) نفسه.

رباط نخزي:

وقفه على بن محمد المصرى على الرجال المجاورين الفقراء والمساكين من مختلف أجناس المسلمين سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م ويقع بأجياد^(١).

وقد أنشئت بعض الأربطة فى المدينة المنورة، وكان لها أثرها أيضاً فكانت سكناً لطلاب العلم والغرباء والمجاورين والفقراء والزهاد وغيرهم من القادمين إلى المدينة المنورة والمقيمين فيها ومن هذه الأربطة :

رباط الزنجبيلى :

وقف هذا الرباط سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م عثمان بن على الزنجبيلى نائب السلطان صلاح الدين الأيوبي بعدن، وكان موقع هذا الرباط عند باب النساء، وقد وقفه على الأحناف المقيمين بالمدينة المنورة كما فعل برباطه الذى أقامه بمكة، وقد ضم هذا الرباط مكتبة كبيرة تضم كتباً عديدة فى الفقه الحنفى، وجعل قسماً من هذا الرباط زاوية تقام فيها حلقات الدرس^(٢).

رباط القاضى الفاضل:

وقفه القاضى الفاضل محى الدين عبد الرحيم البيسانى على الرجال ويبدو أنه وقفه فى نفس العام الذى وقف فيه رباطاً بمكة سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م وكان موضع هذا الرباط هو دار موسى بن إبراهيم المخزومى^(٣).

التأثير الثقافى للحجاز فى مصر:

كان الحجاز مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية، وكان لمكة بصفة خاصة دور كبير فى الحفاظ على تراث العالم الإسلامى، وخاصة فى عقيدتهم الإسلامية منذ عهد الرسول

(١) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٢١، عمر بن فهد: تحف الورى ج ٣ ص ٦١.

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٢٦ القاهرة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩ القاهرة ١٩٧٢.

(٣) الراغى : تحقيق النصرة ص ٧٨.

صلى الله عليه وسلم فقد كانت مقصداً لكثير من العلماء الذين يقدمون إليها لأداء فريضة الحج، ولطلب العلم، وكان الحرص على طلب العلم يدفع بعضهم للإقامة بجوار الحرم مدة طويلة، وقد ازدهم المسجد الحرام بهؤلاء المجاورين من رجال التفسير والحديث الذين عادوا إلى بلادهم حيث ساهموا في نشر الحركة العلمية بها، ولقد ذهب إلى الحجاز كثير من العلماء المصريين للاستفادة من علمائها كما قدم إلى مصر بعض علماء الحجاز، وأقاموا فيها يدرسون لأبنائها .

أ - طلاب علم من مصر في الحجاز :

ازدهم المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف برجال الحديث والقراء، وظل العلماء يؤدون رسالتهم جيلاً بعد جيل، وكان كل عالم يلقي على طلبته العلوم التي برع فيها وكانت حلقات التدريس تعقد يومياً من قبل الشيخ في المسجد.

وكان لكل مذهب ركن خاص به في الحرم المكي والحرم النبوي يجتمع فيه رجال كل مذهب على حدة للصلاة والدراسة.

وفي الحرم المكي لا يحصل طلاب العلم على شهادات دراسية، بل كانوا يحصلون على إجازات علمية من أساتذتهم^(١) .

ولم يكن العلماء يتقاضون راتباً معيناً لقاء الدروس التي يقومون بتدريسها ، وكذلك فإنهم لا يأخذون من الطلبة صدقة أو زكاة لأن تعليمهم كله لله وفي سبيل الله^(٢) .

ولم تقتصر فائدة الدروس التي كانت تلقى بالحرم على المكيين أنفسهم، بل نهل من هذه المدرسة علماء شتى من ديار المسلمين الذين كانوا يفدون إلى مكة المكرمة لتلقى العلم في الحرم المكي، وقد كان كل من الحرمين المكي والمدني منهلأ لطلاب العلم يقصدونهما من جميع البلاد، وتعقد فيهما حلقات العلم^(٣) .

(١) محمد عبد الرحمن الشامخ: التعليم في مكة والمدينة ص ١٨-١٩ ط أ سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

(٢) عبد الرحمن صالح عبد الله : تاريخ التعليم في مكة المكرمة ص ٤١ ط ١٩٧٣ مكة المكرمة.

(٣) المرجع السابق ص ١٤.

وقد ذهب كثير من طلاب العلم المصريين إلى الحجاز، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى التعلم والمجاورة، وقضاء فترة من عمرهم الزمنى للراحة والصفاء الروحى والشوق للتقرب إلى الله - سبحانه وتعالى - ومن هؤلاء العلماء :

* أبو محمد النحاس عبد الرحمن بن عمر المصرى البزاز كان مسند الديار المصرية ومحدثها عاش بضعا وتسعين سنة، ذهب للحجاز لتلقى العلم وسمع بمكة من ابن الأعرابى، ويمصر من أبى الطاهر المدينى، وعلى بن عبد الله بن أبى مطر وطبقتهما، وقد توفى سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م^(١).

* الحافظ زكى الدين المنذرى المصرى الشافعى ولد سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م بمصر وقرأ القرآن على الأرتاحى، وتفقه على أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد القرشى، وتأدب على أبى الحسين بن يحيى النحوى، وسمع بمكة من يونس الهاشمى، وأبى عبد الله بن البناء، ومن تلاميذه عبد المؤمن الدمياطى، وإسماعيل بن عساكر، وتقى الدين بن دقيق العيد، وابن خلكان وقد درس المنذرى بالجامع البظافرى بالقاهرة مدة، ثم ولى مشيخة دار الحديث الكاملية وانقطع بها نحواً من عشرين سنة^(٢).

* شرف الدين الدمياطى الشافعى (عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن بن شرف) ولد بتونة قرية من عمل تنيس، وكان منشؤه بدمياط، وتميز فى المذهب وقرأ القرآن وطلب الحديث، فسمع بالاسكندرية فى سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م من أصحاب السلفى ثم قدم القاهرة، وعنى بهذا الشأن رواية ودراية ولازم الحافظ زكى الدين المنذرى حتى صار معيده، وقد ذهب لتأدية فريضة الحج سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م وسمع بالحرمين ومن تصانيفه «كتاب الصلاة الوسطى»، «الإسناد فى حديث أهل بغداد»، و«مختصر السيرة النبوية»^(٣).

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٠٤.

(٢) الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٣) المصدر السابق ص ٤١٠ - ٤١١.

* ابن دقيق العيد (تقى الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين أبي الحسن علي بن وهب بن مطيع العشيري) نشأ بقوص فحفظ القرآن الكريم، ثم درس فقه مالك على والده الذي كان من أئمة المالكية كما أخذ عنه الحديث والأصول وقد أخذ فقه الشافعية عن تلميذ والده بهاء الدين القفطي ودرس الأصول على شمس الدين الأصبهاني والنحو على شرف الدين المرسى ثم رحل في طلب العلم إلى القاهرة والاسكندرية، وسافر إلى الحجاز وأخذ عن كبار علماء عصره، واتقن مذهب الشافعي ومالك ودرس الفقه على المذهبين وقد أسند له التدريس في دار الحديث بقوص وفي أواخر أيامه ولي قضاء الشافعية في الديار المصرية^(١).

ب - علماء حجازيون يُدرسون بمصر:

نظراً للعلاقات الطيبة بين مصر والحجاز وقرب البلدين من بعضهما حدث اتصال دائم وكما كان العلماء المصريون يذهبون للتدريس في الحجاز فقد جاء بعض علماء الحجاز إلى مصر وكان لهم أثر واضح، ومن هؤلاء العلماء.

* أبو الحسن بن أبي الكرم المكي المعروف بابن البنا (علي بن نصر بن المبارك بن محمد ابن أبي السيد الواسطي) سمع من أبي الفتح الكروخي جامع الترمذي مع كتاب العلل في مجالس آخرها سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م بمكة وحدث به فيها وحينما جاء إلى مصر سمع منه كثيرون في مصر والاسكندرية ودمياط وقد توفي سنة ٦٢٢هـ/١١٢٥م^(٢).

* عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر التكاوي (معين الدين أبو محمد) من أهل المدينة كان عالماً ومقرئاً ولد سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وقد رحل إلى الاسكندرية وسكنها وبها توفي سنة ٦٨٣هـ/ ومن كتبه «الشامل في القراءات السبع» و«الاقتضاء في معرفة الوقت والابتداء»^(٣).

(١) أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ١٦٧ - ١٦٩.

(٢) المرجع السابق .

(٣) عبد السلام هاشم حافظ: المدينة المنورة في التاريخ ص ١٥٤.

* عبد الرحيم القناوى (عبد الرحيم بن أحمد بن حجون بن أحمد بن حمزة بن جعفر بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن المأمون بن على بن الحسين بن على بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب) كان من الزهاد المشهورين والعباد المذكورين، وقد تخرج عليه جماعة من أعيان الصالحين وقد توفى بقنا سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م (١).

ومما سبق فى هذا الفصل يتضح مدى التأثير والتأثر بين الحجاز ومصر ثقافياً ونجمله فيما

يلى :

* أخذ العلماء وطلاب العلم يتنقلون بين مصر والحجاز بعضهم يعلم والآخر يتعلم وامتلات حلقات الدرس والعلم فى البلدين بالعديد من هؤلاء العلماء والطلاب.

* كان لمصر دور بارز وواضح فى هذه الفترة فقد خرج منها الكثير من العلماء الذين استمروا يؤدون رسالتهم جيلاً بعد جيل ومنهم من ذهب إلى الحجاز للمجاورة والدرس والتحصيل ومنهم من ساهم فى نشر العلم وتنشيط الحركة العلمية بالحرمين الشريفين ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.

* أقامت مصر المدارس فى الحجاز وخاصة فى العصر الأيوبي للقضاء على الحركة الشيعية بها كما حدث فى مصر .

* انتشر المذهب الشافعى فى الحجاز نتيجة لانتشاره فى مصر ولتشجيع الأيوبيين له لاعتناقهم هذا المذهب .

* شهدت العلاقات الفكرية بين البلدين تفاعلاً مستمراً وارتباطاً وطيداً وأخذاً وعطاءً.



خاتمة البحث



خاتمة البحث

دار هذا البحث حول العلاقات بين مصر والحجاز في عهد الفاطميين والأيوبيين فقدم أولاً دراسة عن هذه العلاقات قبيل الفاطميين، وانتهى إلى أن العلاقات بين مصر والحجاز تضرب بجذورها في أعماق التاريخ نظراً للقرب الجغرافي بينهما وأن الصلات لم تنقطع بينهما على مدى التاريخ .

وأوضح البحث أن الدولة العباسية حين ضعفت في العصر العباسي الثاني كان الحجاز بالنسبة لهم آنذاك بلداً بعيداً ثقیل التكاليف، ثم إن إصلاح أحواله يتطلب مالا، ورعاية الحجاج تتطلب عناية ونفقة، لذا بدا لهم أن الحل المناسب لمشكلة الحجاز هو أن تتولى مصر أموره، وعهدوا في إدارة أموره إلى محمد بن طفج الإخشيد الذي كان قد أقام دولته الإخشيدية في مصر، وصار الرجل القوي الذي يعتمد عليه فأسندوا له ولاية مكة والمدينة، وخطب للإخشيد على منابر الحجاز مع الخليفة العباسي، وبذلك صارت الدولة المصرية في عهد الإخشيديين تشمل مصر والشام والحجاز، ومنذ ذلك بدأ ارتباط مصر بالحجاز قوياً، وهو ارتباط استمر لفترة طويلة، فقد أصبحت مصر تعتبر نفسها مسئولة عن الحرمين الشريفين، وصار صاحب مصر مكلفاً بأن يعنى بأمر الحاج ويقوم على المسجد الحرام والمسجد النبوي ومزارات المسلمين.

ثم تحدث البحث عن الدعوة الفاطمية في بلاد الحجاز فأوضح أن الفاطميين استطاعوا فرض سيادتهم على بلاد الحجاز بطرق عديدة مهدوا لها بمهارة سياسية شديدة دون اللجوء إلى القوة العسكرية إلا نادراً فقد استنكر الخليفة الفاطمي المهدي ما فعله القرامطة في مكة سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م حين أعملوا السلب والنهب وخلعوا الحجر الأسود من مكانه، وتعدوا على حرمة البيت الحرام، بل ورفض المهدي دعوة أبي طاهر القرمطي له في رسالة شديدة اللهجة أرسلها له وطالبه فيها بإعادة الحجر الأسود إلى مكة، فأعاده القرامطة تلبية لرغبة الفاطميين، وإن اختلفوا معهم بعد ذلك .

وبين البحث أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أثناء وجوده بالمغرب سعى إلى عقد الصلح بين الأسرات العلوية المقيمة بالحجاز بعد تقاتلهم وتحمل ديات القتلى عن طريق سفارة أرسلها لهذا الغرض فصارت هذه الفعلة يداً له عند الأشراف، وتمكن الدعاة الفاطميون من دخول الحجاز فلما فتح جوهر الصقلي مصر بادر أشراف مكة بالاستقلال عن العباسيين وقطع الخطبة لهم والدعوة للمعز في مكة.

وأوضح البحث أن الفاطميين قاموا بإمداد أشراف الحجاز بالكثير من المؤن والأموال والهدايا لضمان استمرار نفوذهم على الحجاز.

وبين البحث أن كل هذه الطرق نجحت في مد النفوذ الفاطمي إلى الحجاز، وضمان تبعية حكام هذه البلاد من الأشراف العلويين للخلافة الفاطمية، وأن حكام الحجاز تعاونوا مع الخلفاء الفاطميين وكانوا يعتبرونهم أبناء عمومة واحدة بالرغم من المحاولات العديدة التي حاولها العباسيون لاستعادة الحجاز إلى نفوذهم مرة أخرى.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن اهتمام الفاطميين بالحجاز يرجع لاعتبارات استراتيجية هي أن الحجاز من الذخيرة الدفاعية أو الهجومية على مصر يعتبر منطقة حيوية فمن الثابت أن كل سياسة دفاعية أو هجومية للدول القائمة في مصر تتخذ مجالها في شمال البحر الأحمر وجنوب الشام، وقد تطلب تحقيق هذا الهدف السياسي هدفاً تجارياً هو حماية مصالح الفاطميين التجارية في البحر الأحمر الذي تقع بلاد الحجاز على ساحله الشرقي.

وبين هذا البحث أن الفاطميين سعوا في سبيل تحقيق أهدافهم إلى القضاء على نفوذ كل من العباسيين والقرامطة في الحجاز، وأنهم استطاعوا تأمين هذه البلاد، وحماية الحجاج بعد أن صدوا القرامطة عن مكة ووجهوا اهتمامهم إلى العمل على حماية الأراضي المقدسة وتأمين الوافدين إليها من المسلمين على أرواحهم وأموالهم.

وأوضح البحث أنه لم يكن لدى أمراء مكة والمدينة القوة التي تمكنهم من درء الأخطار عن الحجاز، كما أن موارد البلاد لم تكن تكفي لسد حاجة أهلها فأمدتهم الفاطميون بما يحتاجون إليه من الأموال والغلال.

ومن النتائج التى توصل إليها البحث أن الفاطميين استخدموا نفراً من أهل لحجاز فى الجيش الفاطمى فكانت هناك «فرقة البدو» وهى إحدى فرق الجيش الفاطمى وكانت تتكون من خمسين ألف فارس يقال لهم الرماة كلهم من أبناء الحجاز.

وبين البحث أن عدم استقرار الأمور فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى الذى تميز بازدياد نفوذ الوزراء العظام واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء شجع العباسيين آنذاك على نشر نفوذهم فى كل من مكة والمدينة، مما جعل ولاية مكة والمدينة يقيمون الدعوة لبنى العباس فى فترات مختلفة إلا أن هؤلاء الولاة لم ينحازوا للعباسيين تماماً فى مناهضة الخلافة الفاطمية، بل حرصوا على إظهار ولائهم للفاطميين كلما أمكنتهم الفرص، ويرجع ذلك إلى انتماء أمراء مكة والمدينة إلى البيت العلوى الذى كان يبغض العباسيين لسيطرتهم على الخلافة دونهم.

وأوضح البحث أن صلاح الدين الأيوبي لما تولى الأمور بمصر اهتم بتوطيد العلاقات بين مصر والحجاز تحقيقاً لأمن البحر الأحمر فالعدو الصليبي كان يتطلع لامتلاك الضفة الأخرى للبحر الأحمر فضم الحجاز إلى مصر والشام كان أمراً ضرورياً حتمته ظروف صلاح الدين الأيوبي.

وقد أوضح البحث أن صلاح الدين الأيوبي عمل على تأمين حدود الحجاز وحمايته من الصليبيين فتصدى لمحاولات أرناط أمير الكرك فى الهجوم على المدينة المنورة وقام الأيوبيون بواجبهم فى حماية الأراضى المقدسة.

ومن النتائج التى توصل إليها البحث أن لقب خادم الحرمين الشريفين قد أطلق لأول مرة على صلاح الدين الأيوبي ثم صار بعد ذلك من جملة الألقاب التى استخدمها السلاطين فى مصر.

وأوضح البحث أن النفوذ الأيوبي بلغ ذروته بالحجاز عن طريق الفرع الأيوبي الذى حكم اليمن وأتيحت له فرصة التدخل فى النزاع بين الأخوة من أشراف مكة على منصب الإمارة، وأوجد له نائباً مقيماً لحكم مكة وصار هذا النائب هو القوة المسيطرة وله إمرة الحرمين وقيادة الجند وإدارة المال.

وبين البحث أن انشغال الأيوبيين بالمنازعات القائمة فيما بينهم والتي وصلت إلى حد استعانة بعضهم بالصلبيين ضد بعضهم الآخر قد مهد لنور الدين عمر بن رسول السبيل للاستقلال بشئون اليمن عن الأيوبيين.

وأوضح البحث أن نور الدين عمر بن رسول بعد أن استقر له حكم اليمن بدأ يفكر في فرض نفوذه على الحجاز حتى يضمن سلامة حكمه في اليمن ويؤمنه من المخاطر الخارجية إذا ما تعرض للانتقام الأيوبيين فعمل على نقل المعارك خارج قاعدة ملكة باليمن إلى أملاك الدولة الأيوبية بالحجاز ونتيجة لهذا أخذ يرسل الحملات العسكرية على مكة الحملة تلو الحملة خوفاً من اتخاذها قاعدة للانطلاق نحو قواته في اليمن لمحاربتة وأنه لم ينجح في إبعاد الأيوبيين عن اليمن فحسب، بل نجح في إبعادهم عن الحجاز وفرض نفوذه عليه بعد عدة حملات.

وبين البحث أن أحوال الدولة الأيوبية في عهد الملك الصالح تردت إلى مرحلة من الضعف شديدة سببها انشغال الصالح في الصراع مع أمراء البيت الأيوبي وتزايد الخطر الصليبي، وإغارة الخوارزمية على بلاد الشام مما أتاح الفرصة لنور الدين عمر بن رسول أن يستقر في الحجاز ويتولى أموره ويترك نواباً تابعين له فيه حتى قتل.

وعند الحديث عن المجتمع الحجازي في عهد الفاطميين والأيوبيين، أوضح البحث في الناحية الاجتماعية أن المجتمع الحجازي كان يتكون في تلك الفترة من طبقة الأشراف، أرباب الوظائف الدينية، المجاورون، طبقة العبيد، طبقة العامة.

وبين البحث أن لقب الأشراف كان يطلق على آل البيت من العلويين والعباسيين فلما استقل أبناء الحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب بمكة والمدينة وتولوا الأمر بالحجاز أطلق عليهم لقب الأشراف، وصار هذا اللقب منذ تلك الفترة يطلق على أمراء الحرمين الشريفين وأفراد عائلتهم الذين كانوا يعتمدون عليهم في إدارة شئون الإمارة ولم يكن هذا اللقب معروفاً من قبل في الحجاز.

وأوضح البحث أن الحجاز تأثر بالفاطميين كثيراً في عدة أشياء نجلها فيما يلي :

* كما كان الفاطميون يرون في إمامهم شخصاً مقدساً تحيطه هالة من الجلال والتنزيه أثر

هذا فى نظر أهل الحجاز إلى حكاهم من الأشراف، إذ بعد أن كان الأمراء فى مكة لا يمتازون فى نظر رعاياهم بغير الإمارة التى لا تستحق التنزیه استطاع الأشراف أن يحيطوا مراكزهم بشيء من الجلال، وأن يطبعوا العامة على تقديسهم، وبالعوا فى هذا حتى عمّ الغلو فى تقديس كل شريف ينتسب إلى بيت الحاكمين.

* كما كان الفاطميون يميلون إلى مظاهر الترف والأبهة أثر هذا فى حكام مكة من الأشراف وبدأت الأبهة تأخذ طريقها إلى مجالسهم ومواكبهم وحفلاتهم مما لاعد لمكة به من قبل فشرعوا يحتجبون عن الرعية كما رتبوا لهم فرقة موسيقية تصدح بأنغامها أمام قصورهم وابتدعوا المواكب التى تمشى بين أيديهم كلما غدوا أو راحوا.

* كان فى الدولة الفاطمية عدد من الموظفين لوظائفهم صبغة دينية وكان أولئك الناس يعرفون بأرباب العمائم ومن أهم هذه الوظائف القضاة والدعاة والشهود العدول وقراء الحضرة والخطباء والقراء والمؤذنون فى الجوامع فوجدت بالحجاز وظائف القضاة والخطباء والأئمة والقراء والمؤذنين.

* كما كان فى مصر طبقة العبيد السودان الذين ظهر أمرهم فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله وأحرقوا القاهرة فى عهده حنقاً على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسته، ونشط العبيد فى أيام الظاهر وتفاقم خطرهم فى عهد ابنة المستنصر ظهرت طبقة العبيد فى الحجاز وكانت كبيرة ولها دور فى الأحداث وأسهموا فى إثارة الشغب والفوضى بمكة.

* كان الفاطميون يحتفلون برأس السنة الهجرية احتفالاً كبيراً فتأثر الحجازيون بهم.

* كان الاحتفال بليالى القود الأربع من الاحتفالات الشهيرة فى الدولة الفاطمية ويحتفل بها أول شهر رجب ونصفه، وأول شهر شعبان ونصفه، وكان أهم مظاهر هذا الاحتفال إضاءة الجوامع والمساجد من الداخل والخارج فتتألق بالأضواء الساطعة وتصبح وكأنها شعلة من نور ويحتشد فيها الناس على مختلف طبقاتهم للتعبّد ولقد تأثر الحجازيون بالفاطمين فى الاحتفال بهذه الليالى فكانوا يحتفلون بليلة أول رجب وليلة نصفه، بالإضافة إلى ليلة السابع والعشرين منه، وليلة أول شعبان وليلة نصفه.

* كان من عادة الفاطميين فى مصر الإعلان عن بداية شهر رمضان بخروج الخليفة فى موكب رسمى كبير على غرار موكب أول العام وفى الحجاز يتم الاحتفال بحلول شهر رمضان بموكب تضرب فيه الدبابة معلنة قيام هذا الشهر الكريم.

* كان الفاطميون يحتفلون بالمولد النبوى احتفالاً كبيراً وتأثر الحجازيون بهم فى ذلك وصار يوماً مشهوداً بمكة حيث تفتح المواضع المقدسة كلها فى هذا اليوم.

ومن النتائج التى توصل إليها البحث أن بلاد الحجاز لم تتأثر بالأيوبيين كما تأثرت بالفاطميين من قبل لضيق المدى الذى تمتع فيه الأيوبيون بنفوذهم هناك، بالإضافة إلى انشغال الأيوبيين بالجهاد وقتال الصليبيين، ولذا بقى حكام مكة على عاداتهم التى تأثروا فيها بالفاطميين واستمرت هذه العادات طوال العصرين الفاطمى والأيوبرى.

وأوضح البحث أن الفاطميين قاموا بإرسال الكسوة للكعبة الشريفة منذ بداية عهد المعز لدين الله واستمرت مصر ترسل الكسوة أيضاً طوال العصر الأيوبرى.

وبين البحث فى الناحية الاقتصادية أن العلاقات بين مصر والحجاز فى هذا الجانب كانت تمثل وضعاً مميزاً نظراً لما قام به حكام مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبرى من رعاية مالية واقتصادية لسكان الحجاز وأشرافه، فقد كانت قافلة الحاج المصرية تخرج كل عام من مصر إلى الحجاز تحمل الأموال والمؤن والغلال لأهل الحجاز.

وأوضح البحث أن الفاطميين كانوا يرسلون إلى الحجاز ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعين إردباً من القمح فلما زالت الدولة الفاطمية وتولى الأيوبيون الحكم أمر صلاح الدين أن يرسل للحجاز ثمانية آلاف إردب من القمح كل عام، ونتيجة لهذا صارت أسعار القمح فى الحجاز مرتبطة بما ترسله مصر، فإن توقفت إمدادات مصر لهم ارتفعت أسعاره ارتفاعاً شديداً .

وبين البحث أن الصناعات فى الحجاز كانت تنحصر داخل حدود بالغة الضيق فاقترنت على الحرف التى تفى بالضرورات الأولى وفى الأعمال اليدوية التى تتناول بعض المنتجات الزراعية التى تفى بأشباع حاجات الاستهلاك اليومى مما جعلها تعتمد كثيراً على الصناعات المصرية .

وأوضح البحث أنه قد ترتب على التعاون الزراعى والصناعى بين مصر والحجاز ازدهار فى حركة التجارة ومما ساعد على نمو هذا الازدهار وجود الطرق البحرية، وكثرة المراسى التى ترسو فيها السفن المحملة بالبضائع مما ساعد على عملية التصدير والاستيراد.

وبين البحث أن التعامل فى عصر الفاطميين كان يعتمد على دينار الذهب ودرهم الفضة وأن الحجازيين تعاملوا بالدنانير والدراهم المصرية فكان هناك الدينار المعزى والدينار المغربى وفى عهد الحاكم بأمر الله ضربت السكة فى الحجاز باسمه، وفى عهد الأيوبيين ضربت الدراهم والدنانير باسم صلاح الدين الأيوبي، كما شاع فى مكة نوعان من الدراهم هما : الدراهم النقرة أو الكاملة وتنسب إلى الملك الكامل ، والدراهم السعودية وتنسب إلى الملك المسعود.

وأوضح البحث أن مصادر الدخل المصرى لسكان الحجاز كانت متعددة الجوانب فقد كرسست مصر قسطاً كبيراً من أموالها لمساعدة أهل مكة والمدينة هذا إلى جانب ما كانت توفره قافلة الحاج المصرى السنوية لهؤلاء السكان من مصادر رزق سنوية ثابتة فى مقابل الخدمات التى يؤدونها للحجاج المصريين، وكان أمير الحاج يأخذ مبالغ سنوية من الخزانة المصرية لإعطاء الراتب السنوى لأمير الحجاز بالإضافة إلى أموال أخرى لسد نفقات المهام المكلف بها.

وبين البحث أن حكام مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبي خصصوا ثلاثة أبواب لتمويل دخل أمراء الحجاز تتمثل فى المعونات المالية والمعونات التجارية والأوقاف .

وفى الناحية الفكرية توصل البحث إلى النتائج الآتية :

* انتشر مذهب الشيعة فى الحجاز عقب تولى الأشراف العلويين للحكم فى عهد الفاطميين فكانوا ينادون فى الأذان «حى على خير العمل» وظلوا بعد زوال الدولة الفاطمية يصومون شهر رمضان ويفطرون على حساب لهم ولم يلتزموا بالهلال.

* صار للحرم المكى خمسة أئمة أربعة سنيين وخامس زيدي.

* وفى العصر الأيوبي أصبح الإمام الشافعى مقدماً فى الحرم على أصحابه الآخرين نظراً لأن الأيوبيين كانوا يعتنقون المذهب الشافعى.

* استمر الشيعة يحكمون الحجاز في عهد الأيوبيين وتعرض أهل السنة لبعض المتاعب معهم ويرجع ذلك لانشغال صلاح الدين بالجهاد ضد الصليبيين.

* أخذ العلماء وطلاب العلم ينتقلون بين مصر والحجاز بعضهم يعلم والبعض الآخر يتعلم وامتلات حلقات العلم والدرس في البلدين بالعديد من هؤلاء العلماء والطلاب .

* كان لمصر دور بارز وواضح في هذه الفترة فقد خرج منها الكثير من العلماء الذين استمروا يؤدون رسالتهم جيلاً بعد جيل، ومنهم من ذهب إلى بلاد الحجاز للمجاورة والدرس والتحصيل ومنهم من ساهم في نشر العلم وتنشيط الحركة العلمية بالحرمين الشريفين ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.

* أقامت مصر المدارس في بلاد الحجاز وخاصة في العصر الأيوبي للقضاء على الحركة الشيعية بها كما حدث في مصر وقام بالتدريس فيها علماء مصريون .

* خصصت مدارس في مكة لتدريس المذهب الشافعي مثل مدرسة الأرسوفى .

* شهدت العلاقات الفكرية بين مصر والحجاز تفاعلاً مستمراً وارتباطاً وطيداً وأخذاً وعطاءً وكان هذا التفاعل المستمر ثمرة جهود طويلة بذلها علماء البلدين الذين قطعوا البلاد عرضاً وطولاً يعلمون ويتعلمون .



الملاحق

ملحق رقم (١)

الخلفاء الفاطميون بالمغرب ومصر

- ١- عبيد الله المهدي ٢٩٧هـ - ٩٠٩م
- ٢- القائم (محمد أبو القاسم) ٣٢٢هـ - ٩٣٤م
- ٣- المنصور (إسماعيل أبو طاهر) ٣٣٤هـ - ٩٤٥م
- ٤- المعز لدين الله (معد أبو تميم) ٣٤١هـ - ٩٥٢م
- ٥- العزيز بالله (نزار أبو منصور) ٣٦٥هـ - ٩٧٥م
- ٦- الحاكم بأمر الله (المنصور أبو علي) ٣٨٦هـ - ٩٩٦م
- ٧- الظاهر لإعزاز دين الله (علي أبو الحسن) ٤١١هـ - ١٠٢٠م
- ٨- المستنصر بالله (معد أبو تميم) ٤٢٧هـ - ١٠٣٥م
- ٩- المستعلي (أحمد أبو القاسم) ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م
- ١٠- الأمر (المنصور أبو علي) ٤٩٥هـ - ١١٠١م
- ١١- الحافظ (عبد المجيد أبو الميمون) ٥٢٤هـ - ١١٣٠م
- ١٢- الظافر (اسماعيل أبو المنصور) ٥٤٤هـ - ١١٤٩م
- ١٣- الفائز (عيسى أبو القاسم) ٥٤٩هـ - ١١٥٤م
- ١٤- العاضد (عبد الله أبو محمد) ٥٥٥هـ - ١١٦٠م
- ٥٦٧هـ / ١١٧١م^(١)

(١) د/ جمال سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ١٨٣.

د/ أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ج ١ ص ١٣٣.

ملحق رقم (٢)

الأيوبيون في مصر

- الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (زمن الوزارة للفاطميين) ٥٦٤هـ-١١٦٩م
- الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (زمن إسقاط الفاطميين) ٥٦٩هـ-١١٧٤م
- العزيز عماد الدين عثمان ٥٨٩هـ-١١٩٣م
- المنصور محمد ٥٩٥هـ-١١٩٨م
- العادل الأول سيف الدين أبو بكر ٥٩٦هـ-١١٩٩م
- الكامل ناصر الدين محمد ٦١٥هـ-١٢١٨م
- العادل الثاني سيف الدين أبو بكر ٦٣٥هـ-١٢٣٨م
- الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٧هـ-١٢٤٠م
- المعظم توران شاه ٦٤٧هـ-١٢٤٩م
- شجرة الدر (زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب) ٦٤٨هـ-١٢٥٠م
- الأشرف مظفر الدين موسى ٦٤٨هـ-٦٥٠هـ
- ١٢٥٠-١٢٥٢م (١)

ملحق رقم (٣)

أشراف^(١) بنو جعفر بمكة

- جعفر بن محمد ٣٥٨هـ (٢)
- عيسى بن جعفر ٣٦٦هـ (٣)
- أبو الفتوح حسن بن جعفر ٣٨٤هـ (٤)
- تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح ٤٣٠هـ (٥)

(عقب وفاة شكر تولى أحد عبيده ويدعى طراد بن أحمد الحكم سنة ٤٥٣هـ ثم قاتله أشراف بني أبي الطيب السليمانيين واستولوا على الحكم إلى سنة ٤٥٤هـ وولوا محمد بن أبي الطيب بن عبد الرحمن) (٦)

(١) يطلق الشريف في اللغة على الرجل الماجد ، أر من كان كريم الآباء ثم أطلق لقب الشريف على من كان من آل بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاملاً العلويين والجعفريين ومن الناس من قصره على ذرية الحسن والحسين ولعل الضعف الذي انتاب الدولة العباسية وظهور الدولة الفاطمية وقتها هو الذي جرأ على إطلاق لقب الشريف على من ينتمون إلى نسل علي من السيدة فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (البلاذري : أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٠ تحقيق د/ محمد حميد الله - دار المعارف)

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٧ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٣ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ١٩١ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٦ ص ٤٥٨ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٢ ، ويذكر زامباور أنه تولى سنة ٣٧٠هـ ولاندرى علام استند في ذلك (انظر : زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٣٠)

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ١٣٠ ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٤ ، العقد الثمين ج ٦ ص ٤٥٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٢٣ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٤٨٢ ، دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجدول المرضية ورقة ١٤٠ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٣١ ، دحلان : خلاصة الكلام ص ١٧ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٢ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) ، دحلان : خلاصة الكلام ص ١٧ - ١٨ .

ملحق رقم (٤)

أشراف بنو هاشم

- أبو هاشم محمد بن جعفر (زمن الولاية الأولى) ٤٥٤هـ - ٦ من ذي الحجة سنة ٤٥٥هـ (١)
- أبو هاشم محمد بن جعفر (زمن الولاية الثانية) ٤٥٦هـ (٢)
- قاسم بن أبي هاشم محمد بن جعفر ٤٨٧هـ (٣)
- فليته بن قاسم ٥١٨هـ (٤)
- هاشم بن فليته ٥٢٧هـ (٥)
- قاسم بن هاشم ٥٤٩هـ (٦)
- عيسى بن فليته ٥٥٦هـ (٧)
- داود بن عيسى بن فليته ٥٧٠هـ (٨)
- مكث بن عيسى بن فليته ٥٧١هـ (٩)
- داود بن عيسى (زمن الولاية الثانية) ٥٧٢هـ (١٠)
- مكث بن عيسى (زمن الولاية الثانية) ٥٨٤هـ (١١) - ٥٩٧هـ (١٢)

- (١) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ٤٣٩ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٦ ، ابن عنبه : عمدة الطالب ص ١٣٦ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) .
- (٢) استولى علي بن محمد بن الصليحي صاحب اليمن على مكة في السادس من ذي الحجة سنة ٤٥٥هـ لضبط الأمور بها ثم أعاد تولية أبا هاشم محمد بن جعفر في ربيع الأول سنة ٤٥٦هـ (انظر : ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة « ١٢ ») .
- (٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ١٠ ، الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٨) .
- (٤) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٧ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٧ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥١٧ .
- (٥) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٢٠ .
- (٦) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٣٦١ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٢٣ .
- (٧) المصدر السابق ج ٦ ص ٤٦٥ .
- (٨) زامباور : معجم الأتساب والأسرات الحاكمة ص ٣١ .
- (٩) المصدر السابق .
- (١٠) المصدر السابق .
- (١١) المصدر السابق .
- (١٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٥٥١ .

ملحق رقم (٥)

أشراف بنو قتادة

٥٩٧هـ (١)	قتادة بن إدريس بن مطاعن
٦١٧هـ (٢) - ٦٢٠هـ (٣)	الحسن بن قتادة
من ربيع الآخر ٦٢٩هـ - رمضان سنة ٦٣٢هـ (٤)	راجح بن قتادة (الولاية الأولى)
٦٣٥هـ - ٦٣٧هـ (٥)	راجح بن قتادة (الولاية الثانية)
٦٤٧هـ - ٦٥١هـ (٦)	أبو سعد حسن بن علي بن قتادة

-
- (١) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) ، ابن عنية : عمدة الطالب ص ١٤١ ، الجزيري : درر الفرائد ج ١ ص ٥٧٧ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٩ .
- (٢) القاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٥٨ ، زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٣١ .
- (٣) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١٠ ، الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .
- (٤) القاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .
- (٥) المصدر السابق ص ٣٧٧ .
- (٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ ص ٦٣٣ .

ملحق رقم (٦)

السجل رقم (٣) من السجلات المستنصرية

للخليفة المستنصر بالله إلى علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن يشكره فيه على مساندته لأمر مكة الشريف أبي هاشم محمد بن جعفر^(١)

« ورد إلى حضرة أمير المؤمنين كتاب صاحب مكة - حرسها الله - يذكر أنك شددت معه حيازيم الجدد ، بالتقوية من أمره والشدة ، وشهت في نصرته حساماً ماضي الحد ، حتى عاد جموع مراكب مراده ذلولاً ، وغرب من انتصر لعناده مغلولاً . فاستقامت أحوال الحرم الشريف بمقارنة هجرتك لنصره ، وامتيار سحابه من بحرك ، وأفاض في ثناء جميل ، وشكر جزيل ، أعجب أمير المؤمنين بهما ، فاهتز طرباً لهما ، فلقد كان على قلبه لأجل الحرم الشريف من الفكر ، ما يوفى على الذكر ، ولقد فعلت فعل الموفقين في المقال والفعال ، وحللت بما أتيت عقدة الإشكال ، وتعين عليك أن تكون أنت وإياه يداً واحدة ببذل المجهود ، فيما يرد ذلك المقام الشريف بالأمن والعمارة إلى أحسن العهود ، ويقضى على ما أوقد فيها على مر الأيام من نار الظلم بالخمود فيعود إلى ما قاله الله سبحانه : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ وعهد إلى صاحب مكة أن يتخذك رداً في صلاح ما هو له ملابس ، وعهد إليك بأن لا تنزع عنك لباس إيايته الذي أنت لابس ، ليندي تبعاً لكما - على البر والتقوى - عود من جرم الله سبحانه مائس ويقتبس أنوار بركاته في حمى الأمانة من هو لها قابس ، وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يجعلكما من عمار حرمه ، والمتعلقين من الهدى في طاعة وليه بأقوى عصمة ، ورسلك فقد بلا أمير المؤمنين أخبارهم ، فرضي آثارهم ، وبلغهم من التقرب إشارهم وردهم نحوكم معمورة بالرضا أرجاء صدورهم ، ملاقية وجوههم بشر نجاح السعي في أمورهم ، غير أنه قد استأثر الله من جملتهم محمد بن عضية ، والله تعالى يرحمه ، فإنه واسع المغفرة لمن أدركه دعاء أمير المؤمنين وترحمه ، وما يعلمك أمير المؤمنين به

أنه ندب لعمال دولته ووزراء مملكته أقدم أهلها في الخبرة بصلاحها قدما وأطلقهم بالخطابة لساناً وبالكتابة قلماً ، والندب الذي هو جالينوس طبها ، والحال محل الحبة من قلبها ؛ الوزير الأجل أبا الفرج عبد الله بن محمد أدام الله عزه وأسعده وأحسن به الامتناع ، وتولى عنه الدفاع وعضده والله تعالى يبارك لأمير المؤمنين في حسن اختياره ويحسن المعونة لوزيره في إirاده وإصداره ، فاجعله وجهتك التي توليها في طلباتك والغرض الذي ترميه بمخاطبتك ومكاتبتك بإذن الله تعالى ، وقد صدر إليك من مجلسه ثبت بما حمل على أيدي رسلك وجددت النعمة فيه عليك

فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين ورسمه ، واعمل عليه ويحكمه ، إن شاء الله
والسلام عليكم.

الحمد لله وصلواته على رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى أبرار عترته الأئمة
الطاهرين ، وسلامه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .»

ملحق رقم (٧)

ما كتب به العاضد الخليفة الفاطمي في طرة العهد المكتتب عنه بالوزارة للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قبل استقلاله بالسلطنة^(١) .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عند الله تعالى عليك فأوف بعهدك ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ولمن مضى يجدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن أسوة ، ولمن بقي بقربنا سلوه ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ، ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين ﴾^(٢) .

(١) د. جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية - المجلد الأول ص ٤١٩ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٨٥ م .

(٢) سورة الفصص : آية ٨٣ .

ملحق رقم (٨)

من كتاب صلاح الدين إلى الأمير مكثر أمير مكة ينهاء فيه عن الجور

بسم الله الرحمن الرحيم

أعلم أيها الأمير الشريف أنه ما أزال نعمة عن أماكنها ، وأبرز الهمم عن مكائنها ، وأثار
سهم النوائب عن كنانتها ، كالظلم الذي لا يعفو الله عن فاعله ، والجور الذي لا يفرق في الإثم
بين قائله وقابله ، فإما رهبت ذلك الحرم الشريف ، وأجللت ذلك المقام المنيف ، وإلا قوينا العزائم
وأطلقنا الشكائم ، وكان الجواب ما تراه لا ما تقرأه ، وغير ذلك فإننا نهضنا إلى ثغر مكة
المحروسة في شهر جمادي الآخرة طالبين الأولى والأخرى ، في جيش قد ملأ السهل والجبل ،
وكظم على أنفاس الرياح فلم يتسلسل بين الأسل وذلك لكثرة الجيوش وسعادة الجمع ، وقد
صارت عوامل الرماح تعطى في بحار الدر^(١) .

(١) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ٧ ص ٢٧٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الوري بأخبار أم
القرى ج ٢ ص ٥٦٧ - ٥٦٨ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج ١ ص ٥٤٣ .

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

ابن أبى الهيجاء

(المؤلف كان معاصراً للسلطان صلاح الدين الأيوبي^(١)، وقد يكون من نسل الأمراء الأكراد بنى الهيجاء^(٢)، ولم نعثر له على ترجمة فى أى مصدر أو مرجع سوى ذلك)

- ١ - الأول فى تاريخ ابن أبى الهيجاء^(٣).
- مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية بالميكروفيلم تحت رقم ٩٤٥.

ابن بسام

- (محمد بن أحمد المحتسب التنيسى)
- ٢ - أنيس الجليس فى أخبار تنيس
- مخطوط مصور بالميكروفيلم برقم ٣٠١٨٧ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٠ بلدان تيمور

الحسينى

- (رضى الدين بن محمد بن حيدر الحسينى الموسوى العاملى المكى، ت ١١٦٣هـ)
- ٣ - تنضيد العقود السنية بتمهيد الدولة الحسينية
- مخطوط مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ١٥٣٠.

(١) فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المصورة بمعه المخطوطات العربية ج ٢ تاريخ قسم ٣ ط ١٩٥٩ برقم ٩٤٥.

(٢) شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ج ٢ ص ٢٩٥.

(٣) هذا المخطوط مرتب على السنوات من أول الهجرة فبدأ بسيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم بمن بعده من الخلفاء وينتهى حتى سنة ٥٨٩هـ فى عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي وحروبه مع الصليبيين وقد كتب بقلم معتاد قديم فى ٢٠٦ ورقة ومسطرتها ٢٣ سطراً.

دحلان

(أحمد بن زيني ت ١٢٠٤هـ)

- ٤ - تاريخ الدول الإسلامية بالجدول المرضية
مخطوط مصور تصويراً شمسياً بمكتبة مركز الملك
فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

سبط ابن الجوزي

(أبو محمد يوسف سبط أبي الفرج عبد الرحمن بن
الجوزي ت ٦٥٤هـ).

- ٥ - الجزء الثامن من مرآة الزمان (٤٩٥هـ - ٦٤٥هـ)
نسخة مصورة تصويراً شمسياً بمكتبة الجامعة الأمريكية
بالقاهرة تحت رقم D. 152. 55 .

الصباغ المكي

- ٦ (محمد بن أحمد بن سالم بن محمد) من أعلام ق ١٣هـ
- تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام
مخطوط مصور بالميكروفيلم برقم ٤٣٢٣١ بدار الكتب
المصرية تحت رقم ٢١٦٣ تاريخ .

الطبري

- (محمد بن علي بن فضل بن عبد الله بن المحب الطبري
الحسيني الشافعي ت ١١٧٣هـ)
٧ - تحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية بالميكروفيلم رقم
١٤٣٣٣ تاريخ تيمور برقم ٢٢٠٦ .

الطبري

(محي الدين علي بن عبد القادر الشافعي الحسيني ت
١٠٧٠هـ) .

- ٨ - الأرج المسكى في التاريخ المكي
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية بالميكروفيلم رقم
٢٣١٩ تاريخ تيمور برقم ٢٢٠٥ .

ابن العاقول

(غياث الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن
على بن حماد بن ثابت ت ٧٩٧هـ).

- ٩ - عرف الطيب من أخبار مكة ومدينة الحبيب.
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية بالميكروفيلم رقم
١٠٩٤٦ تحت رقم ٥٢٧٤٠ تاريخ.

القاضي النعمان

(أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور
ابن أحمد بن حيون ت ٣٦٣هـ).

- ١٠ - المجالس والمسائرات
مخطوط مصور بالتصوير الشمسي بمكتبة جامعة
القاهرة برقم ٢٦٤٠٨.

المصادر العربية المطبوعة :

ابن الأبار

(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر
القضاعي، ت ٦٥٨هـ)

- ١١ - الحلة السيرة
ج ١ تحقيق د/ حسين مؤنس، الطبعة الأولى ١٩٦٣م.

ابن الأثير

(على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني
ت ٦٣٠هـ)

- ١٢ - الكامل في التاريخ
راجعده وصححه د. محمد يوسف الدقاق، الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م دار الكتب العلمية / بيروت .

ابن الأخوة

(محمد بن محمد بن أحمد القرشي ٦٤٨هـ - ٧٢٩هـ)

- ١٣ - كتاب معالم القرية في أحكام الحسبة
تحقيق : محمد محمود شعبان وصديق المطيعي -
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.

(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي
الحسنى من أعلام ق ٦ هـ).

الإدريسي

- ١٤ - كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق
عالم الكتب - ط ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ونسخة أخرى نشر
مكتبة الثقافة الدينية بالظاهر

(محمد بن أحمد ٩٣٠ هـ - ١٥٢٤ م)

ابن إياس

- ١٥ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور
ج ١ ق ١ تحقيق محمد مصطفى - القاهرة ١٤٠٢ هـ /
١٩٨٢ م

(أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن على
ت ٩٤٧ هـ)

باصفوة

- ١٦ - تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها .
الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م دار الجيل / بيروت ،
دار عمار / عمان

(أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى ٧٠٣ هـ)

ابن بطوطة

- ١٧ - رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب
الأمصار وعجائب الأسفار.
تحقيق د. على المنتصر الكتانى - الطبعة الرابعة
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م - مؤسسة الرسالة.

(أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى
ت ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م).

البلاذري

- ١٨ - فتوح البلدان
تعليق رضوان محمد رضوان - دار الكتب العلمية -
بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

١٩ - أنساب الأشراف

ج ١ تحقيق د/ محمد حميد الله - أخرجہ معهد
المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار
المعارف بمصر.

البلوي

(أبو محمد عبد الله بن محمد المديني)

٢٠ - سيرة أحمد بن طولون

تحقيق محمد كرد على - الناشر مكتبة الثقافة الدينية
بالقاهرة.

ابن تغوي بودي

(جمال الدين أبو المحاسن يوسف ٨١٣-٨٧٤هـ)

٢١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م

ابن جبير

(أبو الحسين محمد بن أحمد ٥٣٩-٦١٤هـ).

٢٢ - رحلة ابن جبير

دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

الجزيري

(عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم

الأنصاري ت ٩١١هـ)

٢٣ - الدرر الفرائد المنظمه في أخبار الحاج وطريق مكة
المعظمة

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م أعده للنشر حمد

الجاسر - دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض .

ابن الجوزي

(أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ)

٢٤ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم

الطبعة الأولى - مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر

آباد سنة ١٣٥٨هـ.

ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري ت ٧٣٧ هـ - ١٣٣٦ م).

٢٥ - المدخل (أربعة أجزاء) -
دار الفكر ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ)

٢٦ - كتاب الإصابة في تمييز الصحابة
ج ٣ المطبعة الشرفية ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م

الحريوي (أحمد بن علي بن أحمد)
٢٧ - الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على بلاد المسلمين

تحقيق د/ مهدي رزق الله أحمد - دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

ابن خزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ٣٨٤ - ٤٥٦ هـ)
٢٨ - جمهرة أنساب العرب
تحقيق د/ عبد السلام محمد هارون - الطبعة الثالثة -
دار المعارف بمصر ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

ابن حماد (أبو عبد الله محمد بن علي ت ٦٢٨ هـ - ١٢٣١ م)
٢٩ - أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم
تحقيق ودراسة : د/ التهامي نقرة ، د/ عبد الحليم عويس - دار الصحوة للنشر والتوزيع

الحميري (محمد عبد المنعم الصنهاجي ت ٩٠٠ هـ)
٣٠ - الروض المعطار في خبر الأقطار - معجم جغرافي
تحقيق د/ إحسان عباس - مكتبة لبنان - الطبعة الثانية - ١٩٨٤ م

ابن حوقل

(محمد بن علي بن حوقل البغدادي الموصللي أبو القاسم
ت ٣٥٠ هـ - ٩٦١ م)

٣١ - كتاب صورة الأرض

القسم الأول - الطبعة الثانية - لندن ١٩٦٧ م

الخزرجي

(أبو الحسن علي بن الحسن ، ٨١٢ هـ - ١٤٠٩ م)

٣٢ - العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية

تصحيح الشيخ محمد بسيوني عسل ج ١ مطبعة الهلال
بالفجالة بمصر ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م

ابن خلدون

(ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ٧٣٢ هـ
٨٠٨ م)

٣٣ - تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر

في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن
الأكبر - تحقيق خليل شحادة ، مراجعة د / سهيل زكار
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

ابن خلكان

(أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر
٦٠٨ هـ - ٦٨١ هـ)

٣٤ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

نسخة تحقيق د / إحسان عباس دار الثقافة - بيروت
١٩٧٠ م ، دار صادر بيروت ١٩٧٧ م ونسخة أخرى
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مكتبة النهضة
المصرية ط ١ ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م

الخوارزمي

(محمد بن أحمد بن يوسف ت ٣٨٧ هـ)

٣٥ - مفاتيح العلوم

تحقيق إبراهيم الإبياري

الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ بيروت

دحلان

(أحمد بن زيني ت ١٢٠٤ هـ)

- ٣٦ - خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام
الناشر/ مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

ابن دقماق

(صارم الدين ، إبراهيم بن محمد بن أيدير العلائي ت
٨٠٩ هـ)

- ٣٧ - الجواهر الثمين في سير الملوك والسلطين
تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي - عالم الكتب -
بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
- ٣٨ - الانتصار لواسطة عقد الأمصار
- مشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت

الذهبي

- (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن
عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني ت ٧٤٨ هـ)
- ٣٩ - العبر في خبر من غبر
تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول - دار
الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

ابن رسته

- (أبو علي أحمد بن عمر)
- ٤٠ - كتاب الأعلام النفيسة
ليدن ١٩٨١ م .

الرشيدي

- (الشيخ أحمد)
- ٤١ - حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج
تحقيق د/ ليلى عبد اللطيف أحمد - مكتبة الخانجي
بمصر ١٩٨٠ م

ابن زولاق

(الحسن بن إبراهيم ت ٣٨٧ هـ)

- ٤٢ - كتاب أخبار سيبويه المصري
نشر/ محمد إبراهيم أسعد ، حسين الديب - الطبعة
الثانية ١٤١٠ هـ

ابن الساعي الخازن

(أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين ت ٦٧٤ هـ)

- ٤٣ - ج ٩ من الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون
السير
تحقيق مصطفى جواد - المطبعة السريانية الكاثوليكية
ببغداد ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م

ابن سعيد

(علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ت ٦٧٣ هـ)

- ٤٤ - المغرب في حلي المغرب والمشرق في حلي المشرق
(لیدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م)
٤٥ - النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة
(القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلي
المغرب) تحقيق د/ حسين نصار - مطبعة دار الكتب
١٩٧٠ م

السمهودي

(علي بن عبد الله بن أحمد الحسني ت ٩١١/٦ - ١٥٠٦ م)

- ٤٦ - الوفا بما يجب لحضرة المصطفى
من كتاب رسائل في تاريخ المدينة - إشراف حمد الجاسر
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض

السيوطي

(جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر ت

٩١١ هـ - ١٥٠٦ م)

- ٤٧ - تاريخ الخلفاء
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الفكر -
بيروت

(شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ت
٦٦٥ هـ)

أبو شامة

- ٤٨ - الروضتين في أخبار الدولتين
ج ٢ القاهرة ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م
٤٩ - الذيل على الروضتين - القاهرة ١٩٤٧ م

(محمد بن تقي الدين عمر ٥٦٧ - ٦١٧ هـ)

ابن شاهنشاه

- ٥٠ - مضمار الحقائق وسر الخلائق
تحقيق د / حسن حبشي
عالم الكتب سنة ١٩٦٨ م

(القاضي بهاء الدين ت ٦٣٢ هـ - ١٢٣٤ م)

ابن شداد

- ٥١ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
تحقيق د / جمال الدين الشيال - الطبعة الأولى
١٩٦٤ م - الدار المصرية للترجمة والتأليف والنشر

(أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ -
١١٥٣ م)

الشهرستاني

- ٥٢ - الملل والنحل
تحقيق محمد سيد كيلاني - مطبعة مصطفى الحلبي
١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

(عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله ت حوالي ٥٨٩ هـ -
١١٩٣ م)

الشيروزي

- ٥٣ - نهاية الرتبة في طلب الحسبة
تحقيق السيد الباز العريني - مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

الاصطخوي

(أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي)

٥٤ - مسالك المالك - لندن ١٩٦٧م

ابن الصيرفي

(أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان)

٥٥ - الإشارة إلى من نال الوزارة

تحقيق عبد الله مخلص (عن النسخة الوحيدة المحفوظة
في خزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس) طبع المعهد
العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٢٣م

الطبري

(أبو جعفر محمد بن جرير ٢٢٥ هـ - ٣١٠ هـ)

٥٦ - تاريخ الرسل والملوك

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الرابعة - دار
المعارف بمصر

ابن الطقطقي

(محمد بن علي)

٥٧ - الفخري في الآداب السلطانية

تحقيق محمد عوض إبراهيم - علي الجارم - الطبعة
الثانية - دار المعارف

ابن ظافر

(جمال الدين علي)

٥٨ - أخبار الدول المنقطعة

دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدمة
وتعقيب أندريه فريه
مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٧٢م

ابن ظهيرة

(جمال الدين محمد جاد الله بن محمد نور الدين بن

أبي بكر بن علي)

٥٩ - الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبنائها البيت
الشريف

الطبعة الثانية ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨م مطبعة عيسى البابي
الحلبي بمصر .

العباسي

(أحمد بن عبد الحميد ، من أعلام ق ١٠ هـ)

٦٠ - عمدة الأخبار في مدينة المختار

الطبعة الخامسة - مكة ١٣٥٩ هـ

ابن عبد البر

(أبو عمر بن يوسف بن عبد الله بن محمد ت ٤٦٣ هـ)

٦١ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب

ج ٢ تحقيق علي البجاوي - الطبعة الأولى - مكتبة

نهضة مصر

ابن عبد الحق

(صفي الدين عبد المؤمن ت ٧٣٩ هـ)

٦٢ - مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع

تحقيق علي البجاوي - الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ /

١٩٥٤م دار إحياء الكتب العربية

ابن عبد الحكم

(أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٥٧ هـ /

(٨٧١م)

٦٣ - فتوح مصر والمغرب

تحقيق عبد المنعم عامر - لجنة البيان العربي

ابن عبد الغني

(أحمد جليبي ت حوالي ١١٥٠ هـ)

٦٤ - أوضاع الإشارات فيمن ولي مصر القاهرة من الوزراء

والباشات

تحقيق د/ فؤاد الماوي - دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٧م

ابن العربي

(القاضي أبو بكر ٤٦٨ - ٥٤٣ هـ)

٦٥ - العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد

وفاة النبي - ﷺ -

تحقيق محب الدين الخطيب ١٣٨٩ هـ

عبد القاهر

(أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ت ٤٢٩ هـ)
٦٦ - الفرق بين الفرق

تحقيق طه عبد الرؤوف - الناشر مؤسسة الحلبي بالقاهرة

عبد اللطيف

(عبد اللطيف البغدادي بن يوسف بن محمد بن علي بن
موفق الدين ٥٥٧ . ٦٢٩ هـ)

٦٧ - كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث
المعاينة بأرض مصر

الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م دار قتيبة - دمشق

ابن عبد الحميد

(تاج الدين عبد الباقي ت ٧٤٣ هـ - ١٣٤٣ م)
٦٨ - بهجة الزمن في تاريخ اليمن

تحقيق مصطفى حجازي - القاهرة ١٩٦٥ م

العصامي

(عبد الملك بن حسين بن عبد الملك ١٠٤٩ هـ -
١١١١ هـ)

٦٩ - سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي
المطبعة السلفية - بدون تاريخ

(عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ٥١٩ هـ -
٥٩٧ هـ)

العماد الأصفهاني

٧٠ - سنا البرق الشامي

اختصار الفتح بن علي البنداري من كتاب البرق الشامي
٥٥٢ - ٥٨٣ هـ

تحقيق د/ فتحة النبراوي - مكتبة الخانجي بمصر
١٩٧٩ م

٧١ - تاريخ دولة آل سلجوق

الطبعة الثانية - دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٨ م

ابن إسماعيل الخنبلي

(أبو الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩ هـ)

- ٧٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب
الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م دار الفكر للطباعة
والنشر ونسخة أخرى من منشورات دار الآفاق الجديدة -
بيروت

العموي

(شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ٧٠١ -
٧٤٩ هـ)

- ٧٣ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار .
نسخة تحقيق أيمن فؤاد سيد - المعهد العلمي الفرنسي
للآثار الشرقية ١٩٨٥ م ونسخة أخرى تحقيق دوروتيا
كرافوتسكي - المركز الإسلامي للبحوث - بيروت
ط ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

ابن عنبه

(جمال الدين أحمد بن علي الحسيني ت ٨٢٨ هـ)

- ٧٤ - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب
الطبعة الثانية ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م - النجف

العوتبي

(سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري)

- ٧٥ - الأنساب
سلطنة عمان - وزارة التراث القومي والثقافي ١٤٠٢ هـ
- ١٩٨١ م

القاسي

(تقي الدين محمد بن أحمد بن علي القاسي المكي
٧٧٥-٨٣٢ م)

- ٧٦ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (جزآن)
دار الكتب العلمية - بيروت
- ٧٧ - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (ثمانية أجزاء)
ج ١ تحقيق محمد حامد الفقي ط ٢ (١٤٠٦ هـ -
١٩٨٦ م) مؤسسة الرسالة

ج ٢ - ج ٧ تحقيق فؤاد سيد ط ٢ (١٤٠٦ هـ -
١٩٨٦ م) مؤسسة الرسالة

ج ٨ تحقيق محمود محمد الطناحي ط ٣ (١٤٠٦ هـ -
١٩٨٦ م مؤسسة الرسالة

أبو الغدا

(عماد الدين إسماعيل ت ٧٣٢ هـ)

٧٨ - المختصر في أخبار البشر ج ١ ط أ المطبعة الحسينية
المصرية

٧٩ - كتاب تقويم البلدان - طبع باريس ١٨٤٠ هـ

ابن فريج الجُدِّي

(عبد القادر بن أحمد بن محمد ت ١٠١٠ هـ)

٨٠ - السلاح والعدة في تاريخ جُدَّة

تحقيق مصطفى الحدرى - الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ -
١٩٨٨ م دار ابن كثير - دمشق

ابن الفقيه

(أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني)

٨١ - مختصر كتاب البلدان

طبع بمدينة ليدن ١٩٦٧ م

ابن فهد

(محمد بن محمد بن محمد بن فهد القرشي الهاشمي

الشهير بعمرت ٨٨٥ هـ)

٨٢ - إتحاف الورى بأخبار أم القرى

(ثلاثة أجزاء) تحقيق فهد محمد شلتوت - جامعة أم
القرى بمكة المكرمة ١٩٨٣ م

ابن فهد

(عز الدين عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد

الهاشمي القرشي ت ٩٢٢ هـ)

٨٣ - غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام

ج ١ تحقيق فهد محمد شلتوت - جامعة أم القرى بمكة
المكرمة ط أ ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

(كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق ٦٤٢ هـ - ٧٢٣ هـ)

ابن الغوطي

٨٤ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة

المكتبة العربية ببغداد ١٣١٥ هـ - ١٩٣٢ م

(يحيى بن الحسين ت ١١٠٠ هـ - ١٦٨٩ م)

ابن القاسم

٨٥ - غاية الأمان في أخبار القطر اليماني (جزآن)

تحقيق د/ سعيد عاشور - القاهرة ١٩٦٨ م

(أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ)

ابن قتيبة

٨٦ - الإمامة والسياسة

الطبعة الأخيرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م شركة مصطفى

البابي الحلبي

(أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة - ت لبضع
وثلاثمائة)

ابن قدامة

٨٧ - الخراج وصناعة الكتابة

شرح وتعليق د/ محمد حسين الزبيدي - العراق - دار

الرشيد للنشر ١٩٨١ م

(عريب بن سعد)

القرطبي

٨٨ - صلة تاريخ الطبري

ذخائر العرب (١١) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم

دار المعارف بمصر

(أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي)

القوساني

٨٩ - أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ

عالم الكتب بيروت - مكتبة المتنبي بالقاهرة - مكتبة

سعد الدين بدمشق

القزويني

(زكريا بن محمد بن محمود ت ١٢٨٣ م)

٩٠ - آثار البلاد وأخبار العباد

دار صادر بيروت - ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

ابن القلانسي

(أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي

٤٧٠ - ٥٥٥ هـ)

٩١ - ذيل تاريخ دمشق (٣٦٠ - ٥٥٥ هـ)

ط أ ١٩٨٣ م - ١٤٠٣ هـ تحقيق د / سهيل زكار - دار

حسان للطباعة والنشر - دمشق

القلقشندي

(أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م)

٩٢ - صبح الأعشى في صناعة الانشا

المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م

٩٣ - مآثر الإنافة في معالم اثلافة

تحقيق عبد الستار أحمد فراج - عالم الكتب - بيروت

ط أ ١٩٦٤ م

الكتبي

(محمد بن شاکر ٧٦٤ هـ)

٩٤ - فوات الوفيات والذيل عليها

تحقيق د / إحسان عباس - دار صادر - بيروت

ابن كثير

(عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ)

٩٥ - البداية والنهاية في التاريخ

ط ٢ ١٩٧٧ م مكتبة المعارف - بيروت ونسخة أخرى

لمطبعة السعادة بمصر

الكندي

(أبو عمر محمد بن يوسف ت ٣٥٠ هـ)

٩٦ - تاريخ ولاية مصر ، ولبه كتاب تسمية قضاتها

ط أ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م مؤسسة الكتب الثقافية -

بيروت

مالك

(مالك بن أنس ت ١٧٩ هـ)

٩٧ - الموطأ

رواية محمد بن الحسن الشيباني ط ٢ تحقيق عبد الوهاب
عبد اللطيف - المكتبة العلمية

الماوردي

(أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ٣٧٠ هـ -
٤٥٠ هـ)

٩٨ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية

ط أ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٤ هـ -
١٩٨٣ م

ابن المجاور

(جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد)

٩٩ - صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ
المستبصر

تحقيق أوسكر لوفجرين - ليدن ١٩٥١ م

المراغي

(أبو بكر بن الحسين بن عمر ٧٢٧ هـ - ٨١٦ هـ)

١٠٠ - تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة

تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي - المكتبة العلمية
بالمدينة المنورة

ط ٢ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

المسبحي

(الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد

٣٦٦ - ٤٢٠ هـ)

١٠١ - الجزء الأربعون من أخبار مصر

تحقيق أمين فؤاد سيد وتياري بيانكي - المعهد العلمي
الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة - القسم التاريخي

(أبو الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦ هـ)

١٠٢ - التنبيه والإشراف

تصحيح ومراجعة عبد الله إسماعيل الصاوى - المكتبة
العصرية - بغداد ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

١٠٣ - مروج الذهب ومعادن الجوهر

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد

المكتبة العصرية - بيروت - ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م

(الإمام)

مسلم

١٠٤ - صحيح مسلم

ج ١ ، ٢ - مطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه بمصر

(شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبي بكر
البناء الشامي ٣٨٠ هـ)

المقدسى

١٠٥ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم

ط ٢ ليدن ١٩٠٩ م وطبعة أخرى ١٩٦٧ م

(تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ)

المقريزى

١٠٦ - كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف
بالخطط المقرئية - دار صادر بيروت

١٠٧ - السلوك لمعرفة دول الملوك

ج ١ ق ١ تحقيق د/ محمد مصطفى زيادة دار الكتب
المصرية ١٩٣٤ م

١٠٨ - اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء

ج ١ تحقيق د. جمال الدين الشيال - القاهرة ١٣٨٧ هـ -
١٩٦٧ مج ٢ تحقيق د/ محمد حلمى محمد أحمد - القاهرة ١٣٩٠ هـ -
١٩٧١ مج ٣ تحقيق د/ محمد حلمى محمد أحمد - القاهرة
١١٣٩ هـ - ١٩٧٣ م

- ١٠٩ - الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك
تحقيق د/ جمال الدين الشيال - مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ١٩٥٥م
- ١١٠ - كتاب المقفي الكبير (تراجم مغربية ومشرقية من
الفترة العبيدية)
اختيار وتحقيق محمد اليعلاوي - دار الغرب الإسلامي
بيروت - ط أ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م
- ١١١ - إغاثة الأمة بكشف الغمة
نشر/ محمد مصطفى زيادة - جمال الشيال - القاهرة
١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠م لجنة التأليف والترجمة والنشر
- ١١٢ - شذور العقود في ذكر النقود
تحقيق د/ محمد عبد الستار عثمان - ط أ ١٤١٠ هـ
- ١٩٩٠م مطبعة الأمانة - بالقاهرة

(تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب ت
٦٧٧ هـ)

ابن هيسر

- ١١٣ - المنتقى من أخبار مصر
تحقيق أمين فؤاد سيد - المعهد العلمي الفرنسي للآثار
الشرقية بالقاهرة

(أبو الفرج محمد بن إسحق ت ٣٨٥ هـ)

ابن النديم

- ١١٤ - الفهرست
نشر دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ١٣٩٨ -
١٩٧٨م

(أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور
ابن أحمد بن حيون ت ٣٦٣ هـ)

القاضي النعمان

- ١١٥ - رسالة افتتاح الدعوة
تحقيق وداد القاضي - دار الثقافة - بيروت - ط أ
١٩٧٠م

الهمداني

(الحسن بن أحمد بن يعقوب ٢٨٠ هـ - ٣٣٤ هـ)

١١٦ - صفة جزيرة العرب

تحقيق محمد بن علي الأكوع - منشورات دار اليمامة
باليامام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

ابن واصل

(جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ)

١١٧ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

ج ٢ تحقيق د/ جمال الدين الشيال - المطبعة الأميرية
بالقاهرة ١٩٥٧ م

ابن الوردي

(زين الدين عمر بن مظفر ت ٧٤٩ هـ)

١١٨ - تاريخ ابن الوردي

ج ١ ، ٢ منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٨٩ هـ -
١٩٦٩ م ط ٢

اليافعي

(أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ت
٧٦٨ هـ)١١٩ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من
حوادث الزمانج ٢ الطبعة الأولى ١٣٣٨ هـ مطبعة دائرة المعارف
النظامية بحيدر آباد ونسخة أخرى ط ٢ ١٣٩٠ هـ
١٩٧٠ م مؤسسة الأعلى - بيروت

ياقوت

(شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي)

١٢٠ - معجم البلدان

دار صادر - بيروت

اليقوبى

(أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ت
٢٨٤هـ)

١٢١ - تاريخ اليقوبى

بيروت ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م

١٢٢ - كتاب البلدان

ط ليدن ١٨٩١ م ونسخة أخرى ط ٣ النجف ١٣٧٧ هـ -
١٩٥٧ م

اليمانى

(محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى ت نحو
٤٧٠هـ)

١٢٣ - كتاب كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة

تحقيق محمد عثمان - مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع

أبو يوسف

(القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ١١٣ هـ -
١٨٢ هـ)

١٢٤ - كتاب الخراج

الطبعة الخامسة - المطبعة السلفية ١٣٩٦ هـ

ثالثاً المراجع العربية الحديثة :

إبراهيم أحمد الصدوي
(دكتور)

١٢٥ - تاريخ العالم الإسلامى

مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٣ م

١٢٦ - حركات التسلل ضد القومية العربية

المكتبة الثقافية - ديسمبر ١٩٦١ م

١٢٧ - المجتمع المغربى - مقوماته الإسلامية والعربية مكتبة
الأنجلو المصرية

إبراهيم حلمى

١٢٨ - كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج

كتاب اليوم - العدد ٣٢٠ - مؤسسة أخبار اليوم

- ١٢٩ - إبراهيم بن حمود المشيقح
- تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها من خلال
الدر الكمين لابن فهد
ط ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م
- ١٣٠ - إبراهيم رفعت
- مرآة الحرمين
ج ١ مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥ م
- ١٣١ - أحمد إبراهيم الشريف
(دكتور)
- دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين
الأول والثاني للهجرة - ط ٢ - ١٩٧٧ م دار الفكر
العربي
- ١٣٢ - أحمد أحمد بدوي
- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام
دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٢ م
- ١٣٣ - أحمد السباعي
- تاريخ مكة (دراسات في السياسة والعلم والاجتماع
والعمران)
ج ١ ط ٥ ١٤٠٤ هـ - ١٩٤٨ م وزارة المعارف بالمملكة
العربية السعودية
- ١٣٤ - أحمد السعيد سليمان
(دكتور)
- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة
مطبعة دار المعارف بمصر
- ١٣٥ - أحمد شلبي (دكتور)
- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
ج ٣ ط ٤ ١٩٧٠ م مكتبة النهضة المصرية
ج ٥ ط ٢ ١٩٧٢ م مكتبة النهضة المصرية
- ١٣٦ - أحمد عبد الله الحسيني
البرادعي
- الدرة السنية في أنساب الحسينية والحسينية
مكة ١٣٧٥ هـ

- أحمد عمر الزيلعي ١٣٧ - مكة وعلاقتها الخارجية
ط أ - الرياض - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
- أحمد فكري ١٣٨ - مساجد القاهرة ومدارسها
طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م
- جميل حرب محمود حسين ١٣٩ - الحجاز واليمن في العصر الأيوبي
الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م جدة (دكتور)
- حسن إبراهيم حسن (دكتور) ١٤٠ - تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب
الطبعة الثانية من كتاب « الفاطميون في مصر »
١٩٥٨ م مكتبة النهضة المصرية
- ١٤١ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (أربعة أجزاء)
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٢ م
- المعز لدين الله
- ١٤٢ - بالاشتراك مع د / طه أحمد شرف ط ٢ ١٩٦٤ م
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة
- حسن أحمد محمود (دكتور) ١٤٣ - دراسات في تاريخ مصر في العصور الوسطى والحديثة
بالاشتراك مع د / محمد أنيس ، د / السيد رجب حراز
دار النهضة العربية ١٩٧٣ م
- ١٤٤ - مصر في عصر الطولونيين والاششيديين
بالاشتراك مع د / سيدة إسماعيل كاشف - سلسلة الألف
كتاب رقم ٢٨٥

- حسن علي حسن (دكتور) ١٤٥ - دراسات في التاريخ العباسي - الجزء الثالث - مكتبة الشباب - ١٩٨٨ / ١٩٨٩ م
- ١٤٦ - دراسات في تاريخ مصر الإسلامية بالاشتراك مع د/ عبد الله جمال الدين - دار الهاني للطباعة ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م
- حسين مؤنس (دكتور) ١٤٧ - مصر ورسالتها الطبعة الخامسة ١٩٧٦ م مطبوعات الشعب
- حمد الجاسر ١٤٨ - بلاد ينبع (لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة) منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض
- راشد البراوي (دكتور) ١٤٩ - حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين الطبعة الأولى - مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٨ م
- سعيد عاشور (دكتور) ١٥٠ - الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أعلام العرب (٤١) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر
- ١٥١ - الأيوبيون والمماليك في مصر والشام دار النهضة العربية ١٩٧٠ م
- سليمان عبد الغني هالكبي (دكتور) ١٥٢ - بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد - الرياض ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م مطبوعات دار الملك عبد العزيز
- السيد الباز العريني (دكتور) ١٥٣ - مصر في عصر الأيوبيين سلسلة الألف كتاب رقم ٢٦٩ الناشر مطبعة الكيلاني الصغير

- ١٥٤ - الحروب الصليبية
سيد علي الحويوي
ط أ ١٩٨٨م تحقيق د/ عصام شبارو - دار التضامن -
بيروت
- ١٥٥ - كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ
السيد محمد الدقن (دكتور)
ط أ ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م
- ١٥٦ - مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام
سيده إسماعيل كاشف
الدولة الطولونية (دكتورة)
دار الفكر العربي - ١٩٤٧م
- ١٥٧ - مصر في عصر الإخشيديين
سيده إسماعيل كاشف
طبعة أولى ١٩٥٠م وطبعة ثانية ١٩٧٠م دار النهضة
العربية
- ١٥٨ - بلاد الحجاز في العصر الأيوبي (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ)
عائشة بنت عبدالله باقاس
دار مكة للطباعة والنشر - الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ -
١٩٨٠م
- ١٥٩ - تاريخ التعليم في مكة المكرمة
عبد الرحمن صالح عبد الله
طبعة ١٩٧٣م - مكة المكرمة
- ١٦٠ - المدينة المنورة في التاريخ
عبد السلام هاشم حافظ
الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م منشورات نادي
المدينة المنورة الأدبي
- ١٦١ - المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع
عبد العال سالم مكرم
والثامن من الهجرة (دكتور)
ط أ ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م دار الشروق

- عبد الفتاح محمد وهبة (دكتور) ١٦٢ - دراسات في جغرافية مصر التاريخية
مؤسسة الثقافة الجامعية - ١٩٦٢م
- عبد القدوس الأنصاري ١٦٣ - آثار المدينة المنورة
المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥م
- عبدالمجيد أبو الفتوح بدوي (دكتور) ١٦٤ - العلاقات المصرية الحجازية
في العصرين الفاطمي والأيوبي - مطبعة أورفو
بالمتنصورة
- عبد المنعم هاجد (دكتور) ١٦٥ - السجلات المستنصرية
دار الفكر العربي - القاهرة - بدون تاريخ
- ١٦٦ - الحاكم بأمر الله الخليفة المقتدى عليه
القاهرة ١٩٥٩م
- ١٦٧ - الناصر صلاح الدين يوسف
مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٥٨م
- عبد المنعم سلطان (دكتور) ١٦٨ - المجتمع المصري في العصر الفاطمي
دار المعارف ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م
- عزيز سوريال عطية (دكتور) ١٦٩ - الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق
والغرب
الطبعة الثانية - دار الثقافة
- عطية القوصي (دكتور) ١٧٠ - تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى
سقوط الخلافة العباسية - القاهرة ١٩٧٦م
- علي حسن الخربوطلي (دكتور) ١٧١ - تاريخ الكعبة
دار الجبل - بيروت - ط ٢ ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م

- ١٧٢ - الحضارة العربية الإسلامية
مكتبة الأنجلو المصرية - بدون تاريخ
- ١٧٣ - الحجاز - أرضه وسكانه - دراسة أيكولوجية
الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م دار الشروق - جدة
١٧٤ - المدن الحجازية - الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨١ م
- ١٧٥ - مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام
مطبعة الحجاز بدمشق ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م
- ١٧٦ - العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة
ما بين ١٢٩٣ هـ ١٣٣٤ هـ
مطابع سجل العرب ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م
- ١٧٧ - قلب جزيرة العرب
الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م مكتبة النصر
الحديثة - الرياض
- ١٧٨ - ما هية الحروب الصليبية
عالم المعرفة (١٤٩) ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م
- ١٧٩ - العمارة الإسلامية في مصر
مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧٠ م
- ١٨٠ - تاريخ المخلاف السليمانى
ج ١ ط ٢ ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م الرياض - منشورات دار
البيامة
- عمر الغاروق السيد رجب
(دكتور)
- عمر رضا كحالة
- فاتق بكر الصواف (دكتور)
- فؤاد حمزة
- قاسم عبده قاسم (دكتور)
- كمال الدين سامح (دكتور)
- محمد بن أحمد العقيلي

- محمد جمال الدين سوور (دكتور) ١٨١ - الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٦٠م
- ١٨٢ - قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد - ﷺ - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٥٢م
- ١٨٣ - سياسة الفاطميين الخارجية ط٤ دار الفكر العربي ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م
- ١٨٤ - النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ط٤ دار الفكر العربي ١٩٦٤م
- ١٨٥ - الدولة الفاطمية في مصر دار الفكر العربي ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م ونسخة أخرى ١٩٧٩م
- ١٨٦ - النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق دار الفكر العربي - ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م
- محمد حلمي محمد أحمد (دكتور) ١٨٧ - مصر والشام والصليبيون ط أ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م ، ط ٢ ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م
- ١٨٨ - الخلافة والدولة في العصر الأموي القاهرة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م
- ١٨٩ - الخلافة والدولة في العصر العباسي الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م - مكتبة الشباب
- محمد الخضري (الشيخ) ١٩٠ - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية) دار القلم - بيروت - ط أ ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م
- ١٩١ - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) المكتبة التجارية الكبرى بمصر (بدون تاريخ)
- محمد ضياء الدين الرئيس (دكتور) ١٩٢ - النظريات السياسية الإسلامية الطبعة السادسة ١٩٧٦م دار التراث

- محمد عبد الرحمن الشامي ١٩٣ - التعليم في مكة المكرمة والمدينة
ط أ ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م
- محمد كرد علي - الإسلام والحضارة العربية
١٩٤ ج ٢ دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م
- محمد لبيب البتانوني - الرحلة الحجازية
١٩٥ الناشر مكتبة المعارف - الطائف بدون تاريخ
- محمد محمد أمين ١٩٦ - الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨ هـ -
(دكتور) ٩٢٣ هـ)
ط أ دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٠ م
- ناجي معروف ١٩٧ - المدارس الشراعية ببغداد وواسط ومكة
بغداد ١٩٦٥
- نعيم زكي فهمي (دكتور) ١٩٨ - طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب
أواخر العصور الوسطى
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م
- رابعة الرسائل العلمية :
- أحمد كامل محمد صالح ١٩٩ - الحاكم بأمر الله في عصره
رسالة ماجستير - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
- ٢٠٠ - مصر بين المذهب السني والمذهب الاسماعيلي في
العصر الفاطمي
رسالة دكتوراه - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

عبد المرضي محمد عطوة ٢٠١ - العلاقات بين المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي للأندلس إلى قيام الدولة الفاطمية بالمغرب رسالة دكتوراه - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

علي بن الحسين السليمان ٢٠٢ - علاقة مصر بالحجاز زمن سلاطين المماليك رسالة ماجستير - آداب القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

٢٠٣ - النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى ١٢٥٠ - ١٥١٧ م رسالة دكتوراه - آداب القاهرة - ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

محمد عبد الفتاح عليان ٢٠٤ - الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول باليمن رسالة دكتوراه - آداب القاهرة ١٩٧٣ م

فريال محمود عباس قطان ٢٠٥ - الحجاز في ظل الدولة الأيوبية رسالة دكتوراه - آداب الاسكندرية ١٩٩٠ - ١٩٩١ م

خامساً مصادر أجنبية مترجمة إلى اللغة العربية :

بروكلمان (كارل) ٢٠٦ - تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة نبيه أمين فارس - منير البعلبكي - دار العلم - للملايين - بيروت - الطبعة التاسعة ١٩٨١ م ٢٠٧ - تاريخ الأدب العربي ترجمة د/ عبد الحليم النجار - الطبعة الرابعة - دار المعارف

- ٢٠٨ - الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر
بنار (صامويل)
ج ٣ الموازين والنقود - مكتبة مديولي - ١٩٨٠ م
الكتاب السادس من وصف مصر - ترجمة زهير الشايب
- ٢٠٩ - التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى
جب (هاملتون)
المركز العربي للكتاب - دمشق - بدون تاريخ
- ٢١٠ - حضارة الإسلام
جروينباوم (جوستاف)
ترجمة عبد العزيز جاويد - سلسلة الألف كتاب رقم (٥)
- ٢١١ - الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر
جيرار (ب . س)
ج ١ (الزراعة - الصناعات والحرف - التجارة) ١٩٧٨ م
ترجمة زهير الشايب - مكتبة مديولي - الكتاب الرابع
من وصف مصر
- ٢١٢ - تاريخ العرب
حتي (فليب)
المجلد الأول - ترجمة محمد مبروك نافع - ط ٣ ١٩٥٢ م
- ٢١٣ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين
ترجمة د/ كمال البازجي - دار الثقافة - بيروت ط ٢
١٩٧٢ م
- ٢١٤ - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ
زاسباور
الإسلامي
ترجمة د/ زكي محمد حسن وآخرون - دار الرائد العربي
بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
- ٢١٥ - تاريخ العرب العام
سيديو (ل . أ)
ترجمة عادل زعيتر - ط ٢ ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م -
مكتبة عيسى البابي الحلبي

- شاندور (البير) ٢١٦ - صلاح الدين الأيوبي - البطل الأنقى في الإسلام
ترجمة سعيد أبو الحسن - مراجعة نديم مرعشلي -
ط أ ١٩٨٨م
دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق
- صبري باشا (أيوب) ٢١٧ - مرآة جزيرة العرب
ج ١ ، ٢ ، ترجمة د/ أحمد فؤاد متولى . د/ الصفصافي
أحمد المرسي
دار الرياض للنشر والتوزيع - ط أ ١٤٠٣ هـ -
١٩٨٣م
- علوي (ناصر خسرو) ٢١٨ - سَفَرَنَامَة
ترجمة د/ يحيى الخشاب ط ٣ دار الكتاب الجديد -
بيروت ١٩٨٣م
- علي (سيد أمير) ٢١٩ - مختصر تاريخ العرب
ترجمة عفيف البعلبكي - دار العلم للملايين - بيروت
ط ٤ ١٩٨١م
- فييت (جاستون) ٢٢٠ - دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية
ترجمة د/ زكي محمد حسن - القاهرة ١٩٣٩م
- ٢٢١ - القاهرة مدينة الفن والتجارة
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بيروت - ١٩٦٨م
- كاهن (كلود) ٢٢٢ - تاريخ العرب والشعوب الإسلامية
ترجمة د/ بدر الدين القاسم ط ٣ دار الحقيقة بيروت
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م
- لوبون (جوستاف) ٢٢٣ - حضارة العرب
ط ٤ القاهرة ١٩٦٤م

لويس (بونارد)

٢٢٤ - الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية)
ترجمة د / سهيل زكار - ط أ - ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م
دار الفكر

متن (آدم)

٢٢٥ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري
ط ٢ ترجمة / محمد عبد الهادي أبو ريذة ١٣٦٦ هـ -
١٩٤٧ م لجنة التأليف والترجمة والنشر

هورتيل (ويتشارد)

٢٢٦ - الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر
الملوكي
الرياض ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

سادساً: الدوريات:

أحمد خيرى

٢٢٧ - السويس ليست الفرما
مقالة بمجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الخامس عشر ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

أحمد دراج (دكتور)

٢٢٨ - عَيْذَاب
مقال بمجلة نهضة إفريقية - السنة الأولى - العددان
التاسع والعاشر يوليو - أغسطس ١٩٥٨ م

جمال الدين الشيال (دكتور)

٢٢٩ - العلاقات بين مصر واليمن في العصر الفاطمي
مقال بمجلة الكتاب - عدد إبريل ١٩٤٨ م

٢٣٠ - أنيس المجلس في أخبار تنيس لابن بسام
مقال (نشر وتحقيق) بمجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الرابع عشر ١٩٦٧ م

- صالح أحمد العلي (دكتور) ٢٣١ - المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز
مقالة بمجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الحادي عشر
١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م
- صبيح لييب (دكتور) ٢٣٢ - التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى
مقال بالمجلة المصرية للدراسات التاريخية - العدد الثاني
المجلد الرابع - مايو ١٩٥٢م
- عبد المنعم ماجد (دكتور) ٢٣٣ - النقود الفاطمية في مصر
مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة إبراهيم (عين شمس)
المجلد الثاني - مايو ١٩٥٣م
- فؤاد الماوي (دكتور) ٢٣٤ - العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز من
الفتح العثماني حتى الاحتلال الفرنسي ١٥١٧ -
١٧٩٨م
مقال بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس العددان
الرابع والخامس لسنتي ١٩٨٠ - ١٩٨١م

سابعاً: المراجع الأجنبية :

- 1- Cahen: La Syrie du Nord. Paris 1940.
- 2- Esin Emel :Mecca the Blessed Madinah the Radiant. Italy 1976.
- 3- De, Gaury, Gerald: Rulers of Mecca (First published. 1951).
- 4- Hogarth (D. G.) A History of Arabia. ClarendonPress. Oxford 1922.
- 5- Nicholson, Prof. Reynold A: Literary History of the Arabs London, 1914, Cambridge 1930).
- 6- O.Leary, Delacy, AShort History of the Fatimid Khalifate, London (1923).
- 7- Stanly Lane Poole: A History of Egypt in the Middle Ages. London. 1901.

الفهارس الفنية

فهرس الأعلام

فهرس الأمكنة والبقاع

فهرس الآيات القرآنية

فهرس القوافي



فهرس الأعلام

صفحاته	اسم العلم
	(أ)
٣٢١ ، ٢٨٠	آدم ممتز
٣٠٣	الآمر بأحكام الله
١٧٧	إبراهيم - عليه السلام -
٢١٦	إبراهيم بن إسماعيل الموسوى
٢١٠	إبراهيم بن على بن الحسن الشيبانى
١٧٣	إبراهيم بن موسى (المعروف بالمعتمد)
١٧١ ، ١٤٨ ، ١١٨ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٤٥	ابن الأثير
١٧٣ ، ١٧٢	
٣١٥	أبو أحمد الحاكم
٧٩	أبو أحمد الموسوى (الشرىف)
٣٣ ، ٣٢	أبو أحمد الموفق
٩٦	أحمد بن أبى العلاء
٢١٢	أحمد بن أسد بن أحمد الكوجى
٣٠٣	أحمد بن الأفضل (أبو على)
٣٠٤ ، ٣٠١ ، ٢٩٨	أحمد بن حنبل
٢٧٧ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٩	أحمد بن طولون
٣٦	أحمد بن عمر بن يحيى العلوى
٣١٥	أحمد بن قراس العبقسى
١١٦ ، ١١٥ ، ١١٤	أحمد المكرم الصليحى
٧٨	أحمد بن موسى (أبو الحسين)
٢٨١	ابن الأخوة

صفحاته	اسم العلم
٢٨ ، ٢٧	إدريس بن عبد الله بن الحسن
٢٨٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٠	الإدريسي
٣٢٩	الأرتاحي
٣٢٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣١٩	الأرسوفي (عبد الله بن محمد)
٢٤٨ ، ١٣٤	أوغش التركي
١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٥	أرناط
٢٩	أزجور التركي
٢٩	ابن ازذاذ
٣٠٠	أبو إسحاق السبيعي
١٩٨ ، ١٩٧	أسد الدين جفريل
٢٩٩	أسد بن القرات النيسابوري
١٩١	أسد الدين محمد بن بدر الدين
١٦	إسماعيل - عليه السلام -
٢٣٩	إسماعيل بن إبراهيم
٣٠١	إسماعيل بن أليسع الكوفي
٣٠٣	إسماعيل بن جعفر الصادق
٣١٥	إسماعيل بن راشد الحداد
٣٢٩	إسماعيل بن عساكر
٦٣ ، ٦٢	إسماعيل بن يوسف
٢٣	الأشتر مالك بن الحارث
١٢٦	أصيهيد بن ساوتكين
٣٢٩	ابن الأعرابي
٢٩٥ ، ١٢٩ ، ١٢٨	الأفضل بن بدر الجمالي
٣٢٦	الأفضل نور الدين علي

اسم العلم	صفحاته
أقباش بن عبد الله الناصرى	١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩
ألب أرسلان	١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢
أمير الجيوش المستظهرى	١٢٧
الأمين (الخليفة العباسى)	٦١
أنس بن مالك	٣٠٠
الأنماطى (أبو محمد)	٣٠٦
ابن إياس	٣١ ، ٢٤١
أبو أيوب الأنصارى	٣٢٣
أيوب السختيانى	٢٩٩
(ب)	
باديس بن زيرى الصنهاجى	٨٤ ، ٢٤٧
بدر الدين الأسدى	٣١١
بدر الجمالى	١٢١ ، ١٢٢
بدر الدين الحسن بن رسول	١٨١ ، ١٨٢
ابن برى (أبو محمد)	٢١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩
ابن البصرى	١٩٧
ابن بطوطة	٢٣٠
بُغا الأصغر	٢٩
بُغا الأكبر	٢٩
أبو بكر بن أبى الحسن الطوسى	٢١٤
أبو بكر الصديق	١٩ ، ٢٣٧
بلدوين الرابع	١٨٦
ابن البنا (أبو الحسن بن أبى الكرم)	٣٣٠
بهاء الدين القفطى	٣٣٠

صفحاته	اسم العلم
٣٠١	البويطي
	(ت)
٣١٩	تاج الدين أبو الحسن
٢٣٦	تبع بن حسان أبو كرب
٩١ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٣٠٦	ابن تغري بردى
١٩٩	ابن التغرى
٣١٦	تقى الدين أبو حفص على
٣٢٩ ، ٣٣٠	تقى الدين بن دقيق العيد
٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٦ ، ١٥١ ،	تقى الدين الفاسى
١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،	
٢١٧ ، ٢٥٨ ، ٢٩٣ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،	
٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤	
١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،	توراز شاه بن أيوب
	(ث)
٣٠١	أبو ثور
	(ج)
٢٨	جابر بن الوليد المدلجى
٩	جبريل - عليه السلام -
٩ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ٢٠٩ ،	ابن جبير
٢١١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،	
٢٣٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ ،	
٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٣٠٦ ،	
٣٠٩ ، ٣١١ ،	
٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٩	ابن جرير الطبرى

صفحاته	اسم العلم
٢٥٩	الجزيري
٧٦ ، ٧٣	جعفر بن أبي طالب
٣٣	جعفر بن الباغمردى
٩١ ، ٥٨	جعفر الصادق
٦٢	جعفر بن الفضل المعروف بشاشات
٨٢ ، ٨١ ، ٧٩ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٢ ، ٧١	جعفر بن محمد الحسنى
١٨٠ ، ٨٣	
٢١٢	جعفر بن يحيى بن إبراهيم التميمى
١٣٢	جمال الدين المعروف بالجواد
٢٣٤	جمانه بنت فلتيه الحسنى
٣٠١	ابن الجنيد
٣٠٢ ، ٢٧٧ ، ٢٢٨ ، ٧٩ ، ٧٧ ، ٧٢	جوهر الصقلى
٣٠٣	
	(ح)
٣١٩	ابن الحاجب الأمينى
٢٩٩	الحارث بن مسكين
٣٢٩	الحافظ زكى الدين المنذرى
٣١٧ ، ٢١٣	الحافظ أبو القاسم بن عساكر
٣٢١ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٦ ، ٢١٣	الحافظ السلفى
١٣٠	الحافظ لدين الله (الخليفة الفاطمى)
٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥	الحاكم بأمر الله
٩٦ ، ٩٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ٢١٦ ، ٢١٧	
٢١٩ ، ٢٤١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٢٠	
٣١٧ ، ٣١٦	ابن الحباب المالكى

صفحاته	اسم العلم
١٠١ ، ٥١	الحجاج بن يوسف الثقفى
١٨٩ ، ١٨٨	حسام الدين لؤلؤ
١٨٠	حسام الدين ياقوت بن عبد الله المسعودى
٩٧	حسان بن المفرج
٧١	ابن حزم
٧٩ ، ٧٨	الحسن بن أحمد الأعصم القرمطى
٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٧٣ ، ٧٢	الحسن بن جعفر الحسنى (أبو الفتوح)
٩٨ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٩١	
١٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ١٠٠ ، ٩٩	
٢٧٩ ، ٢٢٠ ، ٢١٧ ، ٢١٦	
٣١٩	أبو الحسن بن حبير
٨٩	الحسن بن طاهر الحسينى
٢٠٨ ، ٧٦ ، ٢٤	الحسن بن على
١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٥	الحسن بن قتادة الحسنى
٢١٨ ، ١٧٩ ، ١٧٦ ، ١٧٥ ،	
٣١٤	أبو الحسن بن محمد السمسار
٥٩	الحسن بن محمد النفس الزكية
٢٤٣	الحسين بن أبى الهيجاء
٦١	الحسين بن الحسن الأفطس
٧٤ ، ٧٣ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٢٥	الحسين بن على
٢٠٨	
٥٩ ، ٢٧	الحسين بن على بن الحسن
٥١ ، ٥٠	الحسين بن غير السكوتى
٢٣٩	الحكم بن عبيدة

صفحاته	اسم العلم
٣٠٠	حماد بن أبي سليمان
٣١٥	حمزة بن عبد العزيز المهلبى
٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣	أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي
١٢٠	حمزة بن وهاس بن أبي الطيب الحسنى
٢٧	حميد بن قحطبه
١٥٦	حنظلة بن قتادة الحسنى
٣٠٤ ، ٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨	أبو حنيفة النعمان
٣٢٢ ،	
١٢٣	حيدرة بن ميرزا الكتامى
	(خ)
٢٣٧	خالد بن جعفر بن كلاب
٢٠٢ ، ١٧٨ ، ١٧٧	الخزرجى
٢٣٨	الخطاب بن مسلمة
١٤٨	خطليا
٢٩٨ ، ٢٧٦ ، ١٦٦ ، ٨٨ ، ٧٣	ابن خلدون
٣٢٩	ابن خلكان
٢٨٠	الخوارزمى
	(د)
١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ، ١٤٢ ، ١٤١	داود بن عيسى الحسنى
٢٤٨ ، ١٥٢ ،	
	(ر)
١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٦٥ ، ١٦٢	راجع بن قتادة
١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٤ ،	
١٩٩	

اسم العلم	صفحاته
الراضى (الخليفة العباسى)	٢٧٧ ، ٦٨ ، ٣٤
رياح بن عثمان بن حيان المرى	٥٧
ربيع بن عبد الله الماردى	٣٢٦
أبو ربيعة بن المغيرة	٢٣٧
رزين بن معاوية بن عمار العبدى	٢١٣
ابن الأرسوفى	٣١٥
الرشيد العطار	٣١٩
ابن الرشيق	٢٩٩
رضوان بن ولخشى	٣٢١
ركن الدولة	٣٦
أبو ركة	٩١
ابن الريحاني	١٥٧ ، ١٥٦
زاهر بن رستم	٣١٩
أبو الزناد	٢٩٩
زياد بن عبد الله	٥٧
زيد بن ثابت الأنصارى	٣٠٥
زين الدين بن بكتكين	١٣٤
(س)	
سالم بن قاسم الحسينى	١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٥٨ ، ١٥٧
سماك بن حرب	٣٠٠
سبط بن الجوزى	٢٤٨ ، ١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٤٠ ، ١٢٧
أبو السرايا السرى بن منصور الشيبانى	٦١ ، ٦٠
ابن سريج	٣٠١
أبو سعد الحسن بن على بن قتادة	٢١٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ١٩٥

صفحاته	اسم العلم
١١٤	سعيد الأحول بن نجاح
٤١	سعيد بن العاص
٣٠١	سعيد بن المسيب
٢٥	سعيد بن يزيد بن علقمه
٣٢١	ابن السلار الكردي
٣١٥	السلمي (أبو عبد الرحمن)
٣٠٧	السمهودي
٢٨٨	ابن السوادكي
٢٣٨	السيوطي
	(ش)
٢٩٩	ابن شاش
١٧٠	أبو شامه
٣٢٩	شرف الدين الدمياطي
٣٣٠	شرف الدين المرسى
١٨٢	شرف الدين موسى بن على
٣١٨	شعيب بن يحيى
٢١٧ ، ١١٠ ، ١٠٨ ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤	شكر بن أبى الفتوح الحسنى
٣٣٠	شمس الدين الأصبهاني
٣١٤	شميلة بن محمد بن جعفر الحسنى
٣٠٥ ، ٢٩٩	ابن شهاب الزهرى
١٩٧	الشهاب بن عبد الله
٣٢٣	شهاب الدين غازى
١٩٥	شيحة بن قاسم الحسينى
٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٨٠	شيخه بن هاشم بن قاسم الحسينى

صفحاته	اسم العلم
٢٨٩	شيركوه
	(ص)
٣٠٤	صدر الدين عبد الملك بن درياس
١٨٢	صديق بن بدر بن جناح
٣٢٢ ، ٣١٦	صديق بن يوسف بن قریش
١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ، ١٤١ ، ١٣٨ ، ١٣٦	صلاح الدين الأيوبي
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،	
١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢١٨ ،	
٢١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،	
٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،	
٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،	
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ،	
٢٩	ابن الصوفي العلبي
٣١٩	أبو الصيف
	(ط)
٨٣	الطائع (الخليفة العباسي)
٢٤٨ ، ١٤٣	طاشتكين
٢٠٧	أبو طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم
٨٢	أبو طاهر الذهلي
٣١٦	أبو طاهر الزيات
٣١٨ ، ٣١٦	أبو طاهر السلفي
٣٢١ ، ٣١٧	أبو طاهر بن عوف
٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٥	أبو طاهر القرمطي
٣٠٢	أبو طاهر محمد بن أحمد

صفحاته	اسم العلم
٣١٩	أبو الطاهر المدينى
٨٣	طاهر بن مسلم الحسينى
٢١٤	ابن الطباخ الحنبلى
٢١٧ ، ١٠٨	طراد بن أحمد
٢١٤	ابن طرخان
٢١٨ ، ١٦٤ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٩ ، ١٤٨	طفتكين بن أيوب (سيف الإسلام)
٢٧٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢ ،	
١٩٥ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٨٣	طفتكين بن عبد الله الكاملى
٦٤	ابن الطقطقى
٢٩٣ ، ٢٤٣ ، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣٠	طلاح بن رزىك
٣٠٥	طاووس بن كيسان
٩٧	أبو الطيب الحسنى
٢١١	أبو الطيب الحسنى الحنفى الأزهرى
	(ظ)
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،	الظاهر (الخليفة الفاطمى)
٢٤١ ، ٢١٩	
٣١	ابن ظهيرة
	(ع)
٢٩٩	عائشة بنت سعد بن أبى وقاص
١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٧٠ ، ١٦٦ ، ١٥٧	العاذل بن أيوب
٣٠٤ ، ٢٤٣	العاخذ
٢٣٧	العباس بن عبد المطلب
٢٣٨ ، ٥٦	أبو العباس السفاح
٣٢٦	ابن عبد البر

صفحاته	اسم العلم
٢٩٩	ابن عبد الحكم
٤٥	عبد الرحمن بن أبي بكر
٢٦ ، ٢٥	عبد الرحمن بن عتبة بن حنبل الفهرى
٣١٤	عبد الرحمن بن عبد العزيز
٢١٠	عبد الرحمن بن علي بن الحسن الشيباني
٢٩٩ ، ٥٣	عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر
٣١٦	عبد الرحمن بن محمد بن علي
٢٤	عبد الرحمن بن ملجم
٣٠١	عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى
٣٣١	عبد الرحيم القناوى
٣١٧	عبد العزيز بن الحسن الضراب
٥٤	عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان
٣١	عبد العزيز بن عمر بن فهد
٢٦	عبد العزيز بن مروان
٢٩٣ ، ٢٤٣	ابن عبد القادر الطبرى
٣١٥	عبد الكريم بن عبد الصمد (أبومعشر الطبرى)
٢١٥	أبو عبد الله الأرتاحى
٢٨	عبد الله بن أحمد بن الأرقط العلوى
٣٢٩ ، ٣١٩	أبو عبد الله بن البناء
٥٣	عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي
٥٠	عبد الله بن حنظلة الغسيل
٥٨	عبد الله بن ربيع الحارثى
١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،	عبد الله بن الزبير
٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٥٥	

صفحاته	اسم العلم
٢٠ ، ٢١	عبد الله بن سبأ
٢٠ ، ٢١	عبد الله بن سعد
٣٠٥	عبد الله بن عباس
٨١	عبد الله بن عبيد الله الحسنى
٤٥ ، ٤٧ ، ٢٤٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥	عبد الله بن عمر بن الخطاب
٣١٢	عبد الله بن عمرو بن العاص
٢١٢	أبو عبد الله الكازرينى
٣١٢	عبد الله بن لهيعة
٣٠٠	عبد الله بن المبارك
٣١٧	عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن صدقه
٢١٥	عبد الله بن محمد بن عبد الله الحجرى
٣٣٠	عبد الله بن محمد بن عبد الله التكرأوى
٥٥	عبد الله بن يحيى
٢١٠	عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن
٣١٨	عبد الله بن يوسف بن عبد الرحمن التميمى
٢١٥	عبد المحسن بن أبى العميد بن خالد
٣١٨	عبد المعطى بن محمود الاسكندرى
٢١٣	عبد الملك بن أبى مسلم النهاوندى
٥٠ ، ٥١ ، ٢٣٨	عبد الملك بن مروان
٣٢٩	عبد المؤمن الدمياطى
٥٣	عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك
٣١٥	عبيد الله بن سعيد بن حاتم
٤٧	عبيد الله بن زياد
٦٧ ، ٧٥	عبيد الله المهدي

صفحاته	اسم العلم
٢٤٧	عتاب بن أسيد
٣١٧	عثمان بن الصفي
١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ،	عثمان بن عفان
٢٣٧	
٤٩	عثمان بن محمد بن أبي سفيان
٣٠٥	عروة بن الزبير بن العوام
٣٦	عز الدولة
٢٩٣	عز الدين أبو المعالي الشيباني
١٤٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧	عز الدين عثمان الزنجبيلي
١٨٦	عز الدين قرخشاہ
٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٧ ،	العزیز بالله (الخليقة الفاطمي)
٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٩٤	
٢٧٧	عسلوج بن الحسن
٨٤	عضد الدولة البويهی
٣٠٠ ، ٣٠٥	عطاء بن أبي رباح
١٩٥ ، ١٩٦	علاء الدين آق سنقر
٢٠٠	علم الدين الصغير
٢٠٠	علم الدين الكبير
١٤٦ ، ٨٢٤	علوان بن علوان الأسدي
٣٢٩	علي بن الحسين النحوي
٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٩٥ ،	علي بن أبي طالب
٢٢٢ ، ٣٠٢	
٩٦ ، ٩٩	علي بن جعفر بن قلاح
٢١٨	علي بن الحسن بن علي

اسم العلم	صفحاته
على بن حميصه	٣١٤
على بن سليمان	٢٨
على بن سنان الحسيني	٣١١ ، ٣١٠ ، ٣٠٧ ، ٢١١
على بن عبد الله بن أبي مطر	٣٢٩
على بن عبد الله بن حمود القاسي	٢١٤
على بن عبد الوهاب (أبو القاسم الاسكندري)	٣٢٦ ، ٣٢٠
على بن أبي الفضل المرسى	٣١٦
على بن محمد الصليحي	١٢٠ ، ١١٤ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ١١ ، ١١٠
على بن محمد المصري	٣٢٧
على بن محمد النفس الزكية	٢٧
على بن مظفر السلامي	٢١٥
على بن المقيّر	٣١٦
على بن موسى بن الجراح	٦٤
العماد الأصفهاني	٢٥٨
عماد الدين أبو عمرو الكردي	٣٢٠
عمارة اليمني	١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٣٠
عمر بن الحسن بن عبد العزيز	٣٦ ، ٣٥
عمر بن الخطاب	٢٧٥ ، ٢٣٧ ، ١٩ ، ١٦ ، ١٣
عمر بن فهد	٣١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ١١٨ ، ١٥٧ ،
	١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٨٣ ، ٢١٦ ، ٢٦١ ، ٢٨٩
	٣٢٢ ، ٣٠٦ ،
أبو عمر بن مهدي	٣١٥
عمر بن يحيى العلوي (أبو علي)	٦٨
عمرو بن سعيد بن العاص	٤٨ ، ٤٤

صفحاته	اسم العلم
٢٧٥ ، ٢٥٤ ، ٨٢ ، ٢٣ ، ٢٠ ، ١٦ ، ١٣	عمرو بن العاص
٣٢	عمرو بن الليث الصفارى
٣١٩	عياض (القاضى)
١٩٥ ، ١٩٤	ابن عيدان
١٨٢ ، ١٧٣ ، ١٧٠ ، ١٦٩ ، ١٦٨	عيسى (الملك المعظم)
٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٣	عيسى بن جعفر الحسنى
٢٤٨ ، ١٥٢ ، ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٤	عيسى بن فليته الحسنى
٦٣	عيسى بن محمد المخزومى
٥٨	عيسى بن موسى
	(غ)
١١٩	أبو الغنائم الزينبى
٣٢٤	غياث الدين بن المظفر
	(ف)
١٣٣ ، ١٣١ ، ١٣٠	الفائز (الخليفة الفاطمى)
٣٢٦	ابن فارس
٣١٧	الفاسى (أبو الخير)
٩١	فتكين العضدى
٣٣٠	أبو الفتح الكروخى
٣١٦	أبو الفتح محمد بن عبد الله بن الحسين
٣٢٤ ، ٣٢٢ ، ٣١٩ ، ٣١٥	أبو الفتوح المصرى
٣٢٤ ، ٣٢٣	أبو الفتوح ناصر بن عبد الله العطار
١٨٢	فخر الدين بكر بن على
٢٠٢ ، ٢٠١	فخر الدين الشلاح
١٩٥	فخر الدين بن شيخ الشيوخ

صفحاته	اسم العلم
٢	أبو القدا
٢٣٩	الفضل بن الربيع
٣٠٦	أبو الفضل بن قوام
١٥٤	ابن فضل الطبرى
٢	ابن الفقيه
١٢٩	فليته بن قاسم الحسنى
	(ق)
١٢٢ ، ١١٩ ، ١١٨ ، ١١٧ ، ١١٦ ، ١١٤	القائم بأمر الله (الخليفة العباسى)
٨٦	القادر (الخليفة العباسى)
٣٧ ، ٣٦	أبو القاسم أنوجور
٣١٩ ، ٣١٦ ، ٢١٥	أبو القاسم البوصيرى
١٨٠ ، ١٧٠ ، ١٦٩	قاسم بن جمار الحسينى
١٠١	أبو القاسم بن رزق البغدادى
٢١٥	أبو القاسم الشاطبى
٣٢٩	أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد
٣٢٠	أبو القاسم عبد الملك بن عيسى
٨٧	القاسم بن على الرستى
١٢٩ ، ١٢٦	قاسم بن محمد الحسنى
٩٩ ، ٩٨ ، ٩٥ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢	أبو القاسم المغربى
٢٤٩ ، ١٤٤	قاسم بن مهنا الحسينى
١٥٢ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٣٠	قاسم بن هاشم بن فليته الحسنى
٢٤٨ ، ٢٢٠ ،	
١٥٥ ، ١٥٤ ، ١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٣٩ ، ١٣٨	قتادة بن إدريس الحسنى
١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٦ ،	

صفحاته	اسم العلم
١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦٧ ، ٣٠٧ ، ٢١٨ ٣١٨ ٢٣٧ ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٤ ٣١٥ ٢٧٩ ، ٢٦٣ ، ٢٤٣ ، ٢٣٨ ، ٩٩ ، ٧١ ٢٨٦ ، ٢٨١ ٢٣	قتادة القشيري قصي بن كلاب القضاعي (أبو عبد الله) قطب الدين القسطلاني القلقشتدي قيس بن سعد (ك) الكازيني (أبو عبد الله) كافور الاخشدي الكامل (الملك)
١٧٨ ، ١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٧٣ ، ١٧٠ ، ١٦٦ ، ١٩١ ، ١٨٣ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٥ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٥٣ ، ٢١٥ ٢٧ ، ٢٥	الكندي (ل) ابن اللهيث الليث بن سعد (م) المأمون (الخليفة العباسي) مالك بن أنس
٢٩٩ ٣١٢ ، ٣٠٠ ٢٣٩ ، ٦١ ، ٦٠ ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨	

صفحاته	اسم العلم
٣٠٥	مالك بن أنس
٢١٨	مالك بن قليته بن قاسم الحسنى
٢٤٦	الماوردي
٢٠٠	مبارز الدين على بن الحسين بن برطاس
٢١٤	مبارك بن على بن الحسين بن عبد الله
٢٩٩	ابن الميشر
٣٦ ، ٣٤	المتقى (الخليفة العباسي)
٣٠	المتوكل (الخليفة العباسي)
٣٠٥	مجاهد بن جبر
٢٨١ ، ٢٧٨	ابن المجاور
٢٠٠	مجد الدين أحمد بن التركمانى
١٩٦ ، ١٩٥	ابن مجلى
٣٠٠	محارب بن دثار
٣١٨	المحاسبي
٣١٧	المحاملى (أبو محمد)
٦١ ، ٦٠	محمد بن إبراهيم العلوى (ابن طباطبا)
٣١٦	محمد بن أحمد الرازى (أبو عبد الله)
٢٣ ، ٢١	محمد بن أبى بكر
٢٣ ، ٢٢	محمد بن أبى حذيفة
١٠٨	محمد بن أبى الطيب بن عبد الرحمن
٢١٥	محمد بن أبى عبد الله الحضرمى
٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤	محمد بن إدريس الشافعى
١١٣ ، ١١٢ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٨	محمد بن جعفر الحسنى (أبو هاشم)
١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،	

صفحاته	اسم العلم
١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٨، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١٤	محمد بن جعفر الحسنى (أبو هاشم)
٦١	محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن على
٣٠٠	محمد بن الحسن الشيبانى
٣١٥	محمد بن الحسن القهرى (أبو عبد الله المكى)
٥٧	محمد بن خالد القسرى
٦١	محمد الديباج بن جعفر الصادق
٣٣	محمد بن السراج
٢٣٨	محمد بن سليمان
٦٤، ٦٥	محمد بن سليمان الحسنى
١٣٣	محمد بن شمس الخلافة
٣١٤	محمد بن طاهر المقدسى
٣٤، ٣٥، ٣٧، ٦٩	محمد بن ظفج الإخشيد
٢١٤	محمد بن عبد الله بن الحسين البرمكى
٥٣	محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان
٢١٤	محمد بن عبد الله بن الفتوح المكناسى
٥٦، ٥٨، ٥٩	محمد بن عبد الله النفس الزكية
٢٨	محمد بن على بن الحسين (أبو حدرى)
٢١٠	محمد بن على بن الحسين الشيبانى
٣١٦	محمد بن على المازرى
٢١٣	محمد بن عمر بن عثمان بن عبد العزيز
٢١٥	محمد بن عمر بن يوسف الأنصارى
٣١٤	محمد بن عوف المدنى
١٥٦	محمد بن مكثّر

صفحاته	اسم العلم
٣٠٠	محمد بن المنكدر
٢١٣	محمد بن هبة الله بن ثابت
٦٣	محمد بن يوسف
٣٢٧ ، ٣٢٥ ، ١٨٩ ، ١٤٧	محي الدين عبد الرحيم البيساني (القاضي الفاضل)
٥١ ، ٤٩ ، ٤٦ ، ٤٤ ، ٢٦ ، ٢١	مروان بن الحكم
٥٦ ، ٥٤ ، ٥٣	مروان بن محمد
٢٨	مزامح بن خاقان
٢٦٣ ، ١٠٣	المسبحي
٢٧٨	المستضيء بأمر الله (الخليفة العباسي)
٢٠١	المستعصم (الخليفة العباسي)
١٢٥	المستعلي (الخليفة الفاطمي)
١٣٣	المستنجد بالله (الخليفة العباسي)
١١٢ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٧ ، ١٠٥ ، ١٠٤	المستنصر (الخليفة الفاطمي)
١٢٢ ، ١٢١ ، ١١٩ ، ١١٦ ، ١١٥ ،	
٢٤١ ، ٢٢١ ، ٢١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٣	
١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٢	المستنصر بالله (الخليفة العباسي)
٦٢	المستعين (الخليفة العباسي)
١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٥	المسعود (يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب)
١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٧٦	
١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٩٠ ، ١٨٣ ، ١٨٢	
٢٧٩ ، ٢٣٦	
٣١٧	مسعود بن علي بن أحمد بن عبد المعطي
٥٤ ، ٤٦	المسعودي

صفحاته	اسم العلم
٥٦	أبو مسلم الخراساني
٥٧ ، ٥٠ ، ٤٩	مسلم بن عقبة المري
٤٧	مسلم بن عقيل
٢٠٢	ابن المسيب
٣٢٠	مصطفى بن محمود بن موسى
٧٩ ، ٧٨ ، ٣٦	المطيع لث (الخليفة العباسي)
١٠٣	مظفر الصقلبي
٣٠٥ ، ٢٢	معاذ بن جبل
٢١٤	أبو المعالي بن النحاس
٤٦ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣	معاوية بن أبي سفيان
٢٣٨ ، ٤٧	
٦١	المعتصم (الخليفة العباسي)
٣٢ ، ٣١	المعتد (الخليفة العباسي)
٣٦	معز الدولة البويهري
٨٠ ، ٧٩ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٢	المعز لدين الله
٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٢٨ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٨١	
٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٧٧ ، ٢٤١	
١٠٢	معضاد
٩٨ ، ٩٦ ، ٩٤ ، ٨٩	مفرج بن دغفل بن الجراح
٦٤ ، ٦٣	المقتدر (الخليفة العباسي)
١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٢٢	المقتدى (الخليفة العباسي)
١٣٢	المقتفي (الخليفة العباسي)
٢٨٧ ، ٢٨٣ ، ١٦٤ ، ٢٦٠ ، ٢٥٧ ، ٤	المقدس
٩٦ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٥ ، ٨١ ، ٧٣ ، ٧٢	المقريزي

صفحاته	اسم العلم
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٣٠٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٣	المقریزی
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩	مکثر بن عيسى الحسنی
٣١٩	مکی بن أبی حفص
١٢٥	ملکشاه السلجوقی
٢٧ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٢٣٨	المنصور (الخلیفة العباسی)
٥٨ ، ٥٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٣٠٠	المهدی (الخلیفة العباسی)
٣٢٧	موسی بن إبراهيم المخزومی
٢٦	موسی بن نصیر
٥٩ ، ٣٠٠	موسی الهادی (الخلیفة العباسی)
٣١٦	المیانشی
٨١ ، ٨٧	ابن میسر
	(ن)
٣١٧	ناصر بن الحسين الزیدی (أبو الفتوح)
١٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٥٠	ناصر خسرو
٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٢٨٠	
١٩١	الناصر داود

صفحاته	اسم العلم
١٣١	ناصر الدولة
٣١٩	ناصر بن عبد الله بن عبد الرحمن
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ،	الناصر (الخليفة العباسي)
١٧١ ، ١٧٢	
٢٩٩ ، ٣٠٠	نافع
١٦٩	الناهض بن الجرخی
٢٣٧	نتيله بنت جناب
٢٤٣	ابن التجار
١٩١ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٤٤	نجم الدين أيوب (الملك الصالح)
٣٢٩	النحاس (أبو محمد)
١٣٠	نظر الخادم
٣١٥	ابن نفيس (أبو العباس)
٣٠٦	الأنماطی (أبو محمد)
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،	نور الدين عمر بن علي بن رسول
١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،	
١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،	
٢٠١ ، ٢٠٢	
١٣٦ ، ١٤١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٤	نور الدين محمود
	(هـ)
٢١٦	هادي المستجيبين
٢٨ ، ٦٠ ، ٢٣٩ ، ٣٠٠	هارون الرشيد
٣٣	هارون بن محمد
١٣٠	هاشم بن قليقة الحسنی
٣١٤	هبة الله الشيرازی

صفحاته	اسم العلم
٣٠٠	هشام بن عروة
١٠٠	هلال الصابى
٣٠٢	الهمداني
٣١٤ ، ٣١٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦	هياج الخطيني
٣٠٠	الهيثم بن حبيب الصواف
	(و)
٢٨	واضح (مولى بنى العباس)
١١	وج بن عبد الحمى
٢١٤	أبو الوقت السجزي
٣٠٠	وكيع بن الجراح
٤٩ ، ٤٨ ، ٤٤	الوليد بن عتبة بن أبى سفيان
١٩٩	ابن الوليدى
	(ي)
٩٥	ياروخ
٢٩١ ، ٢٤٥ ، ١١٧	اليازورى
٢٩٩	يحيى بن سعيد الأنصارى
٢١٠	يحيى بن عبد الرحمن بن على بن الحسن
	الشيباني
٢٧	يحيى بن عبد الله
٢٦٤	يحيى بن اليمان
٣١٢	يزيد بن أبى حبيب
٢٧	يزيد بن حاتم المهلبى
٢٨	يزيد بن عبد الله
١٧ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩	يزيد بن معاوية

اسم العلم	صفحاته
يعقوب بن كلس	٥٧، ٥١، ٥٠
أبو يوسف القاضي	٢٢٧، ٨٢
يوسف بلكين	٣٠٠
يوسف - عليه السلام -	٨٤
يونس بن يحيى الهاشمي	١١٢
	٣٢٩، ٣١٩

فهرس الآمكنة والباق

صفحاته	اسم المكان
	(أ)
٢٨٨ ، ٢٦٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٥	آسيا
١٦٨ ، ١٤٢	الأبطح
٧٩ ، ٦٦	الأحساء
١٨٢	إربل
٢١٣ ، ١٨٩ ، ١٤٨ ، ٧٥ ، ٢٩ ، ٢٨	الاسكندرية
٢٥٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣١ ، ٢١٥ ، ٢١٤	
٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٦٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٤	
٣١٧ ، ٣١٦ ، ٣٠١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥	
٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢١ ، ٣١٨	
٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٩	أسوان
٢٧٤ ، ٢٧٠ ، ٢٦٧ ، ٢٥٠ ، ٦٠	أفريقية
٢٥٠	الأندلس
٢٧١ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٧	أوريا
١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٣٦	أيله
	(ب)
٥٨	باخمري
٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٧	البحر الأبيض المتوسط
١٣	بحر الجار
١٦ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٢ ، ٩ ، ٨ ، ٥ ، ٤	بحر القلزم (البحر الأحمر)
١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٣٦	
٢٦٩ ، ١٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ١٨٩	

صفحاته	اسم المكان
٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ .	بحر القلزم (البحر الأحمر)
٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨	
١٨٥	البحر الميت
١٢٦ ، ٦٥	البحرين
٢٩	برقة
٢٩٣	بركة الحبش
٢٨٦	بروفانس
٢٠٠ ، ٨٨ ، ٦٨ ، ٥٧ ، ٢١ ، ٢ .	البصرة
٢٥٦	بطن مر
٦ ، ٧٩ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .	بغداد
١٢٧ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٤ .	
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ .	
٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣١٤ .	
٣٢٩	
١١ ، ٢١٥ ، ٢٩٩	بقيع الغرقد
٨	بكة
٢٩٣	بلبيس
٢٩٣	بلقس
٢٦٨	بولاق
١٩١ ، ٢٥٣	بيت المقدس
	(ت)
٦	تبوك
١٩١	تعز
٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ .	تنيس

صفحاته	اسم المكان
٣٢٩ ، ٢٧٠	تنيس
١٨٩ ، ٤	تهامة الحجاز
٢٧٦ ، ١٩١	تهامة اليمن
٣٢٩ ، ٢٦٣ ، ٢٣٩	توته
١٨٦ ، ٥	تيماء
(ج)	
٢٨٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٢ ، ٢٦٥ ، ١٣ ، ٤	الجار
٣٢٠	الجامع الأقمر
٣٢٩	الجامع الظافرى
٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٢ ، ١٢٨	جامع عمرو بن العاص
١٥١ ، ١٤٢ ، ١٤٠	جبل أبى قبيس
١١ ، ١٠	جبل أحد
٣ ، ٢	جبل السراة
٩	جبل قعيقعان
٤	الجحفة
٦٣ ، ٦٢ ، ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ٩ ، ٧ ، ٤	جدة
٢١٨ ، ١٨٧ ، ١٧٠ ، ١٤٦ ، ١٢٨	
٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٠	
٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٦	
٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٤	
٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٩٦ ، ٢٨٥	
٢٥٣ ، ١٤١	الجزيرة
٢٧٢ ، ٥١ ، ٤	الجزيرة العربية
١٨٧	جزيرة فرعون

صفحاته	اسم المكان
١٨٧	جزيرة القلعة
١٥٠	الجوف
	(ح)
٢٨٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٠ ، ٢٦٧	الحبشة
١٣ ، ١١ ، ٨ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢	الحجاز
٢٥ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤	
٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٧ ، ٢٦	
٥٢ ، ٥١ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٣٧	
٦٢ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣	
٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٣	
٨٠ ، ٧٩ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧١	
٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٨١	
١٠١ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٤ ، ٩٢	
١٠٧ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ،	
١١٦ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٣ ، ١٠٩	
١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢١ ، ١١٧	
١٣٨ ، ١٣٦ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٢٩	
١٥٣ ، ١٤٩ ، ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤١	
١٦٥ ، ١٦٣ ، ١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٨	
١٨٤ ، ١٧٦ ، ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٧٠	
١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٨٥	
٢٠٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٤ ، ١٩٩ ، ١٩٦	
٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٧ ، ٢١٣ ، ٢١٢	
٢٢٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢١	

صفحاته	اسم المكان
<p>٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ ٢٥٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥ ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤ ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٥٩ ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥ ٢٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧١ ٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٢٩٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧٨ ٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٣ ٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٠ ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣٠٩ ٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢١ ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧ ٨٦ ، ٧٥ ، ٧٢ ، ٧٠ ، ٦٧ ، ٦٤ ، ٣١ ١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٤٨ ، ١٣٣ ، ١٠٥ ، ٨٩ ٢٥٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٤ ، ٣٣١ ، ٣١٧ ، ٣١٤ ، ٢٩٤ ٧٥ ، ٥٠ ٦ ٦ ٦ ١٠ ١٠ ٥</p>	<p>الحجاز</p> <p>الحرمين الشريفين</p> <p>الحرّة</p> <p>حرّة خيبر</p> <p>حرّة رهط</p> <p>حرّة العويرض</p> <p>حرّة واقم</p> <p>حرّة الويرة</p> <p>حيثى</p>

صفحاته	اسم المكان
١٤١	حلب
٢٢٠	حلى
٥	الحناكية
١٨٨ ، ٤	الحوراء
	(خ)
٢٥٥ ، ٦ ، ٥ ، ٤	خيبر
١٨٧ ، ١٨٦ ، ٤	خليج العقبة
١٠١	خراسان
	(د)
٣٢٩ ، ٣١٥	دار الحديث الكاملة
٣٢٢	دار السلسلة
٩٥	الداروم
٦	درب الحاج
٢٦٩	الدلتا
١٤١ ، ١٢٣ ، ٤٩ ، ٤٦ ، ٤٤ ، ٤٣ ،	دمشق
١٩١ ، ١٨٦ ، ١٨٢ ، ١٦٩ ، ١٦٨ ،	
٣١٤	
٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٣١ ، ١٨٨ ، ١٨٦ ،	دمياط
٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٠ ، ٢٧٠ ، ٢٦٨ ،	
٣١٢	
٢٦٣ ، ٢٣١	دنقلة
	(ذ)
١٩١	ذمر (حصن)
١٥٧	ذى الحليفة

صفحاته	اسم المكان
	(ر)
١٨٨ ، ٤	رابع
٣٢٦	رباط ربيع
٣٢٥	رباط الزنجبيلي
٣٢٥	رباط العفيف
٣٢٧	رباط غزي
٣٢٧	رباط القاضي الفاضل
٣٢٦	رباط الموفق
٢٦٦	رشيد
٩٥	رفع
٢١٧ ، ٩٩ ، ٩٦ ، ٩٤ ، ٩٢ ، ٨٩	الرملة
	(ز)
١٧٢	الزاهر
٢٥٣ ، ١٩١ ، ١٥٠ ، ١٣٢	زيد
٣٠٩ ، ٢٢٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٣ ، ١٧٦	زمزم
٢٧٠	زنجبار
	(س)
٧٠	سجستان
٢٧٦ ، ٢٧٢ ، ٢٥٥ ، ٢٠٠ ، ١٩٨	السرین
٤	السقيا
٧	سلسلة جبال الحجاز
٣١١ ، ٢٩٣	سندبیس
٢٨٦	سواكن
٢٧٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٧	السودان

صفحاته	اسم المكان
٢٧١	سورية
٢٨٢ . ٢٧٦ . ٢٥٠	السويس
	(ش)
٢ . ٣ . ٤ . ٩ . ١١ . ٢٠ . ٢٥ . ٣١ .	الشام
٣٤ . ٣٥ . ٣٧ . ٤٣ . ٥١ . ٧٠ . ٩٤ .	
٩٥ . ١٠٤ . ١٢٣ . ١٢٤ . ١٢٦ . ١٣٢ .	
١٦٦ . ١٦٩ . ١٧٣ . ١٧٩ . ١٨٦ .	
١٩٩ . ١٥٣ . ٢٦٧ . ٢٧٢ . ٢٧٣ .	
٣١٢ . ٣٠٤	
٢٦٣ . ٢٣١	شطا
١٨٧	الشويك
	(ص)
١٥٠	صعدة
٢٩ . ٢٥٠ . ٢٧٦ . ٢٨٥ . ٣١١ .	الصعيد
٥٥ . ١١٤ . ١٥٠ . ١٨١ . ١٩١ . ٢٧٢ .	صنعاء
٢٦٥ . ٢٧٢ . ٢٨٨ .	الصين
	(ض)
٦	ضبا
	(ط)
٤ . ٥ . ٧ . ١١ . ١٢ . ٤٣ . ٥١ . ١٥٨ .	الطائف
١٥٩ . ٢١٨ . ٢٥٥ . ٢٥٦ . ٢٦٢ .	
١٠	طابه (طيبة)
٢٨٦ . ٢٨٢	الطور

صفحاته	اسم المكان
٢٧٢ ، ٢٧٠ ، ٢٦٦ ، ١٤٨ ، ١٣٢ ، ١٢	عدن
٣٢٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٢ ، ٢٨٨ ،	
٠٥١ ، ٤٨ ، ٣٣ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢	العراق
١٢٣ ، ٨٧ ، ٨٥ ، ٦٨ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٧	
٢٧٢ ، ٢٤٠ ، ٢٠٢ ، ١٧٩ ، ١٧٣ ،	
٣٠١ ، ٢٩٨	
١٩٦ ، ١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٠١ ، ٦٦ ، ٦٣	عرفات (عرفة)
٢٤٠	
٣ ، ٢	العروض
١٢٦	عسفان
٢٧٦	العقبة
٥٤	العقيق
١٢١	عكا
٦	العلا
١٥٣	العلقمية
٤	العونيد
١٨١ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ٢٩ ، ١٣ ، ١٢	عذاب
٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٠ ، ١٨٨ ، ١٨٧	
٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥	
٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٠ ، ٢٧٣	
٢٩٥ ، ٢٩٢ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦	
٢٦٨	(ف) فارس

صفحاته	اسم المكان
٦٠ ، ٢٧	فخ
٢٨٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٤	الفرما
٢٨٨ ، ٢٨٧	
٢٨٦	فرنسا
٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٠ ، ٢٥٠ ، ٢٢٨ ، ٢٩	الفسطاط
٢٨٨ ، ٢٨٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧١ ، ٢٦٩ ،	
٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣١٩	
٩٤ ، ٩٢	فلسطين
٣٢٢	الفيوم
	(ق)
٢١٥ ، ٢١٠ ، ٢٠٠ ، ١٩٨ ، ٩٦ ، ٧٩	القاهرة
٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٥٩ ، ٢٥٠ ، ٢٢٨	
٣٢١ ، ٣١٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٣ ، ٢٦٨	
٣٣٠ ، ٣٢٢	
٣٢٩ ، ٣١١ ، ٢٩٣	قباله
١٨٦	القدس
٤	قرح
٤	القشيرة
٢٨٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧١	القصور
٣٠٠	قلقشدة
٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ٢٧١ ، ٢٣ ، ١٢	القلزم
٢٨٩	
٣٣١	قنا
٢٦	قناة القلزم

صفحاته	اسم المكان
١٣٢ ، ١٨٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٠ ، ٢٩٣ ، ٣٠٠ ، ٣١١ ، ٣١٣	قوص قليوب القليوبية القيروان
(ك)	
٤٨ ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٩ ، ١٦ ، ٢٦ ، ٥٢ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٦ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩	كربلاء الكرك (حصن) الكعبة
(م)	
٢٧٢ ٣٢٤ ٣٢٤	الكنائس الكوفة مأرب مدرسة أبين الحداد المهدوى مدرسة ابن النهاوندى

صفحاته	اسم المكان
٣٢٣	مدرسة أبى على بن أبى ذكرى
٣٢٤	مدرسة الأدارسة
٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥	مدرسة الأرسوفى
٣٢٤	مدرسة دار العجلة
٣٢٢	مدرسة الزنجبيلى
٣٢٠	المدرسة السيفية
٣٠٤	المدرسة السيوفيه
٣٢٣	المدرسة الشهابية
٣٢٣	مدرسة طاب الزمان الحبشية
٣٢٤	مدرسة غياث الدين
٣٢١	المدرسة القمحية
٣١٩	مدرسة المالكية
٣٢٤	مدرسة الملك المجاهد
٣٢٤	مدرسة الملك المنصور
٣٢١	المدرسة الناصرية
١٢٦	المدرسة النظامية
٥	مدين
١٧ ، ١٦ ، ١٤ ، ١٣ ، ١١ ، ١٠ ، ٧ ، ٦	المدينة المنورة
٤٣ ، ٣٧ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢١ ،	
٥٣ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٥ ،	
٦٤ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٧ ، ٥٤	
٧٧ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧١ ، ٦٩ ، ٦٥	
١٠٣ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٣ ، ٧٩	
١١٨ ، ١١٣ ، ١٠٧ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ،	

صفحاته	اسم المكان
<p>٧. ٧٢. ٧٣. ٧٥. ٧٩. ٨١. ٨٥.</p> <p>٨٦. ٨٧. ٨٨. ٨٩. ٩٠. ٩١. ٩٣.</p> <p>٩٥. ٩٦. ٩٧. ١٠١. ١٠٢. ١٠٣.</p> <p>١٠٥. ١٠٦. ١٠٧. ١١٣. ١١٥.</p> <p>١١٧. ١٢١. ١٢٣. ١٢٤. ١٢٧.</p> <p>١٢٩. ١٣٠. ١٣١. ١٣٢. ١٣٦.</p> <p>١٤١. ١٤٥. ١٦٥. ١٦٦. ١٧٠.</p> <p>١٧٣. ١٧٧. ١٧٩. ١٨١. ١٨٢.</p> <p>١٨٩. ١٩٣. ١٩٥. ١٩٦. ١٩٧.</p> <p>١٩٨. ١٩٩. ٢٠٤. ٢١٠. ٢١١.</p> <p>٢١٤. ٢١٥. ٢١٨. ٢١٩. ٢٢٠.</p> <p>٢٢٢. ٢٢٦. ٢٢٨. ٢٣٠. ٢٣١.</p> <p>٢٣٢. ٢٣٣. ٢٣٤. ٢٣٥. ٢٣٦.</p> <p>٢٣٩. ٢٤٠. ٢٤٢. ٢٤٣. ٢٤٥.</p> <p>٢٤٧. ٢٥٠. ٢٥٢. ٢٥٣. ٢٥٤.</p> <p>٢٥٧. ٢٥٨. ٢٥٩. ٢٦٠. ٢٦١.</p> <p>٢٦٢. ٢٦٣. ٢٦٤. ٢٦٥. ٢٦٦.</p> <p>٢٦٩. ٢٧٠. ٢٧١. ٢٧٢. ٢٧٣.</p> <p>٢٧٤. ٢٧٥. ٢٧٦. ٢٧٧. ٢٧٨.</p> <p>٢٧٩. ٢٨٠. ٢٨١. ٢٨٢. ٢٨٣.</p> <p>٢٨٤. ٢٨٥. ٢٨٦. ٢٨٧. ٢٨٩.</p> <p>٢٩٠. ٢٩٣. ٢٩٤. ٢٩٥. ٢٩٦.</p> <p>٢٩٧. ٢٩٨. ٢٩٩. ٣٠٠. ٣٠١.</p> <p>٣٠٢. ٣٠٤. ٣٠٧. ٣٠٨. ٣٠٩.</p>	مصر

صفحاته	اسم المكان
<p>٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ٣٣١ ٢٢٩ ١٨٣ ٢١٥ ، ١٠٤ ، ٧٩ ، ٦٧ ، ٢٨ ، ١٣ ٢٧٨ ، ٢٧٤ ، ٢٦٩ ، ٢٦٧ ، ٢٥٠ ٣١٣ ، ٢٧٩ ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ٩ ، ٨ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٤ ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٩ ، ٢٥ ، ١٦ ، ٥٠ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٣ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٧ ، ٥٥ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٦٩ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٥ ، ٧٣ ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٠ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥ ١٠٣ ، ١٠١ ، ١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٦ ١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ١١٣ ، ١١٢ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٩ ١٢٢ ، ١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٨ ، ١١٥ ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٣ ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٩ ، ١٢٨ ١٤٠ ، ١٣٨ ، ١٣٦ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ١٤٥ ، ١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٤١</p>	<p>مصر</p> <p>المطرية</p> <p>المعلاة</p> <p>المغرب</p> <p>مكة</p>

صفحاته	اسم المكان
١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٩ ، ١٤٧	مكة
١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٤ ، ١٥٣	
١٦٣ ، ١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٨	
١٦٨ ، ١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٤	
١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٩	
١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٧٤	
١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٩	
١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٩٠ ، ١٨٧ ، ١٨٦	
١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٤	
٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٠ ، ١٩٩	
٢١٢ ، ٢١١ ، ٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٧	
٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢١٣	
٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٨	
٢٣١ ، ٢٣٠ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥	
٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٢	
٢٥٢ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧	
٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٣	
٢٦٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦١	
٢٧٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٦٩	
٢٨٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٧٩	
٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٠	
٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٢٩٦	
٣١٥ ، ٣١٤ ، ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨	
٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٦	

صفحاته	اسم المكان
٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢١ ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧	مكة
٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢٠٢ ، ١٨٩ ، ١٦١ ٢٤٣ ، ٢٢٩	منى
٣٢٠ ، ١٨٨ ، ١٤١ ، ١٣٤ ، ١٣٢ ، ٩٩ ٦	الموصل المويلح
٣١١ ، ٢٩٣	(ن) نقادة
٢٦٥ ، ١٣٦	التوبة
٢٧٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٠ ، ٢٦٥ ، ٢٥٢ ٣٢٤ ، ٢٨٨	(هـ) الهند
٦	(و) وادي إضم
١٥٥	وادي التنعيم
٦	وادي الجزل
٦	وادي الحمض
٦	وادي دما
٦	وادي السر
٢٥٥ ، ١٦٩ ، ١٥٣	وادي الصفراء
١٨٧	وادي عربة
٢٥٩ ، ٢٥٧ ، ٦	وادي العقيق
١٧٠	وادي الفرع
١٦٩ ، ٥٥ ، ٦	وادي القرى

صفحاته	اسم المكان
١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦٩ ، ١٩٤	وادي نخلة
٥٨	واسط
٦	الوجه
	(ي)
١٠٠ ، ٤	يثرب
٢٧٦	يلملم
٢١٨	اليمامة
١١٠ ، ١٠٩ ، ٥٥ ، ١٢ ، ٩ ، ٤ ، ٣ ، ٢	اليمن
١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ،	
١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،	
١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ،	
١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،	
١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،	
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،	
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،	
٢٣٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،	
٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ،	
٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٣٠٩ ، ٣٢٤	
٤ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،	ينبع
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،	
١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،	
٢٠١ ، ٢٦٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦	

فهرس الآيات القرآنية

الاية	السورة	رقم الآية	الصفحة
(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا)	البقرة	١٢٥	٢١٦
(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا)	آل عمران	٩٦	٨
(وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ)	التوبة	١٠١	١١
(وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا)	الأحزاب	١٣	١٠
(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)	الزخرف	٣١	١٢

فهرس القوافي

قافية الألف

ص ١٦٣

بنى عمنا من آل موسى وجعفر	وآل حسين كيف صبركم عنا
بنى عمنا إنا كأفتان دوحة	فلا تتركونا يتخذنا الفنا فنا
إذا ما أخ خلى أخاه لأكل	بدأ بأخيه الأكل ثم بدا ثنى

قافية الراء

ص ١١٤ ، ١٣١

ما لمن فارق الأحسبة عذر	إن نهى دمة عن الفيض صبر
إن سيف الإمام كالبحر ذي الموج	لله في البلاد مد وجذر
ولئن ساءنا فراق على	فلنا في أبنة إذا ما يسر
ذاك بحر سقى به مكة	الله وهذا لوفد صنعاء بحر

من لي بأن ترد الحجاز وغيرها	أخبار طيب موارد ومصادري
زارت بي الآمال أكرم ساحة	فوق الثرى فغدوت أكرم زائر
ووفدت ألتمس الكرامة والغنى	فرجعت من كل بحظ وافر

قافية العين

ص ١٦٢

بلادي وإن هانت علي عزيزة	ولو أنني أعري بها وأجوع
ولي كف ضرغام أصول ببطشها	وأشري بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها	وفي بطنها للمجدبين ربيع
أجعلها تحت الثرى ثم أبتسفي	خلاصاً لها إنني إذا لرقسيع
وما أنا إلا المسك في كل بلدة	يضوع وأما عندكم فأضيع

قافية اللام

فإني أتيت ابن الكريم مفرج فأطلق من أسر الهموم عقالي

قافية الميم

الحمد للعيس بعد العزم والهمم	حمداً يقوم بما أولت من النعم
لا أجحد الحق ، عندي للركاب يد	تمنت اللجم فيها رؤية الخطم
قربن بعد فرار العزم من نظري	حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم	وفداً إلى كعبة المعروف والنعم
فهل دري البيت أني بعد فرقته	ما سرت من حرم إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها	بين النقيضين من عفو ومن نقم
ولإمامة أنوار مقدسة	تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم

قافية النون

لکم أينما كنتم مكان وإمكان	ومسلك له تعنوا الملوك وسلطان
ضربتكم من العز المنيع سرادقاً	وأنتم له بين السماكين سكان
قدمت قدوم الليث والليث باسل	وجئت مجئ الغيث والغيث هتان
وما برحت مصر إليك مشوقة	ومثلك من يشتاق لقياء بلدان
فحسبك قد وافاك يا مصر يوسف	وحسبك قد وافاك يا نيل طوفان

ملخص البحث

عنوان هذا البحث « مصر والحجاز - رباط وثيق وتاريخ عريق - أضواء جديدة على العلاقات بينهما زمن الفاطميين والأيوبيين »

وقد اخترت هذا الموضوع لأنه يتناول العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين الشيعة والأيوبيين السنيين باعتبار أن تلك العلاقة وحدة واحدة وإن تغيرت القوى السياسية في مصر ، كما أنه يلقي الضوء على ما كان لمصر من دور هام وكبير في التاريخ السياسي والتكوين البشري والاقتصادي والثقافي للحجاز .

وقد اقتضت الدراسة أن يتكون البحث من تمهيد وثلاثة أبواب تسبقها مقدمة وتليها خاتمة .

تناولت المقدمة أهمية الموضوع وسبب اختياره ، والمنهج الذي اتبع في دراسته وأهم المصادر التي أفادت منها الدراسة .

وقد تناول التمهيد العلاقات بين مصر والحجاز قبيل الفاطميين وعنى بإبراز أمرين :

الأول : البيئة الجغرافية للحجاز وأثر هذه البيئة على السكان ، وأهم المدن الحجازية التي كان لها ارتباط واضح بمصر في عهد الفاطميين والأيوبيين .

الثاني : العلاقات بين مصر والحجاز قبيل الفاطميين وخلصت الدراسة إلى أن الحجاز قد ارتبط بمصر منذ أقدم العصور نتيجة التقارب الجغرافي بينهما ، وأن العلاقات بين مصر والحجاز تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، كما أن الصلات بينهما بعد الفتح الإسلامي لم تنقطع أبداً حتى قيام الدولة الفاطمية .

أما الباب الأول : وعنوانه « الدعوة الفاطمية في الحجاز بين القوة والضعف » فيتضمن

ثلاثة فصول :

الفصل الأول وعنوانه «حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية» وينتزه بالأحداث المتلاحقة على الحجاز منذ قيام الدولة الأموية ثم العباسية والمحاولات المتكررة لخلفاء الدولتين في القضاء على معارضيتهم بالحجاز وخاصة العلويين وخلص إلى أن الحجاز قد ضعف في العصر العباسي الثاني نتيجة لضعف الدولة العباسية مما شجع القرامطة على غزو الحجاز دون أن تحرك الخلافة العباسية ساكناً وتبع ذلك قيام الأشرف العلويين في مكة والمدينة بخلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين.

الفصل الثاني ، وعنوانه «السيادة الفاطمية في الحجاز» ويعرض لمظاهر السيادة الفاطمية في الحجاز والتي تتمثل في خضوع الحجاز للنفوذ الفاطمي المباشر، ومحاولات بعض القوى الخارجية دفع الحجاز للتحرر من السيطرة الفاطمية، ثم الجهود الفاطمية لإخضاع الحجاز لنفوذهم، ونجاحهم في ذلك.

الفصل الثالث، وعنوانه «ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز» ويدرس هذا الفصل قيام دولة الهواشم بمكة، وعلاقات الهواشم بالفاطميين عقب الشدة العظمى التي تعرضت لها مصر وأثر هذه الشدة في ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز، وبالمقابل ازدياد النفوذ العباسي تدريجياً ثم التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية من أجل السيطرة على الحجاز .

الباب الثاني : وعنوانه «الحجاز والدولة الأيوبية» وينقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وعنوانه «الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين» ويعرض لسياسة صلاح الدين الأيوبي تجاه الحجاز الذي كان يحكمه آنذاك أسرة الهواشم من آل الحسن في مكة بالإضافة إلى بني مهنا من آل الحسين في المدينة المنورة، وأنه لم يسع لاسقاطهما لأنه كان يعمل من أجل توحيد القوى الإسلامية لاتشيتها .

الفصل الثاني، وعنوانه «مظاهر السيادة الأيوبية في الحجاز» ويعرض للأحداث التي أدت إلى سيطرة الأيوبيين على الحجاز وخاصة مكة مما جعلها تكاد تكون تابعة إدارياً لمصر، فقد كان ولايتها يعينون ويعزلون من قبل السلطان الأيوبي.

الفصل الثالث ، وعنوانه «القوى الخارجية المعادية للحجاز وموقف الأيوبيين منها» ويعرض هذا الفصل لدور الأيوبيين فى حماية الأراضى المقدسة من الصليبيين ثم مرحلة الصراع على فرض النفوذ بالحجاز بين الأيوبيين وبنى رسول.

الباب الثالث ، وعنوانه «المجتمع الحجازى فى عهدى الفاطميين والأيوبيين» وينقسم إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : وعنوانه «الناحية الاجتماعية» ويدرس العادات والتقاليد المتبادلة بين مصر والحجاز ويبرز التأثير والتأثر فى هذه العادات فى عهدى الفاطميين والأيوبيين.

الفصل الثانى : وعنوانه «الناحية الاقتصادية» وينوه هذا الفصل بما تمثله هذه الناحية من وضع مميز نظراً لما قام به حكام مصر فى عهدى الفاطميين والأيوبيين من رعاية مالية واقتصادية لسكان الحجاز وأشرافه .

الفصل الثالث : وعنوانه «الناحية الفكرية» ويعرض للمذاهب الفقهية فى كل من مصر والحجاز ومدى التشابه والاختلاف بينهما ثم يدرس العلماء وانتقالهم بين البلدين للحصول العلمى والتدريس ثم المدارس التى أنشأها الأيوبيون بالحجاز.

ثم كانت الخاتمة وفيها يسجل البحث أهم النتائج التى توصل إليها والقضايا التى اشتمل عليها .



The Summary of the thesis

The title of this thesis is "Egyptian Hijazian relations at Fatimids and Ayyubids epoches and their diplomatic and civilian effects".

I Chose this subject of studies to Show the relation between Egypt and El-Hijaz during times of Fatimids (Shiah) and Ayyubids (Sonna) as this relation is a unit in spite of change the diplomatic forces in Egypt.

This study inidicate also the great important role of Egypt on diphomatic history and human, economic and cultural formation of El-Hijaz.

Studies led to this thesis which consists of preface, introduction, three parts and conclusion.

The preface showed the importance of the subject, why it was shosen, followed program in this study and the most important references.

The introduction was approached to the relationship between Egypt and El-Hijaz preceeding Fatimids aimed to indicate two views :

First : The geographical environment of El-Hijaz and its effects on habitants and the most important Hijazian cities which

had been confirmed correlated with Egypt during Fatimids and Ayyubids time.

Second: Relations between Egypt and El-Hijaz preceding Fatimids. This study concluded that El-Hijaz was correlated to Egypt since earlier centuries for nearly geographical sites of them.

Egypt and El-Hijaz had historical correlated even after Islamic conquest until Fatimides.

The first part titled "Calling of Fatimids in El-Hijaz as its strength and feeble " consisted of three chapters.

The first chapter titled "El-Hijaz state before predomnant of Fatimids. reviewed the successive events wich happened in El-Hijaz since Umayyads fallowed by Abbassids and the successive attempts of their Caliphate to finished thier enemies specially Alids. It is concluded that El-Hijaz become weak as weakness of Abbassids in Second Abbassids epoch.

This promise Qarmatians to attack El-Hijaz without any defence of Abbassids Caliphate.

This led Ashraf Alids to calling to Fatimids in Mecca and Medina.

The second Chapter titled "Fatimids domenant in El-Hijaz" and reviewed the domenant properties of Fatimids in El-Hijaz which was presented submission of El-Hijaz under the direct Fa-

timids influence and the tries of some external forces to call El-Hijaz to freedom of Fatimids demonenant and the Fatimids activities to subntt El-Hijaz to their influence and how they succeeded.

The Third chapter titled "Feeble of Fatimids in El-Hijaz" which study the appearance of El-Hawashem government Mecca and their relation to Fatimids after the most strength wich affected Egypt and its effect on feebling Fatimids. On the hand increasing of Abbassids in fluence gradually and then the competition between Abbassids and Fattinids in domenance on El-Hijaz.

The second Part titled "El-Hijaz and Ayyobids nation" divided into three chapters:

The first chapter titled "Diplomatic state in El-Hijaz in Ayyobids epoch". reviewed the politics of Saladin in El-Hijaz which was ruled at that time by Hawashem family belonging to Al-Hassan in Mecca in addition to Bani Muhanna belonging to Al-Haussin in Medina he did not try to down with them but he was made for Islamic forces to be together not for to seperate it.

The second chapter titled "Symptoms of Ayyubids domnante in El-Hijaz" showed events wich led to domination of Ayyubids in El-Hijaz specially in Mecca and thus it was nearly Egyptian government, so sultans of Ayyubids were appointing and removing El-Wali.

The third chapter titled "External forces against El-Hijaz

and Ayyubids position" showed Ayyubids action to prevent crusaders from submitting the Holy lands and then the fight stage between Ayyubids and Bani-Rassol for dominance in El-Hijaz .

The third Part titled "Hijazian society in Fatimids and Ayyubids epoches". It consisted three chapters:

The first chapter titled "Social aspects" dealing of customs and imitations interchanged between Egypt and El-Hijaz and magnified effects and affects of these customs in Fatimids and Ayyubids periods.

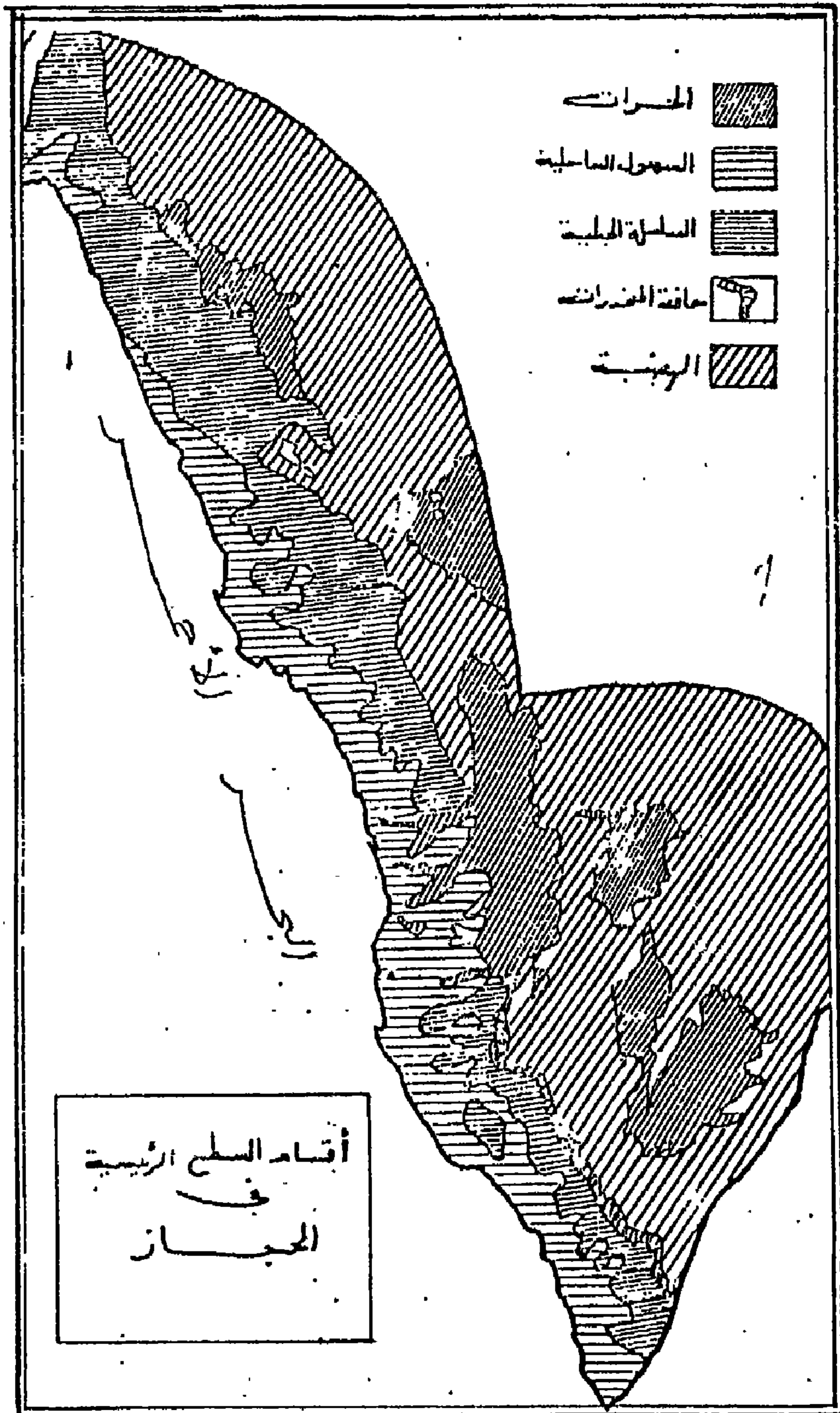
The second chapter titled "Economic aspects" deals with the important position of this aspect and how the rulers of Egypt in Fatimids and Ayyubids epoches patroned economically El-Hijaz population and Ashraf.

The Third chapter titled "Ideological aspects" showing the ideologies of Fecche in Egypt and El-Hijaz as similar and difference symptoms.

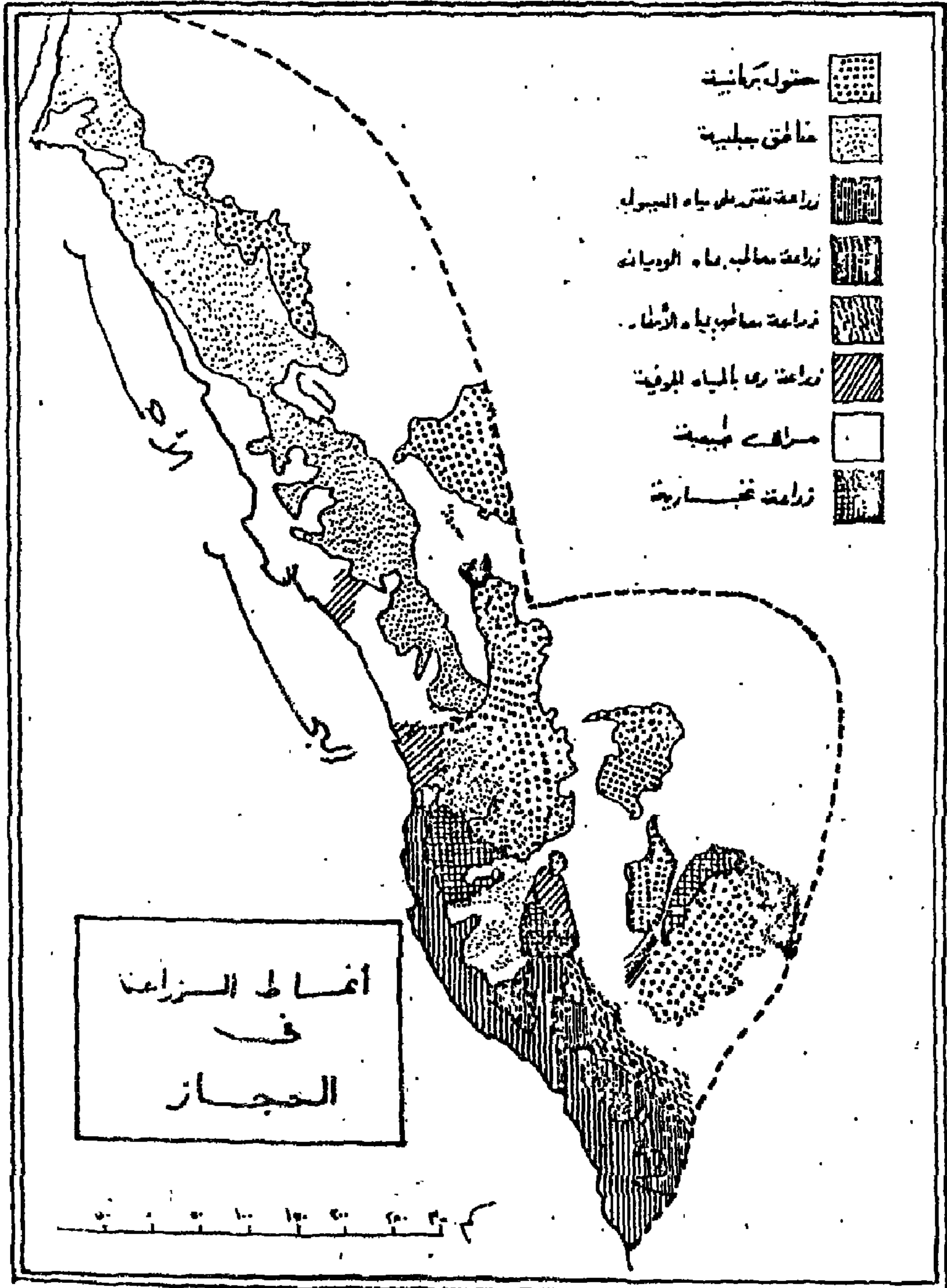
Then, it study scientists and their travels across the two countries for scientific knowledge and teaching and schools which had been built by Ayyubids in El-Hijaz.

Finally, this study reported the most important results which had concluded and the subjects including.

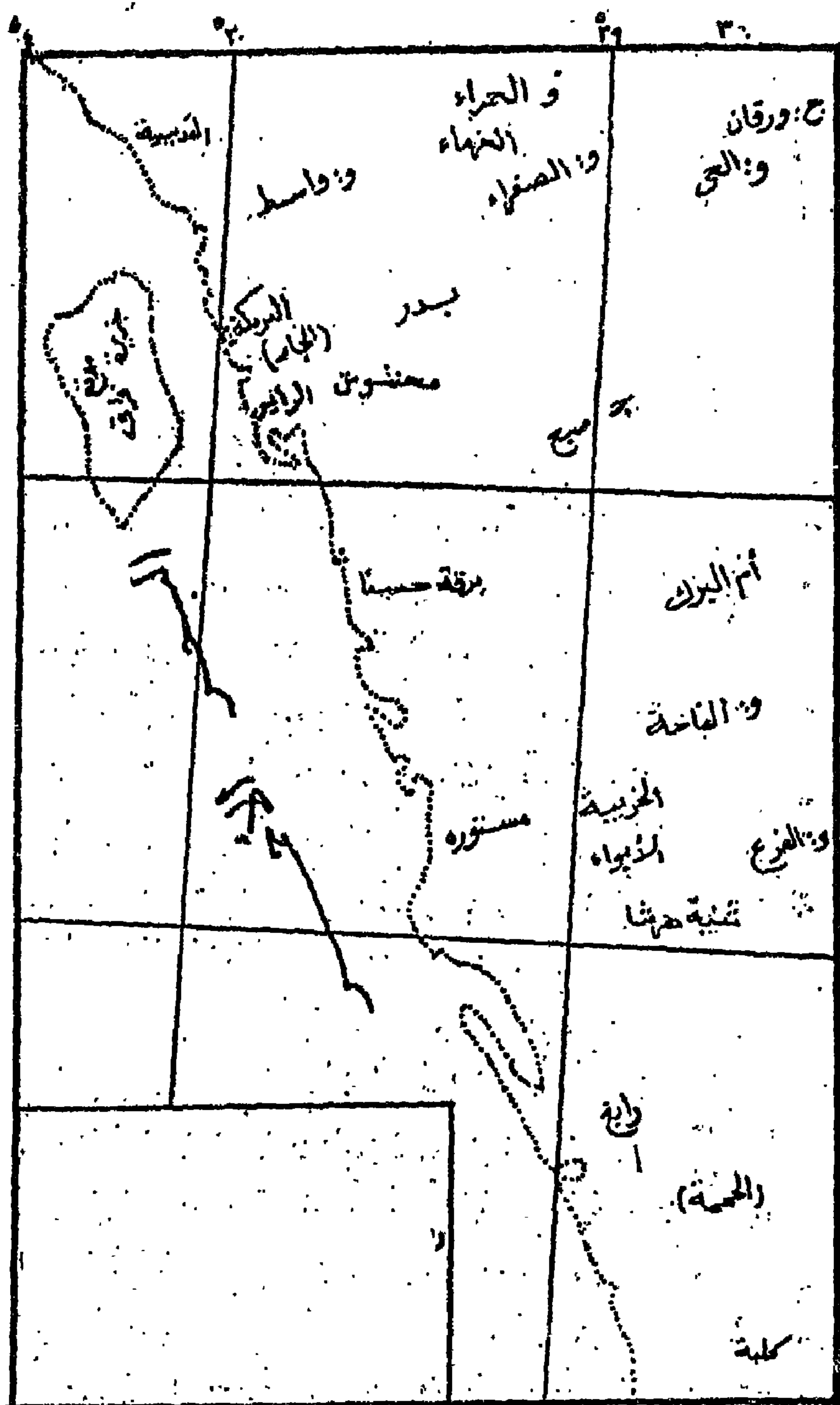
الخزائن



نقلت هذه الخريطة من كتاب الحجاز - أرضه وسكانه - للدكتور عمر الفاروق



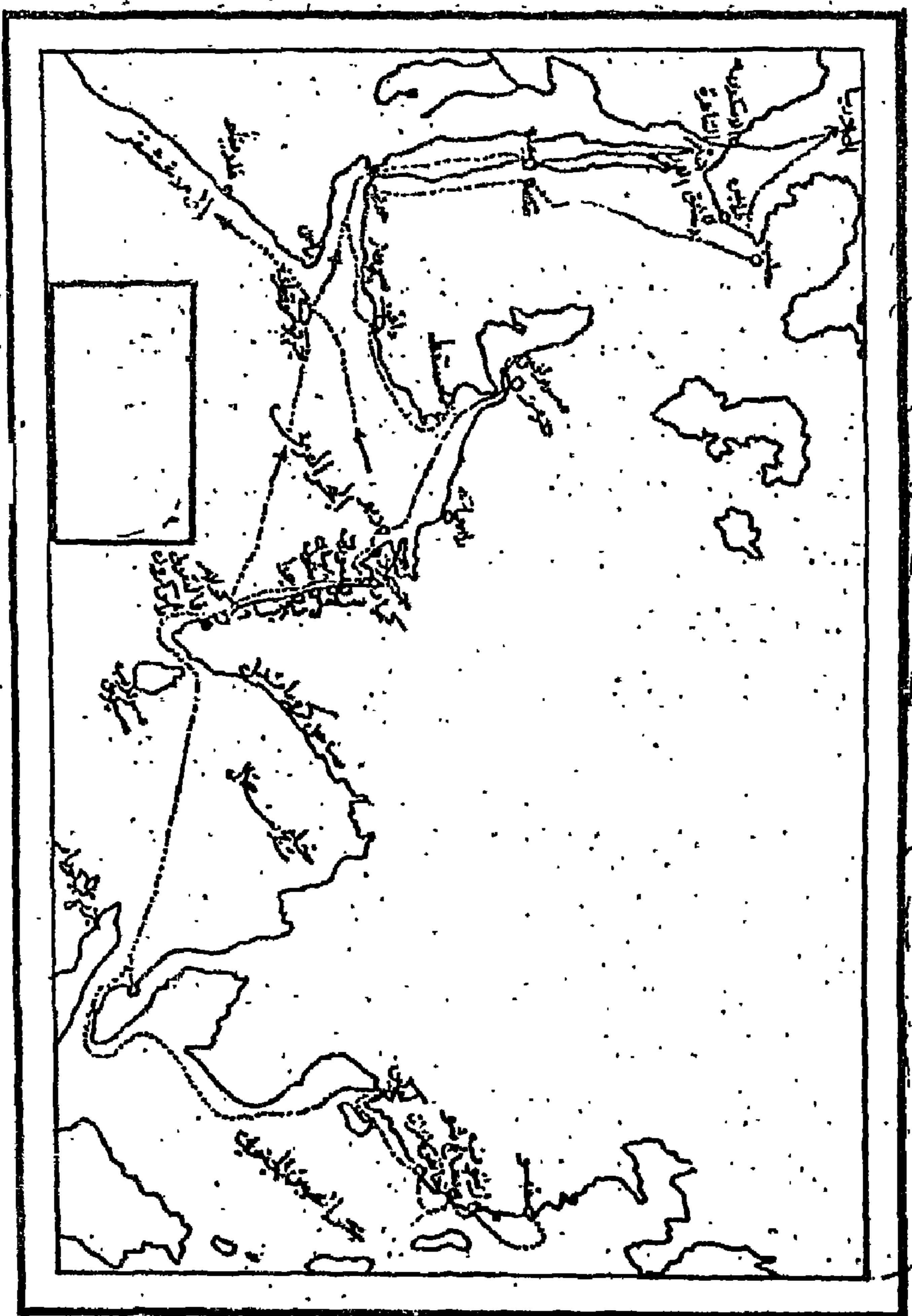
نقلت هذه الخريطة من كتاب «الحجاز - أرضه وسكانه» للدكتور عمر الفاروق



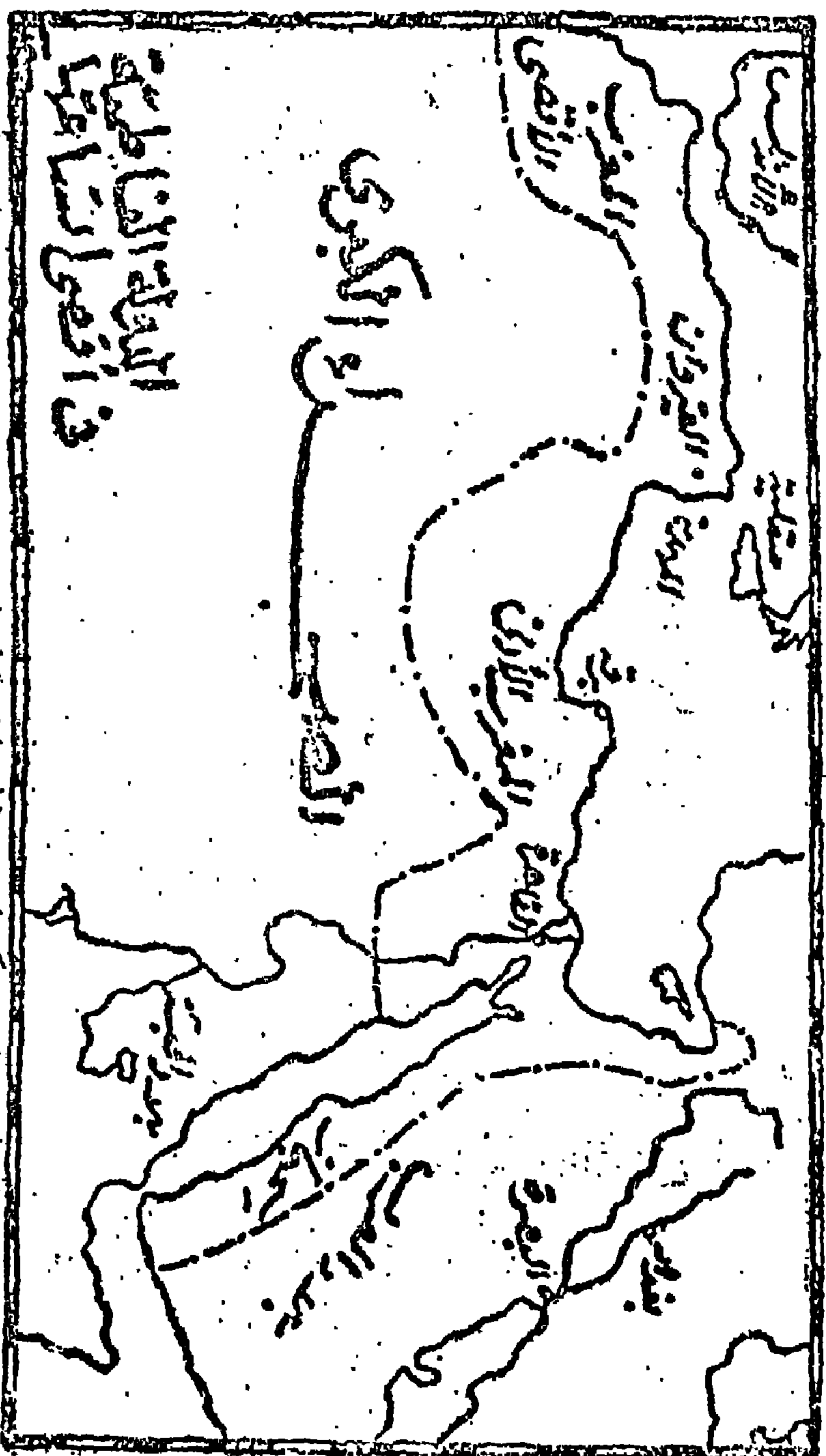
رسم تقريبي لموقع البجار (ميناء المدينة القديم)

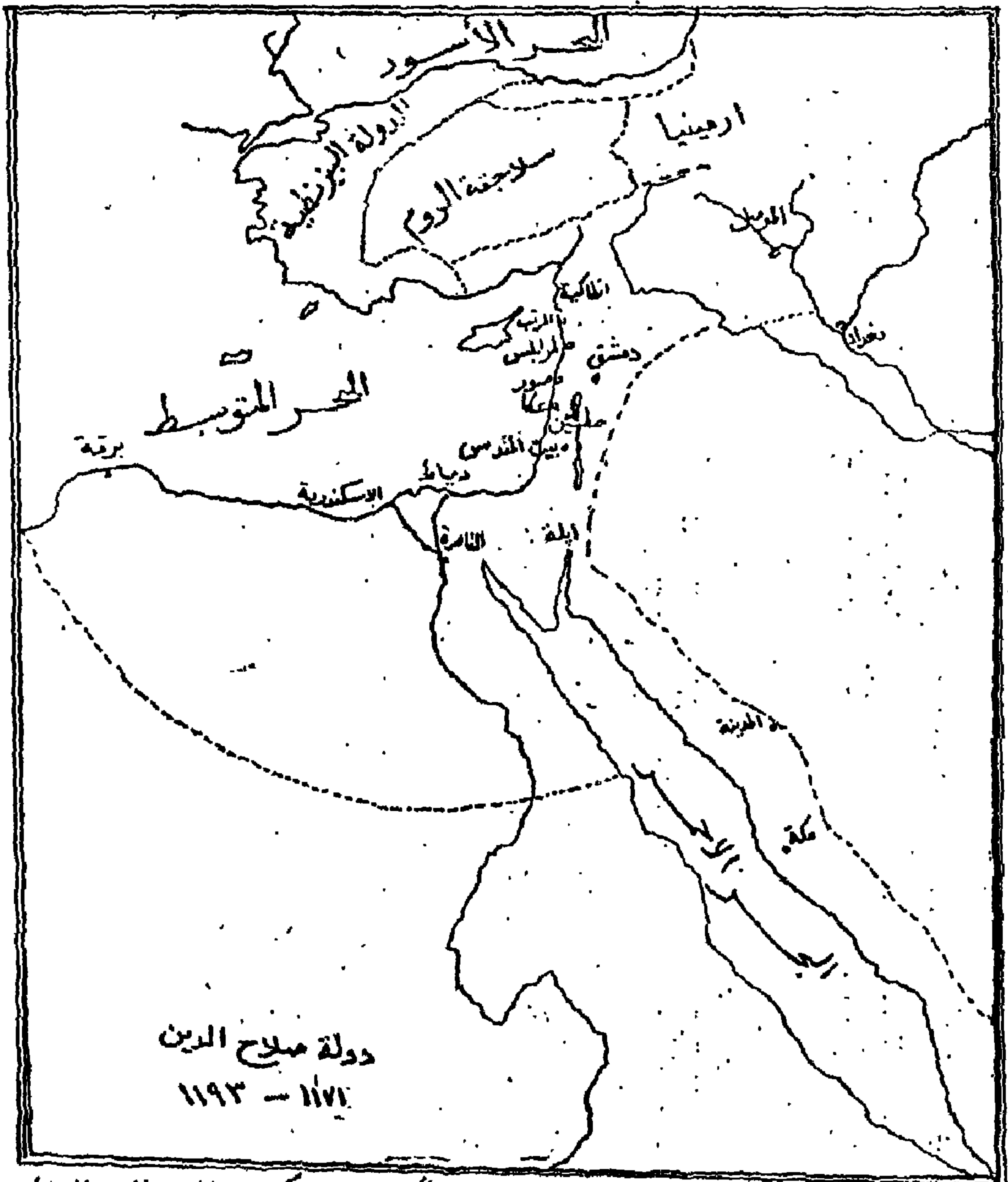
و = وادي - ج = جبل

نقلت هذه الخريطة من كتاب « المدن الحجازية » للدكتور عمر الفاروق.



العباز على طريق التجارة القديم
نقلت هذه الخريطة من كتاب «الملكوت / عمر الفاروق السيد رجب





نقلت هذه الخريطة من كتاب «عصر في عصر الأيوبيين» للدكتور السيد البار العربي

محتويات البحث

محتويات البحث

الصفحة	الموضوع
٣٨-١	تمهيد : علاقة مصر بالحجاز قبيل الفاطميين
٢	أولاً : البيئة الجغرافية للحجاز
٢	أ تعريف الحجاز وتحديدده
٤	ب - مظاهر السطح
٧	ج- المناخ
٧	د- أهم المدن الحجازية
١٦	ثانياً : علاقة مصر بالحجاز قبيل الفاطميين
١٩	- دور مصر فى أحداث الفتنة زمن عثمان بن عفان
٢٥	- موقف مصر من حركة عبد الله بن الزبير
٢٧	- موقف مصر من الصراع العلوى العباسى
٣١	- ابن طولون والحجاز
٣٤	- الاخشيدون والحجاز

الباب الأول

١٣٤ - ٤٠	الدعوة الفاطمية فى الحجاز بين القوة والضعف
٧٤ - ٤٢	الفصل الأول: حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية
٤٣	أولاً - جهود الأمويين لإخضاع الحجاز
٥٣	ثانياً - ضعف الحجاز وعجزه عن صد المغيرين
٥٦	ثالثاً - الحجاز فى ظل النفوذ العباسى
٦٥	رابعاً - غزو القرامطة للحجاز
٧٠	خامساً - استقلال الأشراف العلويين بمكة والمدينة
١٠٦ - ٧٥	الفصل الثانى : السيادة الفاطمية فى الحجاز
٧٧	- النفوذ الفاطمى المباشر فى الحجاز
٩٠	- قوى خارجية تدفع الحجاز للتحرر من السيطرة الفاطمية

- ٩٣ - خروج أبى الفتوح على الحاكم بأمر الله
- ٩٥ - الحاكم بأمر الله يتصدى للخارجين عليه
- ٩٨ - استسلام أبى الفتوح واعتذاره للحاكم
- ٩٩ - عودة الحجاز للسيادة الفاطمية
- ١٣٤ - ١٠٧ الفصل الثالث : ضعف النفوذ الفاطمى فى الحجاز
- ١٠٧ - مدخل
- ١٠٨ - قيام أسرة الهواشم بمكة
- ١١٠ - النفوذ اليمنى فى عهد أبى هاشم
- ١١٢ - الشدة العظمى فى مصر وأثرها على النفوذ الفاطمى بالحجاز
- ١١٧ - عودة النفوذ العباسى للحجاز
- ١٢١ - التنافس بين العباسيين والفاطميين للسيطرة على الحجاز
- ١٣٣ - نهاية النفوذ الفاطمى فى الحجاز

الباب الثانى

١٣٦ - ٢٠٢

الحجاز والدولة الأيوبية

- ١٣٦ - مدخل
- ١٣٨ - ١٦٤ الفصل الأول : الوضع السياسى بالحجاز فى ظل الأيوبيين
- ١٤٠ - مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين
- ١٤١ - النفوذ العباسى فى الحجاز
- ١٤١ أ - خلع الأمير داود بن عيسى الحسنى عن إمارة مكة
- ١٤٢ ب- تولية الأمير مكثر بن عيسى الحسنى الإمارة
- ١٤٣ ج- أمير الحاج العراقى يعزل الأمير مكثر عن الإمارة
- ١٤٤ د- أمير المدينة يتولى مقاليد الأمور بمكة
- ١٤٦ - النفوذ الأيوبي فى الحجاز
- ١٤٦ أ - إلغاء المكوس المفروضة على الحجاج
- ١٤٨ ب- حملة سيف الإسلام طفتكين بن أيوب وأثارها
- ١٥١ ج- أمير الحاج المصرى يعزل أمير مكة

- ١٥٢ سقوط أسرة الهواشم فى مكة
- ١٥٣ ثانياً : مرحلة إثبات الذات (زمن قتادة بن إدريس)
- ١٥٣ - قتادة بن إدريس الحسنى يخرج عن طاعة الهواشم الحسينيين ويستولى على ينبع
- ١٥٤ - استيلاء قتادة على مكة المكرمة
- ١٥٧ - الصراع بين قتادة وأشراف المدينة
- ١٥٨ - إستيلاء قتادة على الطائف
- ١٦٠ - العلاقات بين قتادة والعباسيين
- ١٦٤ - موقف الأيوبيين من قتادة
- ١٦٥ - ١٨٣ الفصل الثانى : مظاهر السيادة الأيوبية فى الحجاز
- ١٦٦ - النفوذ الأيوبي فى الحجاز أواخر عهد قتادة
- ١٦٨ - التدخل الأيوبي فى الصراع بين قتادة وأشراف المدينة
- ١٧١ - مقتل قتادة واستيلاء ابنه الحسن على الإمارة
- ١٧٢ - الصراع بين الحسن بن قتادة وأخيه راجع وأثره على النفوذ الأيوبي بالحجاز
- ١٧٥ - مكة والتبعية المطلقة للأيوبيين
- ١٧٥ - استيلاء الملك المسعود على مكة
- ١٧٨ - موقف الخليفة العباسى من أحداث مكة
- ١٧٨ - محاولة الحسن بن قتادة الحسنى استرداد مكة
- ١٧٩ - استيلاء الأيوبيين على قلعة ينبع
- ١٨٠ - أشراف المدينة المنورة يحاولون الاستيلاء على مكة
- ١٨٠ - استقرار الأمور فى مكة للملك المسعود
- ١٨٤ - ٢٠٢ الفصل الثالث : القوى الخارجية المعادية للحجاز وموقف الأيوبيين منها
- ١٨٥ - أولاً : المحاولات الصليبية لغزو المدينة المنورة
- ١٩٠ - ثانياً : الصراع بين الأيوبيين وبنى رسول لبسط النفوذ على مكة
- ١٩٠ - بنو رسول فى اليمن
- ١٩٢ - دوافع بنى رسول للسيطرة على مكة

- ١٩٣ - الحملة الأولى لبنى رسول على مكة
- ١٩٤ - الأيوبيون يستردون مكة من بنى رسول
- ١٩٦ - الحملة الثانية لبنى رسول على مكة
- ١٩٧ - الحملة الثالثة على مكة
- ١٩٨ - الحملة الرابعة بقيادة السلطان نور الدين والاستيلاء على مكة
- ١٩٩ - موقف الملك الصالح نجم الدين أيوب من بنى رسول
- ٢٠٠ - إستيلاء بنى رسول على مكة وانتهاء النفوذ الأيوبي بها
- الباب الثالث

٢٠٤ - ٣٣٦

المجتمع الحجازي في عهد الفاطميين والأيوبيين

٢٠٤

- مدخل

٢٠٦ - ٢٥٣

الفصل الأول: الناحية الاجتماعية

٢٠٧

- طبقات المجتمع الحجازي

٢٠٧

- طبقة الأشراف

٢٠٧

- الأشراف الأقارب

٢٠٧

- الأشراف الطالبين

٢٠٩

- أرباب الوظائف الدينية

٢١٥

- المجاورون

٢١٧

- طبقة العبيد

٢١٩

- طبقة العامة

٢٢٢

- العادات والتقاليد

٢٢٢

- الأعياد والمواسم الدينية والاحتفالات

٢٣١

- الملابس والأطعمة والأشربة

٢٣٦

- كسوة الكعبة

٢٣٧

- كسوة الكعبة في صدر الإسلام

٢٣٨

- كسوة الكعبة في العصر الأموي

٢٣٨

- كسوة الكعبة في العصر العباسي

٢٣٩	- كسوة الكعبة فى عهد الفاطميين
٢٤٢	- كسوة الكعبة فى عهد الأيوبيين
٢٤٣	- كسوة الحجرة النبوية الشريفة
٢٤٣	- كسوة الكعبة والمحمل المصرى
٢٤٥	- أمير ركب المحمل (أمير الحاج)
٢٥٠	- طريق الحاج من مصر إلى الحجاز فى عهدى الفاطميين والأيوبيين
٢٥٣	- تأصيل لقب خادم الحرمين الشريفين
٢٥٤ - ٢٩٦	الفصل الثانى : الناحية الاقتصادية
٢٥٥	أولاً : الزراعة
٢٦٢	ثانياً : الصناعة
٢٦٥	ثالثاً : التجارة
٢٦٥	- الطرق بين مصر والحجاز
٢٦٦	- الموانئ والمحطات التجارية
٢٧٦	- نظم المعاملات التجارية
٢٨٥	- الصادرات والواردات
٢٩٠	- المعونات الاقتصادية المصرية للحجاز
٢٩٤	- الأزمات الاقتصادية فى مصر والحجاز وأثرها على العلاقات بين البلدين
٢٩٧ - ٣٣١	الفصل الثالث : الناحية الفكرية والثقافية
٢٩٨	- المذاهب الفقهية فى مصر والحجاز
٣١٢	- العلماء بين مصر والحجاز - تأثير وتأثر
٣١٤	- التأثير الثقافى لمصر فى الحجاز
٣٢٠	- دور العلم التى أنشأها المصريون بالحجاز
٣٢٧	- التأثير الثقافى للحجاز فى مصر
٣٣٣	خاتمة البحث
٣٤٢	ملحق رقم (١)
٣٤٣	ملحق رقم (٢)

٣٤٤	ملحق رقم (٣)
٣٤٥	ملحق رقم (٤)
٣٤٦	ملحق رقم (٥)
٣٤٧	ملحق رقم (٦)
٣٤٩	ملحق رقم (٧)
٣٥٠	ملحق رقم (٨)
	المصادر والمراجع
	الفهارس الفنية
	الملخص باللغتين العربية والانجليزية
	الخرائط
	محتويات البحث

رقم الايداع ٤٨٧٤ / ٩٣

I.S.B.N. 977-5040-15-9

Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA



0298442



٦٠ شارع القصر العيني أمام روزاليوسف
(١١٤٥١) القاهرة

ت : ٣٥٥٤٥٢٩ فاكس : ٣٥٤٧٥٦٦